دراسة تاريخية
فى الدفاع عن ديار الإسلام

المسلمون والعدوان الصليبى

(على ديارهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين)

تأليف
الدكتور/ عطية القوصى
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

القاهرة
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿.. فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ صدق الله العظيم
سورة البقرة الآية (١٩٤)

فهرست موضوعات الكتاب

الموضــوعات	الصفحة

الموضوعات | الصفحة

الباب الخامس
دفع المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس العدوان عن ديارهم
فى القرنين الخامس والسادس الهجريين
(الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين)

تقــديم

«ما أشبه الليلة بالبارحة» .. فمنذ أكثر من عشرة قرون تعرض الإسلام والعالم الإسلامى فى العصور التى عرفها التاريخ باسم «العصور الوسطى» ، لعدوان الغرب الأوربى المسيحى ، لأول هجمة استعمارية تعصبية ، عُرفت باسم «الحروب الصليبية» .

وقد انتهز المستعمرون الأوربيون ، وقتها ، ضعف العالم الإسلامى ، وتفرق كلمة حكامه ، وقيام النزاع بين أطرافه ، وتدهور أحوال أكبر دولتين إسلاميتين آنذاك ، وهما: الدولة العباسية ، وعاصمتها بغداد ، والدولة الفاطمية ، وعاصمتها القاهرة ، ونجح هؤلاء المعتدون ، الذين أخفوا وجوههم الكئيبة تحت قناع الصليب ، واتخذوه شعاراً لهم ليوهموا البسطاء السذج من شعوبهم بقداسة عدوانهم ، نجحوا فى احتلال جزء عزيز من أرض الإسلام فى بلاد الشام وإقامة أربع إمارات صليبية لهم هناك ، هى : أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس . ولم يكتف قادة الحملة الأولى من هذه الحروب ، بتخليصهم بيت المقدس من يد المسلمين ، كما زعموا أنه هدف حربهم ، بل عملوا على ترسيخ مستوطناتهم وتثبيت أقدامهم ببلاد الشام والتوسع فى

إجتياحهم لبقية بلاد المسلمين وتخريب ديارهم وتقتيل شعوبهم وتشريدهم والإعتداء على حرماتهم ومقدساتهم .

وقد نجح هؤلاء المعتدون ، لبعض الوقت ، فى تحقيق أحلامهم وبلوغهم أطماعهم ، إلا أنَّ الله تعالى خيَّب ظنهم وأبطل جمعهم ، ورد كيدهم فى نحرهم ، عندما اطمأنوا لما قاموا به ، بعث الله إليهم من أبطال الإسلام وصناديد المسلمين ، مَنْ تصدى لعدوانهم ومن قام يدافع عن ديار الإسلام ويدحر عنها العدوان ؛ من بعد أن أفاق المسلمون من غفوتهم ، وتناسوا خلافاتهم ، وهبوا كالأسود يدافعون عن عرينهم ويستخلصون أرضهم من يد عدوهم شبراً بعد شبر .

وقد بدأت حركة الاسترداد الإسلامية على يد السلاجقة الأتراك ، وأتابكتهم ، وسلاطين الأيوبيين ، وأتراك المماليك ، واستطاع هؤلاء الأبطال المغاوير ، خلال قرنين من الزمان ، اقتلاع الوجود الصليبى من بلاد الشام ، وإلقاء من كان بها من الصليبيين فى البحر ، وتطهير البلاد من دنس احتلالهم، وعادت راية الإسلام ترفرف خفاقة على بلاد الشام بعد أن أزيلت الإمارات الصليبية من على أرضها وصارت فى خبر كان .

وكما نجح أبطال المسلمين فى دحر العدوان الصليبى على بلاد المشرق الإسلامى ، نجح أبطال المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس ، فى توحيد صفوفهم واجتماع كلمتهم على مواجهة الصليبيين فى الشمال الأسبانى ، بعد أن انتظمت هذه البلاد فى حكم دولة واحدة قوية ، هى أولاً دولة المرابطين ، ثم دولة الموحدين . واستطاع المرابطون ، ثم الموحدون ، من التصدى للعدوان الصليبى المسيحى الذى قامت به مملكة «قشتالة» المسيحية ، وتوجيه ضربات موجعة لها ، وتحجيم وضعها بشمال البلاد ، بعدما تلقت من هزائم فادحة من مسلمى المغرب والأندلس ، وصارت الغلبة هناك لكلمة الإسلام.

وبالأمس ، عاودت دول الغرب المسيحى الكرة مع العالم الإسلامى ، وقد جاءت بجيوشها ، مع مطلع القرن التاسع عشر ، لتثأر لهزيمتها على يد المسلمين فى العصور الوسطى ، ولتحتل بلدانه ، وتحقق ما لم تستطع تحقيقه آنذاك ، وتنجح هذه الدول فى سعيها الجديد وتقتسم بلاد الإسلام فيما بينها وتستذل شعوبها وتنتهب خيراتها ، وتتقوى جيوشها وأساطيلها على حسابها وعلى حساب عرق ودماء أبنائها .

ولقد نجحت هذه البلاد فى مطلع القرن العشرين ، فى الحصول على استقلالها ، واستعادة حريتها وكرامتها . وقد حصلت على هذا الاستقلال بفضل نضال وكفاح شعوبها وإيمانها بحقها فى الحياة ، الذى كتبه الله لها ، وخرجت من تحت وطأة ذلك الاستعمار الأوربى مهيضة الجناح ، كثيرة الجراح، وكان عليها أن تتحامل للوقوف على قدميها واسترداد عافيتها ودعم استقلالها وإصلاح اقتصادها ومواكبتها لركب العلم والأخذ بكل ما هو فيه من تطور وجديد.

واليوم تتجدد الهجمة الصليبية على الإسلام والمسلمين ، بعد أن تحالف الغرب المسيحى مع الصهيونية العالمية فى محاولة ضرب الإسلام فى مقتل ، واعتباره العدو الأول للبشرية والإنسانية بعد وصمه «بالإرهاب» ، ووصم المسلمين «بالإرهابيين» . ووقع العدوان الصليبى على المسلمين فى الشيشان وأفغانستان ، واستهدف أندونيسيا وباكستان وفلسطين والسودان ، وكل مكان يُسمع فيه نداء «لا إله إلا الله محمد رسول الله» . وصار الإسلام فى نظر أولئك الصليبيين الجدد هو الخطر الوحيد الذى يعترض سبيل الحضارة الغربية والتقدم الإنسانى ، والعدو الأول للغرب (المتمدين) بعد أن انهارت قلعة الشيوعية وسقط صرح «الاتحاد السوفيتى» من خريطة العالم إلى الأبد .

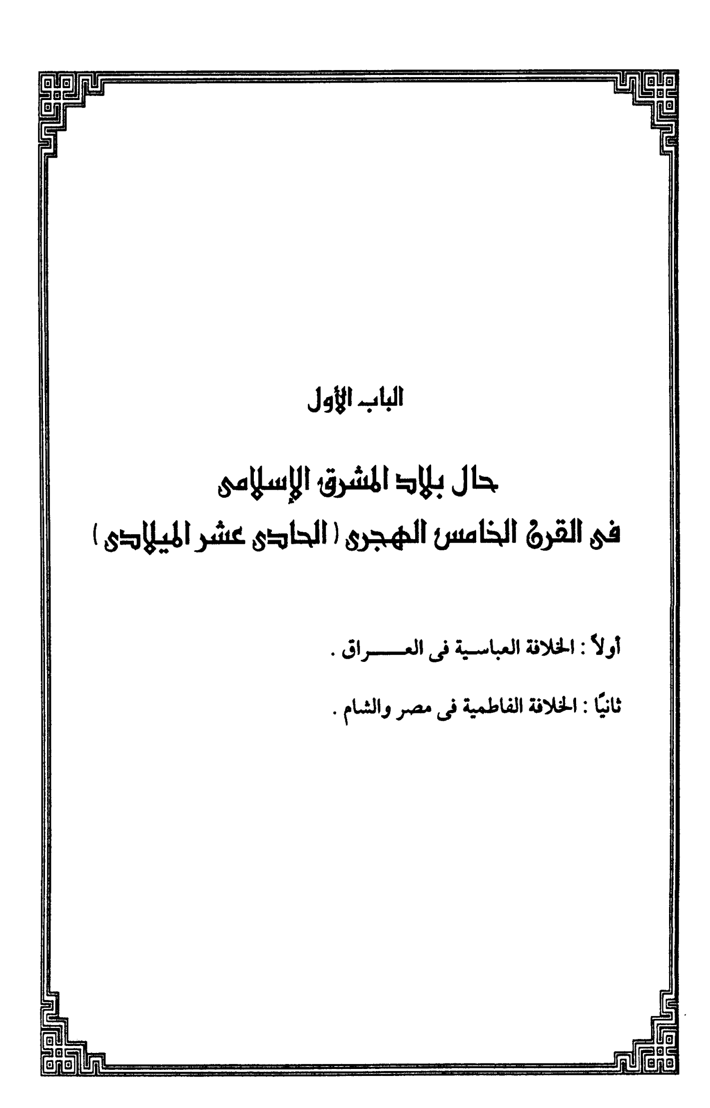
ولقد تحالفت شياطين الإنس مع شياطين الجن فى القضاء على الإسلام

أينما كان ، «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين» . والله حافظ لدينه ، وكلمته ، سبحانه وتعالى ، هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وسينصر الله دينه ومن تبعه ، ما دام هنالك رجال وقواد مخلصون فى عالم الإسلام ، أمثال أولئك أبطال الأمس ، وما دامت روح النضال والرغبة فى الاستشهاد مشتعلة جذوتها فى صدور المسلمين ، ولن يضيِّع الله دينه ، وسيجزى الكافرين . وإنَّ نداء «الله أكبر» سوف يظل مدويًا فى الآفاق تتردد أصداؤه فى وقت كل صلاة عبر أرجاء المعمورة إلى أن تقوم الساعة وإلى يوم الدين .

إنَّ الذى دفعنى إلى تسطير هذا الكتاب هو الغيرة على دينى الإسلام ، ومعاناة الألم مما يقع للمسلمين ، وخصوصًا على شعب فلسطين المسلم المجرد من السلاح ، إلا من سلاح الإيمان بالله والإيمان بحقه فى الحياة ، والإيمان بأنَّ لكل ليل لابد له من نهار . ومن يقرأ صفحات هذا الكتاب سيتأكد من نصر الله للمؤمنين ، مهما تأخر فجر إشراقه . ولقد اخترت القرنين الخامس والسادس الهجريين ، مدة زمنية له ، لأنَّ فى أولهما وقع العدوان الصليبى على الإسلام والمسلمين ، وفى ثانيهما كان الرد على العدوان وكان الدفاع عن ديار الإسلام ودحر ذلك العدوان وتحقيق النصر بإذن الله . وقد قصدت من كتابى هذا ، أيضًا ، التأكيد على أنَّ التاريخ يعيد نفسه ، وأنَّ لنا فى التاريخ عبرة ، وأنَّ النصر ، فى النهاية ، سيكون للمؤمنين من عند الله العزيز الحكيم، مهما طال الليل ، ومهما كان حجم الكارثة والمصيبة ، فإن جند الله هم الغالبون . وصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم .

المؤلف

أ.د. عطية القوصى



الباب الأول

حال بلاد المشرق الإسلامى
فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)

أولاً : الخلافة العباسية فى العـــــراق .

ثانيًا : الخلافة الفاطمية فى مصر والشام .

الباب الأول

حال بلاد المشرق الإسلامى
فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)

عاش مشرق العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، فى ظل حكم خلافتين إسلاميتين كبيرتين ، هما : الخلافة العباسية ، وحاضرتها بغداد ، والخلافة الفاطمية ، وحاضرتها القاهرة . وعايش ذلك العالم ، فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) قمة ازدهار الحضارة الإسلامية ؛ تلك الحضارة التى أشرقت بنورها على العالم كله وأضاءت جنباته ، فى الوقت الذى كان يعيش فيه الغرب الأوربى عصور الظلام والجهالة والتخلف .

ولقد جاء ذلك الازدهار الحضارى للعالم الإسلامى نتيجةً للاستقرار السياسى الذى ساد ذلك العالم آنذاك ، برغم الخلاف المذهبى الذى كان قائمًا بين قوتيه الكبيرتين : العباسية والفاطمية ، وبرغم قيام بعض الدويلات المستقلة فى بعض الأنحاء . وفى الوقت الذى كان فيه خلفاء الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين يعملون على استقرار الأمور فى دولتيهما وإصلاح اقتصادهما ، والعمل على استمرار مسيرة الحضارة والتقدم فى بلادهما ؛ داهمهما خطر

العدوان الصليبى من قبل الغرب الأوربى المسيحى ثم تلاه العدوان المغولى من قبل الشرق الآسيوى الوثنى . الأمر الذى أوقف عجلة الإصلاح وعطل مسيرة التقدم ، وألزم حكام تلك البلاد ضرورة رفع السلاح وإعمال الكفاح للتصدى لذلك العدوان والدفاع عن ديار الإسلام .

وحتى نتعرف على طبيعة ذلك الصدام الذى وقع بين العالم الإسلامى والعالم الغربى المسيحى فى القرن الخامس الهجرى ، علينا أن نعرض لأحوال الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين العباسية والفاطمية آنذاك ، ومعرفة حال كل منهما وقت تلقى الضربة الاستعمارية الغادرة والهجمة الصليبية الغاشمة ، وكيف كان استيعابهما لها ، وكيف كان رد الفعل عند أبنائهما وقادتهما لدفع ودحر ذلك العدوان دفاعًا عن ديار الإسلام وحمايةً لدين الواحد القهار .

أولاً : الخلافة العباسية فى العراق :

حكمت الدولة العباسية ، العالم الإسلامى ٥٢٤ عامًا ، من سنة ١٣٢ هـ حتى سنة ٦٥٦ هـ. وقد قسَّم المؤرخون تاريخ حكم هذه الدولة إلى عصرين مختلفين ، العصر العباسى الأول ، ويبدأ من سنة ١٣٢ هـ، وهى السنة التى انتهى فيها حكم دولة الأمويين بالمشرق ، حتى سنة ٢٣٢ هـ ، وهى السنة التى انتهى فيها حكم الخليفة الواثق بالله . والعصر العباسى الثانى ، وهو العصر الذى سيطر فيه القواد الأتراك والفرس على الدولة ، وعُرف بعصر نفوذ القواد، وهو يبدأ بسنة ٢٣٢ هـ وينتهى بسنة ٦٥٦ هـ ، وهى السنة التى أسقط فيها المغول الخلافة العباسية بعد استيلائهم على عاصمتها بغداد وقتل آخر خلفائها فى العراق ، وهو الخليفة المستعصم بالله .

ولقد شهد القرن الخامس الهجرى ، فى النصف الأول منه مع النصف

الأخير من القرن الرابع ، حكم البويهيين[1] الفرس لدولة الخلافة (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ/ ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وهم من الفرس الديالمة ، الذين نزحوا عن بلادهم ، بسبب فقرها واضطراب أحوالها وتناحر القبائل مع بعضها البعض هناك على لقمة العيش ، فهاجروا من بلادهم وتسربوا إلى بلاد العالم الإسلامى المجاورة لبلادهم ، والتى كانت تنعم بالرخاء ، عبر خطٍ ينزل من مدينة الرى فى الشمال نحو الجنوب إلى شرقى بلاد فارس ، فى منطقة الحدود بين دولة الخلافة العباسية والدولة «السامانية» المستقلة .

ولقد اعتنق الديالمة الإسلام ، على مذهب الشيعة الزيديين ، بسبب قيام الحركة الزيدية العلوية فى بلادهم وانتشار المذهب الزيدى بينهم ، وهو المذهب الشيعى المعتدل ، وأقرب المذاهب الشيعية إلى مذهب أهل السُّنة[2] .

وقد أدى تدفق الديالمة الشيعة على حدود الدولة العباسية إلى إنزعاج خلفاء هذه الدولة ، وحاولوا ، قدر إمكانهم ، وبالتعاون مع السامانيين ، وقف زحف الديالمة نحو أرض الخلافة دون جدوى . فإن جهود العباسيين والسامانيين لم تُفلح فى ذلك لأنَّ الموج كان أشد وأقوى من أن يُواجه . ونجح

---

(١) تقع بلاد الديلم فى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبى بحر قزوين ، وهى البلاد التى عرفها الجغرافيون المسلمون باسم بلاد الخزر . وقد جعلت وعورة التضاريس فى تلك المنطقة وارتفاع الجبال فيها من الديالمة مقاتلين أشداء ومحاربين أكفاء . لذلك استخدمهم أمراء النواحى فى جيوشهم ليستفيدوا من كفاءتهم ومهارتهم القتالية . وقد دفع فقر هذه البلاد إلى لفظ سكانها إلى المناطق الغنية المجاورة لها. كذلك عمل الكثيرون منهم كجند مرتزقة لمن يدفع لهم أجورهم . وقد كان البويهيون ، أو «بنويويه» من هؤلاء الديالمة الفرس ، الذين دفعتهم الحاجة إلى احتراف الجندية بعد أن عز عليهم إيجاد الأعمال المدنية المريحة . وقد رُوى عن «معز الدولة بن بويه» ، رئيس البيت البويهى أنه قال عن نفسه أنه كان يحتطب الحطب على رأسه لكسب قوته قبل أن يحترف العسكرية (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ ، جـ ١ ، ص ٥٦ ، ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، بيروت (د.ت) ، ص ٢٧٧) .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٢٤ .

هؤلاء الديلم فى إقامة دولة لهم فى منطقة طبرستان (جنوبى بحر قزوين) ، عُرفت بالدولة «الزيارية» ، نسبةً لمؤسسها : «مرداويج بن زيار الديلمى» ، والتى كانت البداية الحقيقية لقيام دولة البويهيين[1] .

وقد احترف بنوبويه ، شأنهم شأن بقية الديالمة ، الجندية ، وعملوا فى خدمة مرداويج الديلمى ، وأخذ نجمهم فى الظهور فى ظل دولته حين نجحوا فى الإستيلاء على مدن : همذان ، وأصفهان ، وضمهما للدولة الزيارية . ولكن سرعان ما تخوف الأمير الزيارى من قوة شخصية «على بن بويه» ، وتفوقه فى القتال وبروز شخصه وتزايد أتباعه ، الأمر الذى جعله يحاول الخلاص منه . ومن أجل ذلك افتعل الأمير الزيارى مع على عداوةً ، وأرسل قوةً من رجاله بقيادة أخيه «وشمكير بن زيار الديلمى» ، لإخراجه من مدينة أصفهان وإبعاده عنها وعن كل خراسان . ونجح وشمكير فيما أوكله أخوه إليه. فغادر على بن بويه وأعوانه ، على إثر ذلك ، إلى أرجان ، وتقدم بقواته بعد ذلك إلى شيراز سنة ٣٣٢ هـ ، واستولى عليها ، كما أرسل أخاه أحمد بن بويه إلى كرمان ونجح فى الاستيلاء عليها .

ولمَّا قُتل مرداويج الديلمى على أيدى غلمانه ، وجد البويهيون فرصتهم للتوسع ، على حساب الزياريين ، ووراثة مملكتهم . فتقدمت قوات البويهيين إلى أصفهان والرى واستولوا عليها ، وأسقطوا بذلك دولة الزياريين وحلت دولتهم مكانها . واستمر البويهيون ، بعد ذلك ، فى توسعهم ناحية الغرب ، فاستولوا على بلاد فارس وعلى الأهواز ، وصارت قواتهم تقف على أبواب العراق[2] .

وكتب على بن بويه إلى الخليفة العباسى «الراضى بالله» ، أبى العباس

(١) المقريزى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٧٩ .

أحمد بن المقتدر (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٠ م) يعرض عليه طاعته ؛ على أن يعترف له الخليفة بما صار تحت يده من بلاد . وبسبب ضعف الخليفة الذى لم يكن له آنذاك من السلطة غير الاسم ، وافق على ذلك وأجابه إلى طلبه[١] .

وكان نظام إمرة الأمراء[٢] فى بغداد قد ثبت فشله ولم يستطع حل مشاكل دولة الخلافة ، بل زاد من مشاكلها وأوقع البلاد فى الفوضى والاضطراب ؛ الأمر الذى دفع أهل بغداد إلى الاستنجاد بأحمد بن بويه ليقر الأمور فيها ؛ بعد الذى سمعوه عن حسن إدارته وقوة شخصيته وكفاءته كحاكم وقائد[٣] .

واستجاب أحمد بن بويه لطلب أهل بغداد ، وكانت هذه هى الفرصة التى طالما تمناها البويهيون للسيطرة على دولة الخلافة . فتقدم أحمد بن بويه نحو بغداد ودخلها سنة ٣٣٤ هـ، فلم يجد الخليفة العباسى الجديد «المستكفى بالله»، أبو القاسم عبد الله بن المتقى (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ/ ٩٤٤ - ٩٤٦ م) الذى بويع سنة ٣٣٣ هـ بالخلافة ، بعد خلع المتقى ، إلا أن يُرحب بالأمير أحمد بن بويه ويحتفى بمقدمه عند وصوله إلى بغداد[٤] . وما لبث الخليفة أن ولىَّ أحمد بن بويه إمرة الأمراء وأسبغ عليه لقب معز الدولة[٥] ، وعلى أخيه على بن بويه بلقب عماد الدولة ، وعلى أخيه الحسن بن بويه بلقب ركن الدولة ، وأمر أن تُضرب ألقابهم على دنانير الدولة ودراهمها . وهكذا دخلت الخلافة العباسية عصر سيطرة النفوذ البويهى على العراق .

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٦ .

(٢) كان الخليفة الراضى بالله أبو العباس (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) ، قد استحدث هذا النظام بدلاً من الوزارة حين استدعى ابن رائق ، الذى كان يتولى واسط والبصرة ، ليتولى إمرة الأمراء ومنحه لقب (امير الأمراء) سنة ٣٢٤ هـ (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٧ ، طبعة بيروت ١٩٩٥ ، ص ١٢٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٢٠٥ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٥٦ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ ٣ ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٤٣ .

هذا وقد استبد حكام البويهيين بالسلطة دون الخليفة العباسى ، بل أنهم سلكوا نفس سياسة قواد الأتراك فى التضييق على الخلفاء العباسيين والإساءة إليهم وسوء معاملتهم بعد الاستبداد بشئون الحكم ، وهم فى ذلك لم يُحدثوا أمرًا جديدًا بل ورثوا وضعًا كان قائمًا قبلهم . ويروى صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية[1] عن معاملة معز الدولة البويهى السيئة للخليفة المستكفى بالله بقوله : «أنَّ معز الدولة ركب يومًا إلى دار الخلافة وسلَّم على المستكفى وقبَّل الأرض بين يديه ، وأمر المستكفى فطُرح كرسى فجلس عليه معز الدولة، ثم تقدم إلى المستكفى رجلان من الديلم بمواطأة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه، فظن المستكفى أنهما يريدان تقبيل يده ، فمد يده ، فجذباه ونكساه من السرير ووضعا عمامته فى عنقه وسحباه . ونهض معز الدولة وضُربت البوقات والطبول واختلط الناس ودخل الديلم إلى حرم الخليفة ، وحُمل المستكفى إلى دار معز الدولة فاعتُقل بها وخُلع من الخلافة ونهبت داره وسُملت عيناه ، ولم يزل فى دار السلطنة معتقلاً حتى وفاته سنة ٣٣٨ هـ» .

وبعد أن خلع معز الدولة البويهى الخليفة المستكفى ؛ أحضر الفضل بن المقتدر ، وأقامه خليفة مكانه باسم «المطيع لله» ، وذلك سنة ٣٣٤ هـ[2] . وكان المطيع خليفة ضعيفًا ، ولم يكن له مع معز الدولة البويهى من الأمر شىء سوى ذكر اسمه فى خطبة الجمعة على المنابر ونقش اسمه على السكة . وقد حدد له معز الدولة إقطاعات قليلة يتعيش منها . واستمر هذا الخليفة مجرد رمز للخلافة حتى سئم الخلافة ، وتنازل عنها سنة ٣٦٤ هـ، لابنه عبد الكريم ، الذى بويع خليفة باسم «الطائع لأمر الله» .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٨٧ .

(٢) هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد ، ولد سنة ٣٠١ هـ، وبويع له بالخلافة بعد خلع المستكفى فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ هـ، وقرر له معز الدولة (البويهى) كل يوم نفقة مائة دينار فقط (السيوطى، جلال الدين : تاريخ الخلفاء ، طبعة بيروت ١٩٨٦ ، ص ٤٥٥) .

وظل الخليفة الطائع طائعًا ومطيعًا للبويهيين ، وصار ألعوبة فى أيديهم ، يلهون بها متى أرادوا ، ولَمَّا ضاقوا منه قبضوا عليه وعزلوه عن الخلافة سنة ٣٨١ هـ[(١)] . وبايع البويهيون بعده لأحمد بن اسحاق بن المقتدر بالخلافة باسم الخليفة «القادر» . وقد استمر القادر فى الخلافة مدة طويلة ، مجردًا من سلطاته حتى وفاته وهو عليها سنة ٤٢٢ هـ[(٢)] . ثم تولى الخلافة بعده ابنه عبد الله باسم الخليفة «القائم بأمر الله» ، وقد طالت خلافته أيضًا حتى انتهت دولة بنى بويه سنة ٤٤٧ هـ ، واستمر فى الخلافة حتى وفاته سنة ٤٦٧ هـ[(٣)] .

هذا ولم يحاول البويهيون ، رغم اعتناقهم المذهب الشيعى ، أن يحولوا الخلافة عن العباسيين للعلويين ، وعن المذهب السنى إلى المذهب الشيعى ؛ وكان ذلك فى مقدورهم لو أرادوا لأن السلطة الفعلية فى دولة بنى العباس كانت فى أيديهم ولم يكن للخليفة العباسى آنذاك حول أو طول .

وقد فكر معز الدولة البويهى فى ذلك فى بداية تسلمه السلطنة فى البلاد ، لكن خواصه حذروه مغبة الإقدام على مثل هذه الخطوة خشية إثارة الشعب الإسلامى السنى المذهب ضده . كذلك أشاروا إليه إلى أنه من مصلحة البويهيين أن يحكموا الدولة فى ظل خليفة عباسى ضعيف يستأثرون بالأمر دونه من أن يبايعوا خليفة علويًا قويًا قد يسلبهم السلطة والسلطان الذى وصلوا إليه وقد يعمل هذا الخليفة على الخلاص منهم والاستبداد بالأمور فى البلاد دونهم. لذلك تحول معز الدولة عن تنفيذ فكرته وظل يستأثر بالسلطان فى ظل وجود الخليفة العباسى الضعيف ، وسار خلفاؤه من حكام البويهيين بعده على

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٦٧ .

(٢) السيوطى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٧٣ .

(ذكر السيوطى ، أنه توفى ليلة الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة ، عن سبع وثمانين سنة ، ومدة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر) .

(٣) السيوطى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٨٠ .

نفس السياسة وزادوا من إذلالهم للخلفاء العباسيين والتقليل من شأنهم[1] . ويظهر لنا ذلك إذا ما قارنا الألقاب التى حملها البويهيون بألقاب الخلفاء ؛ ففى الوقت الذى كانت ألقاب الخلفاء تحمل فى مضمونها الضعف والمهانة والاستكانة كالمطيع والطائع تزايدت ألقاب البويهيين وتعاظمت فتسموا بعضد الدولة وجلال الدولة وبالشاهنشاه (ملك الملوك) وغيرها .

ضعف البيت البويهى ونهاية حكمه[2] :

ولقد ظل البويهيون أقوياء ، داخل العراق وخارجها ، طالما كانوا محافظين على وحدتهم وتماسكهم ، لكن هذا البيت سرعان ما دب إليه الضعف والانهيار بسبب ما وقع بين أفراده من نزاع وبسبب ما ساد من فرقة بينهم أدت إلى الحروب الداخلية بين بعضهم والبعض الآخر عقب وفاة أقوى حكامهم عضد الدولة البويهى . وكان عضد الدولة قد استطاع أن يوحد دولة البويهيين عقب وفاة معز الدولة سنة ٣٥٦ هـ. باستيلائه على ممتلكات عز الدولة بختيار ابن معز الدولة وممتلكات أخيه ركن الدولة[3] .

ذلك لأنه لما تُوفى معز الدولة خلفه فى مناصبه ورئاسة البيت البويهى ابنه عز الدولة بختيار فى حكم العراق والأهواز وكرمان . وقد حدث أن ثار الجند على بختيار فاستنجد بابن عمه عضد الدولة بن عماد الدولة (على بن بويه) ، وكان من أقوى أمراء بنى بويه وأبعدهم نظرًا فى السياسة والإدارة . فتقدم عضد الدولة لمساعدة ابن عمه بختيار ونجح فى إخماد ثورة الجند وإعادة الأمور إلى نصابها . إلا أنَّ عضد الدولة لم يكن مخلصًا لابن عمه بختيار ، إذ كان يطمع فى أملاكه . وبالفعل نجح عضد الدولة فى الإطاحة بحكم بختيار

(١) المؤلف : تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٧٩ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

والاستيلاء على أملاكه . كذلك نجح عضد الدولة فى انتزاع ممتلكات أخيه ركن الدولة[١] . وتمكن عضد الدولة البويهى بذلك من توحيد ممتلكات الدولة البويهية كلها فى قبضة يده ، والعودة بها إلى ما كانت عليه أيام مؤسسها معز الدولة البويهى وبلغت فى عهده أوج عظمتها وقوتها[٢] .

ولكن ما أن توفى عضد الدولة حتى نشب القتال بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم ورغبة كل منهم فى الاستئثار بأكبر نصيب منها ، وانتهى القتال بين الأبناء بانتصار الابن الأكبر بهاء الدولة ، الذى ظل يحكم الدولة حتى وفاته سنة ٤٠٣ هـ[٣] . وما أن توفى بهاء الدولة حتى تقسمت الدولة بين أبنائه الأربعة ، الذين لم يستطيعوا الحفاظ على وحدة دولتهم ولا على البلاد التى كانت تحت أيديهم ، فسقط بعضها فى أيدى أمراء البلاد المجاورة.

وانتهى الأمر بالبويهيين بتولى أبى كاليجار الأمر فى بغداد[٤] ، وبعد أبى كاليجار خلفه أبو نصر خسرو ، الذى انتزع السلاجقة فى عهد حكمه سنة ٤٤٧ هـ[٥] ما كان للبويهيين من سلطة وسلطان فى دولة الخلافة العباسية ، وذلك بدخول الأمير السلجوقى «طغرلبك» بغداد وإزالة سيادة البويهيين من عليها وفرضه عليها سيادة جديدة هى السيادة السلجوقية ، ولتدخل الدولة العباسية ثانيةً فى دور جديد من أدوار تحكم الأتراك فى دولة الخلافة عُرف

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٦٦ .

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، القاهرة ١٩٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٣) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى حسن وحسن محمود ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١١ .

(٤) وقد تولى كاليجار الأمر فى بغداد فى الفترة من سنة ٤٣٥ - ٤٤٠ هـ، (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ٦١) .

(٥) تولى حتى يوم ٢٢ رمضان ٤٤٧ هـ، وهو اليوم الذى دخل فيه طغرلبك بغداد (زامباور : معجم الأنساب ، جـ ١ ، ص ١٢) .

بعصر سيادة الأتراك الثانى تحت الحكم السلجوقى[1] . وليستمر هذا العصر قائمًا حتى تلفظ دولة الخلافة العباسية فى بغداد أنفاسها على يد جحافل المغول سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م .

التسلط السلجوقى على دولة الخلافة العباسية

(٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م)

يُطلق على القرنين الأخيرين من عمر الدولة العباسية اسم العصر السلجوقى ، أو عصر السيادة السلجوقية التركية على دولة الخلافة العباسية ، وقد تميز هذان القرنان من عمر دولة الخلافة بخضوع بغداد للسيطرة التركية السلجوقية حتى نهاية تلك الدولة فى العراق على يد جحافل المغول .

ويرجع أصل السلاجقة إلى الترك الغُز[2] ، أو الأتراك الخزر[3] ، الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الواسعة الممتدة من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين . وكان هؤلاء السلاجقة يخدمون عند ملوك الترك شرقى نهر جيحون ، وعُرفوا بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق[4] ، الذى دخلوا الإسلام على عهد رياسته عليهم على المذهب السنى[5] .

وقد نشأ سلجوق ، جد السلاجقة جميعًا ، نشأة عسكرية خشنة ، وكانت إمارات النجابة والرئاسة ظاهرة عليه ، فقربَّه ملك الترك الغز إليه واحتفى به

(١) يرجع أصل السلاجقة إلى نوع من الترك الذين سكنوا منطقة التركستان الروسية ، وهم الترك الغز ، أو الترك الخزر ، وكانوا يقيمون فى الصحراء الواسعة الممتدة من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين (المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠ ، ٣١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

(٤) دقاق أو تقاق وهى تعنى باللغة التركية : القوس الحديد (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٣٦) .

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣١ .

وجعله (شباشيًا)[١] ، أى قائدًا للجيش فى لغتهم[٢] . ونبغ سلجوق ، بعلو همته ، واستمال قلوب الرجال بعقله وكرمه وانقاد أكابرهم إليه . ويُقال أنَّ زوجة ملك الترك خافت على زوجها منه لعلو مكانته وخطورة شخصيته فنبهته إلى ذلك ونصحته بضرورة الخلاص منه ، وقيل أنها قالت لزوجها : «إنى أتوسم فى سلجوق تغلبًا عليك ، والرأى عندى أن تقتله فقد كثر ميل الناس إليه» ، فقال لها : «سوف أُبصر ما أصنع فى أمره» وأخذ فى التربص له[٣] . ولَمَّا أحس سلجوق ذلك وظهر له تغير ملك الترك عليه ، جمع عشيرته ومن اتبعه وحالفه من الأتراك الغز ، ونفر بهم من بلاد الترك الوثنيين إلى بلاد المسلمين[٤] . فلمَّا دخلها أظهر الإسلام ليكون المسلمون عونًا له وليمكنوه من السكنى والمرعى فى أراضيهم . فنزل بجنده وأتباعه حيث نزل وسمُح له بذلك. وما أن استقر سلجوق فى موطنه الجديد حتى شرع فى غزو منْ قاربه من أصناف الترك الكفار . وقد كان لملك الترك إتاوة سنوية مفروضة على تلك البلاد المتاخمة لبلاده فقطعها سلجوق عنه وطرد منها نوابه فيها . ومات سلجوق ، وهو يبلغ من العمر مائة عام[٥] . ولَمَّا مات انتقلت زعامة السلاجقة إلى أكبر أبنائه «أرسلان» ، الذى أحرز بدوره إنتصارات متتالية على الأتراك الكفار[٦] .

---

(١) ابن طباطبا : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .
(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٦ .
(٣) ابن طباطبا : نفس المصدز ، ص ٢٩٢ .
(٤) ابن طباطبا : نفس المصدر والصفحة .
(٥) ابن طباطبا : نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣١ .
(ذكر المقريزى أن سلجوق توفى ببلدة جند وراء بخارى عن مائة وسبعة أعوام) .
(٦) كان لسلجوق من الأولاد ثلاثة هم : أرسلان وميكائيل وموسى ، وكان لميكائيل ثلاثة أولاد ، هم : يبغو وطغرلبك محمد وجغرى بك داود . (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٣٧) .

وكان الغزنويون[١] ، أصحاب الأراضى التى نزل بها السلاجقة ، والذين سمحوا للسلاجقة بالنزول فيها ، قد أدركوا تزايد قوة السلاجقة وأدركوا أطماعهم فى التوسع على حساب دولتهم ؛ فخافوا منهم على مُلكهم . وقد ارتأى السلطان محمود الغزنوى أن يتخلص من شرهم بإبعادهم عن خراسان ، فسمح لهم بالاستقرار فى خراسان بعد أن أعلنوا ولاءهم له[٢] .

وقد نجح السلاجقة فى خراسان فى توحيد صفوفهم ، بعد وفاة محمود الغزنوى ، وأخذوا فى التوسع فى عموم خراسان ، ونجح زعيمهم طغرلبك ، فى إيقاع الهزيمة بالغزنويين سنة ٤٣١ هـ عند داندانقان بين سرخس ومرو[٣] ، ثم توجه طغرلبك بقواته ، بعد النصر على الغزنويين ، إلى نيسابور ، أهم مدن خراسان ، واستولى عليها ، وهناك ، فى شهر رمضان من نفس العام ، أعلن طغرلبك قيام دولة السلاجقة ، ونصَّب نفسه سلطانًا عليها ، واتخذ مدينة «الرى» قاعدة لحكمه . وكانت تلك الخطوة هى البداية الرسمية لقيام دولة السلاجقة ، ويُعتبر طغرلبك المؤسس الحقيقى لهذه الدولة وأول سلاطينها .

وما زال أمر طغرلبك يقوى حتى كانت حركة البساسيرى[٤] ، وتغلبه على بغداد ونهبها والقبض على الخليفة العباسى «القائم بأمر الله» وحبسه بالقلعة واستنجاد هذا الخليفة بالسلطان السلجوقى طغرلبك واستجابته له ، وقدومه إلى بغداد وتوليه السلطة فيها .

---

(١) الغزنويون هم الترك الذين أسسوا الدولة الغزنوية ، المنتسبة لاسمهم ، وهى التى حكمت من سنة ٣٥١ حتى سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٢ - ١١٦٠ م) ، وقد اتخذت مدينة غزنة عاصمةً لها . ويرجع تأسيس هذه الدولة إلى سبكتكين الغزنوى وابنه محمود بن سبكتكين ، الذى توفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٢ .

(٣) داندانقان واحة تقع فى الصحراء الواقعة بين سرخس ومرو .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٥٨ .

حركة البساسيرى ودخول طغرلبك بغداد :

لم تكن حالة الخلافة العباسية فى عهد الخليفة «القائم بأمر الله» بخير مما كانت عليه فى عهد من سبقه من خلفاء العباسيين ، فقد تجلى فى أيامه استئثار البويهيين بالسلطة وقيام النزاع والمنافسة بين بعضهم البعض من جهة وبينهم وبين جندهم من جهة أخرى . وكان أبو كاليجار ، ابن سلطان الدولة البويهى، قد حاول أن يستعيد سلطان البويهيين الأول فى بغداد أيام ما كان عليه أيام معز الدولة وعضد الدولة . وقد نجح أبو كاليجار فى ذلك بعض الشىء ، سنة ٤٣٦ هـ بعد استمالته كبار قواد الجيش إليه بعد إغداقه الأموال عليهم[١] . وكان طغرلبك قد استولى على جميع خراسان وعلى عاصمتها الرى فى عهده سنة ٤٣٩ هـ . من أجل ذلك تخوف أبو كاليجار منه ومن توسعاته فعمل على التصالح معه وتوثيق عرى المودة بينهما بتزويج ابنته لطغرلبك وتزويج ابنه أبى منصور من ابنة الملك داود ، أخى طغرلبك[٢] .

وقد عمل أبو كاليجار ، فى نفس الوقت الذى تقرب فيه من السلاجقة ، على التقرب من الفاطميين ، حتى يرهب ، بهذا التقرب ، خلفاء العباسيين ؛ الأمر الذى لا يجعلهم يطلبون العون من السلاجقة الذين كانوا الخطر الحقيقى الذى يهدد آنذاك دولة البويهيين .

وكانت الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، إذ ذاك ، قد لقت قبولاً عند ديالمة فارس على يد الداعى الشيعى «المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى»[٣] ، الذى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٦٧ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٦ .

(٣) وُلد المؤيد فى الدين هبة الله فى شيراز سنة ٣٩٠ هـ، وأخذ عن والده موسى بن داود علوم الدعوة الفاطمية ، كما شاهد فى صباه أحمد حميد الدين الكرمانى ، كبير دعاة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى فارس ، ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بمدرسته . وبذل الشيرازى نشاطًا كبيرًا فى استمالة بنى بويه إلى الفاطميين .

قام بدور هام فى نشر الدعوة للخليفة «المستنصر بالله» الفاطمى فى بلاد الفرس والعراق ، واستطاع ، بسياسته ، أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهى إلى هذه الدعوة .

ولمَّا رأى الخليفة العباسى «القائم بأمر الله» الخطر الذى يهدد كيان دولته ومذهب الدولة السُنى فى العراق وفارس ، من جراء نشاط الشيرازى فى نشر الدعوة الفاطمية والمذهب الإسماعيلى الشيعى ، بعث رسولاً من عنده إلى أبى كاليجار البويهى يطلب منه تسليم داعى الفاطميين ، ويهدده ، فى نفس الوقت، فى حال عدم استجابته لطلبه ، بالاستعانة بالسلاجقة وإغرائهم بدخول بغداد . لكن أبا كاليجار لم يعبأ بتهديد الخليفة ، أول الأمر ، وفى نفس الوقت خاف على الشيرازى ، فأرسل إليه يحذره من نوايا الخليفة العباسى وينصحه بالعودة لمصر من حيث قدِم . وما كان من الشيرازى إلا أن استجاب لنصح أبى كاليجار والعودة لمصر سنة ٤٣٨ هـ[١] .

ولمَّا توفى أبو كاليجار سنة ٤٤٠ هـ ، خلفه فى منصبه إبنه «أبو نصر خسرو فيروز» ، وبايعه الخليفة بذلك ، واستقر مُلك الأمير البويهى الجديد بالعراق بفضل مجهودات قائده التركى «أبى الحارث أرسلان البساسيرى»[٢] . وكان الخليفة العباسى «القائم بأمر الله» قد عيَّن البساسيرى رئيسًا لقواد الترك فى الدولة ؛ الأمر الذى جعل البساسيرى يستبد بالسلطة فى بغداد حتى أصبح الخليفة لا يقض أمرًا دونه ولا يحل ولا يعقد إلا عن رأيه . فضعف أمر

= (محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٨٠ ، هامش رقم ١ ، عن مقدمة سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة) .

(١) سرور : نفس المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٢) كان أبو الحارث أرسلان البساسيرى، مولى لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى النحوى ، وما زالت تتقل به الأحوال حتى أصبح من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهى ، وعُرف أبو الحارث بالبساسيرى نسبة إلى بلدة «بسا» الفارسية ، القريبة من شيراز (ابن ميسر : تاريخ مصر ، طبعة هنرى ماسيه ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ١١) .

الخليفة معه ، وكذلك ضعف إلى جانبه مركز السلطان البويهى . وكان البساسيرى قد تأثر بدعوة الشيرازى للفاطميين الإسماعيليين حين ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة العباسى . وقد قام البساسيرى بمراسلة الخليفة الفاطمى «المستنصر بالله» بمصر ، وأخبره عن عزمه الدعاء له خليفةً من فوق منابر بغداد وخلع الخليفة العباسى «القائم» من الخلافة[1] . وبهذا تهددت دولة الخلافة العباسية بالزوال ودخول بلادها فى حوزة الفاطميين وتغلب المذهب الشيعى على المذهب السُنى ، ونهاية الصراع بين الخلافتين المتصارعتين بتغلب الخلافة الفاطمية والمذهب الشيعى على الخلافة العباسية والمذهب السنى فى زعامة العالم الإسلامى .

هذا ولم تكن هذه التطورات والأحداث فى بلاد العراق خافية على السلاجقة ، كذلك الوضع السئ الذى باتت عليه دولة الخلافة فى بغداد والخطر الكبير المحدق بها ، وقد كان طغرلبك راصداً لكل تلك الأحوال السيئة السائدة فى بلاد العراق ، وقد كان نفوذه ونفوذ السلاجقة آنذاك قد ازداد فى شرق الدولة الإسلامية . لذلك حاول السلاجقة انتهاز تلك الظروف لمواصلة جهودهم فى بسط سيادتهم على العراق .

وفى عام ٤٤٧ هـ ، أظهر طغرلبك أنه يريد أداء فريضة الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر لإزالة دولة المستنصر الفاطمية منهما[2] . وتجهز طغرلبك لذلك وأعد الرجال والأقوات والمؤن ، ثم أرسل للخليفة العباسى «القائم» يعلن ولاءه وطاعته له ويستأذنه فى دخول بغداد وهو فى طريقه إلى البيت الحرام ؛ فأذن الخليفة العباسى له ، كما أمر الخطباء بالدعاء له

(١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٨٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٣ .

فى الخطبة من فوق منابر بغداد[١] . وقد دخل طغرلبك بغداد بالفعل فى أواخر رمضان من نفس العام ، ودُعى له من فوق منابرها[٢] .

على أنَّ العامة فى بغداد أبدوا تذمرهم من دخول طغرلبك وجنده بغداد ، وتمكنوا ، بمساعدة بعض قواد البويهيين من قتل عدد من جند السلاجقة ، فاستاء لذلك طغرلبك واستدعى على الفور ، الملك البويهى «خسرو فيروز» وأتباعه واتهمهم بتدبير ما حدث . وما كان من طغرلبك إلا أن أوقع عقابه عليهم باعتقالهم وإرسالهم مع الملك البويهى ليقتلوا فى قلعة قرب مدينة الرى. ونُفذ القتل فى جميع المتهمين ، أما الملك البويهى فقد ظل معتقلاً فى تلك القلعة حتى وفاته بها بعد ثلاث سنوات من اعتقاله[٣] .

ولَمَّا بلغ الخليفة ما حل بالملك البويهى وأتباعه ، بعث إلى طغرلبك ينكر عليه سياسة العنف التى لجأ إليها على أثر دخوله بغداد ، وطلب منه وقواته الرحيل عن بغداد . وما كان أمام طغرلبك إلا الاستجابة لأمر الخليفة ، وقد ارتأى وقتها ، أن الأوان لم يحن بعد للسيطرة على بغداد ، فارتحل طغرلبك عن بغداد بعد أن ظل فيها ثلاثة عشر شهراً يدرس الأوضاع بها ، دون أن يحظى بمقابلة الخليفة خلالها ولو لمرة واحدة[٤] .

وكان البساسيرى قد أخذ فى توطيد صلاته مع رجال الدولة الفاطميين ، وأرسل للخليفة الفاطمى المستنصر بالله يعلن ولاءه له ودخوله فى طاعته وخروجه على الخليفة العباسى والثورة عليه . كذلك تبادل البساسيرى المكاتبات مع الداعى هبة الله الشيرازى ، الذى كان مقيمًا بالقاهرة يرقب نشاط

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٩ ، بولاق ١٢٨٤ هـ، ص ٤٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٢٢ .

(٣) Wiet G: L'Égypte Arabe, [illegible] Paris 1937. p. 232 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٢٤ .

البساسيرى فى بلاد العراق . وقد أرسل الخليفة الفاطمى ، المستنصر بالله ، تأييده للبساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى ونقض البيعة له ، وقام بإرسال المال والسلاح إليه عند مدينة الرحبة التى اتخذها قاعدةً له بعد إعلان تمرده على الخليفة العباسى . وما كان من الداعية الشيرازى إلا أن ترك القاهرة واتجه إلى الرحبة لمعاونة البساسيرى وشد أزره فى ثورته على الخليفة العباسى ومناصرته للخليفة الفاطمى . ولمَّا وصل الشيرازى إلى الرحبة استقبله البساسيرى هناك استقبالاً حافلاً[1] . وفى الرحبة وصلت للبساسيرى إمدادات من المرداسيين والكلبيين وسائر أمراء الشام من العرب . وقد ساعدت هذه الإمدادات البساسيرى فى الانتصار على القوات السلجوقية التى أرسلها طغرلبك لقتال البساسيرى بقيادة ابن عمه «قتلمش» ، فى موقعة سنجار سنة ٤٤٨ هـ[2] .

ولقد حاول طغرلبك ، بعد الهزيمة ، أن يعيد صفوف قواته ، فأعد جيشًا كبيرًا خرج على رأسه بنفسه لكى يثأر للهزيمة التى حلت بجيشه ، كما أنفذ كتبه إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر يستنفر فيها أتباعه هناك لمعونته وإمداده بقواتهم. ونجح طغرلبك ، بذلك ، فى حشد قوات كبيرة تستطيع هزيمة قوات الفاطميين ؛ لكن طغرلبك عدل آنذاك عن زحفه بجيشه على قوات البساسيرى بسبب ثورة أعاقته عن ذلك ، وهى ثورة قام بها أخوه «إبراهيم ينال» ضده فى بلاد الجبل[3] ، الذى تأثر بالدعوة الفاطمية وركن إلى إغراء الفاطميين له بمساعدته فى تحويل ملك دولة السلاجقة من أخيه إليه . فانتهز البساسيرى فرصة انشغال طغرلبك فى الحرب ضد أخيه فى إقليم الجبل ، وزحف على بغداد بقواته التى حملت الرايات الفاطمية المستنصرية التى كتب عليها «الإمام

(١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٩٣ .

(٢) تقع سنجار بنواحى الجزيرة ، وبالقرب من مدينة الموصل بشمال العراق .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٨٩ .

المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين» ، وتمكن من دخولها يوم الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ دون أن يلق مقاومة تذكر ، ومال إليه أهل (الكرخ) ، بسبب تشيعهم ورحبوا بقدومه وأقاموا له الزينات فى أسواقهم[١] .

وفى يوم الجمعة الثالث عشر من ذى القعدة من نفس العام أقام البساسيرى الخطبة بجامع المنصور الكبير للخليفة المستنصر الفاطمى ، كما أمر المؤذنين أن يؤذنوا «بحى على خير العمل» ، ثم خُطب بعد ذلك للخليفة الفاطمى من على جميع منابر بغداد وضربت السكة باسمه[٢] . وبعث البساسيرى إلى المستنصر بمصر يبشره بفتح بغداد وإقامة الدعوة والدعاء له من فوق منابرها. فعمت الفرحة مصر وازدانت شوارع القاهرة لهذا الحدث الكبير الذى سعى له العلويون منذ أمد بعيد .

ولقد ضعفت سلطة الخليفة العباسى «القائم» بدخول البساسيرى بغداد وتحرج موقفه بانصراف الناس عنه ، وقام البساسيرى بالقبض عليه وحبسه ومعه حريمه وحاشيته بسجن بالقرب من مدينة الأنبار[٣] . وقد أرغم البساسيرى الخليفة العباسى ، قبل مغادرته بغداد ، على كتابة إقرار يعترف فيه بأن لا حق له ولا لأى من بنى العباس فى الخلافة مع وجود أبناء فاطمة الزهراء ، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة حيث ظل محفوظًا بقصر الخلافة حتى استرده السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧ هـ. وبعث به إلى الخليفة العباسى «المستضئ بالله» فى بغداد مع بعض تحف خلفاء الفاطميين والهدايا التى استولى عليها من قصورهم على أثر إلغائه الخلافة الفاطمية فى مصر عند وفاة الخليفة

(١) سرور : نفس المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة (د. ت) ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ .

(٣) ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٣ ، جـ ٥ ، ص ٦ .

الفاطمى «العاضد بالله» آخر خلفاء الفاطميين بمصر[١] .

كذلك أرسل البساسيرى إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ثوب الخليفة العباسى وعمامته مع مبلغ كبير من المال وكمية من التحف . وقد أثار وصول هذه الأشياء وقيام الدعوة الفاطمية بالعراق والدعاء للخليفة الفاطمى من فوق منابرها حماسًا كبيرًا بين جماهير القاهرة التى احتشدت حول قصر المستنصر مهللين مكبرين فرحين لهذا الحدث العظيم[٢] .

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها البساسيرى فى سبيل نشر النفوذ الفاطمى بالعراق ، فإنه لم يتلق من الخليفة الفاطمى ما فيه الكفاية من المال والرجال والسلاح الأمر الذى يشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطان الفاطميين على بلاد العراق . ولعل مرد ذلك إلى سوء الأحوال واضطرابها فى مصر آنذاك وانشغال المستنصر بمواجهة هذه الاضطرابات السياسية والمصاعب الاقتصادية[٣] .

وعلى الجانب الآخر ، فإن طغرلبك استطاع أن يقض على ثورة أخيه إبراهيم ينال ، تلك الثورة التى أعطت الفرصة للبساسيرى لدخول العراق وفرض السيادة الفاطمية فيها . وما أن فرغ طغرلبك من أمر هذه الثورة حتى إتجه بقواته إلى العراق لنجدة الخليفة العباسى وإعادته إلى خلافته وإزالة ما تم حول الخلافة على يد البساسيرى .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ، جـ ١ ، ص ٤٣٩ .

(٢) وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد بيتين من الشعر هما :

يا بنى العبـاس صُدوا ... مَلَـك الأمـر معـدٌ

مُلككم كـان معارًا ... والعـوارى تُسترد

فأعجب المستنصر بغنائها واقطعها قطعة أرض عُرفت بأرض الطبالة بالقرب من بركة الرطلى بمدينة القاهرة (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢) .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٢ .

ولَمّا اقتربت قوات السلاجقة من بغداد ، أدرك البساسيرى أنه لا قبل له بمواجهة هذه القوات الكبيرة لأن المدد لم يكن قد وصله من القاهرة بعد ؛ فأمر جنده بمغادرة بغداد فغادروها وهو على رأسهم سنة ٤٥١ هـ[١] .

ولَمّا دخل طغرلبك بقواته بغداد لم يلق منها أى مقاومة فاطمية ، فاستولى عليها دون قتال وأرسل للخليفة العباسى ينبؤه بالنصر ويطلب منه العودة وحاشيته وأهله إلى عاصمة الخلافة سنة ٤٤٩ هـ[٢] .

ولَمّا عاد الخليفة العباسى إلى بغداد ، رأى طغرلبك أن يبالغ فى الاحتفال بعودة الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد ليُظهر إخلاصه وولاءه له ، وخرج فى مقدمة المستقبلين لاستقباله عند مدخل المدينة[٢] ، ولَمّا وصل قبَّل الأرض بين يديه ، واعتذر له عن التأخر فى نجدته لانشغاله بالقضاء على تمرد أخيه عليه ، ووعده بتعقب البساسيرى وقواته والمسير إلى مصر والشام للقضاء على خلافة الفاطميين بهما .

وبالفعل ، أرسل طغرلبك جزءاً من قواته تعقبت البساسيرى وفلوله المنهزمة، وأوقعت بهم الهزيمة سنة ٤٥١ هـ عند الكوفة ، فى معركة قُتل فيها البساسيرى نفسه[٣] . وبذلك يتيسر للأمير السلجوقى القضاء على أكبر الأخطار التى تعرضت لها الخلافة العباسية منذ قيامها ، فعاد الخليفة العباسى إلى كرسى الخلافة فى بغداد ، وخُطب له ثانيةً من فوق منابرها ، بعد أن ظل يُخطب من فوقها لأكثر من عام للخليفة الفاطمى المستنصر بالله .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٣٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٣ .

السلاجقة والعباسيون :

حكم السلاجقة فى بلاد العراق تحت ظل الخلافة العباسية ، من وقت دخول طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ هـ، حتى سقوط هذه الخلافة فى العراق على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ ، قرابة قرنين من الزمان (من منتصف القرن الخامس الهجرى حتى منتصف السابع) . وقد استأثر السلاجقة بحكم الدولة دون الخليفة بداية من سلطنة طغرلبك حتى آخر سلاطينهم . ولم يستطع الخلفاء العباسيون مجابهة استبداد حكام السلاجقة بعد أن أعادوا لهم خلافتهم وأنقذوهم من خطر الشيعة الفاطميين ؛ فاعترفوا لهم بهذا الجميل واستكانوا لتسلطهم ونفوذهم . ولم يكن فى استطاعة خلفاء العباسيين آنذاك إلا الاحتماء فى عباءة السلاجقة . وقد زاد السلاجقة فى نفوذهم بمصاهرتهم لبيت الخلافة، وكانت تلك سياسة ذكية منهم رموا من ورائها إنجاب أبناء يكون من حقهم أن يرثوا خلافة العباسيين . فلقد تزوج طغرلبك من ابنة الخليفة العباسى سنة ٤٥٥ هـ[1] ، وهو شرف لم يسبقه إليه أحد من رجال «الأعاجم» . لكن طغرلبك توفى فى نفس العام دون أن يُنجب من ابنة الخليفة ، إلا أنه استطاع أن يثبتِ السيادة والنفوذ السلجوقى على دولة الخلافة[2] .

وقد سار على هذه السياسة من جاء بعده من سلاطين السلاجقة[3] ، حتى أصبحت حالة الخلفاء العباسيين من الضعف والاستكانة لا تختلف اختلافًا كبيرًا عما كانت عليه أيام سيطرة البويهيين . على أنَّ معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل ، بعض الشىء ، عن معاملة البويهيين لهم ، ولعل

(١) ابن الأثير : الكامل، جـ ٨ ، ص ٣٦٠ .

(٢) كانت وفاة طغرلبك يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ، وكان عمره سبعين سنة ، وكان عقيمًا لم يولد له ولد (ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١) .

(٣) تزوج الخليفة المقتدى العباسى سنة ٤٨٠ هـ من ابنة السلطان السلجوقى ملكشاه (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٥١ ، ٤٥٢) .

سبب ذلك راجع إلى أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السنى ، مذهب الخلافة العباسية ، وكان عليهم أن يحترموا الخليفة رمز هذا المذهب[1] .

لكن ، عمومًا ، فقد اتفق كل سلاطين السلاجقة على الحد من نفوذ الخليفة وسلبه سلطاته وتجريده منها حتى لا تبقى له سوى السيادة الشكلية والمظهرية وهى السيادة الروحية .

وقد تعسف بعض حكام السلاجقة مع خلفاء العباسيين ، رغم تظاهرهم باحترامهم لهم ، فنرى السلطان «ملكشاه» يصمم سنة ٤٨٥ هـ على طرد الخليفة «المقتدى بالله» من بغداد ؛ لأنه رأى فيه ميلاً للتدخل فى شئون الحكم ورغبةً فى إستعادة سلطاته كخليفة[2] . كذلك نرى سلاطين السلاجقة يستولون من الخليفة «المسترشد بالله» على بردة رسول الله ﷺ التى ورثها خلفاء العباسيين عن خلفاء الأمويين ، والتى كانوا يرتدونها عند توليتهم الخلافة وعند حضورهم الاحتفالات الدينية ، وقد كانت رمزًا من رموز تولى الخلافة[3] .

وتُعد الفترة الأولى من العصر السلجوقى، والتى تشمل عصر سلاطينهم الثلاثة الأول : طغرلبك ، وألب أرسلان ، وملكشاه عصرًا زاهرًا ، يمكن أن نطلق عليه اسم عصر سلاطين السلاجقة العظام .

---

(١) المؤلف : تاريخ الدولة العباسية ، ص ٢١٧ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٣ .

(ذكر السيوطى أنَّ ملكشاه عاد إلى بغداد من أصفهان سنة ٤٨٥ هـ عازمًا على الشر ، وأرسل إلى الخليفة المقتدى بالله يقول : لابد أن تترك لى بغداد وتذهب إلى أى بلد شئت ، فانزعج الخليفة وقال : أمهلنى ولو شهرًا ، قال : ولا ساعة واحدة ، فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام ، فاتفق مرض السلطان وموته وعُد ذلك كرامة للخليفة) .

(٣) كان رسول الله ﷺ قد أهدى بردته إلى الشاعر كعب بن زهير بن أبى سلمى سنة ٨ هـ ، بعد إعلانه الندم وتوبته من هجاء رسول الله ، ثم مدح الرسول بقصيدته المشهورة التى مطلعها : (بانت سعاد) ، وقد تداول أهل كعب البردة وتوارثوها إلى أن اشتراها منهم معاوية بن أبى سفيان بأربعين ألف درهم وتوارثها الخلفاء الأمويون ثم الخلفاء العباسيون (المؤلف : الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٢٣ ، ٢٤) .

ففى هذا العصر تمكن هؤلاء السلاطين الثلاثة من السيطرة الفعلية على دولة الخلافة فى العراق ، وكانوا الحكام الفعليين لهذه الدولة . فضلاً عن توسيع دولة الخلافة وإقامة امبراطورية إسلامية مترامية الأطراف حدها من التركستان وبلاد ما وراء النهر شرقًا حتى البحر المتوسط غربًا . وإذا كانت هذه الدولة قد حملت اسم سلجوق بن دقاق ، فإن حفيده طغرلبك بن ميكائيل هو المؤسس الحقيقى لها ، وهو الذى ثبَّت الوصاية على دولة الخلافة العباسية.

هذا ، ولم تكن للسلاجقة تقاليد راسخة لتوريث الحكم فى دولتهم ، لذلك كانت مشكلتهم المعتادة والمتكررة عقب وفاة أحد سلاطينهم هى تنافس أبناء البيت السلجوقى على السلطة ؛ الأمر الذى يؤدى إلى حدة الانقسام بينهم إلى أن يتمكن أقواهم من إخضاع بقية المنافسين له وينفرد بالسلطان دونهم . وقد تكرر هذا الأمر مرارًا عندهم ، فعندما توفى طغرلبك (سنة ٤٥٥ هـ) دب هذا النزاع بين أفراد البيت السلجوقى الحاكم حول من يخلفه فى السلطنة ، وذلك لعدم إنجابه ولدًا ذكرًا يرث ملكه من بعده[1] . وكانت أرملة أخيه «جغرى بك» ، التى كان قد تزوج منها بعد وفاة أخيه ، قد جعلته يوصى بالسلطنة من بعده لابنها الصغير «سليمان بن جغرى» . وقد قام الوزير «عميد الملك الكندرى» ، وزير طغرلبك ، بتنفيذ الوصية وأعلن سليمان بن جغرى سلطانًا فى مدينة الرى . لكن أخا سليمان بن جغرى ، وهو «ألب أرسلان بن جغرى» ، كان يرى أنه أحق بالسلطنة من أخيه لأبيه الصغير السن ، فعزم ألب أرسلان على المسير إلى الرى وخلع أخيه سليمان . فخشى الوزير الكندرى سطوة ألب أرسلان وفقده الوزارة إذا ما تغلب ألب أرسلان على أخيه ، فانضم إليه ونادى به سلطانًا على دولة السلاجقة على أن يكون أخوه سليمان وليًا لعهده . وبذلك أصبح ألب أرسلان فى ذى الحجة سنة ٤٥٥ هـ سلطانًا

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٣ .

على دولة السلاجقة بعد طغرلبك[1] . على أنَّ بعض أفراد البيت السلجوقى لم يرتضوا بسلطنة ألب أرسلان عليهم ورأوا أنفسهم أحق بها منه . فثار ضده الأمير «قتلمش» ، ابن عم جغرى بك ، كذلك ثار ضده عمه «بيغو ميكائيل» وغيرهم . لكن ألب أرسلان استطاع التغلب عليهم جميعهم وإخماد ثوراتهم ضده ، ونجح فى أن يستخلص الحكم لنفسه وأن يُبق سيطرة السلاجقة على دولة الخلافة فى العراق[2] .

وأخذ ألب أرسلان ، بعد أن استقر له الحكم ، فى توسيع دولته فى منطقة آسيا الصغرى على حساب دولة الروم (البيزنطيين) ، وكذلك فى بلاد الشام على حساب الفاطميين الذين كانوا يحكمونها آنذاك ، وأراد ألب أرسلان بفتوحاته هذه أن يكسب عطف العالم الإسلامى السُنى ، بمجاهدة النصارى ومحاربة الشيعة .

ولقد نجح ألب أرسلان فى غزو منطقة أرمينية ، وكانت الحاجز الذى يدفع عن دولة الروم البيزنطيين ما يقع عليها من هجمات من جهة المشرق ، فانفتح بذلك الطريق أمامه للتوغل فى آسيا الصغرى ؛ الأمر الذى أدخل الرعب فى قلب الامبراطور البيزنطى[3] .

وردًا على ذلك الهجوم من قبل السلاجقة ، قام الامبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجينيس»[4] بمهاجمة بلاد الشام ليوسع على السلاجقة جبهة

---

(١) هو عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جغرى بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو ابن أخى طغرلبك .

(ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣) .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٣٦٦ .

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف : الدول المستقلة فى المشرق الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٤٧ .

(٤) هو الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينس ، وهو من أسرة دوقاس ، حكم فى الفترة من ٤٦٤ - ٤٧١ هـ (١٠٧١ - ١٠٧٨ م) .

المواجهة والنزال . لذلك حوَّل ألب أرسلان حملاته إلى بلاد الشام واستولى على جزء كبير منها . وما كان من الامبراطور البيزنطى إلا أن قطع بجيشه منطقة آسيا الصغرى واتجه به صوب قلب الدولة السلجوقية . وما أن أدرك ألب أرسلان ذلك حتى قطع حملاته على الشام وانسحب بجيشه منها ، وسارع للقاء الجيش البيزنطى .

موقعة مانزيكرت (ملاذكرد) وانتصار المسلمين على الروم :

ولَمَّا عاين ألب أرسلان ضخامة عدد الجيش البيزنطى آثر التفاوض مع الامبراطور وطلب الهدنة ؛ لكن الامبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجينيس» رفض التهادن إعجابًا منه بكثرة جنده واعتدادًا بقوته ، وأعلن أنه لن يجيب السلاجقة على طلب الصلح إلا فى عاصمتهم الرى بعد فتحها وهزيمتهم وإذلالهم[١] . فغضب ألب أرسلان لهذا الرد المتعجرف ، والتهب حماسه الدينى ، وقرر ملاقاة الجيش البيزنطى مهما كانت نتيجة اللقاء ومهما كان الثمن المدفوع له[٢] .

وجاء اللقاء الحاسم فى أرمينية ، عند قرية مانزيكرت (ملاذكرد) ، على مقربة من مدينة «خلاط» ، يوم السابع من شهر ذى القعدة سنة ٤٦٣ هـ/ السادس من أغسطس ١٠٧١ م[٣] ، واستطاع الجيش السلجوقى ، بفضل حماسه الدينى الملتهب ورغبة أفراده فى إعلاء كلمة الله أو نيل الشهادة ، أن

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٨٨ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٨٨) أن ألب أرسلان انزعج من رد الامبراطور البيزنطى المتغطرس ، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال فى الساعة التى تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالإجابة) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٨٨ .

يعوض النقص الكبير فى عدده الذى لم يكن يتجاوز الخمس عشرة ألف جندى، أن يلاقى الجيش البيزنطى البالغ عدده أكثر من مائة ألف جندى ، وأن ينتصر عليه انتصاراً ساحقًا وأن يبيد منه العدد الكبير وأن يأسر الامبراطور الرومانى نفسه فى أعقاب المعركة .

ويرجع هذا النصر الرائع الذى حققه الجيش السلجوقى فى تلك المعركة إلى قوة إيمان المسلمين وحبهم للجهاد فى سبيل الله وإعلاء راية الإسلام خفاقةً فى الآفاق ، كذلك بسبب خفة حركة فرسان السلاجقة فى مواجهة فرسان البيزنطيين المثقلين بالدروع والسلاح الثقيل . هذا فضلاً عن هروب أعداد كبيرة من جنودهم لحظة الاقتحام فى المعركة مع جيش المسلمين بسبب ضعف إيمانهم وتردى روحهم المعنوية .

وإزاء الهزيمة المشينة عند مانزيكرت ، أضطر الامبراطور الرومانى أن يفتدى نفسه بمبلغ كبير من المال ، وأن يتعهد بدفع جزية كبيرة سنويًا للسلاجقة ، وأن يتنازل لهم عن مدن أنطاكية والرها ومنبج ، وأن يطلق سراح أسرى المسلمين، كذلك تعهد بإرسال عساكر الروم إلى السلطان السلجوقى حين يطلبها لتقاتل لحسابه ، وأن تسرى معاهدة الصلح بين الطرفين مدة خمسين عامًا يلتزم الامبراطور البيزنطى ببنودها خلال هذه المدة[1] .

ويُعدُ انتصار السلاجقة الحاسم فى معركة مانزيكرت علامة بارزة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ونقطة تحول خطيرة فى كل من التاريخ الإسلامى والتاريخ البيزنطى على حد سواء . فقد ترتب على هذا الانتصار ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية وفقدها لها ، وقد كانت بمثابة مخزن بشرى لبيزنطة كان يمدها بالقادة والجند والمؤن[2] . كذلك لم يستطع البيزنطيون ، بعد

(١) الناصرى : الروم ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٣٧٦ .

(٢) الناصرى : الروم ، ص ٣٧٧ .

هذه المعركة ، أن يوقفوا المد الإسلامى فى آسيا الصغرى ، التى قام فرع سلجوقى بتأسيس دولة له فيها عُرفت بدولة سلاجقة الروم[١] . وأصبحت منطقة آسيا الصغرى بذلك مستوطنًا لكثير من القبائل التركية المسلمة التى أنشأت لأنفسها فيها إمارات خاصة كانت تمد فى رقعتها على حساب البيزنطيين الذين انحسر نفوذهم نهائيًا عن أملاكهم الآسيوية . وسرعان ما نجد إحدى القبائل التركية ، التى عُرف أبناؤها بالأتراك العثمانيين ، تستطيع ، فيما بعد أن تجهز على الدولة البيزنطية نفسها نهائيًا وتستولى على حاضرتها القسطنطينية ، محققة بذلك حلمًا طالما راود المسلمين منذ العصر الأموى[٢] .

ومن ناحية أخرى ، فقد أدى انكسار الروم البيزنطيين فى مانزيكرت إلى تقدمهم بطلب الاستغاثة والمعونة من الغرب اللاتينى ، الأمر الذى أدى إلى فتح سلسلة طويلة من الصراع والمواجهة بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى، وهو الصراع الذى عُرفت حروبه فى التاريخ باسم الحروب الصليبية[٣] .

حكم السلطان ملكشاه السلجوقى :

لم يعش السلطان ألب أرسلان طويلاً بعد معركة مانزيكرت ، وكان قد توجه ، بعد المعركة ، إلى المشرق على رأس جيش كبير لتأديب بعض المتمردين وإقرار الأمور هناك . وقد قتله أحد هؤلاء المتمردين ويُدعى يوسف

(١) عصام عبد الرؤوف : الدول المستقلة ، ص ١٤٨ .

(٢) كانت آخر محاولات خلفاء الأمويين لفتح القسطنطينية تلك التى قام بها الخليفة سليمان بن عبد الملك ، بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) . ولم تفلح هذه الحملة بسبب حصانة المدينة من البر والبحر واستبسال من فيها فى قتال المسلمين ، فضلاً عن استخدامهم لسلاح جديد لم يكن العرب يعرفونه آنذاك وهو سلاح النار الإغريقية .

(٣) انظر فيما بعد ، فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

الخوارزمى، قتله غيلةً بسكين كان يخفيها بين طيات ثيابه[١] . ودُفن ألب أرسلان فى مدينة مرو ، بعد أن امتدت سلطنته إلى قرابة العشرة أعوام[٢] .

وكان ألب أرسلان قد أكد ، قبل وفاته ، على أن يتولى ابنه ملكشاه السلطنة من بعده ، وكان قد تعهده فى حياته بالرعاية وأعده لحكم البلاد خلفًا له . غير أنَّ ملكشاه ، عند وفاة أبيه ، كان شابًا صغير السن لم يتجاوز عمره السابعة عشرة ، لذلك قام على تدبير الأمر له والوصاية عليه وزيره «نظام الملك الطوسى»[٣] . وقد أخذ نظام الملك لملكشاه البيعة من الأمراء ، وقام بتدبير شئون الدولة أحسن تدبير .

وعلى الرغم من أن ملكشاه تولى السلطنة بناءً على وصية أبيه ، إلا أنَّ صِغر سنه أطمع بعض أمراء السلاجقة فيه فنافسوه فى الحكم ، على عادة هؤلاء الأمراء عند وفاة أحد سلاطينهم . فثار ضده عمه «قاورت» ، صاحب كرمان ، معلنًا أحقيته فى السلطنة دون ملكشاه ، لكن نظام الملك وملكشاه استطاعا أن يهزما قوات قاورت ويقتلانه[٤] .

وأرسل ملكشاه ، لتوطيد حكمه وسلطانه على البلاد ، إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله[٥] يطلب منه تجديد الاعتراف بسلطنته ، فلم يتردد الخليفة فى إجابة طلبه وقام بالدعاء له فى الخطبة بعده[٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣ .

(٢) كانت وفاة ألب أرسلان فى ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ ، وملك بعده ابنه السلطان جلال الدولة أبو الفتح محمد ملك شاه بن عضد الدولة (المقريزى : السلوك ، جـ ١ ،ق ١ ، ص ٣٣) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٣٥ .

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٩٦ .

(٥) هو القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة بن المتوكل ، بويع بالخلافة بعد أخيه المستكفى بالله سنة ٤٥٤ هـ وخلع من الخلافة سنة ٤٦٧ هـ (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٨٩) .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ص ٨ ، ص ٤٠٣ .

وقد قام ملكشاه بتوطيد ملكه فى المشرق ، وفى ذات الوقت ، واصل مشروعات أبيه التوسعية فى بلاد الشام وآسيا الصغرى . فأرسل إلى الشام سنة ٤٦٧ هـ قائده «أتسز» على رأس جيش ، استولى به على دمشق وأزاح عنها حكم الفاطميين[١] . وأقطع ملكشاه أخاه «تاج الدولة تُتُش» بلاد الشام وأعمالها ، واتخذ تتش من دمشق حاضرة له وتفرغ لمواجهة الفاطميين ، وأسس فى بلاد الشام فرعًا سلجوقيًا عُرف باسم «سلاجقة الشام»[٢] .

وفى نفس العام (سنة ٤٧٠ هـ) أقطع ملكشاه الأمير «سليمان بن قتلمش» أملاك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فأسس هنالك فرعًا سلجوقيًا آخر عُرف باسم «سلاجقة الروم» . وقد نجح سليمان هذا فى الاستيلاء على مدينة أنطاكية من الروم ، فأطلت بذلك حدود دولة السلاجقة فى بلاد الشام ، لأول مرة ، على سواحل البحر المتوسط[٣] . وقد قام ملكشاه بالاستيلاء على مدينة حلب وأقطعها إلى مملوكه «آق سنقر» ، والد «عماد الدين زنكى» ، الذى سوف يكون له دور كبير هو وابنه نور الدين محمود فى مقاتلة الصليبيين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ولقد نظَّم ملكشاه أمور الشام وأقر أحوالها ، ثم ارتحل عنها إلى بغداد ؛ فاحتفى بمقدمهُ الخليفة العباسى «المقتدى بأمر الله»[٤] ، وأظهر ملكشاه ، من جانبه ، تواضعًا واحترامًا للخليفة العباسى . وتوطيدًا للعلائق بين الخليفة

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٣٣ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٣ .

(٣) كانت أنطاكية بيد الروم من سنة ٣٥٨ هـ ، واستولى عليها سليمان بن قتلمش فى شهر شعبان من سنة ٤٧٧ هـ وحررها من يد الروم بعد احتلال لها دام ١٩ سنة (ابن الأثير: الكامل، جـ ٨ ، ص ٤٣٥، ٤٣٦ .

(٤) بويع بالخلافة بعد القائم سنة ٤٦٧ حتى وفاته سنة ٤٨٧ مسمومًا (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٣) .

والسلاجقة قام ملكشاه بتزويج إبنته للخليفة العباسى سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧م، وارتفعت بذلك مكانة ملكشاه أمام جمهور المسلمين فى كافة بلاد العالم الإسلامى باعتباره صهر خليفة المسلمين .

ولقد وصلت دولة السلاجقة فى عهد ملكشاه إلى أقصى اتساع لها ، وضمت أطرافًا مترامية من بلاد المشرق الإسلامى ، فضلاً عن آسيا الصغرى والعراق والشام .

وقد كان للوزير نظام المُلك الطوسى دور عظيم فيما وصل إليه ملكشاه من نفوذ وهيبة وسلطان ، وكان الملك ، فى المقابل ، يحفظ لوزيره أياديه البيضاء عليه، ففوضه فى إدارة شئون الدولة تفويضًا كاملاً ، وأسبغ عليه من الألقاب والتكريم ما لم يتمتع به وزير غيره[1] . لكن للأسف ، ساءت العلاقات بين الملك ووزيره المحبوب المخلص فى أواخر أيامهما بسبب كثرة حُساد نظام الملك لما وصل إليه من مكانة فى دولة السلاجقة وعند السلطان فأخذوا يكيدون له عنده . وتفاقم خطر هؤلاء الحاقدين وازداد عندما انضمت إليهم زوجة السلطان ، تركان خاتون ، ضد نظام الملك بسبب وقوف نظام الملك دون جعل ولاية العهد فى الدولة لإبنها الصغير محمود بن ملكشاه ، وجعلها لبركياروق ، الابن الأكبر للسلطان[2] .

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧) أن ملك شاه قاله له : «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك فأنت الوالد ، وحلف له وأقطعه إقطاعًا زائدًا على ما كان من جملته طوس مدينة نظام الملك وخلع عليه ولقبه ألقابًا من جملتها أتابك ومعناه الأمير الوالد فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما هو مشهور) .

(٢) لَّما توفى ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته وأرسلت إلى الأمراء سرًا ، فاستحلفتهم لولده محمود - وهو ابن خمس سنين - فحلفوا له ، وأرسلت إلى الخليفة المقتدى فى أن يسلطنه فأجاب ولُقب بناصر الدنيا والدين ، ثم خرج عليه أخوه بركياروق بن ملكشاه ، فقلده الخليفة ولقبه ركن الدين وذلك فى المحرم سنة ٤٨٧ هـ (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٣) .

وقد نجح المتآمرون على الوزير فى إيغار صدر السلطان عليه وتآمروا على اغتياله وسخروا لذلك أحد رجال الفداوية الإسماعيلية[1] ، الذى نجح فى اغتياله فى شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ[2] . هذا ولم يعش السلطان ملكشاه بعد اغتيال وزيره إلا خمسة وثلاثين يومًا تُوفى بعدها على أثر حمى أصابت أمعاءه ليلة الجمعة ، النصف من شوال[3] .

عصر انقسام السلاجقة :

انتهى بوفاة السلطان ملكشاه عصر سلاطين السلاجقة العظام ، وانفرط بعده عقد السلاجقة وانقسموا على أنفسهم وانحدرت دولتهم نحو الضعف والزوال . وقد تنافس أفراد البيت السلجوقى ، كعادتهم ، على الحكم عقب وفاة ملكشاه ، وواجه ابنه الأكبر «بركياروق» المستحق للسلطنة ، منافسة قوية من جانب كلٍ من أخيه محمود وعمه تُتش[4] .

وكانت تركان خاتون ، زوج ملكشاه ، تقوم على رعاية ابنها الصغير محمود ، وقد حضرت وفاة زوجها وهو فى بغداد ، فانتهزت فرصة تواجدها فى حاضرة الخلافة وحملت الخليفة العباسى على الاعتراف بابنها محمود

---

(١) كان داعى دعاة الشيعة الإسماعيلية فى المشرق ، الحسن الصباح ، قد استولى على عدة قلاع فى بلاد فارس ، أهمها قلعة «ألموت» المنيعة ، واستطاع أن يُجمع فيها قوة كبيرة من أتباعه سنة ٤٨٣ هـ ، ودربهم على الطاعة له وعلى الأعمال الفدائية لذا سموا بالفداوية وقاموا بالاغتيال كأسلوب لتصفية أعدائهم من كبار الشخصيات . وقد كان الوزير نظام الملك ، الذى كان فى حياته عدوا لدودًا للإسماعيلية من أكبر ضحاياهم فاغتالوه بتحريض المتآمرين ضده فى شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ . (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٧٨) .

(٢) عن تفاصيل حياة نظام الملك وأخباره ، انظر ابن الأثير ، نفس المصدر والجزء صفحات ٤٨٠ ، ٤٨١ .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٨٢ .

(٤) هو تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق وما جاورها من بلاد الشام ، لمَّا بلغه خبر موت أخيه السلطان ملكشاه ، وكان ببغداد، فعاد إلى دمشق وتجهز بطلب السلطنة (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٨٧) .

سلطانًا على دولة السلاجقة ، فاعترف به وخُطب له وذلك فى شهر شوال سنة ٤٨٥ هـ ، من فوق منابر بغداد[١] ، وأمرت تركان خاتون أعوانها فى أصفهان بالقبض على بركياروق وسجنه ، وبالفعل قُبض عليه وسُجن . إلا أنَّ أتباع بركياروق ثاروا لذلك وقاموا بإخراجه من سجنه ونادوا به سلطانًا فى بلاد فارس ، فأصبح بذلك للسلاجقة ، ولأول مرة ، سلطانان فى وقت واحد : محمود فى بغداد وبركياروق فى أصفهان . وكان على أحدهما أن يزيح الآخر عن طريقه ، فتقابلا فى معركة كان النصر فيها حليفًا لبركياروق[٢] .

وقبل أن يلتقط بركياروق أنفاسه من حربه مع أخيه وتصفوا له الأمور ، كان عليه أن يواجه عمه تتش ، صاحب دمشق ، الذى رأى فى تنازع ابنى أخيه على السلطنة فرصة لانتزاعها منهما لنفسه . لكن بركياروق استطاع بقواته أن يهزم عمه قرب مدينة الرى وأن يقتله فى المعركة سنة ٤٨٨ هـ[٣] . ولم يهنأ بركياروق بالحكم . بعد تخلصه من أخيه وعمه ، فقد ثار ضده أخواه الآخران: محمد وسنجر ، واستمرت الحرب طويلاً بينهم . ولَمَّا سئم بركياروق قتال إخوته اتفق معهم على الصلح على أن تقسم الدولة السلجوقية بينهم ، ويستولى كل منهم على ما تحت يده ويعترف له الآخرون بذلك . وقد تم هذا الاتفاق بالفعل بين الإخوة السلاجقة سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م[٤] .

وما لبث بركياروق أن توفى فى العام التالى[٥] ، تاركًا الدولة السلجوقية أشلاء ممزقة ، على ناحية كل منها أمير سلجوقى مستقل بها . فالأجزاء الشرقية

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٣ .

(٢) فى يوم الجمعة العاشر من المحرم سنة ٤٨٧ هـ، خطب ببغداد للسلطان بركياروق بن ملكشاه ، وكان قد قدمها سنة ٤٨٦ هـ ، وأرسل إلى الخليفة المقتدى بأمر الله يطلب الخطبة فأجيب إلى ذلك وخُطب له ولقب ركن الدين (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٩٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٥٠٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٧٠ .

(٥) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٧ .

من الدولة كانت فى يد سنجر بن ملكشاه ، وبلاد الشام فى يد أبناء عمهم تتش، وآسيا الصغرى بأيدى أبناء سليمان بن قتلمش . وبذلك تقسمت الدولة السلجوقية القوية التى سهر على توحيدها وقوتها سلاطين السلاجقة العظام الأول إلى خمس ممالك متنافسة . ويمكن القول بأنَّ الدولة السلجوقية ، بعد بركياروق، دخلت فى دور نهايتها ، مع أنها استمرت بعد ذلك نحو قرن من الزمان (٤٩٨ - ٥٩٠ هـ) ، إلا أن نهايتها باتت مؤكدة منذ نهاية القرن الخامس الهجرى وبداية السادس .

ولقد حاول السلطان محمد بن ملكشاه[1] ، الذى انفرد بالسلطة بعد وفاة أخيه بركياروق ، أن يعيد للدولة السلجوقية وحدتها وقوتها وأن يتصدى للأخطار الخارجية التى أحاطت بها من كل ناحية دون جدوى .

وبعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، انقسم البيت السلجوقى ثانيةً على نفسه[2] ، وتعرضت الدولة السلجوقية لأكبر خطرين خارجيين قضيا عليها وهما خطر القراخطائيين ، وخطر الخوارزميين . أما فى بلاد الشام ، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعًا ، ذلك أنَّ إبنىْ تتش، وهما رضوان صاحب حلب ، ودقاق صاحب دمشق لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التى تمكنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التى عاشت فيها بلاد الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس .

---

(١) توفى محمد بن ملكشاه فى رابع عشرى ذى الحجة سنة ٥١١ هـ، عن ٣٦ سنة (المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٤) .

(٢) خلف السلطان محمود أباه محمد بن ملكشاه فى السلطنة ، ولم يعترف به عمه «سنجر» ، صاحب خراسان وبلاد ما وراء النهر ، الذى أعلن نفسه سلطانًا ، وبذلك أصبح للدولة السلجوقية سلطانان . ولقد كان على سنجر وقف توسع الخوارزميين الذى جاء على حساب مملكة سنجر . وقد ازداد الصراع بين أمراء السلاجقة . وتطلع كل منهم إلى السلطنة وكثرت الحروب بينهم وغدت الدولة السلجوقية مسرحًا للحروب بين أمرائها فى الوقت الذى تطلع فيه جيرانها إلى ابتلاع أراضيها .

ولعل أكبر مظهر من مظاهر انحلال سلطان السلاجقة فى بلاد العراق والشام وغيرهما عندئذٍ ، هو ظهور عدد كبير من الوحدات السياسية الصغيرة الحاكمة ، التى عرفت باسم «الأتابكيات» ، نسبة لتولى أمورها عدد من الأتابكة ، الذين أعلنوا استقلالهم بما تحت أيديهم من بلاد . ومن أبرز تلك الأتابكيات : أتابكية دمشق ، ومؤسسها ظهير الدين طغتكين ، قائد الملك تتش وأتابك إبنه دقاق[1] ، وأتابكية الموصل ، ومؤسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر[2] . وقد أخذت فى الظهور فى بلاد الشام والجزيرة وفارس أعداد كبيرة من الأتابكيات على أشلاء دولة السلاجقة .

ولقد جاءت نهاية دولة السلاجقة على يد قبائل القراخطائيين التركية وقبائل الخوارزميين كما أسلفنا ، وينتسب القراخطائيون إلى قبائل تركية عُرفت باسم «الخطا» ، التى نزلت شمال شرق فارس فى عهد السلاجقة واستطاعت أن تكوِّن لها دولة هناك سنة ٥١٨ هـ ، وأن تتخذ مدينة «بلاساغون»[3] ، على نهر سيحون حاضرة لها ، يهاجمون منها أملاك السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر . ولقد استطاع هؤلاء القرخطائيون أن يوقعوا بالسلطان سنجر السلجوقى هزيمة ساحقة عند بلدة «قطوان» ، قرب مدينة سمرقند سنة ٥٣٦ هـ[4] . وقد فر السلطان السلجوقى هاربًا من المعركة بعد هزيمته تاركًا زوجته تقع أسيرة فى يد أعدائه . وقد نجح القرخطائيون فى القضاء على دولة سنجر السلجوقى ، واستولوا ، بعد ذلك ، على مدينتى بخارى وسمرقند ، واستمرت دولتهم فى

---

(١) استمر قيام هذه الأتابكية من سنة ٤٩٨ حتى سنة ٥٤٩ هـ .

(٢) استمر قيام هذه الأتابكية من سنة ٥٢١ حتى سنة ٦٦١ هـ .

(٣) بلاساغون : مدينة كبيرة وراء نهر سيحون ، بالقرب من كاشغر .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣١٩ .

(ذكر ابن الأثير أنه قتل فى هذه المعركة من رجال السلاجقة مائة ألف قتيل ، منهم اثنا عشر ألفًا كلهم صاحب عمامة وأربعة آلاف إمرأة ، وأسرت زوجة السلطان سنجر ، ولم يكن فى الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر ممن قتل فيها بخراسان) .

تلك الأنحاء حتى قضى عليها الخوارزميون سنة ٦١٢ هـ[١] .

أما الخوارزميون ، فقد أسسوا دولتهم التى عُرفت بالدولة الخوارزمية فى منطقة خوارزم التى نسبوا إليها[٢] . ومؤسس دولتهم يُدعى «أنوشتكين» ، وكان مملوكًا من رقيق الأتراك ، ترقى فى سلك الجندية حتى صار واليًا على خوارزم ، ثم نجح فى الاستقلال بها وظل على حكمها حتى وفاته بها سنة ٤٩٠ هـ[٣] . وقد ورث دولته من بعده إبنه «قطب الدين محمد» الذى أسبغ على نفسه لقب «خوارزمشاه» ، أى ملك خوارزم . ويُعد محمد خوارزمشاه هذا هو المؤسس الحقيقى للدولة الخوارزمية .

وقد قام الخوارزميون بتوسيع دولتهم على حساب السلاجقة ، بعد إحراز النصر عليهم فى المعارك التى وقعت بينهما أيام انقسام دولة السلاجقة . وقد ازدادت الدولة الخوارزمية قوة واتساعًا فى الوقت الذى ضعفت فيه دولة السلاجقة وصارت تعانى الانقسام والانهيار عقب وفاة السلطان سنجر السلجوقى . وقد ورثت الدولة الخوارزمية مُلك السلاجقة ، وبلغت أقصى اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ،إذ امتدت من حدود العراق غربًا إلى حدود الهند شرقًا ، ومن بحر قزوين شمالاً إلى الخليج العربى والمحيط الهندى جنوبًا .

ولقد عاشت الخلافة العباسية صحوة جديدة فى ذلك الوقت ، وحاول خلفاؤها استرداد نفوذهم ، منتهزين فرصة ضعف حكام السلاجقة وتدهور

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣٢٣ .

(٢) يقع إقليم خوارزم فى شرق الدولة الإسلامية ، وكان جزءً من الاتحاد السوفيتى المنحل ، وهو موزع الآن بين جمهوريتى أوزبكستان وتركستان الإسلاميتين .

(٣) كان أنوشتكين أحد رقيق السلطان السلجوقى ملكشاه ، وكان يشغل عنده وظيفة الساقى ، وأخذ فى الترقى فى سلك الخدمة بسبب مهارته وأمانته ، حتى وصل إلى حكم إقليم خوارزم ، وأخذ لقب خوارزمشاه ، أى ملك خوارزم . ولمّا تولى سنجر سلطنة السلاجقة أمرَه فى ولايته ونال تقديره وإعجابه .

أحوال دولتهم . وقد بدأت هذه الصحوة فى عهد الخليفة «المسترشد بالله» ، الذى بويع بالخلافة سنة ٥١٢ هـ[1] . وقد تجرأ هذا الخليفة وقام بمحاربة السلطان السلجوقى مسعود بن سنجر سنة ٥٢٠ هـ ، وانتصر عليه وأجبره ، نتيجة ذلك الانتصار ، على عقد صلح معه يستعيد على أساسه الخليفة بعضًا من نفوذه داخل دولته . وقد خلف الخليفة «الراشد» أباه المسترشد[2] ، وواصل صحوة الخلافة وإضعاف نفوذ السلاجقة فى دولته . ولَمَّا عُين «المقتفى» خليفة (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) تحين الفرصة لضرب قوة السلاجقة واستعادة هيبة الخلافة ومكانتها وتقليص مكانة السلاجقة . ولَمَّا ولى الخلافة الخليفة «الناصر لدين الله» (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) كتب للخوارزميين يستعين بهم لإنهاء الوجود السلجوقى فى دولة الخلافة . فكتب الخليفة الناصر لعلاء الدين تكش خوارزمشاه ، يحرضه على محاربة طغرل الثالث ، آخر سلاطين السلاجقة . فالتقى خوارزمشاه بطغرل ، على مقربة من الرى ، وانهزم السلطان السلجوقى وقُتل فى المعركة وحُملت رأسه إلى الخليفة العباسى[3] ، واستولى خوارزمشاه على أصفهان والرى . وبمقتل السلطان السلجوقى طغرل الثالث ، انتهت دولة السلاجقة فى فارس والعراق ، بعد أن سيطر سلاطينها قرابة قرنين من الزمان على دولة الخلافة والخلفاء العباسيين[4] . وقد صار النفوذ فى بغداد ، من بعد السلاجقة ، للخوارزميين، لكن الخوارزميين لم يسيطروا على خلفاء العباسيين تلك السيطرة الكاملة التى سبق أن فرضها عليهم كل من البويهيين والسلاجقة.

(١) هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله ، بويع له بالخلافة بعد موت أبيه فى ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ، وقد مات المسترشد قتيلاً يوم الخميس ١٦ ذى القعدة سنة ٥٢٩ هـ (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٩١ ، ٤٩٢) .

(٢) هو الراشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد ، بويع بالخلافة عند قتل أبيه سنة ٥٢٩ هـ وقد تم خلعه فى ١٦ ذى القعدة سنة ٥٣٠ هـ ، وحل مكانه عمه محمد بن المستظهر ، ولقب بالمقتفى لأمر الله .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٥١٩ .

(٤) ذكر المقريزى أن مدة حكمهم كانت ١٥٨ سنة (المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٠) .

وبينما كانت الدولة الخوارزمية تسير فى سياستها قدمًا فى عهد السلطان تكش خوارزمشاه وابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه ، كانت المنطقة المعروفة الآن باسم هضبة منغوليا ، الواقعة شمالى صحراء جوبى القاحلة والممتدة من أواسط آسيا جنوبى سيبريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان ، تموج بتحركات قبلية وتطورات سياسية بين القبائل التى عُرفت باسم المغول أو التتار ، وهى القبائل التى سوف يكون لها أثر عميق ليس فى التاريخ الإسلامى فحسب ، بل فى التاريخ الإنسانى عامةً .

ولقد عاشت هذه القبائل على الصيد والرعى فى بلادها فى ظروف سيئة للغاية وسط تزايد كبير فى الأعداد ونقص هائل فى الأقوات وضعف فى المرعى وتطاحن وشقاق وغارات مستمرة على المناطق الغنية المجاورة . وقد تعرض المغول ، أول ما تعرضوا لبلاد الصين المجاورة ، فأغاروا على أرضها وهددوا أمن سكانها ، فما كان من الصينيين إلا أن شيدوا حول بلادهم سورهم العظيم من ناحية منغوليا حتى يدرءوا عنهم الهجمات المغولية[1] .

وكانت القبائل المغولية تفتقر إلى الوحدة السياسية التى كان من الممكن أن تخلق منها ماردًا عملاقًا لا يمكن التصدى له أو وقف خطره . وقد توفرت لهذه القبائل الوحدة السياسية ، فى أواخر القرن السادس الهجرى ، على يد فتى من فتيانها يُدعى تيموجين[2] ، أطلق على نفسه لقب جنكيز خان ، أى الخان الأعظم أو الملك الأعظم .

---

(١) المؤلف : تاريخ الدولة العباسية ، ص ٢٣١ .

(٢) وُلد تيموجين فى عام ٥٤٩ هـ من أصول مغولية نبيلة ، وكان أبوه زعيمًا لإحدى قبائل المغول تُوفى قبل أن يتجاوز ابنه تيموجين الثالثة عشرة من عمره . واستطاع تيموجين بفضل شجاعته وقوة شخصيته أن يجمع قبيلته حوله ، رغم صغر سنه . واستطاع فى غضون ثلاثين عامًا أن يقهر كل القبائل المغولية ويجعلها تحت سلطانه وأن يجعل منها شعبًا موحدًا جعل من نفسه سيدًا وحاكمًا مطلقًا عليهم واطلق على نفسه لقب جنكيز خان .

وقد قاد جنكيز خان شعبه فى موجة عاتية وبأعداد كبيرة كالجراد ليجتاح كل ما يقابله ، فبدأ إجتياحه ببلاد الصين الغنية ، ولم يقف سورها العظيم حائلاً أمام أعدادهم الهائلة فتسلقوه واجتاحوا امبراطورية الصين واستولوا على عاصمتها بكين سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م . ثم تقدم جنكيز خان ، بعد ذلك ، بقواته إلى منطقة التركستان الشرقية فاستولى عليها ، ثم هاجم أراضى الدولة الخوارزمية المسلمة بعد أن كانت قد فرغت آنذاك من بسط سيطرتها على كل بلاد فارس والعراق وسيطرت على دولة الخلافة فى بغداد إسوةً بما فعله البويهيون والسلاجقة قبلها . لكن خطر المغول أوقف المخطط الخوارزمى ولم يعط الوقت للخوارزميين كى يحققوا أحلامهم . فتعرضت دولتهم لهجمات المغول الضارية ، وخربوا بلادهم التى فتحوها واستولوا عليها[١] . وقام المغول بنشر الخوف والرعب فى كل مكان وطأته أقدامهم[٢] .

وبعد أن قضى المغول على الدولة الخوارزمية توجهوا إلى قلاع الإسماعيلية فى فارس واجتاحوها وخاصةً قلعتهم «الموت» الحصينة[٣] . ثم توجهوا بعد ذلك بقيادة قائدهم الكبير «هولاكو» لغزو بلاد العراق ، ونجحوا فى اجتياح عاصمة الخلافة بغداد وإسقاط دولة الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم بالله يوم الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م[٤] ، وبذلك طويت على أيدى المغول آخر صفحة من صفحات الخلافة العباسية وانتهت دولة العباسيين فى العراق ، تلك الدولة التى استمر العالم الإسلامى يستظل بظل خلافتها لأكثر من خمسة قرون من الزمان .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٦ .
(٢) عن التخريب الذى أحدثه المغول فى البلاد التى فتحوها انظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، صفحات ٤٠٨ - ٤٢٣ .
(٣) عصام الفقى : الدولة المستقلة ، ص ١٩٧ .
(٤) زامباور : معجم الأنساب ، ص ٤ .

ثانيا : الدولة الفاطمية فى مصر والشام فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) :

١ - دولة الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١ م) :

كانت الدولة الفاطمية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين تحكم مصر والشام والحجاز واليمن ، وكانت من عاصمتها القاهرة تنافس دولة الخلافة العباسية فى السيادة على العالم الإسلامى والدفاع عن الإسلام ضد أى عدوان خارجى[1] .

ويُعد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١ م) أول هؤلاء الخلفاء الذين حكموا فى القرن الخامس الهجرى[2] . وكان جوادًا ، سخيًا ، سفاكًا للدماء ، وكانت سيرته من أعجب السيَّر ، قال المقريزى عنه «أنه كان يعتريه جفاف فى دماغه فلذلك كثُر تناقضه ، وما أحسن ما قال فيه بعضهم من أنَّ أفعاله كانت لا تعلل وأحلام وساوسه لا تُأول» .

(١) نجح الإسماعيليون الشيعة ، الذين تسموا باسم الفاطميين فى إقامة دولتهم بالمغرب على يد أبى عبيد الله المهدى ، أول خلفائهم (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) ، ثم نقلوا حكمهم إلى مصر بعد فتحها سنة ٣٦٢ هـ فى عهد خلافة المعز لدين الله الفاطمى ، على يد قائده جوهر الصقلى . وقد استمر حكم الفاطميين لمصر والشام وأقاموا خلافتهم حتى آخر خلفائهم العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) ، وحتى قضاء صلاح الدين يوسف بن أيوب على هذه الخلافة سنة ٥٦٧ هـ وإقامة حكم له ولأسرته بمصر عُرف بعهد الدولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) . ويلغ عدد خلفاء الفاطميين ١٤ خليفة ، حكم الأربعة الأول منهم فى المغرب (٢٩٧ - ٣٤١ هـ) وحكم أحد عشرة منهم فى مصر ، وهم : المعز ، العزيز ، الحاكم ، الظاهر ، المستنصر ، المستعلى ، الآمر ، الحافظ ، الظافر ، الفائز ، والعاضد . وقد كان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله أول من حكم من هؤلاء الخلفاء فى القرن الخامس الهجرى (٣٨٦ - ٤١١ هـ) ، ثم تلاه فى هذا القرن كل من : الظاهر والمستنصر والمستعلى ، وقد حكم الآمر جزءً من القرن الخامس وخلال القرن السادس الهجرى مع الحافظ والظافر والفايز والعاضد .

(٢) وُلد الحاكم ، أبو على المنصور ، فى القاهرة يوم ٢٣ ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ . وتولى الخلافة وله إحدى عشرة سنة ونصف من العمر فى ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ ، عقب وفاة والده العزيز بالله ببلدة بلبيس (بمحافظة الشرقية) واختير له لقب (الحاكم بأمر الله) وخطب له على منابر مصر والشام وإفريقية والحجاز .

وأنه «كان يحب العزلة ويركب فى الأسواق ويقيم الحسبة بنفسه» . وأنَّ خلافته : «كانت متضادة بين شجاعة وإقدام وجبن وإحجام ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء»[1] .

ويمكن تقسيم مدة حكم الحاكم بأمر الله إلى أربع فترات :

الأولى من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٣٩٠ هـ ، وكانت الفترة الأولى من خلافته ، وكان صبيًا صغيراً دون الثانية عشرة من العمر ، يحكم دون سلطة ، وكانت السلطة فى يد رجلين من رجال دولته : الأول «ابن عمار ، أبو محمد الحسن» الذى تقلد (الوساطة) فى الدولة ، دون الوزارة ، وكانت مقاليد الأمور فى يده لمدة عام[2] . والثانى الطواشى «برجوان الصقلبى»[3] ، الذى قام بالوصاية عليه وكانت مقاليد الأمور الفعلية فى الدولة بيده .

والثانية من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٣٩٥ هـ ، بعد أن تخلص الحاكم من وصاية برجوان ، وكانت السلطة فيها كاملة للحاكم ، رغم صغر سنه ، وفى هذه المرحلة أظهر الحاكم تعصبه الشديد للمذهب الإسماعيلى الشيعى واضطهاده الكبير لأهل السنة وأهل الذمة من اليهود والنصارى[4] .

والثالثة من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠١ هـ ، وهى فترة تميزت باضطراب الدولة نتيجة خطرين تعرضت لهما ، أحدهما فى الداخل والآخر من الخارج . وجاء الخطر الداخلى متمثلاً فى الضائقة الاقتصادية التى عاشتها البلاد آنذاك ونقص الموارد الغذائية بسبب انخفاض مياه نهر النيل ونقص فيضانه مدة ثلاث سنوات متتاليات (٣٩٨ - ٤٠١ هـ) . أما الخطر الخارجى فتمثل فى ثورة قام

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، جـ ٣ ، طبعة القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ ، ص ٤٨٩ (هرب سنة ٣٨٧ هـ) .

(٣) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ ، ص ٩١ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

بها أمير أموى يُدعى (أبو ركوة)[1] . وقد أزعجت تلك الثورة الحاكم حين نجح صاحبها فى هزيمة قوات الدولة فى إقليم برقة (بليبيا) وفى دلتا مصر . ولم تهدأ نفس الحاكم بأمر الله وتطمئن إلا بعد القضاء على هذه الثورة ، والقبض على منفذها فى بلاد النوبة[2] ، وقتله فى القاهرة بعد التشهير به سنة ٣٩٧ هـ[3] .

كذلك تغلبت البلاد على الضائقة الاقتصادية التى عرضت لها ، بعد عودة النيل لفيضانه السنوى المعتاد وعودة المياه إلى الكمية المعتادة اللازمة للرى والشرب.

وبسبب تلك الظروف السيئة التى عاشتها البلاد فى ذلك الوقت ، خفف الحاكم من تعصبه وأظهر ليونةً وتسامحًا ، خوفًا من ازدياد غليان شعب مصر الذى قد يترتب عليه نهاية الخليفة ونهاية الدولة الفاطمية جميعها .

والفترة الرابعة : من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤١١ هـ ، وهى فترة اتسمت سياسة الحاكم فيها بالعودة للعنف مع رعاياه وبالتذبذب والاضطراب فى أحكامه وأوامره والتناقض فى أفعاله ؛ الأمر الذى كان ينذر بقرب نهايته .

ولقد جاءت نهاية الحاكم بأمر الله يوم ٢٨ شوال سنة ٤١١ هـ ، حين اختفى ولم يُعرف مصيره بعد أن خرج ليلاً كعادته إلى مرصده بجبل المقطم ، ثم توجه بعد ذلك إلى منطقة حلوان ، من ضواحى القاهرة ، حيث انقطعت

(١) عن ثورة أبى ركوة ، انظر للمؤلف كتاب : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة ١٩٨١ ، صفحات ٤٩ - ٥٥ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٤ .

أخباره هناك . وكان الحاكم وقتها قد قارب على السابعة والثلاثين عامًا من العمر[1] .

وتقول بعض الروايات[2] أنَّ أخته «ست المُلك» دبرت مقتله بسبب إهاناته لها ، وينفى بعض المؤرخين ، ومنهم المسبحى والمقريزى ذلك . ويقول المسبحى فى هذا الخصوص ما نصه : «فى محرم سنة ٤١٥ للهجرة قُبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله غيرةً لله وللإسلام ، وليس بصحيح ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته»[3] .

ومن الأعمال الطيبة التى تُذكر للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله إذا ما وضعنا شخصه فى ميزان التاريخ ، نجد بعضها يدخل تحت إطار الإصلاحات الاجتماعية وبعضها الآخر تحت إطار الإنجازات الثقافية ، والبعض الثالث يعكس غيرته على الشريعة والدين .

ففى إطار الإصلاح الاجتماعى نجد الحاكم يقاوم الفساد الذى استشرى فى المجتمع المصرى فى أيام والده العزيز بالله ، الذى لم يكن يتشدد مع الناس ولم يضع حدًا لتمادى الشعب فى الانغماس فى الملذات والشهوات واتخاذ ضروب الملاهى وعدم التقيد بتعاليم الدين[4] . فلقد ازداد فى عهد العزيز إقبال الناس على شرب الخمور ، كذلك ازداد سفور النساء وتبرجهن وخاصةً فى أيام الأعياد ، فضلاً عن استخفاف البعض بمشاعر الناس وارتكاب ما يخدش الحياء فى الأماكن العامة[5] .

---

(١) أورد ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، صفحات ١٨٥ - ١٨٩) روايات عدة عن مقتل الحاكم تُظهر أنَّ موته لا يزال لغزًا حتى اليوم .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ ، نقلاً عن ابن الصابى وغيره .

(٣) المسبحى ، عز الملك محمد : أخبار مصر ، جـ ٤٠ ، تحقيق أيمن فؤاد ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ٢ ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، ص ١٠٨ .

(٥) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٩٣ .

وللحد من إنتاج الكميات الكبيرة من الخمور التى كانت تنتج فى مصر آنذاك ، منع الحاكم بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها ، ومنع عصره ، وطُرح «وديس فى الطرقات وغرق كثير منه فى النيل ومُنع من حمله وقطعت كروم الجيزة كلها وسُير إلى الجهات بذلك . . وأراق خمسة آلاف جرة من عسل فى البحر خوفًا من أن تُعمل نبيذًا ، وحرَّم تحريمًا تامًا بيع الفقاع (النبيذ) وهدد باتخاذ أقصى الحدود مع من يبيعه أو يعصره»[1] .

ولمنع النساء من التبرج فى الشوارع والاختلاط بالرجال ، منعهن من الخروج فى الليل والنهار فى الطرق والأسواق[2] ، وأغلق حماماتهن ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن ، فلم يزلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتى مات[3] . وكان قبل ذلك قد أمر بألا تكشف إمرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ، ومنع النساء من زيارة القبور ، فلم يُر فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة[4] ، كذلك منعهن من السير خلف الجنازات . ومنع الناس من إظهار الغناء فى الشوارع أو الميادين والأماكن العامة وعلى ضفاف النيل . وبسبب ما كان يجرى من فجور على صفحة النيل فى الأعياد ؛ منع الناس من ركوب النيل للتنزه فى الأعياد ومن الركوب فى المراكب فى الخليج . وأمر بسد أبواب الدور التى على الخليج والطاقات المطلة عليه . وأمر بألا يدخل أحدٌ الحمام إلا بمئزر . وقام بضرب جماعة بسبب لعبهم الشطرنج[5] .

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، بيروت ١٩٩٥ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(أورد ابن الأثير أنّ الحاكم منع النساء من الخروج من بيوتهن وقتل من خرج منهن فشكى إليه من لا قيمٌ لها يقوم بأمرها فأمر الناس أن يحملوا كل ما يباع فى الأسواق إلى الدروب ويبيعوه على النساء ، وأمر من يبيع يكون له شبه المغرفة بساعد طويل يمده إلى المرأة وهى من وراء الباب وفيه ما تشتريه فإذا رضيت وضعت الثمن فى المغرفة وأخذت ما فيها لئلا يراها) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٨٨ .

ومن إنجازاته الثقافية : فتحه «لدار الحكمة» التى حمل إليها الكثير من الكتب ، وفتح أبوابها للناس ، واشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والنحاة واللغويين والمنجمين . وألحق بهذه الدار مكتبة كبيرة عُرفت بدار العلم احتوت على الآلاف من الكتب فى شتى العلوم والفنون . وكان الخليفة الحاكم قد قصد بإنشاء هذه الدار تقليد الخليفة العباسى هارون الرشيد ، الذى أسس خزانة الحكمة فى بغداد واكتملت فى عهد ابنه الخليفة المأمون[1] . وقد قام خلفاء الفاطميين ، من بعد الحاكم ، بتزويد هذه الدار بالعديد من الكتب حتى وصل عددها إلى حوالى المليون ونصف المليون كتاب[2] .

وبنى الحاكم جامعه الذى تسمى باسمه ، وكان أبوه العزيز قد بدأ فى تأسيسه ووافته المنية دون أن يتمه[3] . كذلك بنى الجامع المعروف بجامع «راشدة» على النيل[4] . غير جوامع كثيرة بناها ونقل إليها المصاحف المفضضة والستور الحريرية وقناديل الذهب والفضة .

ومنع الحاكم الناس كافةً من مخاطبة أحد أو مكاتبته بلفظ سيدنا ومولانا، وحدد بأن تقتصر المكاتبة إليه بلقب أمير المؤمنين ، وأباح دم من خالف ذلك . كذلك نهى الناس عن تقبيل الأرض بين يديه ، كما كان متبعًا مع الخلفاء قبله ، كما منع الصلاة عليه فى الخطب والمكاتبات ، ومنع ضرب الطبول والنفخ فى الأبواق حول قصره ، كما نهى عن إقامة الزينات فى طريقه إلى المصلى ، وصار يخرج للصلاة فى أبسط المظاهر[5] .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، بيروت (د. ت) ، ص ٢١٦ .

(٢) المؤلف : الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٤٩ .

(٣) عن جامع الحاكم ، انظر خطط المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ - ٢٨٢ .

(٤) ذكر المسبحى فى حوادث سنة ٣٩٣ هـ ، أنه أبتدئ فى بناء هذا الجامع فى سابع عشر ربيع الآخر من ذلك العام ، وأن الجمعة أقيمت به فى شهر رمضان من سنة ٣٩٥ هـ ، وصلى به الحاكم صلاة الجمعة فى شهر رمضان سنة ٣٩٨ هـ (المقريزى : الخطط، جـ ٢ ، ص ٢٨٢) .

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .
المؤلف : تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ١٦٣ .

وحرص الحاكم على الإشراف بنفسه على مصالح الدولة ، والتزم بهذه الخطة طيلة حياته ، مع إنزاله العقوبات الصارمة على المخالفين ؛ الأمر الذى فرض هيبته على الناس وجعلهم يلتزمون بأوامره .

واتخذ الحاكم إجراءات حاسمة لمكافحة الغلاء الذى ألَم بالدولة فى الفترة الثالثة من حكمه (٣٩٦ - ٤٠١ هـ) ؛ فأمر بألا يخزن أحدٌ من المؤن أكثر من حاجته . كذلك حدد أسعار القمح والسلع الغذائية وجعل القتل عقوبة المخالفين[١] .

ومن الأعمال التى أُخذت على الحاكم ولم نجد لها مبررًا أو تفسيرًا : تعرض أقرب الناس إليه من الوزراء والكتاب والقضاة والغلمان للعقاب القاسى عليهم[٢] . ومنع الناس من أكل بعض الأطعمة كالملوخية والجرجير والسمك الذى ليس عليه قشر ، وقتله للكلاب وإبادتها عن آخرها من البلاد[٣] . وقتله لعدد من العلماء والكُتاب دون ذنب اقترفوه ، وكتابته سنة ٣٩٥ هـ على أبواب المساجد والجوامع سباب فى الخلفاء أبى بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم، وفى أم المؤمنين السيدة عائشة رضوان الله عليها ، وفى طلحة والزبير ومعاوية ابن أبى سفيان وعمرو بن العاص ، وقيامه بمحو هذا السباب بعد كتابته بعامين[٤] . وهدمه لعدد من الكنائس وبخاصة كنيسة قمامة (القيامة) ببيت المقدس[٥] وأمره للنصارى سنة ٣٩٥ هـ . بتعليق صلبان الخشب فى أعناقهم بحيث يكون طول الصليب ذراعًا وعرضه ذراعًا وألا يقل وزنه عن الخمسة أرطال وأن يكون مكشوفًا ظاهرًا حتى يراه الناس . وأمره لليهود بأن يحملوا

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ ، جـ ٤ ، ص ٢٦٠ .
(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .
(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٢٩ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٧٨ (ثم أعاد بناءها) .

فى أعناقهم قرامى الخشب فى زنة الصلبان ، وأن تكون عمائمهم سوداء اللون، وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بسروج من الخشب وسيور سود غير محلاة ، وبألا يستخدموا فى أعمالهم مسلمًا وألا يشتروا أمةً أو عبدًا[1] .

وفى ختام الحديث عن سيرة الحاكم بأمر الله يأت موضوع إدعائه الألوهية. وفى الحقيقة فإنه ليس هنالك ما يثبت أنَّ الحاكم ذهب فى تصرفاته الدينية إلى حد الخروج عن قواعد الإسلام[2] ؛ على الرغم من الدعاوى التى نسبها الدعاة إليه بعد اختفائه . وقد نُسبت مسألة إدعائه الألوهية إلى نسج متطرفى الشيعة ، الذين عُرفوا (بالغلاة) ، والذين يؤمنون بمبدأ التناسخ ، وهى فرقة تلفظها وتنكرها بقية فرق الشيعة وتنسب أصحابها إلى الكفر[3] .

ولقد أوردت بعض المصادر[4] الأمر قائلةً أنَّ رجلاً يُعرف باسم محمد بن إسماعيل البخارى ، وشهرته الدرزى ، وهو داعية فارسى قدم إلى مصر فى عهد الحاكم بأمر الله ، وكان هذا الرجل يؤمن بالتناسخ ، وأنه اجتمع عند الحاكم ، وزيَّن له أمر إدعاء الربوبية ، وأنَّ هذا الرجل أخذ ينشر هذه الدعوة سرًا بعد أن لقت قبولاً عند الحاكم ، ولكنه حين جهر بها سنة ٤٠٨ للهجرة ، ثار الناس عليه وأهدروا دمه فهرب إلى الشام . وقد قام هذا الرجل بنشر دعواه هناك فى منطقة الجبال ببعض قرى بانياس ، واستمال إلى جانبه كثيرًا من الأتباع الذين صاروا يعرفون باسم «الدرزية» أو «الدروز» ، وهم يؤمنون بألوهية الحاكم وينتظرون عودته اعتقادًا منهم بأنه رُفع إلى السماء ولم يُقتل[5] .

وسرعان ما أعلن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، ابن الخليفة الحاكم ،

---

(١) ابن تغرى بردى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٨ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، صفحات ٩١ - ٩٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٦٠ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٥) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٩١ .

بعد توليه الخلافة بعد أبيه (سنة ٤١١ هـ) ، وبعد مُضى ثلاثة أعوام على وفاة أبيه ، براءة والده من دعوى الألوهية . وأصدر أوامر مشددة بمطاردة كل من يدعى ذلك وتوقيع أقسى العقوبات عليه . وقد جاء ذلك فى رسالة أذاعها الخليفة الظاهر على المصريين[١] .

٢- الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٦ م):

وُلد الظاهر بمصر[٢] ونشأ وتوفى ودُفن بها ، وهو الرابع من خلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر ، وولى الخلافة بعد اختفاء أبيه الحاكم بأمر الله فى شهر شوال سنة ٤١١ هـ ، وكان شابًا يبلغ من العمر ست عشرة عامًا[٣] . وملك الظاهر سائر ممالك والده فى مصر والشام وإفريقية ، وقامت عمته «ست الملك» بتدبير أمر مملكة والوصاية عليه فى السنوات الأربع الأولى من حكمه حتى وفاتها سنة ٤١٥ هـ[٣] .

وكان الظاهر عاقلاً ، سمحًا ، جوادًا ، عفيفًا ، يميل إلى التدين ، وكان حليمًا متواضعًا ، كثير الصدقات[٤] . ألغى ما كان والده قد وضعه من قوانين وقرارات شاذة ، وعدل فى الرعية ، وتسامح مع أهل الذمة ، وأحسن السيرة، وأعطى الجند والقواد الأموال ، واستقام له الأمر مدة[٥] . وكان الظاهر ينظر فى مصالح الرعية بنفسه وفى إصلاح البلاد . وقد سمح للناس بالاستمتاع بحياتهم وأزال عنهم القيود التى فرضها عليهم والده ، فأقاموا حفلات الرقص والغناء وشربوا الفقاع ، وسمح لهم بأكل ما حرم أبوه عليهم أكله كالملوخية والجرجير والسمك . ومال الناس عمومًا فى عهده إلى اللهو والانغماس فى

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، نقلاً عن أبى هلال الصابى .
(٢) وُلد بمدينة القاهرة يوم الرابع عشر من رمضان سنة ٣٩٥ للهجرة .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٣١ .
(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٢٥٢ .

الملذات لاشتغاله هو نفسه بالملذات[1] .

وعمل الظاهر على تحسين أحوال الزراعة فى البلاد ، وزيادة إنتاج الأرض. وتغلب فى سنة ٤١٥ هـ . على أزمة الغلاء التى ضربت البلاد بسبب نقص فيضان النيل . وقد تعرض الناس فى ذلك العام للمجاعة وتظاهروا أمام قصره منادين «الجوع ... الجوع» . وقد نجح الظاهر ، بفضل حسن تدبيره وحنكته فى اجتياز تلك المحنة القاسية التى كادت تودى بحكمه[2] .

ومن أعمال الظاهر المعمارية : بنائه قصر اللؤلؤة بالقاهرة[3] ، وهو من القصور المعدودة فى العاصمة ، وقد تنزه الظاهر فى هذا القصر وتنزه فيه من جاء بعده من الخلفاء وأقاموا فيه أيام فيضان النيل . كذلك أقام الظاهر خزانة للبنود والأعلام رصد فى أعمالها ثلاثة آلاف صانع[4] .

وفى عهد الظاهر وقعت بعض الاضطرابات فى الشام بخروج «صالح بن مرداس الكلابى» عليه فى حلب وتغلبه عليها . كذلك استيلاء «حسان بن المفرج بن الجراح» البدوى[5] ، صاحب الرملة ، على معظم بلاد الشام حتى

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٢٠ (وأورد عنه المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ ، أنه كان مشتغلاً بالأكل والشرب والتنزه وسماع الأغانى) .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٣) أورد ابن تغرى بردى (النجوم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٤) أن بناء هذا القصر كان عند باب القنطرة ، وأنه كان من القصور المعدودة بالقاهرة ، وكان الخلفاء يقيمون به فى أيام فيضان النيل .

(٤) عند حديث المقريزى عند خزائن الفاطميين ، تحدث عن خزانة البنود (الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤) قائلاً : «البنود هى الرايات والأعلام ويشبه أن تكون هى التى يُقال لها فى زمننا العصائب السلطانية ، وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ومن حقوقه فيما بين قصر الشوك وباب العيد ، بناها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله ، وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين فى سائر الصنائع . وكانت أيام الظاهر هذا سكونًا وطمأنينه ، وكان مشتغلاً بالأكل والشرب والتنزه وسماع الأغانى ، وفى زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة فى اتخاذ الأغانى والراقصات وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة» .

(٥) أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ١٢٢ .

غزة . وقد تصدى الظاهر لهذين الخارجين على حكمه فأرسل إليهما جيشًا جعل قيادته لقائده الشهير «أبى منصور أنوشتكين» ، الشهير «بالدزبرى»[1] . وقد تقابل معهما الدزبرى وهزمهما ، واستعاد ما كان بيدهما فى الشام ونزل دمشق ، وكتب كتابًا للخليفة يبشره بالنصر وبعودة الهدوء إلى الشام .

وفى عهد الظاهر حاول الروم الهجوم على مدينة حلب من أنطاكية والاستيلاء عليها ، لكن نائب الخليفة على حلب «شبل الدولة نصر بن صالح» قام بصد هجومهم وهزيمتهم وردهم خائبين ، وأرسل إلى الخليفة يبشره بنصره على الروم ووقفهم عند حدهم[2] .

وتوفى الظاهر بالقاهرة ، وكان مريضًا لفترة طويلة بمرض الاستسقاء ، يوم الأحد منتصف شهر شعبان سنة ٤٢٧ للهجرة ، وهو يبلغ من العمر إحدى وثلاثين عامًا ، وكانت خلافته على مصر والشام ست عشرة سنة وتسعة أشهر[3] . وتولى الحكم من بعده ابنه أبو تميم معد ، الذى لُقب «بالمستنصر بالله» ، وكان طفلاً صغيرًا يبلغ من العمر ثمان سنين ، فقام بالوصاية عليه الوزير على بن أحمد الجرجرائى بعد أخذ البيعة له .

دولة الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) :

هو أبو تميم معد ، ولقبه المستنصر بالله ، خلف والده فى الخلافة وله من العمر سبع سنين (منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ) ، وكانت مدة حكمه أطول مدة حكم لحاكم فى التاريخ الإسلامى ؛ إذ حكم لمدة ستين عامًا وأربعة شهور حتى وفاته سنة ٤٨٧ للهجرة[4] . لم تتمتع بلاد مصر والشام طوال مدة حكمه

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢١٩ .

(٤) توفى فى ٢٨ ذو الحجة ٤٨٧ هـ (زامباور : معجم الأنساب ، جـ ١ ، ص ١٤٠) .

بالأمن والاستقرار والرخاء غير فترة قصيرة ، ووقعت أيامه أحداث سياسية واقتصادية كادت تودى بدولة الفاطميين بعد أن أدت هذه الأحداث إلى تدهور أحوالها فى العهد الثانى لخلفائها .

وفى بداية حكم المستنصر تحكمت فى أمر البلاد والدته ، السودانية الأصل[1] وشرعت فى شراء عدد كبير من الرقيق السود ، أبناء جلدتها ، لتنتصر بهم أمام قوة الجند الأتراك الذين تزايد آنذاك عددهم فى البلاد . وأمسك المستنصر بناصية الأمور فى دولته بعد موت أمه وتقدمه فى السن ، واستعان فى حكمه بوزراء محنكين فى السياسة والإدارة أمثال الوزير «اليازورى» ، الذى عُرف بسيد الوزراء[2] .

ولقد امتد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من حكم المستنصر ، إضافةً إلى مصر ، فشمل بلاد الشام جميعها وجزيرة صقلية فى البحر المتوسط وبلاد المغرب جميعها ، ودعى للمستنصر من فوق منابر الحرمين الشريفين ، كما دعا له «الصليحيون» من فوق منابر اليمن[3] .

ولأول مرة ، فى عهد هذا الخليفة ، يُدعى لخليفة فاطمى من فوق منابر بغداد والبصرة وواسط ، وجميع بلاد العراق دون أن يُدعى للخليفة العباسى . فلقد دُعى للمستنصر فوق منابر هذه البلاد سنة ٤٥١ هـ ، ولمدة عام كامل ، وخُطب له بإمرة المؤمنين . دعا له «أبو الحارث البساسيرى» فى أعقاب نجاح

(١) كانت أم المستنصر أمةً سوداء ، اشتراها الخليفة الظاهر من تاجر يهودى فارسى من بلدة «تستر» يُدعى أبو سعد سهل بن هارون التسترى ، واستولدها المستنصر . وأحرز التسترى المكانة فى مصر فى عهد وصاية السيدة الوالدة على المستنصر أيام طفولته ، وحكمت السيدة الوالدة مع التسترى البلاد .
(المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٥) .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٦ .

(٣) دعا له حاكم اليمن على بن محمد الصليحى من على منابر اليمن سنة ٤٤٢ هـ .

ثورته فى العراق ضد الخليفة العباسى ، «القائم بأمر الله»[1] . وكادت الدعوة الفاطمية تقضى على الدعوة العباسية فى العراق ، معقل العباسيين ، لولا استعانة الخليفة العباسى بالأتراك السلاجقة ودخول قائدهم طغرلبك إلى بغداد وقتله البساسيرى ، وإيقاف الدعاء للفاطميين بعد أن دُعى لهم ببغداد فى أربعين خطبة[2] .

وفى الفترة الثانية من حكم المستنصر انفصلت عن مصر الفاطمية بعض البلاد التى كانت تابعةً لها ؛ فانفصلت عنها بلاد المغرب حين أسس «بنوزيرى» الصنهاجيون دولتهم هناك سنة ٣٦٢ هـ ، وقد نمت هذه الدولة بعد ذلك التاريخ واتسعت[3] . كذلك حين أسس «بنو حماد» دولتهم فى الجزائر سنة ٣٩٨ هـ ، وعملوا على توسيع هذه الدولة خلال حكم المستنصر . كذلك انفصلت عن الفاطميين جزيرة صقلية حين نجح النورمان فى الاستيلاء عليها بقيادة مليكهم «روجر» النورماندى[4] . وزالت سيادة الفاطميين من على الحجاز سنة ٤٦٢ هـ ، حين دعا أمير مكة وأمير المدينة للخليفة العباسى القائم بأمر الله من فوق منابر الحرمين الشريفين[5] .

وبرغم الخلاف السياسى الذى زادت حدته بين الوزراء ، وتقلص سيادة مصر الفاطمية على البلاد التابعة لها آنذاك فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ؛ فيبدو أن مصر تمتعت بالأمن والرخاء فى تلك الفترة . وينعكس ذلك من الوصف الاجتماعى الذى سجله الرحالة الفارسى المسلم «ناصر

---

(١) هو الخليفة القائم بأمر الله ، أبو جعفر عبد الله بن القادر سنة ٤٢٢ هـ .
(السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٥) .
(٢) انظر ما سبق .
(٣) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٢٨ .
(٤) سرور : نفس المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .
(٥) سرور : نفس المرجع السابق ، ص ٢٩ .

خسرو» فى كتاب رحلته عندما زار بلاد الشرق وهو فى طريقه إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج(١) .

غير أن هذا الأمن والرخاء ، الذى سجله ناصر خسرو ، لم يستمر بسبب الأزمة الاقتصادية الطاحنة والمجاعة الشديدة التى تعرضت لها مصر بعد رحلة ناصر خسرو ، وفى الشدة التى تسمت على اسم هذه الخليفة وعُرفت فى التاريخ باسم «الشدة المستنصرية» ، التى تعتبر أقسى وأطول شدة عرفتها مصر طوال تاريخها الإسلامى(٢) .

ولقد تسبب فى هذه الشدة الشهيرة توقف فيضان نهر النيل سبع سنوات متتاليات وانعدام الماء (٤٥٧ - ٤٦٤ هـ) ، الأمر الذى أدى إلى توقف الزراعة وانعدام الأقوات وخراب البلاد وموت أهل مصر جوعًا وانتشار الأوبئة والأمراض وانقطاع السفر برًا وبحرًا(٣) .

وبسبب الاضطراب والفوضى التى عمت البلاد ، أرسل الخليفة المستنصر إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، حاكم عكا ، يطلب منه المجئ لإنقاذ الخلافة

(١) أقام ناصر خسرو بمصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، من ٧ صفر ٤٣٩ هـ إلى أواخر جمادى الثانى ٤٤٢ هـ ، ودوّن ما شاهده فى مصر فى عهد خلافة المستنصر بالله ، فى كتاب رحلته الذى أسماه «سفرنامة» ، بمعنى زاد المسافر ، انظر : سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، طبعة بيروت ١٩٧٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ .

(٣) قيل أنَّ فى هذه الشدة بيع رغيف الخبز الواحد بخمسين دينارًا ذهبًا . ويقول المقريزى « أنَّ فى هذه الشدة لم يعد أحد يركب فى مصر إلا الخليفة لفناء الدواب ، وكان خواص الخليفة إذا مشوا يتساقطون من الجوع ، وآل الأمر إلى أن استعار المستنصر بغلة يركبها من صاحب ديوان الانشاء وكان ذلك سنة ٤٦٠ للهجرة» (الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٦) .

ويقول أبو المحاسن أنه تبعًا لهذه الشدة أن اتضحت قيمة الأشياء الثمينة حتى أنها صارت لا تساوى شيئًا من ذلك روايته «أن امرأة خرجت من القاهرة فى هذا الغلاء ومعها مد جوهر فقالت : من يأخذ هذا ويعطينى عوضه دقيقًا أو قمحًا ؟ فلم يلتفت إليها أحد فألقته فى الطريق ، وقالت : هذا ما ينفعنى وقت حاجتى فلا حاجة لى به بعد اليوم فلم يلتفت إليه أحد وهو مبدد فى الطريق» .

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧) .

والبلاد ، وكان بدر الجمالى قد أظهر شجاعة فائقة فى حربه ببلاد الشام وإدارته الأمور فى تلك البلاد . وقبل بدر الجمالى طلب المستنصر وجاء إلى مصر ، بعد أن ركب البحر من عكا ، ودخل القاهرة فى شتاء ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٤ م ؛ فقلده الخليفة الوزارة وأعطاه السلطة المطلقة والحرية التامة فى إدارة أمور البلاد لرأب الصدع الذى تعرضت له[١] .

ونجح بدر الجمالى ، بفضل حسن تدبيره ، وبفضل ما قام به من إصلاحات سريعه وإخماده ثورات العربان ، ومحاربته عرب لواته الذين استقلوا بإقليم الشرقية[٢] ، ومطاردته اللصوص والمخربين فى الصعيد[٣] . كذلك بفضل عودة مياه النيل إلى طبيعتها الأولى وجريان الفيضان السنوى ، نجح بدر فى إصلاح الحال ووقف المجاعة وإعادة دولاب الحياة إلى العمل على ما كان عليه الحال قبل الشدة[٤] .

وانفرد بدر الجمالى بالأمر فى البلاد حتى وفاته ، فى خلافة المستنصر ، فى ربيع الأول سنة ٤٨٧ هـ، وخلفه فى الوزارة إبنه الأفضل ، وتوفى المستنصر بعد وفاة بدر الجمالى بستة أشهر ، يوم عيد الفطر سنة ٤٨٧ هـ ، بعد أن عاش كالمحجور عليه مع وزيره وإبنه . وبايع الناس من بعد المستنصر إبنه أحمد ، الذى تلقب بلقب «المستعلى بالله» .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٠٧ .

(٣) Wiet, G.: L'Egypte Arabe, T. III, Paris 1937, p. 250 .

(٤) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطاركة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٦٤٣٤ ح ، جـ ٣ ، ورقة ٨٧ .

(وتخليداً لذكرى انتصاره عند بلدة اسنا بالصعيد أمر بدر الجمالى أبا الحسين على بن النضر ، قاضى اسنا ببناء جامع فى موقع المعركة التى انتصر فيها وأن يطلق عليه اسم جامع النصر - النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة ، جـ ٢٦ ، ورقة ٧٠) .

العصر الفاطمى الثانى (٤٨٧ - ٥٦٧ هـ / ١٠٩٣ - ١١٧١ م)

عصر نفوذ الوزراء:

أخذ الضعف يدب فى جسم الدولة الفاطمية فى عصرها الثانى الذى عُرف بعصر نفوذ الوزراء ، والذى استأثر فيه الوزراء بالنفوذ والسلطان ، وأصبح الخلفاء مسلوبى السلطة معهم . وقد حرص هؤلاء الوزراء على اختيار خلفاء صغار ضعاف للحكم يستطيعون أن ينفذوا تحت عباءتهم ما يريدون من سياسة ونفوذ ، ويكونوا أصحاب السلطة الفعليين فى البلاد . ووقع الصراع بين هؤلاء الوزراء فيما بينهم وطمع كل منهم فى إقصاء صاحبه والانفراد بالمكانة دون غيره ؛ مما أدى إلى الكثير من المنازعات والحروب فى أواخر أيام هذه الدولة الأمر الذى عجل بنهايتها بعد حكم تعدى القرنين من الزمان .

والوزراء الذين سطع نجمهم فى دولة الفاطميين فى عصرها الثانى هم : «الأفضل بن بدر الجمالى» فى عهد خلافة المستعلى والآمر ، «والأكمل بن الأفضل بن بدر الجمالى» فى عهد خلافة الآمر والحافظ ، «وبهرام» و«رضوان» فى عهد الحافظ أيضًا ، «وابن السلار» «وابن مصال» فى عهد الظافر ، «وطلائع بن رزيق» وابنه «أبو شجاع العادل» فى عهد خلافة الفائز ، «وشاور» «وضرغام» «وأسد الدين شيركوه» «وصلاح الدين يوسف بن أيوب» فى عهد خلافة العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين .

وكان االأفضل أمير الجيوش بن بدر الجمالى[1] ، الذى تولى الوزارة بعد أبيه ، قد قام بتعيين أبى القاسم أحمد أصغر أبناء الخليفة المستنصر بعد موته وتلقيبه بالخليفة المستعلى بالله ، متجاوزًا بذلك «نزار» ، ابن الخليفة المستنصر الأكبر وولى عهده من بعده ، وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسين عامًا . وكان

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٢٠ .

المستنصر ، فى مرضه الأخير ، قد أراد عقد البيعه لابنه نزار ، لكن الأفضل ظل يدافعه فى ذلك حتى مات دون أن يعقد له[1] ، وكان الأفضل لا يميل لنزار، لتعاليه عليه ، فى الوقت الذى مال فيه للمستعلى ، الذى كان أخًا لأمه ابنة بدر الجمالى ، فأراد بهذا التعيين أن يجمع بيت الجمالى بين الوزارة والخلافة[2] .

ولقد أنكر أتباع نزار من الإسماعيلية هذا التعيين لمخالفته قواعد توارث الإمامة عندهم ، وأدى ذلك إلى ثورتهم على الأفضل والمستعلى والتفافهم حول نزار ، وتكوينهم فرقة إسماعيلية منفصلة عُرفت بالفرقة النزارية . وقد ارتحل نزار إلى الاسكندرية والتف أهلها حوله يبايعونه بالخلافة ، وانضم إليهم والى الاسكندرية، «أفتكين التركى»[3]، وحارب الأفضل بن بدر الجمالى القوات النزارية مرتين ، واستطاع فى المرة الثانية منهما أن يهزم قوات نزار وأن يقوم بالقبض عليه والزج به فى السجن حتى مات به[4] . واستبد الأفضل بحكم البلاد ، دون المستعلى ، أضعاف استبداد أبيه على المستنصر ، وظل المستعلى ، طوال حياته ، محجوراً عليه من الأفضل حتى وفاته سنة ٤٩٥ هـ[5] .

وفى أيام خلافة المستعلى ووزارة الأفضل ، وهنت دولة الفاطميين ، وانقطعت دعوتهم من أكثر مدن الشام ، واستولى عليها الأتراك والصليبيون[6] . ونزل الصليبيون على أنطاكية وحاصروها مدة ثمانية أشهر

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٣٥ .

(٢) سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١١٣ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٣٧ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٨ .

(٦) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٥ (وكانت بلدة تيقية أول البلدان التى استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م ، ومنها ساروا واستولوا على حصون البارة ، من نواحى حلب وجبل السماق وفامية وكفر طاب ونواحيها) .

واستولوا عليها فى سادس عشر رجب سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) ، وأخذوا «المعرة» سنة ٤٩٢ هـ ، ثم أخذوا القدس فى يوم الجمعة ٢٣ من شعبان من نفس العام ، واستولوا على كثير من مدن الساحل ، فى غفلة من أمر المستعلى والأفضل .

ولمَّا توفى المستعلى ، قام الأفضل بتنصيب أبى على منصور ، ابن الخليفة المستعلى ، وكان طفلاً فى الخامسة من عمره ، خليفةً مع تلقيبه بلقب «الآمر بأحكام الله»[1] . واشتدت سلطة الأفضل ، فى عهد خلافة الآمر ، وصار هو الحاكم الفعلى للبلاد مدة ثمان وعشرين عامًا ، حتى أدركته الوفاة سنة ٥١٥ هـ[2] .

وجاءت نهاية الأفضل باغتياله ، على يد «أبى عبد الله محمد بن البطائحى» ، أحد خواصه ، بتحريض من الخليفة الآمر ، الذى بلغ سن الشباب ، والذى صمم على القبض على مقاليد الأمور فى البلاد ، دون وزيره ، بعد أن اشتد عوده[3] .

وقد خلف ابن البطائحى الأفضل فى الوزارة ولقَّب نفسه «بالمأمون» ، وبرغم كفاءة هذا الوزير الإدارية والمالية ؛ إلا أنه لم يصل إلى المكانة التى كان قد وصل الأفضل إليها . كذلك فإنَّ هذا الوزير لم يسلم من بطش الخليفة الآمر، الذى تخوف من أن يتجبر فى معاملته له تجبر الأفضل وأن يخضعه لسلطانه. فقبض عليه الخليفة سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ، وصادر أمواله ، وألقى به فى السجن مدة ثلاث سنوات قتله بعدها مع خمسة من إخوته .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٤٠ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٤ .

(٣) قام الآمر بعد قتل الأفضل بمصادرة أمواله وممتلكاته التى بلغت حوالى ستة مليون دينارًا ذهبًا و ٢٥٠ جوالاً مملوءة بالدراهم الفضية الخالصة و ٧٥ ألف ثوب من الحرير الغالى الثمن (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧٠) .

وولىَّ الوزارة ، بعد البطائحى[1] ، أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى[2] ، بإرادة مماليك أبيه ، الذين نجحوا فى التخلص من الخليفة الآمر بقتله سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ، ثأرًا لمقتل سيدهم. وقد لقب مماليك الأفضل الوزير أحمد بلقب «أمير الجيوش»[3] ، وقام هذا الوزير ومماليك الأفضل ، بعد الخلاص من الخليفة الآمر ، بتعيين أبى الميمون عبد المجيد ، ابن عم الآمر ، خليفةً ولقبوه «بالحافظ لدين الله» .

وكان الصليبيون ، قد استولوا فى أيام الآمر ، على كثير من المعاقل والحصون بسواحل الشام ، فملكوا عكا فى شهر شعبان سنة ٤٩٧ هـ ، وملكوا غزة فى شهر رجب سنة ٥٠٢ هـ ، وطرابلس فى شهر ذى الحجة ، وبانياس وجبيل وقلعة تبنين فى نفس العام ، وملكوا صور فى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) .

أما عن الوزير أحمد أمير الجيوش ، فقد استبد بالحكم دون الخليفة الحافظ ، ولم يكن للخليفة معه سوى الاسم ، وقام بالتضييق عليه ومنعه من الظهور للناس وحجزه فى خزانة لا يدخل أحد عليه فيها إلا بأمره . وكان هذا الوزير إمامى المذهب ، مخالفًا للمذهب الإسماعيلى[3] الأمر الذى جعل الإسماعيليين يسعون للخلاص منه ، وقد نجحوا فى ذلك حين قام باغتياله «يانس الأرمنى» أحد غلمان الوزير ، أثناء لعبه بالكرة (البولو)[4] . وقد قام يانس ، بعد ذلك ، بإخراج الخليفة الحافظ من سجنه ، فاختاره الحافظ للوزارة ولقبه بأمير الجيوش ؛ غير أنَّ الحافظ ما لبث أن تخلص منه بدس السم له فى

(١) والبطائحى هذا هو الذى بنى فى أواخر سنى وزارته جامع الأقمر ، القائم الآن بشارع النحاسين بمنطقة الجمالية بمدينة القاهرة .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧٠ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٩١ ، ٣٥٧ .

الشراب بعد توليه الوزارة بتسع شهور[١] . وحاول الحافظ أن يحكم منفردًا دون أن يتخذ له وزيرًا ، لكن العسكر أجبروه على أن يتخذ «بهرام الأرمنى» وزيرًا ، فرضخ لإرادتهم ، واستكثر بهرام من جلب أبناء جلدته الأرمن إلى مصر حتى بلغ عددهم فى وقت قصير ثلاثين ألفًا .

ومقابل ذلك بعث أمراء الجيوش وقواده إلى والى الغربية ، «رضوان بن ولخشى» لينقذهم من تحكم الأرمن ، وكان عسكريًا شجاعًا ، فأجابهم إلى طلبهم ، وقدم إلى القاهرة على رأس قواته . واضطر بهرام إلى الهرب ، وتولى رضوان الوزارة للحافظ واتخذ لنفسه لقب «ملك» ، وهو أول من لُقب من الوزراء بهذا اللقب وسار الوزراء من بعده على هذا التقليد[٢] .

ولقد حاول الوزير رضوان إقصاء الخليفة الحافظ عن الخلافة ، إلا أنَّ الحافظ نجح فى إفشال مخططه وقبض عليه وسجنه عشر سنوات قتله بعدها[٣]. وكان الخليفة الحافظ قد بلغ آنذاك الخامسة والسبعين من العمر دون أن يستوزر أحدًا بعد رضوان ، وظل على هذه الحال حتى وفاته سنة ٥٤٤ هـ[٤] .

وبعد موت الحافظ ، خلفه إبنه الأصغر أبو منصور إسماعيل ، الذى تلقب بالخليفة «الظافر بأمر الله» ، وكان يبلغ من العمر سبع عشرة عامًا ، وكان مغرمًا باللهو والغناء والنساء أكثر من اهتمامه بأمور الحكم ، ولذلك كانت أيام خلافته أيام اضطراب وعدم استقرار[٥] .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٥ ، ص ٢٤٠ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٥٧ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) توفى الحافظ ليلة الخامس من جمادى الأخرة عن ٧٧ سنة ، منها مدة خلافته ١٨ سنة و ٤ أشهر و ١٩ يومًا .

(٥) استولى فى أيامه الصليبيون على مدينة عسقلان وقلعتها .

ولقد وزر للظافر أمير الجيوش «نجم الدين أبو الفتح بن مصال»[1] ، الذى أحسن السيرة واستقامت الأمور فى البلاد فى بداية عهد وزارته . لكن الأمور لم تصف لابن مصال فقد خرج عليه «ابن السلار الكردى» ، والى البحيرة والإسكندرية ، فاضطر ابن مصال للهرب ، وحل ابن السلار مكانه فى الوزارة وتلقب بالملك العادل[2] .

وكان الوزير ابن السلار شافعى المذهب سُنيًا ، وقد حاول نشر هذا المذهب السنى فى البلاد وإحلاله محل المذهب الإسماعيلى ، مذهب الدولة الفاطمية الرسمى . وقد أدى ذلك الأمر إلى حقد الخليفة ورجاله عليه فقاموا بالتخلص منه باغتياله سنة ٥٤٨ هـ . وولى الوزارة بعد ابن السلار وزير يُدعى عباس الصنهاجى سنة ٥٤٩ هـ . وقد قام عباس هذا وإبنه نصر باغتيال الخليفة الظافر وإحلال إبنه «عيسى» مكانه ، وكان طفلاً فى الخامسة من عمره ، باسم الخليفة «الفائز بنصر الله»[3] .

نهاية الدولة الفاطمية :

وبسبب اغتيال الخليفة الظافر ، اضطربت الأمور فى البلاد ، وسادت الفوضى واستعر القتال بين الفرق المتطاحنة . وساد الفزع القصر الخلافى ، فأرسل نساء القصر إلى والى الأشمونين وقوص والصعيد كبير الأمراء «طلائع ابن رزيق» يطلبن منه إنقاذهن بعد تعرض الجند المتطاحنة لهن . فاستجاب طلائع لطلبهن وقدم القاهرة سنة ٥٥٤ هـ ، وتولى الوزارة وتلقب «بالملك الصالح»[4] ، بعد هرب الوزير عباس وإبنه .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٤٥ .
(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٨٨ .
(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٨٩ .
(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ .

وكان ابن رزيق رجلاً قويًا ، وكانت مصر آنذاك بحاجة لرجل مثله ، فنجح فى القضاء على الفوضى وأخمد ثورات الجند السودان وغيرهم . وظل ابن رزيق قابضًا على زمام الأمور حتى وفاة الخليفة الفائز وهو صغير السن سنة ٥٥٥ هـ[1] ، دون وصية لمن يخلفه . فأقام ابن رزيق بعده أبا محمد عبد الله ابن يوسف ، حفيد الخليفة الحافظ ، خليفة ولقبه «بالعاضد لدين الله» ، وكان يبلغ من العمر وقتها أحد عشرة سنة[2] .

وكان العاضد آخر خلفاء دولة الفاطميين ، وشاءت إرادة الله أن تكون نهاية الدولة الفاطمية على عهده . وقد قام ابن رزيق بتزويج إبنته للعاضد ليجمع حفيده بين الوزارة والخلافة . وكان ابن رزيق إمامى المذهب ، وعمل على تخليص مصر من المذهب الإسماعيلى الشيعى ؛ الأمر الذى أثار الإسماعيلية ضده ؛ فتآمرت عمة الخليفة الفائز مع جند السودان على قتله[3] .

وبعد مقتل طلائع بن رزيق ، خلفه فى الوزارة إبنه رزيق بن طلائع ، فأقام فى الوزارة سنة وعدة شهور ، وقد جاءت نهايته على يد والى قوص ، شاور بن مجير السعدى ، الذى ولى الوزارة وقام بالحجر على الخليفة العاضد[4] . واستمر شاور فى الوزارة إلى أن خرج عليه «ضرغام بن عامر» ، أحد أمراء بنى رزيق ، فحارب قوات شاور التى كان يقودها إبنه «طئ» . ونجح ضرغام فى هزيمة قوات شاور وقتل طئ ، فهرب شاور إلى الشام مستنجداً بأمير الشام «نور الدين محمود بن زنكى»[5] .

(١) توفى الفائز يوم ١٧ رجب ، وعمره ١١ سنة وستة أشهر ، منها فى الخلافة ٦ سنين و٥ أشهر .
(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ .
(٣) قتل فى رمضان سنة ٥٥٦ هـ .
(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ .

وهنا يتدخل نور الدين محمود فى شئون مصر وقواده أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب ، كما يتدخل الصليبيون فى أمر النزاع بين الوزيرين شاور وضرغام ، وينتهى الأمر بنهاية دولة الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ بعد موت الخليفة العاضد وإلغاء صلاح الدين للخلافة الفاطمية وتدخل مصر والشام فى عهد حكم دولة جديدة هى الدولة الأيوبية التى أقامها فى مصر السلطان صلاح الدين الأيوبى ، والتى سوف يتصدى حكامها ، وعلى رأسهم صلاح الدين لدفع العدوان الصليبى على ديار المسلمين .

✍ ✍ ✍

الباب الثانى

الغرب الأوربى والعدوان الصليبى على العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)

أولاً : حال غرب أوربا فى العصور الوسطى :

- الامبراطورية الرومانية الغربية .

فرنسا - إنجلترا

ثانيـًا : الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)

ثالثـًا : الحروب الصليبية دوافعها وبدايتها ووقائعها .

رابعًا : الممالك الأسبانية المسيحية فى بلاد الأندلس (حتى نهاية القرن الخامس الهجرى) .

خامسًا : نذر العدوان المغولى الوثنى على العالم الإسلامى .



الباب الثانى

الغرب الأوربى والعدوان الصليبى على العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)

أولاً : حال غرب أوربا فى العصور الوسطى :

الإمبراطورية الرومانية الغربية :

أعقب سقوط الامبراطورية الرومانية فى غرب أوربا على أيدى قبائل الجرمان ، التى هاجمتها من شمال أوربا سنة ٤٧٦ ميلادية ، فترة قاتمة عمت هذه القارة ، إمتدت حتى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، وبسبب ذلك ، أطلق بعض المؤرخين على تلك الفترة الزمنية من فترات التاريخ الأوربى اسم العصور المظلمة . وقد عاشت أوربا خلال تلك العصور فى إنحلال سياسى وتدهور اجتماعى وتخلف ثقافى وفقر اقتصادى . وإذا كان غرب أوربا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام حكم الامبراطور «شارلمان» فى أوائل القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى ، فإن هذه الصحوة جاءت لوقت قصير ، سرعان ما خبت ، بسبب هجوم غزاة الشمال (الفايكنج) على غرب أوربا ، وهجوم (الهنغاريين) المجرين على وسط القارة يخربون ويدمرون. وفى وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربى بالنظام الإقطاعى

للحصول على قدر من الأمان والحماية ، فانحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع الميلادى ، واضطر أباطرة وملوك أوربا إلى التنازل عن الكثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع[1] .

وفى ظل النظام الإقطاعى ، الذى عاشته أوربا آنذاك ، دفعت العامة ثمنًا غاليًا فى ظل نظام اعتمد فى فلاحة الأرض على الأقنان ، رقيق الأرض ، وقام على أساس تحكم القوى فى الضعيف . ولم يكن فى استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأى جهد لتعديل الأوضاع الاجتماعية الفاسدة داخل المجتمع الأوربى ، لأنّ الكنيسة نفسها - التى ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية - تمثل أكبر قوة فى المجتمع الغربى ، تعرضت هى الأخرى لموجة جارفة من الإنحلال والضعف فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . فجرف التيار الإقطاعى رجال الدين ، وتصدع سلطان البابوية ، وانحط المستوى الأخلاقى لرجال الكنيسة عمومًا .

غير أن الظلام الذى ساد أوربا فى العصور الوسطى ، سرعان ما أخذ فى الانقشاع والتبدد مع إنبثاق شمس الإشعاع الحضارى فيها فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، بحصول الصحوة الكبرى التى تعرض لها الغرب الأوربى آنذاك وبلغت ذروتها فى القرن التالى ، واستمرت ، بعد ذلك، حتى نبعت منها النهضة الأوربية الحديثة فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) .

ولقد مست هذه الصحوة جميع أركان الحياة فى غرب أوربا وفى كل المجالات. ففى المجال السياسى بدأت أوربا تستقر سياسيًا وتقوم الدول فيها ، بعد توقف إغارات قبائل الفايكنج عليها ، فأخذ ملوك أوربا يدعمون سلطانهم فى بلادهم ويدعمون أثاثها . وفى المجال الثقافى أخذ الأوربيون يتعرفون على

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٧ .

حضارة الشرق الزاهرة آنذاك ويتلقون العلم والمعارف على يد علماء المسلمين فى المشرق والمغرب ، وعلى ما ترجموه من كتبهم فى شتى العلوم والفنون . وفى المجالين الاجتماعى والاقتصادى ظهر نشاط المدن الأوربية وصحوتها ، وبخاصة مدن إيطاليا ، التى نشأ فيها نظام الكوميونات ، وما صحب هذه النظم من هجرة الكثيرين من أقنان الأرض إلى تلك المدن وغيرها للعمل فيها مما أدى إلى نهضة اجتماعية واقتصادية خطيرة .

ولم تقتصر هذه الصحوة الأوربية ، آنذاك ، على مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ؛ وإنما شمل أيضًا مجال الدين ، ذلك لأن الكنيسة الغربية تعرضت ، فى ذلك الوقت، لحركة إصلاح شاملة عُرفت باسم الحركة الكلونية[١] . وقد بدأت هذه الحركة فى القرن العاشر الميلادى ، بقصد إصلاح الحياة الديرية، ولكنها لم تلبث أن إتسع نطاقها فى القرن التالى ، حتى صار هدفها الرئيسى إصلاح الكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التى داهمت الكنيسة آنذاك وأهمها السيمونية[٢] ، وزواج رجال الدين[٣] ، والتقليد العلمانى[٤] .

---

(١) ارتبطت حركة الإصلاح البابوى بأسماء أربعة من الباباوات ، هم : ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤ م) ، فيكتور الثانى (١٠٥٤ - ١٠٥٧ م) ، ستيفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨ م) ، ونيقولا الثانى (١٠٥٨ - ١٠٦١ م) ، وينتمى هؤلاء الباباوات إلى الحركة الإصلاحية للكنيسة التى نبعت من دير كلونى فى برجنديا فى القرن العاشر الميلادى ، ولذلك عُرفت باسم حركة الإصلاح الكلونية (ليلى عبد الجواد : تاريخ أوربا فى أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ٢٠) .

(٢) السيمونية : تعنى بيع الوظائف الدينية أو المتاجرة فيها ، وتُنسب إلى سيمون الساحر ، الذى ورد عنه فى الإنجيل (أعمال الرسل : الإصحاح الثامن) أنه حاول إغراء القديس بطرس بمبلغ من المال لقاء أن يبارك له سحره ، فرفض القديس بطرس ذلك وأجابه بقوله : «إنك هالك مع فضتك لأنك تحاول الحصول على بركة الله بالدراهم» . لذلك اعتبرت الكنيسة كل من يحاول الحصول على الوظائف الدينية بالمال «سيمونى» خارج عن الدين .

(٣) أصدر البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٤ م مرسومًا بتحريم زواج رجال الكنيسة الكاثوليكية تحريمًا تامًا .

(٤) وتعنى أن يقوم الأمير أو الحاكم أو الامبراطور بتقليد أو بتعيين رجال الدين فى مناصبهم الكنسية ، نظرًا لأن البابا جريجورى السابع كان يؤمن بفكرة «السمو البابوى» وأنه ارتبط بحركة الإصلاح الكلونية التى =

وإذا كانت الكنيسة قد أفلحت فى أمر السيمونية وزواج رجال الدين ، فإن مسعاها فى حل التقليد العلمانى لم ينجح ، مما أوقع الكنيسة فى صراع عنيف مع السلطة العلمانية ، وهو الصراع الذى أطلق عليه المؤرخون : النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى[1] . وقد بدأ هذا الصراع فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، واستمر حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى. واتخذ هذا الصراع شكلاً عنيفًا منذ سنة ١٠٧٦ م، أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عامًا ، واستمر بعد ذلك سنوات طويلة ، حشدت خلالها كل من البابوية والامبراطورية جميع قواها وإمكاناتها لتغلب كل طرف منهما على الطرف الآخر .

وقد بدأت المرحلة الأولى لهذا الصراع بين البابا «جريجورى السابع» والامبراطور «هنرى الرابع» ، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٠٧٣ - ١١٢٢ م) ، وقد بدأ هذا الصراع بين البابا والامبراطور حين أوعز أساقفة ألمانيا إلى هنرى الرابع بعدم موافقتهم على تعيين البابا جريجورى السابع فى منصبه لعدم شرعية تعيينه فى هذا المنصب لأنه لم ينتخب ولكنه عُين بواسطة البابا السابق (اسكندر الثانى) . ووافق البابا ، رغم معارضة الأساقفة ، على تعيين جريجورى فى منصب البابوية ؛ إلا أنه وقع الخلاف بينهما فيما بعد حين أصر البابا جريجورى على إلغاء التقليد العلمانى لرجال الكنيسة ، وإصداره قرارًا بذلك فى مجمع روما سنة ١٠٧٥ م . وقد أحدث هذا القرار رد فعل عنيف فى الأوساط الألمانية ، لأن الأباطرة الألمان اعتمدوا كثيرًا على رجال الدين فى شئونهم الإدارية ، كما أن نصف ممتلكات الامبراطورية كانت بيد

- تهدف إلى عدم سيطرة الأمراء والحكام على الهيئات الدينية وأن رجل الدين لا يستمد سلطته من الحاكم وإنما يستمدها من الله مباشرة . لذلك وضع جريجورى مسألة التقليد العلمانى على رأس قائمة إصلاحاته .

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٥٠ .

رجال الدين الذين يدينون بالتبعية للامبراطور ، كما أنَّ تحرر هؤلاء بأملاكهم من السيطرة الامبراطورية يعنى الدمار للحكم الامبراطورى .

واشتد الصراع بين البابا والامبراطور حين قام هنرى الرابع بتعيين أسقفًا جديدًا لميلان ، الأمر الذى أثار البابا ، مما جعله يرسل إليه إنذارًا وتهديدًا بعقوبة الحرمان من غفران الكنيسة . وقد رد الامبراطور على البابا بعقد مجمع دينى فى مدينة «ورمز» سنة ١٠٧٦ م حضره ٢٤ أسقفًا ، وأقر هذا المجمع بطلان تعيين البابا جريجورى وعزله عن منصبه . ورد البابا على الامبراطور بعقده مجمعًا فى الفاتيكان (فبراير ١٠٧٦ م) ضم عددًا من أساقفة إيطاليا وفرنسا، وقرر هذا المجمع إصدار قرار التحريم الثلاثى ضد هنرى ، وهو يتضمن اللعن والخلع والحرمان من غفران الكنيسة . وقد سارع الامبراطور بطلب العفو من البابا فعفى عنه ، وهكذا سجلت البابوية نصرًا روحيًا على السلطة الزمنية بينما سجل الامبراطور نصرًا دبلوماسيًا بفوزه بعفو البابا ، وتفويت الفرصة بذلك على الأمراء الذين عزموا على عزله من عرش ألمانيا[1] .

وعند وفاة هنرى الرابع تولى عرش البلاد بعده إبنه «هنرى الخامس» فى ألمانيا (١١٠٦ - ١١٢٥ م) ، الذى لم ينته الصراع بينه وبين البابوية ، ولكن هذا الامبراطور ، ما كادت تستقر له الأمور فى ألمانيا حتى استأنف نضال أبيه ضد البابوية فى تأكيد حق الأباطرة فى تقليد رجال الدين وظائفهم . ولقد استمر هذا الصراع قائمًا بين البابوية والامبراطورية طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، خلال فترة الحروب الصليبية.

فرنسا خلال القرن الحادى عشر الميلادى:

مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، حكمت فرنسا أسرة «كابيه» ،

(١) ليلى عبد الجواد : نفس المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

التى حلت محل الأسرة الكارولنجية التى انتهى حكمها سنة ٩٨٧ م . ويعتبر وصول هيوكابيه ، الأمير الإقطاعى والممثل لكبار الإقطاعيين فى بلاد غالة للحكم انتصاراً للإقطاع فى فرنسا ، واستطاع هيو أن يثبت حكم بيته فى فرنسا آنذاك ، كما توج ابنه روبرت فى حياته ملكًا على فرنسا ، وصار ملكًا عليها بعد وفاة أبيه (٩٦٦ - ١٠٣١ م) ، ثم خلفه ابنه هنرى الأول (١٠٣١ - ١٠٦٠ م) ، ثـم فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨ م) ، ثم لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧ م) . ثم حكم فرنسا بقية ملوكها من آل كابيه الذين عاصروا الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) ، وهم لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م)، وفيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) ، ولويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) فى القرن الثالث عشر الميلادى .

انجلترا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين :

كانت انجلترا تعيش فى عزلة عن أوربا قبل الفتح النورماندى لها على يد الفاتح «وليم النورماندى» ، الذى أخرجها من عزلتها وزاد من ارتباطها بأوربا، فضلاً عن أنه نقل إليها ما كان سائداً فى فرنسا من تطور حضارى . وقد دخل وليم فى صراع مع فيليب الأول ، ملك فرنسا ، وخلال هذا الصراع سقط وليم الفاتح من على ظهر جواده فأصيب إصابة خطيرة مات على أثرها .

وينتهى حكم النورمان فى انجلترا بارتقاء هنرى الثانى عرشها فى عام ١١٥٤ م ، حتى عام ١١٩٨ م . وقد عمل هنرى على إحلال الأمن والاستقرار فى انجلترا ، كذلك عمل على ضرب الإقطاع فى انجلترا وقام بتدمير حصون وقلاع الأمراء الإقطاعيين بها. وكان لهنرى أربعة أبناء ذكور وهم هنرى وريتشارد وجودفرى ويوحنا ، وقد توفى هنرى عام ١١٩٨ م . وخلفه على عرش البلاد ابنه ريتشارد الذى عُرف «بريتشارد قلب الأسد» ، وقد قضى قلب الأسد معظم حياته فى الحرب والمغامرة والفروسية فى مجالين : الأول منهما :

مجال الحرب ضد فرنسا ومليكها فيليب أغسطس ، والثانية فى الحروب الصليبية ودوره الرئيسى فى الحملة الصليبية الثالثة . وقد مات ريتشارد قتيلاً أصابه سهم طائش عام ١١٩٩ م ، أُطلق عليه من إحدى القلاع الإقطاعية التى ناصبها العداء .

ثانياً : الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) :

فى الوقت الذى سقطت فيه الامبراطورية الرومانية الغربية رسميًا سنة ٤٧٦ م فى أيدى الجرمان ، نجا الشطر الشرقى من هذه الامبراطورية من خطر الغزاة ، ونجح فى فرض سيطرته ونفوذه على مقاطعاته ، بعد أن سحق أباطرته حركات التمرد والانفصال ، التى كان يثيرها كبار الإقطاعيين وكبار قادة الجيش من العناصر الأجنبية . وكذلك بنجاحهم فى فرض الانضباط السياسى على الجيش بوضع القيادة العليا فى يد أكثر من قائد وعدم تركيزها فى يد قائد واحد.

ومع مطلع القرن السادس الميلادى ، حكمت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، التى عرفت بالدولة البيزنطية أسرة الامبراطور جستنيان ، أشهر الأباطرة البيزنطيين (٥١٨ - ٦١٠ م) ، (٦١٠ - ٧١٧ م) ثم تلاها حكم أسرة هرقل ، التى ظهرت فى عهدها الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية[1] ، ثم تلاها عهد الأسرة الأيسورية (٧١٧ - ٨٢٠ م) ، ثم الأسرة العمورية (٨٢٠ - ٨٦٧ م) ، ثم الأسرة المقدونية (٨٦٧ - ٩٧٦ م) فى عهد حكمها الأول ، ثم فى عهد حكمها الثانى (٩٧٦ - ١٠٥٧ م) ، ثم أسرة دوكاس (١٠٥٧ - ١٠٨١ م) ، ثم أسرة آل كومنينوس (١٠٨١ - ١١٨٥ م) ، ثم أسرة آل أنجيلوس (١١٨٥ - ١٢٠٤ م) .

---

(١) تولى هرقل عرش الامبراطورية سنة ٦١٠ م ، وهو العام الذى نزل فيه الوحى على سيدنا محمد ﷺ بمكة .

وسوف نقصر كلامنا فى هذا المجال عن حال الامبراطورية البيزنطية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، وهى الفترة المحددة للبحث . وقد حكم فى هـذه الفترة البيت المقـدونى بعد أن عاد مرة أخرى للحكم على يد الامبراطور «باسيليوس الثانى» (٩٧٦ - ١٠٢٥ م)[١] .

ومن أهم الأعمال التى قام بها هذا الامبراطور حربه للبلغار وإلحاقه الهزيمة الساحقة بهم وإنهاء مملكتهم وضمها جميعها للامبراطورية . وحاول باسيليوس مهاجمة بلاد الشام سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، واستولى على حمص وحلب وصيدا ، ثم عاود الهجوم على الشام مرة أخرى سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م ، ووصلت قواته إلى طرابلس ، وانتهت المعارك بينه وبين الفاطميين ، الذين كانوا يحكمون الشام آنذاك ، بتوقيع معاهدة صلح بينه وبين الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٢ هـ/ ١٠٠١ م . ولم تحدث أى وقائع بينه وبين الفاطميين بعد ذلك حتى وفاته .

كذلك كان من أعمال هذا الامبراطور ، فرض سيطرة الروم على بلاد أرمينيا ، بقصد حمايتها من خطر الأتراك السلاجقة ، الذين كانوا قد بدأوا فى الظهور على مسرح الأحداث . ولم تجد قوات الامبراطور أى صعوبة فى اجتياح تلك البلاد ؛ نظراً لترحيب أهلها الأرمن المسيحيين بقوات الروم ورغبتهم فى الاحتماء بعباءتهم وتم ذلك الاجتياح لبلاد الأرمن عامى ٤١٢ - ٤١٣ هـ (١٠٢١ - ١٠٢٢ م) .

ولقد طمع الامبراطور البيزنطى «باسيليوس الثانى» ، أيضًا فى استعادة

(١) على أثر موت الامبراطور يوحنا تزيميسكيس سنة ٩٧٦ م ، تم انتقال العرش فى هدوء إلى الأمير باسيليوس الثانى وشقيقه قسطنطين الثامن ، وفى البداية حكم الأميران معًا كامبراطورين شريكين ، ثم تنازل قسطنطين لأخيه عن الحكم وتفرغ للفنون والآداب .

جزيرة صقلية من يد حكامها «الأغالبة» المسلمين ، واستعادة الأجزاء التى احتلوها فى جنوب إيطاليا ؛ لكن المنية عاجلته قبل تحقيق أحلامه ، وذلك فى عام ١٠٢٥ م (٤١٦ هـ) . وكان باسيليوس الثانى هذا ، آخر أباطرة بيزنطة المحترمين ؛ إذ لم يخلفه على عرش بلاده أحد يدانيه فى كفاءته وإخلاصه لها، ولهذا كان موته يُعد بداية العد التنازلى لأمجاد الروم؛ إذ أخذت الامبراطورية، بعده ، تفقد ممتلكاتها بنفس السرعة التى صعدت بها على يديه[1] .

وقد تلى حكم الامبراطور باسيليوس الثانى ، حكم سلسلة من الأباطرة البيزنطيين الضعاف ، وهم : «قنسطنطين الثامن» (١٠٢٥ - ١٠٢٨ م/ ٤١٦ - ٤١٩ هـ)، و«رومانوس الثالث» (١٠٢٨ - ١٠٣٤ م/ ٤١٩ - ٤٢٦ هـ) ، و«ميخائيل الرابع» (١٠٣٤ - ١٠٤١ م / ٤٢٦ - ٤٣٣ هـ) ، و«ميخائيل الخامس» (١٠٤١ - ١٠٤٢ م/ ٤٣٣ - ٤٣٤ هـ) ، و«قسنطنطين التاسع» (١٠٤٢ - ١٠٥٥ م / ٤٣٤ - ٤٤٤ هـ) ، و«الامبراطورة تيودورا» ، أرملة قنسطنطين التاسع (١٠٥٥ - ١٠٥٦ م/ ٤٤٤ - ٤٤٥ هـ) ، و«الامبراطور ميخائيل السادس» (١٠٥٦ - ١٠٧١ م/ ٤٤٥ - ٤٦٤ هـ) ، و«الامبراطور ميخائيل السابع» (١٠٧١ - ١٠٧٩ م/ ٤٦٤ - ٤٧٢ هـ) ، ثم «الامبراطور نقفور الثالث» (١٠٧٩ - ١٠٨١ م/ ٤٧٢ - ٤٧٤ هـ) . وبخلع الامبراطور نقفور الثالث عن العرش سنة ١٠٨١ م (٤٧٤ هـ) ، انتهى عصر البيت المقدونى ، ليخلفه فى حكم الإمبراطورية بيت أسرة جديدة هى «أسرة كومنين» (١٠٨١ - ١١٨٥ م/ ٤٧٤ - ٥٨١ هـ) .

ومن أهم الأحداث ، التى تهم العالم الإسلامى ووقعت فى عهد حكم البيت المقدونى لبيزنطة ، وفى عهد الامبراطور «قنسطنطين الثامن» بالذات ، توقيعه معاهدة مع الدولة الفاطمية ، عندما زار مبعوث الخليفة الفاطمى

(١) Steven Runciman: Byzantine Civilization, London, 1960, p.49 .

«الظاهر لإعزاز دين الله» ، مدينة القسطنطينية حيث تم هنالك اتفاق بين الدولة البيزنطية والدولة الفاطمية ووُقع عقد على وجوب الدعاء للخليفة الفاطمى من فوق كافة منابر المساجد الواقعة فى المناطق الداخلة فى حوزة الامبراطورية . كذلك تعهد الامبراطور بترميم مسجد أبى أيوب الأنصارى ، الواقع خارج القسطنطينية ؛ مقابل أن تقوم الدولة الفاطمية بترميم كنيسة القيامة بالقدس الشريف ، والتى كانت قد تهدمت أثناء معارك وقعت هناك سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م)[١] .

وكان عدوان الدولة البيزنطية قد وقع على ممتلكات الفاطميين بالشام منذ مطلع القرن الخامس الهجرى حين قام الامبراطور «رومانوس الثالث» وزوجته «زوى» ، بمهاجمة ممتلكات الدولة الفاطمية فى الشام ، فأوعز إلى حاكم أنطاكية بمهاجمة حلب ، وبسهولة أوقع أمير حلب هزيمة شديدة بقائد لواء أنطاكية ، وحاول حاكم أنطاكية مرة ثانية ، مهاجمة المدينة سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م إلا أنه لقى بقربها هزيمة أشد وأنكى من الأولى . وفى عام ١٠٥٤ م (٤٤٦ هـ) ، فى عهد الامبراطور الضعيف «قنسطنطين التاسع» تم الانفصال بين الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية الغربية ، إذ أعلن البطريرك كيرولاريوس أن الكنيسة الشرقية أصبحت فى حل من أى ارتباط مع الكنيسة الغربية ، وبذلك تم الانفصال بين الكنيستين والذى لا يزال قائمًا حتى يومنا هذا[٢] .

وبانتهاء عهد حكم الأسرة المقدونية لبيزنطة ، بدأ العد التنازلى لسقوط امبراطورية الروم ، فقد بدأت بوادر الشيخوخة تظهر عليها سريعًا فى كافة أحوالها ، وبدأ الطالع فى سمائها ينذر باقتراب نهايتها لتقوم على أشلائها

(١) عطية القوصى : تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ١٦٥ .

(٢) سيد أحمد الناصرى : الروم ، تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربى ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٣٥٤ .

امبراطورية جديدة لشعب جديد . فلقد شهد النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) أزمات عديدة فى الداخل وهزائم شديدة فى الخارج ، وعجزت الامبراطورية عن مواجهة تلك التحديات .

وفى الوقت الذى ضعفت فيه قوى الامبراطورية العسكرية وانهارت مواردها الاقتصادية ، كانت القوة البحرية لبعض المدن الإيطالية تتزايد ، وأصبحت مدن جنوة والبندقية تمتلكان أساطيل بحرية تحتكر التجارة مع الشرق وتحل فى هذه التجارة العالمية محل تجار اليهود الرازانية[١] الذين كانوا يقومون بنقل هذه التجارة بين الشرق والغرب . وقد أدى النشاط التجارى لهذه المدن إلى التقدم الحضارى والانتعاش الاقتصادى والثراء المادى فيها . وقد ساعد هذه المدن على ذلك الاستقرار الذى تمتعت به غرب أوربا فى النصف الثانى من ذلك القرن . وقد زاد اتصال هذه المدن التجارى بالمشرق الإسلامى الذى رحبت بلاده وحكامه به وباركته وشجعته ، وقدمت التسهيلات فى بلادها لتجار هذه البلاد عند قدومهم إلى بلادهم .

أما بالنسبة لممتلكات الروم فى جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية ، فقد أصبحت تحت رحمة النورمان[٢] . كذلك تعرضت دولة الروم آنذاك لخطر الهجوم الأسيوى على يد الأتراك السلاجقة[٣] . الذين انتصروا عليها فى

(١) تحدث المؤرخ الجغرافى ابن خرداذبة عن هؤلاء التجار فى كتابه المسالك والممالك (ابن خرداذبة المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤) .

(٢) يرجع تاريخ النورمان إلى حوالى سنة ١٠١٩ م (٤١٠ هـ) حين بدأوا فى التسلل من بلادهم (نورمانديا) فى جنوب فرنسا ، واستقروا فى جنوب إيطاليا وصقلية ، وعملوا أول الأمر ، كجنود مرتزقة فى الحاميات الرومية هناك حتى تكاثر عددهم وأصبحوا قوة لها شأن . وفى سنة ١٠٥٧ م (٤٤٩ هـ) اختاروا «روبرت جيسكارد» قائدًا لهم ، الذى قام هو وابنه «بوهيمند» بتقويض الوجود الرومى فى صقلية وجنوب إيطاليا ليقيما على أشلائه دولة نورماندية . ولم يكتف جيسكارد بذلك بل تطلع إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الروم .

(٣) أُشتق اسم هذه الجماعة من قائدهم وزعيمهم سلجوق بن دقاق ، الذى جمعهم وأقام لهم دولة عُرفت بدولة السلاجقة ، انظر ما سبق .

منزيكرت ، كما سبق أن رأينا ، وعودة الامبراطور رومانوس ديوجينوس إلى بلاده بعد المعركة وهو يجر أذيال الخيبة ويتجرع كئوس مرارة الهزيمة ، حتى قبض عليه ثائر وثب على عرش الإمبراطورية «يُدعى «دوكاس» . وقد قام دوكاس بسمل عينيه وحبسه ، ووفاته ، بعد أيام قليلة سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م)[1] .

وقد أدى إنكسار الروم فى مانزيكرت إلى استغاثتهم بالغرب الأوربى طالبين نجدتهم . فأرسل الامبراطور «ميخائيل السابع» من أسرة دوكاس ، (١٠٧١ - ١٠٧٩ م / ٤٦٤ - ٤٧٢ هـ) إلى البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) طالبًا منه العون والمساعدة بإرسال نجدات سريعة لإنقاذ بيزنطة من خطر المسلمين ، وذلك مقابل إزالة الخلافات بين الكنيستين الشرقية والغربية .

ولكن من سوء حظ الامبراطور ميخائيل أنَّ البابا جريجورى كان مشغولاً فى الغرب بصراعه مع الامبراطور الغربى ، لذلك لم يلبى نداءه . ورغم انشغال البابا ، إلا أنَّ طلب الاستغاثة هذا أدى إلى فتح مسلسل طويل من الصراع بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى ، وهو الصراع الذى عُرف فى التاريخ باسم «الحروب الصليبية» . وقد دخلت الأسرة التى حكمت بيزنطة بعد أسرة دوكاس ، وهى أسرة كومنين ، غمار هذه الحروب التعصبية التى استهدفت محاربة الإسلام والاستيلاء على بلاد المسلمين .

ولقد حكمت أسرة كومنين بيزنطة خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين فى الفترة ما بين سنوات : ١٠٨١ - ١١٨٥ م (٤٧٤ - ٥٨١ هـ) ، بدايةً بعاهل هذه الأسرة : «الكسيوس كومنين» (١٠٨١ - ١١١٨ م / ٤٧٤ - ٥١٢ م) ، ثم الامبراطور «يوحنا كومنين ، الثانى» (١١١٨ - ١١٤٣ م/ ٥١٢ - ٥٣٨ هـ) ، ثم الامبراطور «عمانويل الأول كومنين» (١١٤٣ - ١١٨٠ م/

(١) الناصرى : الروم والمشرق الإسلامى ، ص ٣٧٧ .

٥٣٨ - ٥٧٦ هـ) ، ثم الامبراطور القاصر «الكسيوس كومنين ، الثانى» (١١٨٠ - ١١٨٣ م/ ٥٧٦ - ٥٧٩ هـ) ، ثم الامبراطور «اندرونيكوس ، الأول كومنين» (١١٨٣ - ١١٨٥ م/ ٥٧٩ - ٥٨١ هـ) ، ثم تلتها فى الحكم أسرة جديدة هى «أسرة أنجيليوس» ، التى حكمت بيزنطة فى الفترة ما بين سنوات ١١٨٥ - ١٢٠٤ م / ٥٨١ - ٦٠١ م[١] .

ولقد تعرضت بلاد البلقان لهجمات النورمان بقيادة «روبير جيسكارد» وابنه «بوهيمند» ، وهاجمت ميناء «ديراخيوم» ، واستولت عليه ، فتحالف اليكسيوس مع البنادقة ، وقام أسطوله مع أسطولهم بهجوم مشترك على قواعد النورمان ، وأنزلا هزيمة ساحقة بهم ، واضطر النورمان إلى الانسحاب ، وتوفى جيسكارد بعد إصابته بمرض الطاعون . ولقد شارك بوهيمند ، بعد ذلك، فى الحملة الصليبية الأولى ، تحت ستار تحرير الأراضى المقدسة من يد المسلمين ، ليقتطع لنفسه أهم بقعة عند الروم ، وهى مدينة أنطاكية العريقة .

أما عن ممتلكات الامبراطورية فى آسيا الصغرى فقد آلت إلى أيدى المسلمين ، فكانت سلطنة سلاجقة الروم ، أقوى السلطنات السلجوقية جميعًا هناك ، وكان على حكمها السلطان المشهور «سليمان بن قطلمش» الذى استطاع فى سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م أن يستولى على منطقة أنطاكية وما حولها، منتهزًا فرصة انشغال الكسيوس فى صد النورمان . وبذلك أصبح نفوذ سليمان يمتد من مدينة «نيقية» ، فى شمال غرب الأناضول حتى طرابلس على ساحل الشام ، وأصبحت ثغور الشام الأساسية فى قبضة يده ، فضلاً عن أهم مدينتين مقدستين عند النصارى ، وهما نيقية وأنطاكية[٢] .

وما لبثت الظروف أن تحولت لصالح الكسيوس بعد موت ابن قطلمش سنة

---

(١) الناصرى : الروم والمشرق الإسلامى ، ص ٣٧٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٨٩ .

٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م ، وانقسام دولته إلى سلطنات صغيرة يحكم كل منها أحد أبنائه أو أقاربه . فزال خطر سلاجقة الروم عن الدولة ، بعد أن تحولوا من سياسة التوسع فى أراضى الروم إلى الدفاع عن وجودهم بعد أن شعروا بتحفز الصليبيين اللاتين للانقضاض عليهم[1] . كذلك ساعدته الظروف بموت السلطان ملك شاه ، أبرز سلاطين السلاجقة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٢ م ، وانقسام دولته إلى دويلات صغرى . وكان فى إمكانه استغلال الموقف وإعادة ما فقدته الامبراطورية ، لكن خططه الحربية انقلبت رأسًا على عقب عندما شعر ، كذلك ، بتزايد خطر الصليبيين اللاتين على بلاده ذاتها بدعوى تحرير الأراضى المقدسة من يد المسلمين .

وبسبب تخوف الكسيوس من النورمان ، حاول استرضاء البابا جريجورى السابع وأخبره باستعداده لتوحيد الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية تحت زعامة بابا روما بشرط مساعدته فى توحيد الامبراطورية الرومانية تحت التاج الامبراطورى فى القسطنطينية لكن البابا لم يستجب لطلبه بسبب صراعه مع امبراطور المانيا هنرى الرابع حول مسألة أحقية أى من البابا أو الامبراطور فى تعيين أحدهما للآخر ، فضلاً عن أن البابا جريجورى السابع كان قد عقد معاهدة مع ملك النورمان تعهد فيها بولائه للبابا وللكنيسة الكاثوليكية ؛ وكان من غير المعقول أن يناصر البابا خصمائه الأرثوذكس على حلفائه النورمان الكاثوليك . وعلى العكس من ذلك أخذ البابا يحرض ملك النورمان ضد القسطنطينية وكنيستها .

وردًا على ذلك لجأ الامبراطور الكسيوس إلى الامبراطور هنرى الرابع ، ألد أعداء البابا جريجورى ملوحًا له بمساعدته فى إحياء الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وإخضاع كل ملوك أوربا والبابا له . لكن الامبراطور هنرى ،

(١) الناصرى : الروم والمشرق الإسلامى ، ص ٢٨٦ .

الذى لم يكن قد فرغ من صراعه مع البابا ، لم يلتفت لعرض الكسيوس ، الذى كان خوفه من الغرب اللاتينى أكثر خوفه من السلاجقة ، وقد ثبت صدق حدسه خلال الحروب الصليبية[1] .

وعندما فشلت سياسة الامبراطور الكسيوس مع البابا جريجورى ومع الامبراطور هنرى الرابع وكسبه إلى جانبه ضد النورمان ، إتجه إلى إحياء التحالف القديم بين الامبراطورية وجمهورية البندقية ، التى أصبح لها - فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى أسطولٌ حربىٌ قوىٌ فى حوض البحر المتوسط . وكان البنادقة لا يقلون عن الروم قلقًا فيما يخص مشروعات النورمان فى البحر الأدرياتيكى الذى كان الشريان الحيوى لتجارتها مع عالم حوض البحر المتوسط . ولقد أعطت الامبراطورية الرومانية امتيازات تجارية وتسهيلات بحرية فى موانيها للبنادقة . وخصص الامبراطور الرومانى حيًا خاصًا للبنادقة فى القسطنطينية ، وفى مدن السواحل الشرقية للبحر المتوسط وبحر إيجة . وفى مقابل هذه الامتيازات تعهد البنادقة أن يكونوا حلفاء مخلصين لامبراطور الروم . وتوفى الكسيوس كومنين عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م[2] ، وبموته ينتهى آخر عهود الأباطرة الأقوياء ، الذين بذلوا أقصى طاقتهم من أجل إعادة الهيبة إلى الامبراطورية ،

ثالثا : الحروب الصليبية ، دوافعها وبدايتها ووقائعها :

شهد القرنان الخامس والسادس الهجريان (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديان) ، الحدث الكبير والعدوان الغاشم على الإسلام ، فى موطنه فى الشرق وموطنه فى الغرب ، فيما عُرف فى التاريخ الوسيط باسم الحروب الصليبية . ومن منطوق اسم هذه الحروب نرى أنها نسبت إلى الصليب ، وهو

(١) الناصرى : الروم والمشرق الإسلامى ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
(٢) الناصرى : نفس المرجع السابق ، ص ٤٠٢ .

الرمز المقدس عند المسيحين ، أى أنها نسبت إلى المسيحية التى اتخذ معتنقوها الصليب شارةً ورمزًا لديانتهم . وهم بهذه التسمية جعلوها حروبًا مقدسة الهدف منها الدفاع عن المسيحية ونصرة الصليب والدفاع عن الأرض المقدسة، التى حسب زعم هؤلاء المعتنقين ، قد إرتوت بدم المسيح الذى صُلب على هذا الصليب[1] .

فهل حقًا كان الدافع الدينى هو الذى حرك أوربا ، التى عرضنا لبعض أحوالها ، للقيام بهذه الهجمة الشرسة على بلاد المسلمين ، وبهذه الحروب التى استغرقت قرنين من عمر الزمن قُتل فيها منْ قُتِل من الجانبين الإسلامى والمسيحى ، ودُمر فيها ما دُمر من أراضى الجانبين ، ونُهب فيها ما انتُهب من خيراتهما ، واستُنفد فيها ما استُنفد من موارد ومؤن وسلاح ؟ أم هل أنَّ هنالك دوافع أخرى وراء هذه الحروب وقناع آخر إرتداه مدبرو تلك الحروب ، غير قناع الدين ، كسوا به وجوههم القبيحة ليخفوا وراءه أطماعًا ويحلوا مشاكل وينتهبوا خيرات بلاد آمنة وشعوبًا مسالمة ؟

وهل هذه الحروب ، التى عرفت بالصليبية ، قامت لنصرة الصليب حقًا ، الذى تدعو ديانته إلى المحبة والسلام ويحمل معتنقوه أغصان الزيتون وأفراخ الحمام ، أم أنها كانت وسيلة لاستنفاد الطاقة التى تزود بها المجتمع الغربى الأوربى فى القرن الخامس الهجرى التى سببتها عملية الأحياء الدينى وتلك النهضة التى بدأت مظاهرها فى بداية ذلك القرن ، وأمدت كذلك الكنيسة بقوة جبارة كان لابد من استنفادها ؟ ومعنى ذلك أنَّ الحروب الصليبية ليست إلا فوران كبير نتج عن حركة الأحياء الدينية التى عمت أوربا فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) ، وهى حركة الإصلاح الكلونية للباباوية وللكنيسة الكاثوليكية ، التى أعادت للباباوية

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٩ .

سطوتها القديمة على كافة كنائس الغرب وربطها بالفاتيكان فى روما ، وقد أدى هذا الفوران إلى إثارة الحماس الدينى فى الغرب الأوربى[١] .

وهل أن الصراع بين البابوية والامبراطورية ، الذى احتدم ، بين روما والقسطنطينية حول زعامة العالم المسيحى ، ومحاولة كنيسة كل منهما فرض مذهبها على هذا العالم ، قد جعل المسيحيين الأوربيين ، أصحاب المذهبين الدينيين يبحثان عن ميدان يثبت فيه كل منهما تلك الزعامة ، فرأيا أن يخرجا من أراضيهما إلى ميدان جديد يحققان فيه تلك الزعامة . ولم يكن ذلك الميدان غير بلاد الشرق الإسلامى ، ومدينة بيت المقدس بالذات ، حيث يتواجد التراث المسيحى الأصلى من بين مكان مولد السيد المسيح ومكان قيامته، ذلك البلد الطيب الذى كان آمنًا وأهله فى ظل حكم المسلمين ؟

ولقد راقت الفكرة للجميع ، وقد رأت فيها الكنيستان الشرقية والغربية الملعب المناسب للنزال ، ورأى فيه أمراء الإقطاع الأوربيون وملوك أوربا المتطلعون إلى نهب خيرات هذه البلاد التى تفيض باللبن والعسل وتمتلئ خزائنها بالذهب والدر والياقوت خير مكان لتحقيق المآرب والأطماع . ورأت فيها شعوب الغرب خير فرصة أتيحت لهم للتخلص من ضيق الحياة فى بلادهم وشدة وطأة الكنيسة ورجالها عليهم ، والخروج إلى أرض الله الواسعة للحصول على حياة دنيوية أفضل والحصول، فى نفس الوقت على الأجر والثواب فى الآخرة[٢] .

---

(١) منذ منتصف القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ، صرح البابا ليو الرابع بأن من يموت أثناء الدفاع عن الكنيسة سوف ينال ثوابًا من الرب . وبعده ببضع سنوات أعلن البابا يوحنا الثامن أن من يموت فى الحرب المقدسة يرقى إلى رتبة الشهداء (عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٣ ، ٤) .

(٢) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، جـ ١ ، بيروت ١٩٦٧، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

ولقد كان ملوك وأمراء الغرب على علم بسوء الحال الذى وصلت إليه دول الإسلام الحاكمة آنذاك فى الشرق والغرب . كذلك وجد امبراطور القسطنطينية أن الفرصة عادت سانحة لتنتقم بيزنطة من الهزائم التى وقعت لها على يد السلاجقة المسلمين وأخذ الثأر ليوم مانزيكرت . ورأى أمراء الاقطاع أن الوقت قد حان لهم لتكوين إمارات حاكمة لهم فى بلاد الشرق الإسلامى تعوضهم عما فاتهم من فرص الحكم فى بلادهم فى أوربا . ورأت الجمهوريات الإيطالية التجارية ، فى هذه الحروب ، الفرصة للاستحواذ على تجارة المرور بين الشرق والغرب والاستئثار بخيرات هذه التجارة وعائدها المادى الكبير بعد سيطرة مدنهم وسفنهم على موانى البحرين المتوسط والأحمر .

ولقد كان المدخل الذى دخل منه الغرب الأوربى إلى الحروب الصليبية مدخلاً مضللاً بعيدًا عن الحقيقة ، باطلاً فى ادعائه ، وهو مدخل المبالغة فى سوء أحوال المسيحيين فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهاد وحشى وسوء حال وتفرقة فى المعاملة بينهم وبين المسلمين ، وما فُرض عليهم من فروض مذلة تتصل باللباس والسكن والركوب . وما تعرضت له كنائسهم وأديرتهم من تخريب وتدمير ، وما تعرضت له طقوسهم ومراسمهم الدينية من تعطيل ، وعما لاقاه حجاجهم إلى بيت المقدس من عقبات وسوء معاملة من حكام بلاد المسلمين التى مروا أو أقاموا بها .

ومن قراءتنا للتاريخ نرى أن المسيحيين عاشوا دائمًا فى ظل الدولة الإسلامية ، مع إخوانهم المسلمين وإخوانهم اليهود كأهل ذمة عيشة هادئة تمتعوا خلالها بكافة الحقوق والواجبات التى تمتع بها المسلمون ، فكان لهم مثل ما للمسلمين وعليهم مثل ما عليهم ، تؤخذ منهم الجزية للمصالح العامة كما تؤخذ الزكاة من المسلمين لهذه المصالح[1] . والروايات الواردة عن الخليفة عمر

(١) عطية القوصى: اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية، مركز الدراسات الشرقية القاهرة ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠ م ، ص ١١ .

ابن الخطاب ، ﷺ ، - وهو الشديد فى الإسلام - فى رأفته بأهل الذمة كثيرة ، وهو الذى وضع لهم عهداً نُسب إليه[1] ، تكفل لهم فيه بالحرية الدينية وبالمساواة المدنية الكاملة مع المسلمين فى الحقوق والواجبات[2] .

أما حياة الذمى فإنها عند الإمامين أبى حنيفة وأحمد بن حنبل تكافئ حياة المسلم وأنَّ ديته هى نفس دية المسلم[3] . ويُقال أن النبى ﷺ والخليفة عمر قد أباحا دم المسلمين الذين يقتلون ذميين غيلةً . وأنَّ كلاً من الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان قد طالبوا بدية الذمى كاملةً غير منقوصة ، كما فى حالة دية المسلم تمامًا . ولم يغلق التشريع الإسلامى أمام أهل الذمة أى باب من أبواب العمل والكسب ، بل أعطاهم الإسلام فرصة المساهمة فى جميع نواحى الحياة شأنهم فى ذلك شأن المسلمين[5] . ولذلك فقد رسخت أقدامهم ، فى البلاد الإسلامية ، فى الصنائع التى تدر الأرباح الوافرة عليهم ، فكانوا مزارعين وتجاراً وصيارفة وجهابذة وأطباء وأصحاب ضياع[6] .

وفى عهد الفاطميين ، وهو العهد الذى اندلعت فيه الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ، تمتع النصارى واليهود بحقوقهم المدنية والدينية كاملة غير منقوصة ، ذلك بفضل تسامح خلفائهم ، وبسبب حاجة هؤلاء الخلفاء إلى من يعاونهم فى حكمهم الجديد الذى أقاموه فى مصر والشام . وقد رأى بعض خلفاء ذلك العصر ، بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب خالفوا به مذهب

---

(١) عن هذا العهد ، انظر كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم ، نشر هنرى ماسيه ، ليدن ١٩٢٠ .

(٢) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٥٧ .

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ ، جـ ١ ، ص ٦٩ .

(٤) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ، نشأتها وتطورها ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٦٥ ، ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ، ص ٢٠٧ .

(٥) Cambridge History of Islam, v.III, Cambridge 1970, p. 742 .

(٦) متز : الحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

العباسيين السنى ، وهو المذهب الشيعى ، أنهم فى حاجة إلى من يعاونهم فى تثبيت سلطانهم . ولمّا أيقنوا أنه من المتعذر عليهم الاعتماد على المصريين السنيين أنصار المذهب العباسى ، قربوا إليهم أهل الذمة ، وأظهروا لهم كثيراً من التسامح واستخدموهم فى أهم شئون الدولة[1] ، واعتمدوا على مساعدتهم إلى حد كبير فى حكم دولتهم[2] .

ولقد تميز عهد الخليفة العزيز الفاطمى بالتسامح مع النصارى واليهود ، وكان من أثر سياسة التسامح هذه التى اتبعها نحوهم أن ازداد نفوذهم فى عهده وأصبح فى دواوين الدولة الكثير من كتابهم ، خاصةً حين عين هذا الخليفة واليًا نصرانيًا على بلاد الشام ، هو عيسى بن نسطورس ، ويعقوب بن كلس اليهودى وزيراً له[3] .

أما الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، الذى يُنسب إليه اضطهاد اليهود والنصارى وسوء معاملته لهم ، فقد أشارت المصادر التاريخية على أنَّ هذا الخليفة أصدر سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م عدة مراسيم تعهد فيها بإطلاق حرية الشعائر لليهود والنصارى ، كذلك منحهم عهدًا جديدًا كفل لهم فيه الأمان والحرية وألغى فيه كل ما فُرض عليهم من قيود سابقة تتصل بالملبس والركوب[4] ، والتى كان الغرض من قواعدها سهولة التمييز بين المسلم وغير المسلم[5] .

ولقد ازداد تسامح خلفاء الفاطميين الظاهر والمستنصر والفائز والحافظ

(١) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٨٦ .

(٢) Goitein, S: Jews and Arabs, their contact through the Ages, New York 1955, p. 72.

(٣) سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٨٧ .

(٥) ابو يوسف : كتاب الخراج ، بولاق ١٣٠٢ هـ ، ص ٧٢ .

والعاضد مع أهل الذمة مسيحيين ويهود ، ولم يرد فى المصادر عنهم أى اضطهاد وقع من جانبهم عليهم أو أى منع لهم من أداء فريضة حجهم وزيارتهم للأراضى المقدسة فى فلسطين .

فما أن تولى الخليفة الظاهر الحكم ، بعد أبيه الحاكم بأمر الله ، حتى أصدر بيانًا عامًا أعلن فيه أنَّ أهل الذمة أحرار فى عقائدهم وشعائرهم[1] . كذلك قام المستنصر أيام خلافته برفع مكانة النصارى واليهود وتقليدهم المناصب الهامة فى الدولة[2] . أما الخليفة الفائز الفاطمى فقد أبدى تسامحه مع اليهود والنصارى ، ويشهد على ذلك منشوره الذى أصدره إلى رجاله ، والمحفوظ بدير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء ، يأمرهم فيه بأن يشملوا الرهبان النصارى بالرعاية والعناية[3] ، وتحكى المصادر المسيحية واليهودية على أن اليهود والنصارى قد حرموا من بعض حقوقهم المدنية أيام الخليفة العاضد ، آخر حكام الفاطميين . وعمومًا فإن هذه الفترة المتأخرة من حكم الفاطميين كانت فترة عدم استقرار وفترة صراع بين وزراء الفاطميين على الحكم ، وفترة ذعر وخوف أصاب المسلمين بسبب تعرض بلادهم آنذاك لبداية الغزو الصليبى ، فكان من الطبيعى أن ينعكس هذا الحال على معاملة المسلمين لأهل الذمة ، ومن الطبيعى أن تفرض الدول الإسلامية بعض القيود عليهم خشية تجاوبهم مع أعداء البلاد الصليبيين .

لكن عمومًا ، فإنا نرى أنَّ حكام الفاطميين ، الذين وقعت الحروب الصليبية فى عهد حكمهم الثانى لمصر والشام ، لم يمنعوا أى حاج مسيحى من

---

(١) سرور : نفس المصدر ، ص ٨٩ .

(٢) القوصى : اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٣) حقق هذا المنشور الأستاذ أحمد محمد عيسى ، الأمين السابق لمكتبة جامعة القاهرة ، أثناء مساهمته فى أعمال البعثة المصرية الأمريكية لتصوير مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ، وأورد النص حسن إبراهيم حسن فى كتابه الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

أداء فريضة حجه إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين ، وأنهم عملوا على رعاية قوافل الحج المسيحية إلى تلك البلاد وقدموا لمن شاركوا فيها كل الحماية والتسهيلات ، كذلك استمر هولاء المسيحيون يحظون دائمًا برحابة صدر الإسلام والمسلمين . كذلك فقد حافظ الفاطميون على عقد الاتفاق بينهم وبين البيزنطيين على حق البيزنطيين فى الإشراف على كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وعلى وفود الحجاج ، كعادتهم ، يزورون الأماكن المقدسة فى بلاد المسلمين فى أمن وسلام[1] .

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، قد دأبوا الدعاية لحركتهم فى غرب أوربا عن طريق المناداة بأنّ أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى وفى بلاد الشام قد ساءت بسبب حكم السلاجقة المتعصبين للإسلام. فإن هنالك أكثر من مؤرخ مسيحى أوربى منصف قد قرر فى صراحة وصدق أنّ السلاجقة لم يغيروا شيئًا من أوضاع المسيحيين فى البلاد التى كانت تحت حكمهم ، وأنّ المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة كانوا أسعد حالاً من اخوانهم الذين عاشوا فى قلب الامبراطورية الرومانية ذاتها . وأنّ ما وقع للمسيحيين من متاعب فى ذلك العصر فى بلاد الأناضول والشام ، لم يكن مرده سوء معاملة السلاجقة لهم ، بل كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين على الاستحواذ على تلك البلاد .

وهنالك تساؤل أخير يدور فى الذهن حول هل أنّ العامل الدينى لم يكن له دور فى توجيه الغرب المسيحى للحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول بأن الدين اتخذ واجهة أو قناع أخفى

(١) كان الحاج المسيحى الأوربى يستطيع أن يتخذ ثلاث طرق رئيسية صالحة لأداء فريضة الحج عبر آسيا الصغرى إلى أنطاكية ، ومنها يمضى إلى اللاذقية على ساحل البحر المتوسط ، ومنها ينفذ بالقرب من «أنطرسوس» إلى الأراضى الفاطمية (رونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٧٧) .

القائمون بتلك الحرب أطماعهم خلفه ، وهو الادعاء برفع الظلم الواقع على الحجاج المسيحين فى بلاد المسلمين وتخليص الأماكن المسيحية المقدسة من أيديهم ، لأنه لم يكن هنالك أى اضطهاد وقع على الحجاج المسيحين أو على مقدساتهم فى تلك البلاد فى التوقيت الذى اختاروه لشن تلك الحرب . وقد استغل دعاة الحملة الصليبية الأولى ، وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه ، فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى للدعاية لمشروعهم الاستعمارى فى غرب أوربا[1] . وإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الأوربى لم تكن تهتم كثيراً بأمر اخوانهم المسيحيين الشرقيين ، المخالفين لهم فى المذهب والذين يعتبرونهم بتلك المخالفة كفاراً ، فى البلدان الإسلامية . كذلك لم يكن المسيحيون الغربيون الذين شاركوا فى تلك الحملات مسيحيين مخلصين فى غالبهم، جرفهم شعور التقوى والورع إلى التضحية بالأهل والنفس فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية وهى رفعة الصليب والاستشهاد من أجله . حقيقةً أنَّ هنالك القلة من هؤلاء الذين جاءوا مدفوعين بدافع الوازع الدينى ، فى حملة بطرس الناسك وفى الحملة الصليبية الأولى ، متأثرين بالشعور السائد فى العصور الوسطى التى عُرفت فى التاريخ بعصور الإيمان . إلا أنَّ فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأماكن المقدسة المسيحية من أيديهم ، لم تكن الباعث الأول والأوحد الذى دفع البابا أوربان الثانى إلى القيام بتلك الدعوة وحض الناس ، والعامة خاصةً ، على الخروج أفواجًا فى سهولة ويسر تلبيةً لنداء البابا ، وإنما كانت هنالك دوافع أخرى كثيرة اقتصادية واجتماعية وسياسية، كما سبق أن بينا[2] .

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٨ .
(٢) انظر ما سبق .

قيام الدعوة للحروب الصليبية فى الغرب الأوربى :

لم تتعطل رحلات الحجاج المسيحيين من شتى بلاد العالم إلى بيت المقدس، منذ أن فتح العرب المسلمون بلاد الشام وفلسطين أيام خلافة عمر بن الخطاب ﷺ . واستمر توافد هؤلاء الحجاج تباعًا إلى الأراضى المقدسة طوال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)[1] تشملهم رعاية وعناية خلفاء المسلمين راشدين وأمويين وعباسيين . وفى ظل سيادة الفاطميين على بلاد الشام والسلاجقة على آسيا الصغرى ، سار الأمر على ما هو عليه ولقى حجاج أوربا الشرقية المسيحيين وحجاج أوربا الغربيين المعاملة الطيبة والتسامح الكامل أثناء مجيئهم لأداء فريضتهم المقدسة . ولم يشكو أحد من أولئك الحجاج أو الرحالة الذين وفدوا على القدس آنذاك من تغير فى المعاملة أو تبديل ، بل أشاد الجميع بسماحة الإسلام والمسلمين[2] ، وتحدثوا عن المعاملة الطيبة والإكرام الزائد الذى لاقوه أيام حكم السلاجقة وبخاصة فى عهد السلطان ملك شاه أعظم سلاطين السلاجقة . ولكن البابا أوربان الثانى كان له رأى مخالف، فقد أشاع فى بلاده وبلاد الغرب اللاتينى أن حج المسيحيين إلى بيت المقدس أصبح على وشك التوقف بسبب ما يلقاه الحجاج المسيحيون من عسف واضطهاد وسوء معاملة من قِبل حكام السلاجقة المسلمين ، وأنَّ على ملوك الغرب اللاتينى والكنيسة الكاثوليكية أن يتحركوا لدرء هذا الخطر عن المسيحية وعن أبناء الصليب .

ولقد فرغت البابوية من صراعها مع الأباطرة فى الغرب وحققت انتصارها

---

(١) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٧٩ ، ٨١ .

(٢) من أهم هؤلاء الرحالة الأوربيين الذين قاموا بالحج فى أواخر القرن الرابع الهجرى القديس جيروم ، وفى القرن الخامس الأسقف أيوخيريوس ، أسقف ليون ، وبطرس الأيبيرى ، وفى القرن السادس الرحالة ثيودوسيوس وانطونيوس الشهير (محمد مؤنس عوض : الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ١٨ ، ١٩) .

عليهم ، وأرادت كنيسة روما الكاثوليكية أن تخضع كنيسة القسطنطينية لكرسى البابوية ؛ وذلك بافتعال صراع مع المسلمين يكون بيت المقدس مضماره والقيام بحرب مقدسة بحجة تخليص الأراضى المسيحية المقدسة من يد المسلمين وتسهيل أمر الحج والذهاب إلى تلك الأراضى للمسيحيين المخلصين (الطاهرين). ولقد كان البابا أوربان الثانى من أشد الحاقدين على الإسلام والمسلمين سواء فى المشرق الإسلامى أو فى الأندلس[١] .

فى السابع من شهر نوفمبر ١٠٩٥ م (٤٨٩ هـ) عقد هذا البابا مجمعًا دينيًا فى مدينة كليرمونت Clermont - بجنوب فرنسا - وكانت هذه المدينة فى ذلك الوقت تعج بالحجاج الغربيين المتوجهين إلى بيت لحم بفلسطين لحضور قداس عيد ميلاد ذلك العام . وفى نهاية اجتماع المجمع ألقى البابا خطبة حماسية ، أهاب فيها بالمسيحيين أن يحملوا السلاح ويتوجهوا إلى فلسطين لإجلاء المسلمين عن بيت المقدس وإنقاذ أشقائهم المسيحيين فى المشرق وتخليصهم مما هم فيه من ذل وهوان[٢] . ووعد البابا المتطوعين لهذه الحرب بغفران الذنوب والخطايا ، ووعد المثقلين منهم بالديون بإسقاط تلك الديون عنهم ، وحماية الخارجين للقتال وممتلكاتهم وعوائلهم أثناء أداء واجبهم المقدس فى بلاد الشرق[٣] .

ولقد استمع المسيحيون اللاتين إلى خطبة البابا الحماسية ، التى فجرت الجهاد الصليبى ضد الإسلام والمسلمين واستجابوا لها ، ودوت فى جوانب أوربا الغربية ، ولبى الدعوة جموع غفيرة من الناس ، غالبيتهم من البسطاء ،

(١) الناصرى : الروم والمشرق الإسلامى ، ص ٣٩٦ .

(٢) رأفت عبد الحميد : قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) امتزجت خطبته النارية بالبكاء والعويل وصب اللعنات على الكافرين ، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة (جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٢٢) .

الذين صدقوا إدعاء البابا وافترائه . لكن الصفوة منهم التى شاركت فى هذه الحرب شاركت بغية تحقيق أطماعها فى الثراء والشهرة ، والنبلاء وأمراء الإقطاع الذين أنصتوا جيدًا لنداء البابا واستوعبوه رأوا أن أحلامهم فى تملك أراضى بلاد الشرق الغنية باتت حقيقية . كذلك وجد الرازحون تحت عبء الإقطاع وذله فى قبول الدعوة ملاذًا ومهربًا لهم من الأوضاع المتردية التى كانوا يعيشون فيها. وكذلك أيضًا وجد المثقلون بالديون فى وعيد البابا لهم فرصة فى إسقاط هذه الديون عنهم .

ووجد تجار المدن الإيطالية فى هذه الهجمة الصليبية الفرصة فى السيطرة على الموانى التجارية فى الشرق واحتكار تجارة المرور الغنية بين الشرق والغرب. واستهدفت البابوية أيضًا من وراء هذه الحروب توريط أعدائها النورمان فى هذه الحرب وصرف طاقتهم العدوانية بعيدًا عن الأراضى الإيطالية والممتلكات البابوية وتوجيهها نحو المسلمين فى الشرق ، عدوهم المشترك. وهكذا نرى أن كل طرف من تلك الأطراف كان يغنى على ليلاه ، وكان يجرى وراء سراب خادع زيّنه لهم البابا إوربان الثانى وكنيسته .

وهكذا نجد أن شعلة الحروب الصليبية بدأت وقودها من الشرارة التى أشعلها البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت ، وأن نداءه تردد صداه من جمهور حضور هذا المجمع[1] ، حين صاحوا صيحة رجل واحد وهم يقولون: «هذه إرادة الله ومشيئته Deus le vult ، كانت هذه الصيحة إيذانًا لبدء تلك الحروب الصليبية التى عرفتها وعاشتها فى العصور الوسطى لعدة قرون[2] .

ولقد حرص البابا على تعيين مندوب عنه يرافق الصليبيين فى رحلتهم إلى

(١) وصل عدد هؤلاء المجتمعين ، ٣٠٠ ألف حسب رواية روبرت الراهب .
(Robert Le Moine, Histoire de Jerusalem, t.I, Paris 1928, p. 4)

(٢) رأفت عبد الحميد : قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٣ .

الشرق[١] ، وكان قصده من ذلك تحقيق إشراف وسيطرة الكنيسة الكاثوليكية على تلك الحركة وعلى الأراضى التى سيستولى عليها الصليبيون . هذا ولم يكتف البابا بخطابه فى كليرمونت ، بل أخذ يتنقل بين المدن والقرى داعيًا للحرب الصليبية ، وعقد فى تلك المدن عدة مجامع . وفى سنة ١٠٩٦ م ، عاد البابا إلى روما ، بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبى وبعد أن عبأ المسيحيين ضد المسلمين ، وبعد أن استجاب كثير من الأمراء لدعوته من شتى أنحاء القارة الأوربية .

حملات العامة لحملة الشعوب :

ارتبطت هذه الحملات الصليبية ، الغير نظامية ، والتى بدأ فيها المسيحيون العدوان على المسلمين باسم رجلين من رجال عامة المسيحيين ، أحدهما يُسمى «بطرس الناسك» ، والآخر اسمه «والتر المفلس» ، وكانا من الدعاة الذين بذلوا جهدًا كبيرًا واسع النطاق ، إلى جانب جهد الأساقفة ، فى الدعاية لمشروع الحرب المقدسة .

وكان بطرس الناسك ، رجلاً زاهدًا ، متقدمًا فى السن ، عزم على أداء فريضة الحج إلى الأراضى المقدسة بفلسطين ، لكنه فشل فى ذلك لتعرض القافلة المسافر فيها لضغط السلاجقة ، فعاد إلى بلده ساخطًا على الإسلام وعلى المسلمين . ومن أجل ذلك نذر بطرس نفسه للطواف فى بلدان غرب أوربا ودعوة جماهير العامة والدهماء هناك لتخليص الأماكن المقدسة المسيحية من يد المسلمين[٢] . فاستجاب له الكثيرون منهم ، بسبب حماسته الدينية

(١) كان هذا المرافق الذى اختاره البابا ليكون نائبًا عنه فى مرافقة الحملة هو الأسقف ادهيمردى مونتيل ، وكان من أوائل من استجاب لدعوة البابا فى مؤتمر كليرمونت ، حتى يضفى عليها الصبغة الدينية ، توفى سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) . (رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٦٤) .

(٢) Bernard le Tresorier: Histoire de Croisades, Bib. des croisades, t. II, Paris 1829, pp. 555, 556 .

وفصاحته اللغوية ، وشرعوا فى الزحف ، تحت قيادته ، صوب الشرق ، دون إعطاء البابا وأمراء غرب أوربا ، الراغبين فى خوض غمار الحرب المقدسة ، الفرصة لإعداد حملة عسكرية جيدة منظمة لتحقيق ذلك الغرض . وقد قيل أن عدد الخارجين مع ذلك الراهب يزيد عددهم على الخمسة عشر ألفًا من الرجال، الذين اصطحب بعضهم معه نساءهم وأطفالهم(١) .

ولم تكن الحماسة الدينية التى أثارها بطرس فى تلك الجموع الأوربية ، هى السبب الوحيد فى خروجهم ، ولكن إضافة إلى ذلك ، فقد تحرك هؤلاء لإصلاح أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية بسبب حياة البؤس والمعاناة التى كانوا يعيشونها آنذاك ، نتيجةً للوضع الإقطاعى الذى كان سائدًا فى مجتمعاتهم، وما جره هذا النظام الإقطاعى من فقر وحرمان على البسطاء والأجراء من الفلاحين والمزارعين .

وفى الوقت الذى كان بطرس الناسك يواصل جهوده لحشد جيش مسيحى يتوجه به إلى فلسطين ، كان «والتر المفلس» قد جمع أعدادًا كبيرة من الأتباع وعبر بهم من بلاد المجر إلى أراضى الدولة البيزنطية ، تمهيدًا للعبور منها إلى بلاد الشرق الإسلامى(٢) .

وفى الطريق ، وعند عبورهم الأرض البيزنطية ، نسى هؤلاء المسيحيون المتحمسون لنصرة الصليب ، أنهم يعبرون داخل أراضٍ مسيحية لإخوة لهم فى الدين ، فقاموا بأعمال السلب والنهب داخل هذه الأراضى والاعتداء على أصحابها الآمنين . ورغم ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون ، فى أول الأمر ، بهم عند نزولهم بلاد البلقان . ومن بلاد البلقان شقوا طريقهم ، بمظهرهم الرث وسوء تنظيمهم ، إلى صوفيا وأدرنه حتى وصلوا القسطنطينية فى شهر

(١) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٢) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

يوليو ١٠٩٦ م (٤٩٠ هـ). وخارج أسوار القسطنطينية احتجزهم الامبراطور البيزنطى حتى تكتمل أعدادهم بوصول اخوتهم القادمين تحت قيادة بطرس الناسك.

ولقد وصلت الأنباء للامبراطور البيزنطى عن سر تأخر وصول حملة بطرس الناسك إلى بلاده ، وقد ساءته هذه الأنباء بسبب إحداث رجال بطرس لمذبحة رهيبة عند بلدة سملين Semlin ، على الحدود المجرية البيزنطية ضد أهل البلاد المسيحيين ، قُتل خلالها أربعة آلاف من أهلها الأبرياء[1] . ولقد أثار ذلك الحادث ريبة الامبراطور البيزنطى حيال هذه الحشود التى خرجت مدعيةً الدفاع عن المسيحية وإنقاذ مسيحى الشرق فى الوقت الذى قاموا فيه بقتل واغتيال إخوانهم المسيحين فى الغرب .

لذلك قرر الامبراطور البيزنطى التخلص سريعًا من ضيوفه الثقلاء بنقلهم سريعًا خارج حدود بلاده ، ووضعهم على أول طريق بلاد الشرق الإسلامى ليواجهوا مصيرهم على يد الأتراك السلاجقة . وبدأت عملية النقل هذه فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٠٩٦ م (٤٩٠ هـ) إلى الشاطئ الأسيوى للبسفور.

وقد أحس الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة فى رجال حملة العامة ، التى قادها كلٌ من بطرس الناسك ووالتر المفلس ، ورأوْا فيهم مجرد عصابة هوجاء وشرذمة فقراء ليس لديهم أدنى فكرة عن فنون الحرب والقتال ، وليس عندهم أى معرفة بآداب السلوك والنظام[2] .

وكان الامبراطور قد طلب من البابا ، حين استغاث به ، أن يمده بجيوش وقوات عسكرية منظمة ومجهزة تسليحًا ، يشارك فى قيادتها ملوك أوربا اللاتين؛ فإذا به يفاجأ بهذا القطيع الجائع المحترف للسلب والنهب والمتعطش للدم سواء أكان دمًا إسلاميًا أم دمًا مسيحيًا .

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١٠٩ .
(٢) الناصرى : الروم والمشرق العربى ، ص ٣٩٧ .

وجدير بالذكر أنه لم ترد فى المصادر الإسلامية ، أى رد فعل لما جرى فى كليرمونت عند الخليفتين المسلميّن العباسى والفاطمى ، ولم ترد إشارة فى تلك المصادر تشعر ، على الأقل ، بأن حكام المسلمين وشعوبهم قد علموا بهذا التدبير والإعداد للعدوان الصليبى على بلادهم فى مؤتمر كليرمونت الذى اجتمع فيه شياطين الإنس والجن لضرب الإسلام والمسلمين . ويرجع ذلك ، دون شك ، إلى انصراف الخلافتين إلى مشاكلهما الداخلية وإلى ما صار بينهما من صراع على سيادة العالم الإسلامى . فظل الخليفتان غارقين فى صراعهما الذى حجب أعينهما عما كان يجرى فى الغرب الأوربى من إعداد للانقضاض على جزء عزيز من بلاد العالم الإسلامى ، هى بلاد الشام وبيت المقدس على وجه الخصوص[1] .

وهكذا فشلت حملة العوام التى قادها كلٌ من بطرس الناسك ووالتر المفلس فشلاً ذريعًا فى تحقيق أغراضها ، وعند فشل هذه الحملة جرى تنظيم الشطر الثانى من الحملة الصليبية الأولى ، وهو الشطر الذى عُرف فى التاريخ باسم «حملة الأمراء» ، الذين استجاب القائمون بها لخطاب البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت[2] . وكان على رأس حملة الأمراء الصليبيين ، جودفروا دى بوايون ، دوق اللورين ، وأخوه بلدوين البولونى ، فضلاً عن عدد آخر

---

(١) ذكر ابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٣٤) أنَّ أخبار الصليبيين لم تصل للمسلمين فى بلاد الشام إلا سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) .

(٢) وجه البابا أوربان الثانى خطابه إلى الأمراء فى كليرمونت ، وبعث برسائله العديدة إليهم من أجل القيام بحملة صليبية على بلاد الشرق الإسلامى ، وغض الطرف تمامًا بشكل عمدى عن الملوك ، وجعل من نفسه ، كما فعل سلفه البابا جريجورى السابع ، سيدًا إقطاعيًا ينافس الملوك سلطانهم الزمنى فى ظل النظام الإقطاعى . ومن ثمَّ كانت الدعوة التى وُجهت من كليرمونت لحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق لحرب المسلمين تعنى صراحةً إعلانًا للحرب على السلطة الزمنية فى أوربا ممثلة فى الملوك والامبراطور الرومانى ملك ألمانيا ، وكان هذا واضحًا تمامًا فى السياسة التى اتبعها أوربان الثانى تجاه ملوك أوربا المعاصرين لهذه الدعوة (رأفت عبد الحميد : قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٦٠ ، ١٦١) .

من الأمراء . وكان معظم المشاركين فى هذه الحملة من القطاع اللاتينى فى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم يكن من القطاع الألمانى إلا القليل ، مما جعل الطابع العام لهذه الحملة فرنسيًا .

وبوصول جودفروا دى بوايون ، على رأس قواته اللاتينية ، إلى الحدود البيزنطية فى أواخر شهر نوفمبر ١٠٩٦ م (٤٩٠ هـ) ، بدأت المسألة الصليبية فى تاريخ الدولة البيزنطية . ففى ذلك الدور بالذات وضع الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين ، وهى السياسة التى لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة بيزنطة مدة قرن من الزمان . ذلك أنّ هؤلاء الأباطرة أرادوا أن يستغلوا الحركة الصليبية لصالحهم ، وأن يطوعوها لتحقيق مصالحهم وأطماعهم. فلما فشل كومنين فى تحقيق ذلك انقلبت سياسته مع الصليبيين إلى عداء صريح[1] .

ولقد اجتمع الامبراطور البيزنطى مع قادة الحملة الصليبية الأولى ، حملة الأمراء ، فى بلجراد ، وعقد معهم إتفاقًا يقضى بمنع هؤلاء القادة لرجال حملتهم القيام بأى من أعمال السلب والنهب داخل أراضى الامبراطورية ، مثلما وقع من رجال بطرس الناسك ووالتر المفلس . مقابل تعهد الامبراطورية بإمداد جيوش الصليبيين بكل احتياجاتهم من مؤن وعتاد وتموين حتى وصولهم إلى بلاد السلاجقة . كذلك اتفق معهم على أن يعيدوا للامبراطورية ما يستولون عليه من يد المسلمين السلاجقة من مدن وممتلكات كانت تابعة لهم . وفى الوقت الذى تعهد فيه قادة الحملة للامبراطور بذلك ، كانوا يضمرون الغدر به وعدم البر بقسمهم له .

(١) لقد تمسك الأباطرة البيزنطيون بما اعتبروه حقًا لهم فى حكم الأراضى المسيحية المقدسة وخاصةً أنطاكية التى كانت خاضعة لهم إلى عهد قريب . ولجأ الامبراطور الكسيوس كومنين إلى مختلف الطرق لكى يجبر أمراء الصليبيين أثناء مرورهم بالقسطنطينية على أن يقسموا يمين الولاء له وأن يردوا للإمبراطورية البلاد التى كانت تابعة لها فى الشرق (عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبى ، ص ١٦٠) .

وعبرت القوات الصليبية آسيا الصغرى فى ربيع عام ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ)، ومعها حكام حملة العامة ، ودخلت شمال الشام ، بمساعدة الأدلاء البيزنطيين، وتوجهت صوب نيقية[1] ، عاصمة السلاجقة ، وداهمتها واستولت عليها . ثم تقدم الصليبيون نحو ميناء طرسوس واستولوا عليه ، لكنهم رفضوا تسليمه لمندوب الامبراطور المصاحب للحملة واستولى الصليبيون على مدينة الرها ، ونجحوا فى تأسيس أول إمارة لهم فى الشرق الإسلامى . وفى الوقت الذى اتجه فيه جيش الامبراطور البيزنطى لاستعادة المدن الهامة فى الأناضول وهى مدن أزمير وافسوس وساروبس ، اندفع الصليبيون شرقًا نحو أنطاكية[2] . وحاول السلاجقة وقف الزحف الصليبى على أنطاكية فالتقوا معهم عند مدينة «دوريلايوم» Dorylaeum ، جنوبى أنطاكية ، حيث وقعت معركة هناك هُزم فيها السلاجقة[3] ، واستولوا على مدينة أنطاكية بعد حصارها مدة أربعين يومًا، ومقاومة أهلها بقيادة حاكمها الفاطمى افتخار الدولة[4] .

وقد فتح هذا الانتصار للصليبيين الطريق للوصول إلى قلب الأناضول والاستيلاء على أهم مدنه : قيصرية فى قبادوقيا ، وقونية ، وأنطاكية عام ١٠٩٨ م (٤٩٢ هـ) . ورفض الأمير بوهمند النورمانى ، المشارك بقواته فى الحملة ، أن يسلم مدينة أنطاكية لمندوب الامبراطور البيزنطى ، متعللاً فى ذلك بعدم وفاء الامبراطور بعهده فى إمداد قوات الصليبيين بالمؤن والعتاد . وقد قام بوهيمند بتأسيس أول إمارة لاتينية فى بلاد الشام .

---

(١) مدينة من أعمال أسطنبول على البر الشرقى .

(٢) تقع مدينة أنطاكية على نهر العاصى (الأورنت) على مسافة ١٢ ميلاً من البحر أنشأها سنة ٣٠٠ ق. م سيلوقيوس الأول ، ملك سوريا سيلوقيوس الأول ملك سوريا ، وأطلق عليها اسم أبيه أنطيوخوس ، وصارت أهم مدينة فى آسيا واشتهرت عند المسيحيين بمالها من قداسة خاصة (رونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠٣) .

(٣) رفع المؤرخون الأوربيون من قدر هذا الانتصار الذى أحرزه الصليبيون على السلاجقة عند دوريلايوم وجعلوه مساويًا لنصر المسلمين على الروم فى موقعة منزيكرت .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٩ .

ولقد نجحت الدولة البيزنطية خلال هذه الحملة الصليبية الأولى ، فى استرداد الأناضول من يد السلاجقة ، مما يعتبر نتيجة مباشرة من نتائج هذه الحملة، وهى نتيجة لها من الأهمية التاريخية ما لا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدى الصليبيين . وفى خلال ثلاث سنوات من عمر هذه الحملة ، تم طرد الأتراك السلاجقة من بلاد الأناضول ، فعادت لهذه البلاد السيادة البيزنطية نحو ثلاثة قرون ونصف بعد ذلك ، وبذلك ثأرت بيزنطة لما حل بها على يد السلاجقة المسلمين فى موقعة مانزيكرت[1] .

ولقد أفاد كل من الصليبيين والبيزنطين فى ذلك الوقت من حالة الانقسام التى كان عليها العالم الإسلامى بين سُنه وشيعة وترك وعرب ، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعًا ، الأمر الذى مكن الدخلاء الأعداء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب جميع المسلمين .

وبعد أن قام بوهيمند النورماندى بتأسيس إمارة صليبية لاتينية له فى أنطاكية، قام بلدوين ، كونت الفلاندرز بتأسيس إمارة فى الرها على أعالى الفرات. وهاجم الصليبيون بلدة «معرة النعمان» الحصينة ، واستغاث أهلها بالملك «رضوان» ، صاحب حلب ، و«بنجاح الدولة» صاحب حمص ، فلم ينجدهم أحد»[2] ، واضطر أهل المدينة للاستسلام (١١ ديسمبر ١٠٩٨ م / ٤٩٢ هـ) ، وغدر الصليبيون بأهل المدينة ، رغم الأمان الذى أعطوه لهم ، وقاموا بتدمير المدينة وإحراق كل ما فيها . وتحرك الصليبيون ، بعد ذلك ، نحو بيت المقدس ، قاصدين الاستيلاء عليها ، بعد أن ظلت هذه الحملة الصليبية الأولى فى شمال الشام أكثر من عام ، وانتزاعها من يد حكامها الفاطميين .

(١) Grousset : Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, t.I, Paris 1934, p. 43.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ .

وخلال تقدم الصليبيين البطئ نحو فلسطين ، لم يتوقفوا عن الصدام فيما بينهم حول تقسيم الغنائم ، تاركين رجالهم يقومون بأعمال السلب والنهب فى المدن والقرى التى مروا عبرها حتى وصولهم ، آخر المطاف ، إلى بيت المقدس. وكانت بيت المقدس آنذاك فى يد الفاطميين ، أعداء السلاجقة ، وقام الصليبيون بالاستيلاء عليها سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) يوم الجمعة ثالث عشرين شعبان[١] .

ويصف أبو المحاسن ، ابن تغرى بردى[٢] استيلاء الصليبيين على القدس بقوله : «وأمّا أخذ بيت المقدس فكان فى يوم الجمعة ثالث عشرين شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وهو أنّ الفرنج ساروا من أنطاكية ومقدم الفرنج كندهرى فى ألف ألف ، منهم خمسمائة ألف مقاتل فارس ، والباقون رجّاله وفعَله وأرباب آلات من مجانيق وغيرها ، وجعلوا طريقهم على الساحل . وكان بالقدس افتخار الدولة من قبل خليفة مصر المستعلى ، فأقاموا يقاتلون أربعين يومًا ، وعملوا برجيْن مطليْن على السور ، أحدهما بباب صهيون ، والآخر بباب العمود وباب الأسباط ، وهو برج الزاوية . . . فأحرق المسلمون البرج الذى كان بباب صهيون وقتلوا منْ فيه . وأمّا الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور ، وحكموا به على البلد ، وكشفوا مـن كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون فنزلوا إلى البلد ، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى واجتمعوا بها ، فهجموا عليهم وقتلوا فى الحرم مائة ألف وسبْوا مثلهم[٣] وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء ، وأخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلاً منها عشرون ذهبًا

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٦٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٣) ذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٩) أنّ عدد القتلى فى المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم .

فى كل قنديل ألف مثقال ، ومنها خمسون فضة فى كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامى . وأخذوا تنوراً من فضة زنة أربعون رطلاً بالشامى ، وأخذوا من الأموال ما لا يُحصى . وكان بيت المقدس منذ افتتحه عمر بن الخطاب - ﷺ - فى سنة ست عشرة من الهجرة لم يزل بأيدى المسلمين إلى هذه السنة» .

وقد زاد أبو المحاسن عن ذلك القول قوله : «بأنَّ كل هذا قد حصل دون أن يحضر عسكر مصر ، غير أنَّ الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ، صاحب أمر مصر لمَّا بلغه أنَّ الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج فى عشرين ألفًا من عساكر مصر وجدَّ فى السير فوصل إلى القدس يوم ثانى فتحه ولم يعلم بذلك ، فقصده الفرنج وقاتلوه ، فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قُتل من أصحابه عدد كثير ، فأحرق الفرنج ما حول عسقلان وقطعوا أشجارها ، ثم عادوا إلى القدس ، ثم عاد الأفضل إلى مصر ، واستمر بيت المقدس مع الفرنج»[1] .

وأضاف ابن القلانسى : «بأنَّ الفرنج حين بلغهم خروج الأفضل من مصر جدُّوا فى القتال ونزلوا من السور وقتلوا خلقًا كثيراً وجمعوا اليهود فى الكنيسة وأحرقوها عليهم وهدموا المشاهد وقبر الخليل - عليه السلام - وتسلموا محراب داود . ومن يومئذٍ بدأت الفرنج فى أخذ السواحل حتى استولوا على الساحل الشامى بأجمعه إلى أن استولت الدولة الأيوبية ودولة المماليك الأتراك واسترجعوها شيئًا بعد شىء»[2] .

هذا وقد أحدث سقوط بيت المقدس فى يد الصليبيين هزةً وصدمة كبيرة فى العالم الإسلامى فى مشرقه ومغربه ، وكان للعداء المذهبى بين المسلمين

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٠ ، نقلاً عن ابن القلانسى .

دوره الكبير فى وقوع تلك الكارثة . فقد رحب الفاطميون بانتصار الصليبيين على السلاجقة فى شمال الشام لتُتاح لهم فرصة انتزاع بيت المقدس من السلاجقة[١] . وبهذا لم يتفهم الفاطميون حقيقة الأطماع الصليبية والهدف الذى قامت من أجله تلك الحملة الصليبية ورفعته شعارًا لها وهو استرداد فلسطين وبيت المقدس بالذات من يد المسلمين . ولم يتفهم الفاطميون ذلك الأمر إلا بعد أن فوجئوا باستيلاء الصليبيين على المدينة المقدسة صبيحة يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر شعبان ٤٩٢ هـ (١٤ يوليو ١٠٩٩ م) .

وتحكى لنا المصادر العربية والأوربية عن المعاملة القاسية التى عامل بها الصليبيون سكان فلسطين عامةً والقدس خاصةً ، مسلمين ونصارى ويهود . فحين استولى جودفروادى بوايون على القدس أقام فيها حمام دم لأهل الملل الثلاثة ، وانطلق رجاله فى شوارع المدينة يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز ، واستمرت المذبحة طوال يوم الفتح وطوال الليل[٢] . وبالنسبة لليهود فقد أحرق الصليبيون عليهم معبدهم الذى اجتمعوا فيه واحتموا به ، فمات منهم عدد كبير وأُسر من فر من النار وسيقوا ليباعوا فى أسواق النخاسة ورُوى أنَّ ثلاثين يهوديًا بيعوا بدينار واحد[٣] ، وبرر دى بوايون قتله وتحريقه لليهود بأنه ينتقم منهم لقتلهم المسيح[٤] . ولم يسع

---

(١) استطاع الأتابك السلجوقى أتسز ، أن يستولى على بيت المقدس باسم السلطان إلب أرسلان من الفاطميين سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) ، وظل يحكمها وفلسطين منذ ذلك العام حتى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) ، عندما آلت فلسطين إلى الأمير تُتش الذى عين أحد رجاله التركمان ، وهو أرتق ، مؤسس بيت الأراتقة حاكمًا على القدس. وعندما توفى أرتق سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) حل محله ابنه سكمان تحت سيادة دقاق بن تُتش ملك دمشق . وقد انتهز الفاطميون انشغال الصليبيين فى فتح أنطاكيه حتى قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى صيف سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) باسترداد بيت المقدس من يد سكمان الأرتقى ، وغدت فلسطين جزءاً من الدولة الفلسطينية .

(٢) ستيفن رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٠٤ .

(٣) David Ben - Gurion : The Jews in their land, London 1966, p. 214 .

(٤) Simon Dubnov: History of the Jews, v. III, London 1968, p. 672 .

الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتماء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة . وقد أرسل قائد الحملة إلى البابا يبشره بذلك بقوله : «إن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين فى ايوان سليمان ومعبده»[1] .

ولم يحاول المؤرخون الغربيون المعاصرون للحروب الصليبية أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكر «وليم الصورى» حقيقة هذه المذبحة الرهيبة التى أحدثها الصليبيون عند دخولهم القدس وقال عنها بأنها «مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت رعب الغزاة واشمئزازهم»[2] . كذلك أدان بعض المؤرخين الأوربيين المحدثين هذه المذبحة واعتبروها وصمة عار فى تاريخ الحروب الصليبية[3] .

ولقد تلقت الدولة الفاطمية أخبار هذه الحملة الصليبية على القدس والفظائع التى ارتكبها جنودها داخلها على أهالى المدينة فى برود ، دون إحداث رد فعل عند حكامها . كذلك لم يحرك الخليفة العباسى فى بغداد ساكنًا، وكذلك السلطان السلجوقى برقياروق .

وفى خلال السنين القليلة التى تلت بعد سقوط بيت المقدس فى يد الصليبيين سقطت فى أيديهم مدن طرطوس وعكا وطرابلس وصيدا ، وكوّنوا لهم بذلك أربع ممالك صليبية فى بلاد الشام هى : أنطاكية فى أعالى الشام والرها ، فى أعالى الفرات ، وطرابلس على الساحل الشامى ، وبيت المقدس

(١) ذكر ابن العبرى فى تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٧ ، أنّ الفرنج ظلوا فى القدس أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين وأنه قُتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ، نقلاً عن وليم الصورى .

(٣) Grousset: Histoire des Croisades, p. 161 .

فى قلب فلسطين ، وبذلك أبان الصليبيون عن وجههم الحقيقى القبيح بعد أن نزعوا قناع الصليب الذى تستروا وراءه ، وظهروا على حقيقتهم بأنهم جاءوا لاستعمار بلاد الشرق الإسلامى ونهب خيراته لا لتحرير بيت المقدس من يد المسلمين كما كانوا يزعمون .

ولقد تم للصليبيين الاستيلاء على معظم بلاد الشام أيام خلافة «الآمر» الفاطمى ، الذى كان مكروهًا من شعبه ، لتقاعسه عن الجهاد ضد الصليبيين. وقد أعطى الصراع بين الوزراء على السلطة فى مصر فى العهد الثانى لحكم الفاطميين لمصر واشام ، عصر سيادة الوزراء ، الفرصة للصليبيين لتحقيق أطماعهم فى الشام والتطلع إلى غزو مصر[1] . كذلك أدى هذا الصراع بين الوزراء إلى تدخل الزنكيين فى شئون مصر ، ثم وفود صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى مصر وعمه أسد الدين شيركوه ، وقيام الدولة الأيوبية التى أطاحت بالخلافة الفاطمية وتصدت للدفاع عن مصر ضد هجوم الصليبيين ، وإجلائهم ومن بعدهم حكام المماليك ، الصليبيين نهائيًا عن بلاد الشام وتحرير تراب أرضها من دنس أقدامهم .

وجدير بالذكر أنَّ هذا النجاح الذى حققه الصليبيون فى إقامة إماراتهم الأربع فى بلاد الشام ، لم يكن نتيجة قوتهم أو كثرة أعدادهم أو بسبب العون الذى جاءهم من الغرب الأوربى ، وإنما يرجع ، أولاً وأخيرًا ، إلى ضعف المسلمين وقتها وتفرق كلمتهم ومعاداة حكوماتهم بعضها للبعض وتنازعهم فيما بينهم. هذا ولم تستطع أكبر دولتين إسلاميتين آنذاك نجدة أهل الشام ضد العدوان الصليبى وهما دولة الخلافة العباسية ودولة الخلافة الفاطمية . فلم يخف الخليفة العباسى فى بغداد «المستظهر بالله» (٤٨٧ - ٥١٢ هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨ م) لنجدة أهل أنطاكية حين سقطت فى يد الصليبيين سنة ٤٩١ هـ

(١) عطية القوصى : تاريخ مصر الإسلامية ، ص ١٧٧ .

(١٠٩٧ م) ، ولم يفعل شيئًا سوى إرساله للسلطان بركياروق السلجوقى يبلغه بالأمر ويستحثه على فعل شىء . كذلك الحال عندما وقف الخليفة عاجزًا أمام احتلال الصليبيين لبيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)[١] . وتكرر من الخليفة نفس الموقف إذ وقف عاجزًا عن دفع الخطر عن مدينة طرابلس عندما احتلها الصليبيون سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ م، وكان حاكمها فخر الدين بن عمار قد خرج إلى بغداد مستنجدًا بالخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، وقضى فى بغداد أربعة أشهر دون أن يحصل على أى مدد أوعون مما عجل بسقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين[٢] .

ومن المعلوم ، ومن استعراضنا السابق للوضع السياسى الضعيف الذى كانت عليه الخلافة ، وقت أن قام الغرب الأوربى بهجمته الوحشية على العالم الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، أنَّ دولة الخلافة وقفت هذا الموقف السلبى من ذلك العدوان ليس جُبنًا ولا خوفًا من الصليبيين ، ولكن بسبب فقدان خلفاء العباسيين آنذاك سلطة الحكم الفعلية وتحكم قواد الجيش من فرس وترك فيهم ، وتجريدهم من القوة العسكرية والحجر عليهم.

وأما الخلافة الفاطمية ، فقد أبدت ، للأسف ، ارتياحًا أول الأمر للتواجد الصليبى فى منطقة الشرق الأوسط عند بداية العدوان الصليبى عليها قبل احتلال الصليبيين لبيت المقدس ، ظنًا منها أنَّ قيام دولة صليبية فى الشام سيكون حاجزًا يمنع زحف خصومهم السلاجقة إلى مصر وضمها إلى ممتلكاتهم. كذلك تحالفهم مع الصليبيين ضد خصومهم العباسيين والسلاجقة السنيين على أن يتوقف الصليبيون عند أنطاكية ويستولون هم، من السلاجقة ، على بيت المقدس . وبذلك وقف خلفاء وحكام هذه الدولة موقف الحياد فى

(١) العليمى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، القاهرة ١٢٨٣ هـ ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ .

الصراع بين العباسيين والسلاجقة من جهة والصليبيين من جهة أخرى ، مما أتاح للصليبيين الفرصة لابتلاع معظم بلاد الشام وترسيخ أقدامهم فيها .

ولمّا أفاق الفاطميون وتبين لهم عظم حجم الكارثة التى وقعت على العالم الإسلامى وحلت بالمسلمين ، تحرك وزيرهم الأفضل بن بدر الجمالى(١) ، وأخرج من مصر ثلاث حملات حربية لقتال الصليبيين(٢) ، لم تفلح فى استعادة بيت المقدس من أيديهم . ٠

ولقد انبعثت حركة الجهاد الفعلية واندفعت شرارتها الأولى ضد الصليبيين لأول مرة فى العالم الإسلامى من بلاد الجزيرة(٣) ، على يد أتابكة سلاجقة الموصل ، حين قام أتابك الموصل الأمير كربوغا سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م بمقاتلة الصليبيين من أجل إنقاذ مدينة أنطاكية(٤) ، وتبعه بعد ذلك بقية السلاجقة ، كما سوف نرى .

وكان لاستيلاء الصليبيين على بيت المقدس وما فعلوه بأهلها من مذابح وحمامات دم ، صدى واسع ودوى هائل بين شعوب الأمة الإسلامية آنذاك ؛ إذ قام العلماء والفقهاء والقضاة ، فى بلاد الشام على وجه الخصوص ، بدورهم فى توعية الناس فى كل مكان بخطورة هذا الزحف الصليبى على بلاد الإسلام والمسلمين ، وضرورة دفعه والدفاع عن ديار الإسلام وحفاظ أماكنه المقدسة. كما أخذوا يحثونهم على الجهاد ، ونبذ الخلافات القائمة بين حكام المسلمين والوقوف صفًا واحدًا لدفع هذا العدوان الذى يتطلع للاستيلاء على كل بلاد الإسلام والذى يفيض بالتعصب الصليبى الأعمى . فخرجت جموع

(١) تولى الوزارة للخليفة المستعلى بالله الفاطمى والخليفة الآمر بأحكام الله (ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ ٢ ، ص ١١٠) .

(٢) بين سنوات ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م و ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ م .

(٣) حسن حبشى : نور الدين محمود والصليبيون ، بغداد ١٩٤٨ ، ص ١١ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٦ .

كثيرة من علماء وفقهاء المسلمين من بلاد الشام ، فى مظاهرة دينية واتجهت إلى العراق تستحث الخليفة العباسى عمل شىء والتحرك لصد هذا العدوان ، وكان فى مقدمة هؤلاء العلماء قاضى دمشق الشيخ زين الدين أبو سعد الهروى(١) . فلمّا وصلوا بغداد ، فى شهر رمضان ، التقوا بكل من الخليفة العباسى المستظهر بالله ، والسلطان السلجوقى بركياروق ، واستنجدوا بهما . ثم اجتمعوا بالناس فى المساجد وخطبوا فيهم ، وأوضحوا لهم فداحة ما جرى للمسلمين فى القدس وغيرها على يد الصليبيين . وإزاء تلك الاسغاثة ، قام الخليفة العباسى بإيفاد فقهاء بغداد إلى الملوك والحكام المسلمين لحثهم على جهاد الصليبيين والدفاع عن ديار المسلمين .

وتجلى دور الإمام العالم ، حجة الإسلام ، أبو حامد الغزالى ، آنذاك فى حث حكام المسلمين بضرورة التصدى للعدوان الصليبى على بلاد المسلمين(٢) . كذلك تجلى دور القاضى فخر الملك بن عمار ، حاكم طرابلس ، فى دفاعه المستميت عن المدينة حين هاجمها الصليبيون حتى سقطت فى أيديهم سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) ، واستنفاره الخليفة العباسى قبل ذلك بعام لإنقاذ المدينة من حصار الصليبيين لها(٣) .

ولم يقتصر دور الفقهاء والعلماء ، فى هذه الفترة الزمنية ، على الوعظ والإرشاد والحث على الجهاد ومحاولاتهم الدائبة لتوحيد كلمة المسلمين ووقوفهم صفًا واحدًا فى وجه العدو الصليبى ، بل نجد بعضهم يحمل السلاح ويشارك فى الحرب والمعارك طالبين الشهادة فى سبيل الله ، وكان شخص «أبى الفضل بن الخشاب» ، قاضى حلب ، رائدًا من رواد الفقهاء المقاتلين للصليبيين(٤) .

(١) آسيا سليمان نقلى : دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى فى الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية ، رسالة دكتوراه ، لم تنشر بعد ، الرياض ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ص ١٢٧ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٣ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٢١ .
(٤) آسيا نقلى : نفس المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

وللأسف ، فإنَّ هذه الصرخات والاستغاثات القوية والنداءات المجلجلة من العلماء والفقهاء فى بلاد الشام ، لم يكن لها صدىً يذكر أو تحرك فعلى من قادة المسلمين فى بغداد ، وهما الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى . وقد قنع المسلمون ، وقتها بالتحسر والبكاء وإبداء الأسى ونسبة ما وقع إلى القضاء والقدر . وقد كان فى ذلك التقاعس والتخاذل من قِبل حكام المسلمين، آنذاك ، ضرر بالغ على الإسلام والمسلمين ؛ الأمر الذى أطمع الصليبيين فيهما، وجعلهم يتمادون فى غيهم وطغيانهم ، وساعدهم على التوغل داخل أراضى المسلمين بغية احتلالها جميعها وإبادة من عليها ممن ينطق بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولذلك ، فإنَّ الصليبيين ، لما أحسوا بمدى التفكك فى صفوف الجبهة الإسلامية ، بعد سقوط بيت المقدس فى أيديهم ، تشجعوا وقاموا بالزحف السريع على بقية مدن الشام الساحلية واستولوا عليها . وأخذت هذه المدن تتساقط فى أيديهم واحدة بعد الأخرى ، والخلافات تزداد اشتعالاً بين قادة وحكام المسلمين . ولقد كان تعقيب المؤرخ القدير ابن الأثير ، المعاصر للأحداث[1] ، خير معبر عن الوضع السئ الذى كان فيه المسلمون وحكامهم آنذاك ، حين يقول : «لمَّا استطال الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا فتفرقت حينئذٍ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتفرقت الأموال»[2] .

---

(١) تُوفى المؤرخ ابن الأثير سنة ٦٣٠ هـ ، فى عهد حكم السلطان الملك الكامل محمود ، ابن العادل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ) .

(٢) قصد ابن الأثير بذلك ما آل إليه حال دولة السلاجقة ، فى العقد الأخير من أواخر القرن الخامس الهجرى بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م ، وما كانت تعانى منه من فوضى وانقسامات بسبب المنازعات التى حدثت بين أبنائه للوصول إلى الحكم . وقد أدت تلك المنازعات إلى تفتت الدولة الكبرى إلى وحدات سياسية صغيرة فى بلاد الشام والعراق عُرفت باسم الأتابكيات. (ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٧٢ ، ٧٣) .

رابعاً : الممالك الأسبانية المسيحية فى الأندلس (حتى نهاية القرن الخامس الهجرى):

قامت فى أسبانيا، فى نوع من الخفاء والصمت ، إلى جانب دولة الإسلام فى الأندلس ، المملكة الأسبانية المسيحية التى ، لم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها فى مهدها الأول ، ولم يعبأوا بها حين شعروا بوجودها ، ولم يُلقوا بالاً لها ويقدروا خطرها إلا حينما نمت وترعرعت وصارت قوة يُحسب لها ألف حساب وأخذت لها مكانًا فى تاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية إلى جانب دولة الإسلام فيها. ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة سوى بعث جديد لمملكة القوط التى قضى عليها العرب عند الفتح (سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م) ، وقد قامت تتعثر الخطى فى أقصى الشمال الغربى فيما وراء الجبال الوعرة . وبعد أن اجتازت فترة نقاهة المرض الذى أصابها وكاد أن يقضى تمامًا عليها ، نهضت لتدخل من جديد فى الصراع مع قاتليها لتثأر لنفسها ولتسترد ما سُلب منها من أرض شبرا شبرا .

وقد نشأت المملكة الأسبانية المسيحية فى غداة الهزيمة التى وقعت بالقوط فى موقعة شريش والتى مُزق فيها جيشهم وقُتل آخر ملوكهم (رودريك) وفرت شراذم قليلة ممن بقى من الجيش المنهزم على الحياة إلى الجبال فى الشمال حيث توقف الزحف الإسلامى هناك . وقد اجتمعت فلول الهاربين إلى الجبال الشرقية تحت قيادة زعيم لهم يدعى (الدوق پتروس) ، بينما اجتمع الهاربون إلى الجبال الغربية فى (جيليقيه) تحت قيادة زعيم يُدعى (پلاجيوس)[1] تسميه الرواية الإسلامية باسم (بلاى)[2] . وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان على

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ٢٠٨ .

(٢) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، القاهرة ١٣٠٢ هـ، ص ١١٠ .

أيديهما فى كانتابريا وجيليقية[1] .

وفى هذه الجبال المنيعة الوعرة اجتمع بلاى وأصحابه الذين لم يتجاوز عددهم بضع مئات ولجأوا إلى مغارة عظيمة تُعرف بالصخرة ، كانت مهد المملكة المسيحية ولم يُلق الفاتحون المسلمون الأول للأندلس ، طارق بن زياد وموسى بن نصير، بالاً لهذه الشراذم الممزقة أول الأمر ، إلا أنهما قام كل منهما ، بعد ذلك بحملة إلى جيليقية لتنظيف تلك الجبال من فلول القوط ، لكن الوقت لم يتوفر لهما بسبب استدعاء الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك لهما إلى دمشق عند توليه الخلافة بعد موت أخيه الوليد . وكان غض النظر عن هذه الفلول الباقية عند حدود البلاد الشمالية وفوق أعلى قمم جبالها من أعظم أخطاء الفاتحين المسلمين للأندلس ومن أشد الأخطار على حكم المسلمين هناك .

وحين استشعر ولاة الأندلس خطر نصارى الشمال وكثرة ثوراتهم هناك ، اهتموا بتأمين ولاياتهم الشمالية من ذلك الخطر . ففى سنة ٩٨ هـ (٧١٥ م) سيَّر والى الأندلس «الحر بن عبد الرحمن الثقفى» جيشًا إلى الشمال لإخماد ثورات النصارى ، واجتاحت قواته بلاد البشكنس وجبال أشتوريش ، مما أدى إلى لجوء بلاى إلى كهوفه المنيعة فى صخرة كوڤادنجا ، وحصاره هناك حتى مات معظم أعوانه من الجوع . إلا أنه صمد مع البقية الباقية منهم ، ولَّما حل فصل الشتاء وتراكم الثلج على الجبال ارتد المسلمون عن جيليقية تاركين بلاى ومن بقى معه يواجهون الموت من الجوع والبرد القارس . إلا أنَّ بلاى وصحبه صمدوا لقسوة الطبيعة هناك ، وقويت عزيمتهم لَّما رأوا انسحاب المسلمين ، فانضم إليه كثير من النصارى فى كانتابريا ، وجليقية، واختاروه ملكًا عليهم لما رأوا من شجاعته وقوة عزيمته .

(١) أسس الدوق پتروس إمارة كانتابريان فى الطرف الغربى من جبال البرنيه فى سهول ناڤار وبسكونية ، بينما أسس پلاجيوس إمارة جيليقية فى أعماق جبال أشتوريش الوعرة ، وقد سميت بذلك الاسم لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تُسمى جيليقية .

وارتأى بلاى أنَّ الفرصة سانحة له ، بعد انسحاب جيش المسلمين إلى الجنوب ، لتوسيع مملكته بالإغارة على الأراضى الإسلامية الشمالية التى تشكل الحدود الجنوبية لمملكته . واستشعرت حكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التى أخذت تقوى شيئًا فشيئًا ورأت ضرورة استئصال هذا الخطر قبل استفحاله ، لكن اضطراب الأمور فى بعض شئون الأندلس الداخلية آنذاك أخر عملية الاستئصال هذه لبعض الوقت .

وفى سنة ١١٢ هـ(٧٣٠ م) ، فى عهد أمير الأندلس «الهيثم بن عبيد»[١] ، بعث حاكم ولاية البرنيه ، مؤنس[٢] ، بجيش إلى جبال أشتوريش لغزو جيليقية والقضاء على أميرها بلاى ، لكن هذا الجيش هُزم هزيمة منكرة على يد بلاى ورجاله وهو ممتنع بمعقله . وما كان من بلاى إلا أن يخترق بسكونية بقواته ويهاجم قوات المسلمين محاربًا إياها بطريقة حرب العصابات بين كر وفر فاستطاع أن ينال منها ويرتد ومعه الغنائم والأسلاب إلى معقله .

ولقد استطاعت هذه البؤرة الصغيرة فى كوفادونجا أن تنبت نواة دولة أسبانيا النصرانية ، وتنبت معها حركة المقاومة الأسبانية التى أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة (ليون) ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة ، والتى صارت تُعرف بمملكة ليون . وقد أحاطت هذه المملكة نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين . وعُرفت هذه الحصون فى المصادر العربية باسم «منطقة القلاع»، بينما أسمتها المصادر الأسبانية «كاستيلا» Castellas بالأسبانية وهى بمعنى القلاع أيضًا[٣] .

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، جـ ١ ، ص ٢١١ .
(٢) تذكر المصادر الأسبانية أنَّ اسم هذا القائد هو «علقمة اللخمى» .
(٣) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية (د. ت) ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

وكان أمراء هذه القلاع المسيحية يتمتعون بحكم الاستقلال الذاتى ، حتى تكون لديهم حرية الحركة واتخاذ القرار فى مواجهة هجوم المسلمين من الجنوب والدفاع عن أراضيهم وقلاعهم . ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت مع بعضها البعض فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بزعامة أقوى أمرائها «فرنان جونزاليس» Fernan Gonzales ، واستقلت عن مملكة ليون ، وصارت تُعرف بإمارة كاستيلا التى عرَّب المسلمون لفظها إلى إمارة «قشتالة» .

وكان بلاى قد استمر فى حكم إمارة جيليقية زهاء تسعة عشر عامًا ، وتُوفى سنة ٧٣٧ م (١١٩ هـ) ، وخلفه ابنه (فافيلا) فى حكم الإمارة ، ولكنه تُوفى بعد عامين من وفاة أبيه ، سنة ٧٣٩ م[١] .

وكان الدوق پتروس ، أمير كانتابريا ، قد توفى أيضًا فى ذلك الحين ، وخلفه ابنه الفونسو فى دوقية كانتابريا ، وقد نمت فى عهده هذه الإمارة النصرانية الصغيرة واشتد ساعدها . وقويت أواصر التحالف بين الإمارتين المسيحيتين بالمصاهرة بينهما ، وذلك حين تزوج أميرها الفونسو من ابنة بلاى . ولما توفى فافيلا ، ابن بلاى ، اختار الجلالقة الفونسو دوق كانتابريا ملكًا عليهم، واتحدت الإمارتان فى مملكة نصرانية واحدة ، هى مملكة ليون النصرانية، أو مملكة جيليقية ، كما تسميها المصادر الإسلامية[٢] .

ويُعتبر الفونسو ، دوق كانتابريا ، (الفونسو الأول) ، مؤسسًا للمملكة المسيحية الشمالية ، وأصل تلك السلسلة الطويلة من ملوك قشتالة[٣] . أولئك الملوك الذين حكموا هذه المملكة الصغيرة ذات الأصل الساذج البسيط ، وقد

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، جـ ١ ، ص ٢١٣ .

(٢) امتدت هذه المملكة من بلاد البشكنش شرقًا إلى شاطئ المحيط غربًا ، ومن خليج بسكونية شمالاً إلى نهر دويرة جنوبًا ، وتشتمل على مناطق شاسعة من القفار والهضاب الوعرة وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن الولايات الإسلامية الشمالية .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٧٩ .

أخذت تنمو وتتسع شيئًا فشيئًا على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين ، على السواء ، حتى سيطرت على جميع أنحاء أسبانيا[1] .

واتباعًا لمنهج البحث الذى انتهجناه لموضوع كتابنا هذا ، والتزامًا بالفترة الزمنية المحددة له وهما القرنان الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) سوف نقتصر هنا على ذكر حال الممالك المسيحية فى أسبانيا حتى نهاية القرن الخامس الهجرى والمواجهات التى تمت بينها وبين دولة الإسلام فى عهد ملوك الطوائف الأول (٤٢٢ - ٤٧٩ هـ/ ١٠٣١ - ١٠٨٦ م) . وللتعريف بعهد ملوك الطوائف الأول ، نجد هذا العهد قد نجم عن سقوط الدولة الأموية فى الأندلس وانقسام الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة . ولقد كاد عصر ملوك الطوائف الأول يشهد خطر الفناء الدائم على حكم الإسلام فى الأندلس على يد النصارى ، الذين نجحوا فى إسقاط طليطلة فى أيديهم ، لولا استجابة المرابطين لصريخهم وعبور العدوة لإنقاذهم ، وتأخير ذلك الفناء والسقوط مدة أربعة قرون متتالية .

وبالرغم من أنَّ الأندلس قد التأم شملها بعد السبعين سنة التى عاشتها البلاد مقسمة ممزقة متناحرة فى ظل حكم ملوك الطوائف ، فإنَّ الأندلس لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية القديمة ولا تماسكها القديم قط ، بل لبثت على العكس من ذلك ، خلال صراعها الطويل مع أسبانيا المسيحية ، تفقد قواها ومواردها شيئًا فشيئًا ، وتنكمش رقعتها الإقليمية درجة بعد أخرى ، حتى إذا كانت منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، رأينا رقعة الوطن الأندلسى تصل إلى أقصى انكماشها ، وترتد ، على حياء ، إلى ما وراء نهر الوادى الكبير وتنحصر فى مملكة غرناطة الصغيرة . ورأينا مدن

(١) امتد نفوذ هذه الدولة بعد ذلك إلى قارة أمريكا مع حركة الكشوف الجغرافية الحديثة ، وصارت اللغة القشتالية هى اللغة السائدة فى أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية ما عدا البرازيل التى تتحدث البرتغالية .

الأندلس الكبرى : قرطبة وطليطلة وإشبيلية ، وبلنسية ومرسية وغيرها تغدوا مدنًا أسبانية مسيحية ، وتصبح الهيمنة فى شبه جزيرة أيبيريا بيد مملكة قشتالة الكبرى التى كانت بالأمس مغارة صغيرة سكنتها شرذمة حقيرة فوق جبال الشمال ، «فسبحان مغير الأحوال !» .

وكانت بداية الصدام بين مملكة أشبيلية الإسلامية ، وبين مملكة قشتالة المسيحية ، سنة ٤٤٤ هـ (١٠٦٢ م) ، حين هاجم ملك قشتالة القوى آنذاك ، وهو فرناندو (الأول) تلك المملكة ، وكان يطمح فى أن يبسط من أشبيلية سيطرته على أسبانيا كلها . وكانت مملكة أشبيلية إحدى ممالك ملوك الطوائف، التى استطاع بنو عباد الاستقلال بها[١] ، وكانت تضم من أراضى الأندلس القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبى من شبه الجزيرة وأرض الفرنتيرة شمالاً حتى شواطئ الوادى الكبير ثم تمتد بعد ذلك من عند منحنى الوادى الكبير غربًا حتى جنوبى البرتغال وشاطئ المحيط الأطلنطى[٢] . فى ذلك العام (٤٤٤ هـ/ ١٠٦٢ م) خرج الملك القشتالى فرناندو بجيش كبير من الفرسان والرماة وغزى مملكة طليطلة ، وعاث فيها فسادًا وتخريبًا ، حتى اضطر حكامها من بنى ذى النون طلب الصلح معه بعد تعهدهم بدفع الجزية له . وفى العام التالى ، قام هذا الملك القشتالى بغزو أراضى بطليوس وأشبيلية ، واضطر المعتضد بن عباد، إلى طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية للملك القشتالى ، وقد التزم ابن عباد بدفع هذه الجزية لذلك الملك ، ولابنه (سانشو) ، الذى خلفه على حكم قشتالة بعد وفاته .

وتابع المعتمد بن عباد[٣] ، سياسة أبيه وجده فى محاولة القضاء على البربر

---

(١) ينتمى بنو عباد إلى لخم ، وهى من أكبر بطون القبائل اليمنية القحطانية .

(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، جـ ٣ ، ص ٤٨ .

(٣) لمّا توفى المعتضد بن عباد خلفه ابنه محمد بن عباد ، الشهير بالمعتمد على الله ، وهو اللقب الذى غلب عليه واشتهر به طول حياته ، وقد وُلد المعتمد بمدينة باجه فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠ م) .

وعلى مملكتهم فى غرناطة وحصنهم فى الجنوب . وكانت مملكة غرناطة البربرية قد بلغت ذروة قوتها فى عهد مليكها «باديس بن حبوس الصنهاجى» ، الذى توفى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) ، وخلفه فى حكم غرناطة حفيده «عبد الله بن بُلقين» . وما كاد يمضى عام على وفاة باديس حتى سار المعتمد بن عباد فى قواته إلى بلدة جيان ، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية واستولى عليها سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٤ م) ، ولم يبق من مملكة غرناطة سوى العاصمة وأرباضها.

وعندئذٍ فكر أمير غرناطة فى الاستعانة بالنصارى ، وتوصل بواسطة «المأمون بن ذى النون» إلى أن يعقد مع (الفونسو السادس) ، ملك قشتالة[1] معاهدة صداقة وتحالف يتعهد فيها بدفع الجزية السنوية للملك القشتالى. وخرج ابن بلقين ، بعد ذلك ، فى قواته ومعه سرية من حلفائه النصارى وأغار على أراضى ابن عباد ، استطاع خلالها استرداد حصن قبرة ، القريب من جيان . ولم يقف المعتمد مكتوف الأيدى إزاء ما حدث ، فاتجه هو بدوره إلى النصارى يطلب عونهم ، فأرسل وزيره ابن عمار إلى ملك قشتالة ، الفونسو السادس ، وعقد معه حلفًا ، دفع فى مقابل عقده خمسين ألف دينار ، ونص هذا العقد بتعاون الطرفين على افتتاح غرناطة على أن تكون مدينة غرناطة للمعتمد ، وأن تكون قلعتها لألفونسو .

وواصل المعتمد بن عباد دفع الجزية لملك قشتالة ذهبًا ، وظل ملك قشتالة راضيًا عن ابن عباد حتى سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) حيث تغير الوضع بينهما ، بسبب سوء سلوك مندوب الملك القشتالى مع ابن عباد ، وقيام ابن عباد بقتل هذا المندوب اليهودى وسجن من جاء معه من فرسان النصارى . وأقسم الفونسو أن ينتقم من ابن عباد على فعلته هذه بتخريب أشبيلية ، مملكته كلها.

---

(١) من سوء طالع الأندلسيين فى ذلك الوقت أنه كان يحكم أسبانيا المسيحية رجل واسع الطموح والأطماع وهو الملك الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، الذى نجح فى توحيد مملكتى قشتالة وليون وبسط نفوذه على الممالك الأسبانية الشمالية ، ثم توج مجده الحربى باحتلال طليطلة قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م .

ثم بادر بتنفيذ وعيده ، وحشد جيشًا ضخمًا من الجلالقة والقشتاليين ، والبشكنش سار به إلى أراضى أشبيلية وقام بإحراق القرى وسبىْ أهاليها المسلمين ، وضرب الحصار حول أشبيلية ثلاثة أيام[1] .

وكانت خطة الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، فى إضعاف ملوك الطوائف ، تقوم أولاً بفرض غرامات مالية كبيرة عليهم باسم الجزية ، ثم تخريب أراضيهم ونهب محاصيلهم بالغارات الخاطفة التى كان يشنها عليهم ، وأخيرًا على اقتطاع أراضيهم وحصونهم كلما سنحت الفرصة بذلك . وقد نجحت خطته كما أراد ، وبدأ ملوك الطوائف أمامه حكامًا ضعافًا لا يستطيعون الوقوف أمام جبروته وسلطانه . ولذلك فقد كان دائم التعالى عليهم وتسمى فى مراسلاته إليهم بالامبراطور ملك الملتيْن (المسيحية والإسلام) .

وتحقق المعتمد آنذاك من خطورة وضعه وفداحة خطئه حين صانع الملك المسيحى واستعدائه زملائه ملوك الطوائف المسلمين . ولاحت له طوالع المصير المروع الذى سوف يلاقيه إن لم تتداركه عناية السماء، وتتداركه نجدة غير منتظرة. ويبدو أنه فكر عندئذ ، ولأول مرة ، أن يستنصر بإخوانه المسلمين المرابطين . فكتب إلى أمير المسلمين «يوسف بن تاشفين» يخبره بخطورة الوضع فى الأندلس ، وكيف أنها صارت بين أنياب الفك المفترس طالبًا منه المساعدة والعون[2] . وقد شارك ملوك الطوائف الأُخر وكل شعب الأندلس ابن عباد فى هذا الأمر ، وهو استدعاء المرابطين إلى الأندلس لتخليصه من خطر النصارى المعتدين .

وكان استيلاء الفونسو السادس على طليطلة ذروة نصره ، وقد خُيل له ، بعد أن دخل عاصمة القوط القديمة ، أنَّ ممالك الطوائف سوف تتساقط أمامه

(١) مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تطوان ١٩٦٢ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر نورنبرج ، أبسالة ١٨٤٣ ، ص ٩٢ .

تساقط أوراق الخريف ، وأنه بصدد تحرير كل أسبانيا من المسلمين وإغراقهم فى البحر المتوسط . وقد شاعت فى الأندلس ، على أثر سقوط طليطلة فى يد الملك الصليبى وما سببته تلك النكبة من ذعر للمسلمين ويأس ، فكرة الاستنصار بالمرابطين لمقاتلة النصارى لدى أمراء الطوائف ، وبين سائر الزعماء والفقهاء وكافة الطبقات . وعُقد وقتذاك فى قرطبة اجتماع كبير حضره الزعماء والفقهاء واجتمع فيه رأيهم على ذلك . وقدم ابن عباد ، على أثر ذلك ، إلى المدينة وانضم إليه رؤساء الطوائف ولا سيما أميرى بطليوس وغرناطة ، واتفق الرأى على أن تُرسل إلى عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة ومعهم الوزير أبو بكر بن زيدون[١] .

وهنالك رواية ، أوردها صاحب الحلل الموشية[٢] تقول بأن الرشيد ، ابن المعتمد ومعه جماعة من زعماء أشبيلية عارضوا هذا الرأى وخافوا على بلدهم من طمع المرابطين فيها ، وطلبوا منه مهادنة القشتاليين والتفاهم مع مليكهم وعقد الصلح معه بدلاً من الاستعانة بالمرابطين . فما كان من المعتمد إلا أنه رد على ابنه ذلك الرد الحاسم الذى سجله التاريخ له إذ قال له : «أى بنى ، والله لا يُسمع عنى أبدًا أنى أعدتُ الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم اللعنة علىَّ فى الإسلام ، مثل ما قامت على غيرى ، والله إنَّ حرز الجمال عندى لهو خير من حرز الخنازير» . وانتهى الرشيد بأن رضخ لإرادة أبيه ولرأيه

---

(١) تقول رواية أنَّ سفارة الأندلس عبرت البحر والتقت بأمير المسلمين عند سبته ، وكان قد وصل إليها على أثر افتتاح جيشه لها من يد واليها يحيى بن سكوت البرغواطى ، وشرح له السفراء ما يلاقيه أهل الأندلس من ذل على يد النصارى وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم وإبادتهم وأنهم يعتمدون على نصرته فى دفع هذا البلاء عن الأندلس المسلمة . وفى رواية أخرى أن المعتمد بن عباد عبر بنفسه البحر فى جماعة من أمراء الطوائف وأنهم ساروا إلى سبته لمقابلة ابن تاشفين ، وأنه هو الذى استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس . (السلاوى : الاستقصا ، لدول المغرب الأقصى ، جـ ١ ، القاهرة ١٣٠٦ هـ ، ص ١١١ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ١٨٦) .

(٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

فيما يجب عمله . ولقد استجاب زعيم المرابطين ، بعد مشاورات ومباحثات طويلة مع الزعماء والفقهاء لدعوة أمراء الأندلس للجهاد ضد صليبيي الغرب .

الحروب الصليبية فى الأندلس:

لم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عمليًا فى بلاد المشرق الإسلامى فحسب ، بل ظهرت واضحة فى المغرب الإسلامى أيضًا ، حيث دارت منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، حرب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من أسبانيا. ومن الملاحظات التى تسترعى النظر أنَّ المؤرخ الشهير «ابن الأثير» ، صاحب كتاب «الكامل فى التاريخ» ، عند كلامه عن الحروب الصليبية فى المشرق ، وعن سقوط أنطاكية المسلمة سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) فى يد الصليبيين قد ربط بين تلك الحروب فى المشرق الإسلامى مع نظيرتها ومعاصرتها الحروب الصليبية فى الأندلس ، على أساس أنها هوجة أوربية متعصبة قامت ضد الإسلام لضربه فى أقوى قلاعه فى الشرق والغرب .

يقول ابن الأثير ، عند ذكره لحوادث سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، عن استيلاء الصليبيين على مدينة طليطلة ما نصه : «فى هذه السنة استولى الفرنج، لعنهم الله ، على مدينة طليطلة من بلاد الأندلس وأخذوها من المسلمين، وهى من أكبر البلاد وأحصنها ، وسبب ذلك أنَّ الأذفونش، ملك الفرنج بالأندلس، كان قد قوى شأنه وعظم ملكه وكثرت عساكره منذ تفرقت بلاد الأندلس وصار كل بلد بيد ملك فصاروا مثل ملوك الطوائف فحينئذ طمع الفرنج فيهم وأخذوا كثيراً من ثغورهم . وكان قد خدم قبل ذلك صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذى النون وعرف من أين يؤتى البلد وكيف الطريق إلى ملكه . فلمَّا كان الآن جمع الأذفونش عساكره وسار إلى مدينة طليطلة فحصرها سبع سنين

وأخذها من القادر فازداد قوة إلى قوته»[1] .

وكان لسقوط طليطلة فى يد الصليبيين دوى هائل فى جميع أرجاء العالم المسيحى الغربى ، إذ استثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كليةً من أسبانيا . والواقع أنَّ استيلاء المسلمين على أسبانيا فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى ، وإقامة دولة إسلامية قوية داخل جزء من أراضى أوربا ، أمر لم يكن الأوربيون على إطلاقهم يتقبلونه ولا ترضى به شعوبهم وترفضه الكنيسة الغربية الكاثوليكية . فأسبانيا كانت معقلاً من معاقل الكاثوليكية فى العالم ، وهى أولى البلاد الأوربية التى وصلتها المسيحية ، وقد غدت تحتل مكانة ظاهرة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحين الغربيين يحجون إليها من مختلف بلدانهم . لذلك ظلت القوى المسيحية فى غرب أوربا ، وعلى رأسها بابا الفاتيكان ، تتحين الفرصة المناسبة لاسترداد ذلك الوطن المقدس عند المسيحيين .

وها هى الفرصة قد جاءت على يد الفونسو السادس ، الذى تطلق عليه المصادر الإسلامية اسم (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة ليحقق للغرب المسيحى أمنية عزيزة عنده فى تحرير نصف الأندلس الشمالى من قبضة المسلمين بعد سقوط طليطلة عاصمة الثغر الإسلامى الشمالى فى يده .

ولقد أدى سقوط طليطلة فى يد الصليبيين إلى اشتعال الحروب الصليبية فى الأندلس وإلى تولى المرابطين ثم الموحدين مهمة مجابهة الصليبيين فى الأندلس ووقف عدوانهم وتأخير نجاحهم فى الاستيلاء على كل البلاد[2] .

(١) الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، بيروت ١٩٩٥ ، ص ٤٣٩ .

(٢) اتخذ القتال ضد المسلمين فى الأندلس صفة الحرب المقدسة ووضعها ، فلم يلبث البابوات أن صار لهم يد فى توجيهها . ولقد دعى البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ م كل أمراء المسيحية للانضمام إلى المقاتلين المسيحيين المتوجهين إلى حرب المسلمين فى الأندلس ، وأعلن عند تذكيره العالم أن مملكة أسبانيا تنتمى إلى المقر المقدس وأن المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدى الكفار من الأراضى (رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧) .

ومع مطلع القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وجد الصليبيون فى أسبانيا بطلاً جديداً لهم فى شخص الفونس الأول ملك أرجون (أرغونة) (١١٠٤ - ١١٣٤ م) . وقد استطاع هذا الملك أن يواصل حربه الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس حتى وفاته أمام أسوار مدينة بلنسية سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م)[١] . وثمة أهمية خاصة للجهود الصليبية التى قام بها الفونس الأول ملك البرتغال ضد المسلمين بالأندلس ، هى أنه استعان سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) بأسطول صليبى كان يحمل أعداداً من المتطوعين من الانجليز والألمان والفلمنكيين ، كانوا فى طريقهم إلى الشام للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام ، فاستوقفهم الفونس الأول وضمهم إلى جانبه ، وتمكن بمساعدتهم ، من طرد المسلمين من لشبونة التى غدت ، بعد ذلك ، عاصمة لمملكة البرتغال الناشئة .

ولم تقتصر جهود الصليبيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرجون وملوكها ، فإنا نجد كونت برشلونه ، برنار الرابع ، يقوم بغزو مدينة طرطوشة الإسلامية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) . هذا فى الوقت الذى مد فرسان الداوية والاستبارية نشاطهم إلى وادى نهر إبرو بأسبانيا ، فضلاً عن نشاطهم الصليبى فى بلاد الشام . ولم تلبث هيئة الرهبان «السسترشيان» أن أقامت لنفسها مركزاً تبشيرياً وحربياً فى أسبانيا ، وذلك سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) لحرب المسلمين . ثم تلى هذه الهيئة العديد من المنظمات الدينية العسكرية الصليبية لحرب المسلمين، مثل هيئة القديس جوليان التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢ م ، والتى اتخذت ، منذ سنة ١٢١٨ م اسم منظمة القنطرة ، نسبةً إلى بلدة القنطرة الواقعة على نهر التاجة ، والتى استقطعها المسيحيون من يد المسلمين .

ولم تتردد البابوية والكنيسة الكاثوليكية فى تشجيع تلك المنظمات الصليبية التى نهضت فى أسبانيا بنفس الدور الذى نهضت به منظمتا «الداوية» و

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٠ .

«الاستبارية» ، وجماعات التيوتون فى بلاد الشام . وكانت منظمة «سنتياجو» من أشهر المنظمات الدينية العسكرية التى قامت فى أسبانيا ، والتى أسهم فى إنشائها هناك البابوات اسكندر الثالث وأنوسنت الثالث . وبفضل نشاط تلك الهيئات الدينية العسكرية وجهودها اشتدت حماسة المسيحيين فى حرب المسلمين فى الأندلس ، كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحرب ليصبغها بالصبغة الصليبية ، ذات الصبغة التى كانت عليها آنذاك فى المشرق[1] .

وكان على المرابطين ، ثم الموحدين مواجهة هذه الهجمة الصليبية الكبرى على بلاد الأندلس[2] ، وقد نجحوا فى وقفها لبعض الوقت وإلحاق الهزائم بالصليبيين ، رغم مساعدة صليبى الشرق لهم ، لكن الأمر سوف ينتهى ، كما سوف نرى ، لصالح الجانب الصليبى يوم ضعفت دولة الموحدين ولقت هزيمة كبرى فى موقعة «العقاب» سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ)[3] .

وفى الوقت الذى كان المسلمون فى بلاد الأندلس يواجهون تلك الهجمة الصليبية المقيتة الشرسة ، المغلفة بلون الدم الأحمر ، والتى فاحت رائحتها برائحة الموت ، لم يستطع أخوانهم فى المشرق أن يمدوا لهم يد المساعدة ، وأن يسارعوا لإنقاذهم ونجدتهم ، بسبب انشغالهم بمجابهة عدوان صليبى المشرق ، وبمجابهة عدوان آخر كان أشد وطأة وأكثر نكالاً وهو العدوان المغولى . ذلك العدوان الذى وقع على العالم الإسلامى منذ منتصف القرن السادس الهجرى واستمر طوال القرن السابع .

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٠، ٦١ .

(٢) منذ سنة ١٠٨٧ م اشتدت دعوة الفرسان المسيحين للقدوم إلى أسبانيا لمقاومة المرابطين ، وبذل البابا أوربان الثانى المساعدة عن طيب خاطر ، بل أنه أخطر الحجاج المتوجهين إلى فلسطين إنه من الخير لهم أن ينفقوا أموالهم فى عمارة المدن الأسبانية التى نجت من تخريب المسلمين . (رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٣٧) .

(٣) انظر الفصل الثالث .

خامسا : نذر العدوان المغولى الوثنى على العالم الإسلامى :

ولقد زامن العدوان المغولى العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ، ولو أنه لحق به بعد وقت ، إلا أن هذا العدوان الوثنى استهدف الإسلام والمسلمين وهم فى غمرة نضالهم ضد الصليبيين . وكأن أعداء الإسلام أرادوا أن يطبقوا عليه ليقضوا عليه من جناحىْ الكفر فى الشرق والغرب . ولكن الله تعالى حافظ لدينه رافعًا لرايته مهما كان حجم العدوان عليه ، فإن الله وعد المؤمنين بالنصر إذ هم نصروه وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1] .

وفى الحقيقة ، فإن رغم حدوث هذا العدوان المغولى على بلاد العالم الإسلامى يخرج عن الفترة الزمنية التى حددناها لبحثنا هذا ، وهما القرنين الخامس والسادس الهجريين ، إلا أنه كان من الضرورى الإشارة لهذا الخطر وبدايته ، لأن بداية هذا الخطر جاءت فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع، ولأنَّ الخراب والدمار الذى أصاب العالم الإسلامى على يد المغول كان امتدادًا لذلك الخراب والدمار الذى وقع عليهم فى المشرق والمغرب الإسلامى على يد الصليبيين . كذلك فإن الذين تصدوا لهذا العدوان القادم من الشرق هم نفس الأبطال الذين تصدوا لعدوان الغرب وتم على أيديهم سحق العدويْن وإحراز النصر ورفع راية الإسلام خفاقة حتى يرث الله الأرض ومنْ عليها .

وعند حديثى عن عدوان المغول على العالم الإسلامى لا أجد أجمل ولا أبلغ من المدخل الذى أورده المؤرخ المسلم الشهير ، العلاّمة وعمدة المؤرخين ابن الأثير الجزرى[2] عند حديثه عن ذكر خروج المغول (التتر) إلى بلاد

---

(١) محمد : ٧ .

(٢) هو الإمام العلامة عمدة المؤرخين أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجَزرى ، الملقب بعز الدين ، والمتوفى سنة ٦٣٠ هـ.

الإسلام، ولذلك آثرت أن أورد هذا المدخل بنصه كما أورده هذا المؤرخ العظيم وقد لمست فى صوته نبرة الحزن العميق لما أصاب الإسلام والمسلمين على يد هؤلاء الغزاة المتبربرين ، يقول ابن الأثير :

«لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها ، كارهًا لذكرها ، فأنا أُقدم رجلا وأؤخر أخرى ؛ فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعىْ الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك . فياليت أمى لم تلدنى، ويا ليتنى مِتُ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا . إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أنَّ ترك ذلك لا يُجدى نفعًا . فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التى عقت الأيام الأولى والليالى عن مثلها عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إنَّ العالمَ مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإنَّ التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها»[1] .

ويواصل ابن الأثير ذكر الفظائع التى وقعت بالمسلمين على يد هؤلاء البرابرة الوثنيين بقوله : «. . . وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقُّوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها ، وعم ضررها ؛ وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح . فإنَّ قومًا خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما ، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما ذكرناه ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان ، فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلاً ونهبًا ، ثم يتجاوزنها إلى الرى وهمذان وبلد

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٩ .

الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم بلاد أذربيجان وأرانية ، ويخربونها ، ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج إلا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا مالم يُسمع بمثله»[1] . ويواصل ابن الأثير ذكر البلاد التى استولى عليها المغول وقاموا بتخريبها وإحراقها وقتل أهليها وتشريدهم ، مثل أذربيجان وبلاد القفجاق وغزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان. ويختتم ابن الأثير مدخله عن هجوم المغول على العالم الإسلامى ومزامنة هذا الهجوم للعدوان الصليبى ، بقوله : «ولقد بُلى الإسلام فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها ، هؤلاء التتر - قبحهم الله - أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها ، ومنها خروج الفرنج - لعنهم الله - من المغرب إلى الشام ، وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها ، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم»[2] .

ولقد اكتسح المغول بقيادة زعيمهم «جنكيز خان» منطقة التركستان الشرقية، واستولى عليها ، ثم هاجم أراضى الدولة الإسلامية التى كانت تحكمها الدولة الخوارزمية[3] وقد حاول علاء الدين محمد خوارزمشاه ، أن يتصدى لهذه الهجمة المغولية الكبرى على بلاده بكل قواه ، لكن الكثرة غلبت الشجاعة ، واجتاحت حشود المغول بلاد الخوارزميين فى وحشية زائدة ، ولم تُبق أمامها أخضرًا ولا يابسًا إلا اقتلعته وتساقطت تحت أقدامهم مدن المسلمين فى هذه الدولة الواحدة بعد الأخرى وقد ألحق المغول الخراب والدمار فيها . وقام المغول بنشر الذعر والرعب فى كل مكان وطأته أقدامهم .

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .
(٣) عن الخوارزميين ، انظر ما سبق عنهم فى الباب الأول ، وما ورد عنهم للمؤلف فى كتابه : تاريخ الدولة العباسية ، ص ٢٢٨ .

ولَمَّا فشل السلطان الخوارزمى فى وقف ذلك الطوفان البشرى المدمر ، اضطر إلى التنازل عن الحكم لابنه «جمال الدين منكبرتى» ، ليتولى أمر التصدى لخطر المغول الكاسح لدولته . وبالفعل حاول منكبرتى دفع خطر المغول عن بلاده ، إلا أنَّ المغول اجتاحوا بأعدادهم الكبيرة خراسان وخوارزم نفسها ، مما اضطر منكبرتى إلى الهرب واللجوء إلى مسلمى الهند . وعند وفاة جنكيز خان ، زعيم المغول ، نجح منكبرتى فى منازلة المغول بجيش من مسلمى شمال الهند ، وفى استرداد معظم ما فقدته الدولة الخوارزمية من بلاد اجتاحها المغول .

إلا أن هذه الصحوة الإسلامية الخوارزمية لم تستطع الوقوف أمام الهجمة الكبرى التى قام بها المغول على بلاده بعد استعادة قوتهم وتجميع صفوفهم على يد قائدهم الجديد «أقطاى خان» ، الذى تولى أمرهم بعد موت سابقه جنكيز خان. وما كان من أقطاى هذا إلا أن استأنف الهجمات المغولية على الدولة الخوارزمية واستولى على معظم بلدانها ، وقام بمطاردة السلطان جلال الدين من بلد إلى بلد حتى الجأه إلى جبال كردستان حيث قُتل هناك سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م على يد رجال الأكراد[١] . وبموت منكبرتى سقطت الدولة الخوارزمية الإسلامية جميعها فى يد المغول واستولوا على كل بلادها وقاموا بتخريب تلك البلاد وفتكوا بساكنيها فتكًا ذريعًا[٢] .

وبعد أن قضى المغول على الدولة الخوارزمية توجهوا إلى قلاع الإسماعيلية فى بلاد فارس واجتاحوها ، وبخاصة قلعتهم الكبيرة الحصينة «ألموت» . ثم توجهوا ، بعد ذلك ، بقيادة قائدهم الكبير «هولاكو خان» لغزو بلاد العراق، وأرسل هولاكو إلى الخليفة «المستعصم بالله» ، آخر الخلفاء العباسيين فى

(١) عصام عبد الرؤوف : الدول المستقلة فى المشرق الإسلامى ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

بغداد، كتابًا يهدد فيه بتخريب بغداد وإبادة أهلها عن آخرهم إن لم يستسلم لقوة المغول التى «لا تقاوم ولا تُقهر» . وقد كتب هولاكو فى خطابه إلى الخليفة بما نصه :

« . . . لابد أنه قد وصل إلى شخصك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدى الجيوش المغولية منذ جنكيز خان وعلمت بالمذلة التى لحقت بأمر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة ومع ذلك لم يُغلق بابُ بغداد قطٍ فى وجه أى طائفة من تلك الطوائف التى تولت السيادة عليكم . واعلم أننى إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو منى ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت فى باطن الأرض»[1] .

لكن الخليفة المستعصم بالله ، لم يُبال بتهديدات هولاكو ، مع أنه لم تكن لديه القدرة الكافية على درء هذا الخطر المغولى الكاسح ، بل أكثر من ذلك ، فقد أظهر هذا الخليفة شجاعة نادرة حين قتل رسل هولاكو ، ورد على كتابه بالتهديد والوعيد . فما كان من هولاكو ، الذى استشاط غضبًا من رد الخليفة عليه ، فكتب إليه ثانيةً يقول له : «لقد فتنك حب المال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يعُد يؤثر فيك نصح الناصحين فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد»[2] . وصمم هولاكو على اجتياح بغداد ، وسار فى عدد كبير من قواته واجتاحوا بالفعل بغداد[3] ، وأسقطوها فى أيديهم ، وقاموا بتدميرها وإحراقها ونهب ما فيها وقتل من فيها وعلى رأسهم الخليفة المستعصم

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٤٢ .

(٢) عطية القوصى : تاريخ الدولة العباسية ، ص ٢٣٥ .

(٣) قُدر هذا العدد بمائتى ألف (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥٣٩) .

بالله نفسه ، يوم الرابع من شهر صفر سنة ٦٥٦ هـ[1] . وقد استباح هولاكو مدينة بغداد ، بعد اجتياحها ، أربعين يومًا ، وأباح لجنده أن يفعلوا فيها وبأهلها ما شاءوا .

وبذلك طويت فى يد المغول ، آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة العباسية وسقطت دولة الخلافة فى بغداد ، تلك الخلافة التى استظل تحت رايتها العالم الإسلامى لأكثر من خمسة قرون متتالية . وبسقوط هذه الخلافة صار الإسلام والمسلمون فى خطر شديد ، وكان على المسلمين أن يفيقوا من غفوتهم وأن يصحوا من ثباتهم ، وأن يوحدوا صفوفهم ويلموا شعثهم ليدافعوا عن الإسلام وعن الأوطان ودحر ما تعرضت له من عدوان .

✍ ✍ ✍

(١) قُدر عدد القتلى ببغداد على يد المغول يوم اقتحامها مليون نسمة ، ولم يسلم من القتل إلا من اختفى ببئر أو قناة وقتل الخليفة رفسًا (السيوطى : نفس المصدر السابق، ص ٥٤٠) .

الباب الثالث

دفع المسلمين فى المشرق الإسلامى العدوان عن ديارهم أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس

أولاً : يقظة العالم الإسلامى بعد العدوان الصليبى علـــــى ديارهــــم .

ثانيـًا : نور الدين محمود بن زنكى ومواصلة دفع العدوان عن ديار المسلمين .

ثالثـاً : الجبهة المصرية فى مواجهة العدوان الصليبى فــى العهد الفاطمــى .

رابعاً : تدابير صلاح الدين لمواجهة العدوان الصليبى على ديار الإســلام .

الباب الثالث

دفع المسلمين فى المشرق الإسلامى العدوان عن ديارهم أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس

أولاً : يقظة العالم الإسلامى بعد العدوان الصليبى على ديارهم :

ما كاد القرن الخامس الهجرى ينصرم حتى كان الصليبيون قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الشام فى المشرق الإسلامى وأقاموا أربع ممالك صليبية ، هى : أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس . ولم تكن هذه الممالك هى آخر غاية الصليبيين ومطمعهم فى تلك البلاد ، بل هى كانت رأس جسر لاستعمارهم بلاد الشرق جميعه . وقد ثبت ذلك بالفعل للناظر حين لم يكتف هؤلاء المستعمروون بتأسيس وحكم تلك الممالك فى بلاد الشام بتطلعهم لغزو مصر وإسقاطها فى أيديهم ، وهى أقوى القوى الإسلامية فى تلك البلاد آنذاك .

كذلك نجح صليبيو الغرب فى اقتطاع الشطر الشمالى الأكبر من بلاد الأندلس الإسلامية باستيلائهم على مدينة طليطلة الحصينة ، عاصمة الثغر الإسلامى الأعلى ، وتطلعهم للإستيلاء على كل بلاد الأندلس وطرد المسلمين منها ، منتهزين فرصة ضعف الحكم الإسلامى فى البلاد آنذاك فى عصر ملوك

الطوائف وانقسام البلاد إلى إمارات متنافرة ضعيفة بعد أن كانت تستظل بظل دولة كبرى هى دولة الخلافة الأموية ، التى عاشت أزهى عصورها فى عصر أول خلفائها عبد الرحمن الناصر .

ولقد حدثت هذه الردة على العالم الإسلامى ، بسبب ضعف العالم الإسلامى آنذاك وانقسام حكامه بين سُنة وشيعة ، وتولى حكام ضعاف لأمر هذا العالم فى المشرق والمغرب وإنشغالهم بصراعاتهم الداخلية وانصرافهم عن الاصلاح والإعداد العسكرى الجيد واليقظة لمطامع العدو المتربص بهم إلى حياة اللهو والترف واللعب .

وإذا استعرضنا سريعاً وضع الدول الإسلامية فى أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس ، التى كان على حكامها دفع العدوان عن بلادهم ، وهى الدولة العباسية آنذاك ، ودولة الأتراك السلاجقة ، التى تحكمت فى الخلافة العباسية ، والدولة الفاطمية التى كانت تعيش عصر حكمها الثانى (عصر نفوذ الوزراء) ، هذا فى المشرق ، أمَّا فى الأندلس ، فقد كان حكم ملوك الطوائف قائما هناك بصراع حكامه مع مملكة قشتالة المسيحية وخضوع هؤلاء الملوك لسطوة الملك الفونسو ملك تلك المملكة التى تولت أمر القيام باستعادة مجد النصرانية فى أسبانيا أيام القوط .

فالدولة العباسية ، بعد أن ضعف حكم السلاجقة وسيطرتهم عليها ، بنهاية عصر سلاطينها العظام ، الذين كان آخرهم السلطان ملكشاه ، حاول خلفاؤها ، المسترشد والراشد والمقتفى والناصر[1] استعادة هيبة الخلافة وتقليص

(١) تولى المسترشد الخلافة ، فى ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ حتى قُتل سنة ٥٢٩ هـ ، ثم تولى الخلافة من بعده ابنه الراشد بالله ، بعد وفاة أبيه سنة ٥٢٩هـ حتى قُتل سنة ٥٣٢ هـ ، ثم تولى من بعده الخلافة المقتفى لأمر الله بن المستظهر بالله سنة ٥٣٢ هـ حتى وفاته سنة ٥٥٥ هـ ، أما الناصر لدين الله فقد تولى الخلافة سنة ٥٧٥ هـ ، ولم يل الخلافة أحد أطول مدة منه ، وقد حكم لمدة ٤٧ سنة وتوفى سنة ٦٢٢هـ (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٨٦ ، صفحات ٤٩١ - ٥١٣) .

مكانة السلاجقة وإصلاح حال البلاد لمواجهة الأخطار الخارجية التى هددت الإسلام آنذاك ، والحكم مستقلين دون وصاية . لكن هؤلاء الخلفاء لم ينعموا بذلك فسرعان ما صارت دولة الخلافة فى بغداد تحت نفوذ أتراك من صنف آخر هم الأتراك الخوارزميين . ولم يستطع هؤلاء الخوارزميون دفع أخطار الغزو الصليبى لبلاد المشرق الإسلامى ، وذلك لانشغالهم بمواجهة خطر أشد هدد دولتهم وهدد دولة الخلافة والمسلمين جميعاً وهو الخطر المغولى .

أما الخلافة الفاطمية ، فقد عاشت فى عصر حكمها الثانى ، عصر نفوذ الوزراء ، فى ظل حكم خلفاء ضعاف سيطر عليهم وزراء وقواد أقوياء غرباء تنازعــوا فيما بينهم فيمن يسيطر على الخلافة ويكون له الحكم الفعلى فى البلاد ، وانشغلوا خلال ذلك الصراع عن الخطر الصليبى الذى داهم ممتلكاتهم فى بلاد الشام . ولقد هدد الخطر الصليبى تلك الممتلكات فى الشام سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م فى عهد خلافة المستعلى ووزارة الأفضل بن بدر الجمالى[١]، وتم للصليبيين الاستيلاء على معظم بلاد الشام أيام خلافة الآمر»[٢] ، المتقاعس عن الجهاد[٣] . ولقد جاء مقتل الوزير الأفضل سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١م بمثابة بداية النهاية فى تاريخ الخلافة الفاطمية ، ولم تظهر بعد ذلك فى الدولة شخصية قوية وقيادة حكيمة عسكرية تستطيع الوقوف فى وجه الصليبيين واستعادة ممتلكات الفاطميين من أيديهم .

أما سلاجقة فارس ، فإن سلطانها محمد بن ملكشاه (٤٩٩ - ٥١٢هـ /

---

(١) لقد حل أبو القاسم شاهنشاه فى الوزارة للخليفة المستنصر بعد وفاة أبيه بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ ، ولُقب «بالأفضل»، ولمَّا توفى الخليفة المستنصر قام الأفضل بتعيين أصغر أبناء المستنصر ولقبه بالمستعلى ، متجاوزاً فى ذلك «نزار » الأبن الأكبر للمستنصر ، ولى عهده من بعده .

(٢) عند وفاة الخليفة الفاطمى المستعلى بالله سنة ٤٩٥ هـ ، قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أبا على منصور ، ابن الخليفة ، وكان طفلاً فى الخامسة من عمره ، بتنصيبه خليفة ولقبه «الآمر بأحكام الله» ، وقد أغتيل هذا الخليفة سنة ٥٢٤ هـ ، وهو يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً .

(٣) سعيد عاشور · الحركة الصليبية ، ط١ ، ص ٤٣٠ .

١١٠٥ - ١١١٨م) قد تقاعس عن جهاد الصليبيين بنفسه ، وأكتفى بإرسال أتابكة الموصل وهمذان إلى الشام لقتالهم ، وذلك لإضطراره البقاء فى مملكته حتى لا ينتزع أمراؤه حكمها منه . وعند وفاة السلطان محمد خلفه ابنه محمود، وكان شاباً فى الرابعة عشرة من عمره ، ترك شئون الحكم فى يد وزرائه وعمه «سنجار» ولم يعبأ هذا السلطان ولا وزراؤه بالشام وما كان يجرى فيه من عبث الصليبيين . وكذلك فعل الفرع السلجوقى فى الأناضول ، إذ انشغلت سلطنة سلاجقة الروم هناك بالنزاعات الداخلية بين أمرائها بعضهم وبعض ، أو صداماتهم مع البيزنطيين ، وتركوا إخوانهم يواجهون الصليبيين فى الشام بمفردهم .

وهكذا ضمن الصليبيون فى الشام قسطاً من الاستقرار فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، أمام ضعف شوكة السلاجقة والخلافة العباسية والدولة الخوارزمية فى الشرق من ناحية وانحلال الخلافة الفاطمية ، فى عصر نفوذ الوزراء وصراعهم على الحكم ، على تخومهم الغربية والجنوبية من ناحية أخرى[١] .

ووسط ذلك الليل الطويل والظلام الدامس الذى أصاب العالم الإسلامى، ونوبة الرقاد التى انتابته وجعلت العدو يطمع فيه ويحتل أراضيه ، انبلج صبح جديد وانبعثت شرارة الجهاد فى العالم الإسلامى لدحر ذلك العدوان الصليبى الغادر عن دياره . وقد انبعثت حركة الجهاد الفعلية ضد الصليبيين لأول مرة فى بلاد الإسلام من أتابكية الموصل ببلاد الجزيرة . وكان ذلك حين قاد أتابك الموصل كر بوغا أول حملة إسلامية سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨م لإنقاذ أنطاكية من براثن الإحتلال الصليبى[٢] .

---

(١) ذكر ابن تغرى بردى (النجوم ، جـ٥ ، ص ١٧٠) أن الفرنج فى أيام هذا الخليفة أخذوا عكا سنة ٤٩٧ هـ وأخذوا طرابلس سنة ٥٠٢ هـ ، وأخذوا عرقة وبانياس ، وأخذوا صور سنة ٥١٨ هـ ، وبيروت سنة ٥٠٣ هـ ، وصيدا سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ١٣ ، ١٤ .

وقد تلت هذه الحملة مواجهة أخرى مع الصليبيين عندما أرادوا الاستيلاء على حران ، وتصدى لهم صاحب ماردين ، سقمان بن أرتق ، وأتابك الموصل «جكرمكش» ، وانتصرا عليهم[1] . كذلك قام والى الموصل شرف الدولة مودود بثلاث حملات كبرى هاجم بها إمارة الرها الصليبية فى الفترة ما بين سنوات ٥٠٣ هـ إلى ٥٠٧ (١١٠٩ - ١١١٣م) ، كبد فيها الصليبيين خسائر فادحة فى الأنفس والأموال. ولقد تعاون مودود مع «طغتكين» ، أتابك دمشق فى محاربة الصليبيين وأظهر التعاون بينهما فى إمكانية تحالف الموصل مع دمشق وتكوين جبهة مشتركة تضم الشام والجزيرة فى مجاهدة الصليبيين . وقد أستأنف آقسنقر البرسقى[2] ، حاكم الموصل ، الجهاد ضد الصليبيين فى إقليم الجزيرة وبلاد الشام حتى وفاته سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٦م . وقد اعتلى ساحة النضال بعد وفاة آقسنقر ، إبنه المجاهد الكبير عماد الدين زنكى .

عماد الدين زنكى وتوحيد القوى الإسلامية فى العراق والشام :

ارتبطت حركة اليقظة الإسلامية وحركة الدفاع عن بلاد الإسلام من خطر الصليبيين ومحاولة ابتلاع ممالكهم ببلاد الشام وحركة الجهاد الإسلامى على يد الفاتح الكبير عماد الدين زنكى بن آقسنقر[3] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٣ .

(٢) هو قسيم الدولة آقسنقر البرسقى ، ولاه السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه على الموصل سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤م ، ثم عزله ، وأعاده لولايتها ثانية السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م ، قتله الباطنية وهو يصلى الجمعة يوم التاسع من ذى القعدة سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٦م .

- (ابن القلانسى : نفس المصدر السابق ، ص ٢١٤) .

(٣) هو عماد الدين زنكى بن آقسنقر الحاجب ، كان أبوه قائداً فى جيش السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى ومن كبار أمرائه وأخص أوليائه والمعتمد عليه فى أموره كلها ، ودخل عماد الدين فى خدمة أتابكة الموصل حتى وصل إلى حكم البصرة ، ثم أتابكاً على الموصل بعد وفاة والده سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م . وقد قام زنكى بالاستيلاء علي نصيبين من الأراتقة ، ثم استولى على حران ، ثم نصيبين (ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٤٠) .

وكان زنكى قد نجح فى أن يُعين أتابكاً على الموصل سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧م) ، من قبل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى ، ونجح فى الاستيلاء على حران ، التى كانت تتعرض لهجمات متكررة من إمارة الرها التى كانت للصليبيين . وقد وضع زنكى ، بعد استيلائه على هذه المدينة ، فى ذهنه عملية الجهاد ضد الصليبيين ، ولكنه اختار بألا يبدأ جهاده إلا بعد أن يفتتح مدينة حلب ويضمها إلى أتابكيته فى الموصل ، وقد كانت أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام .

وكانت مدينة حلب تعانى آنذاك من حالة فوضى شاملة أصابتها عقب وفاة حاكمها الأتابك عز الدين مسعود ، وصارت حلبة صراع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقى وإبراهيم بن رضوان السلجوقى ، فى الوقت الذى طمع فى تملكها كلٌ من أمير الرها ، جوسلين الثانى ، وأمير أنطاكية بوهيمند الثانى ، مستفيدين مما آل إليه الأمر فى تلك المدينة الإستراتيجية الهامة فى بلاد الشام .

لكن زنكى سارع بافتتاح حلب سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨م)[١] مستنداً على حقه الشرعى فى تملكها بحكم تقليد منحه إياه بحكمها السلطان السلجوقى. ويقول ابن الأثير أنَّ «أهل حلب خرجوا إليه فالتقوه واستبشروا بقدومه .... ولولا أن الله تعالى منَّ على المسلمين بملك هذا الأتابك بلاد الشام لملكها الفرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية»[٢] . وفى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨م) استولى زنكى على مدينة حماة .

ولَمَّا فرغ عماد الدين زنكى من أمر البلاد الشامية حلب وأعمالها ، وما ملكه وقرر قواعده ، عاد إلى الموصل وديار الجزيرة ليستريح عسكره ، ثم أمرهم بالتجهز للغزاة فتجهزوا وأعدوا واستعدوا ، وعاد إلى الشام وقصد حلب فقوى عزمه على قصد «حصن الأثارب» ومحاصرته لشدة ضرره على

(١) السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، القاهرة (د .ت) ، ص ٥١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، صجـ ٩ ، ص ٢٤٧ .

المسلمين ، ويبعد هذا الحصن بينه وبين أنطاكية ، حوالى عشرة كيلو متر . وكان هذا الحصن فى يد الصليبيين يغيرون منه على قرى حلب ويوقعون بأهلها أضراراً بليغة . ويروى ابن الأثير عن أخذ زنكى لهذا الحصن بقوله :

«فلمَّا رأى الشهيد هذه الحال صمم العزم على حصر هذا الحصن فسار إليه ونازله ، فلماً علم الفرنج بذلك جمعوا فارسهم وراجلهم وعلموا أنَّ هذه وقعة لها بعدها فحشدوا وجمعوا ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلا واستنفذوه»[1] .

ويواصل ابن الأثير ذكره لانتصار زنكى على الصليبيين واستيلائه على الحصن المنيع بعد قتال ضارى بينه وبينهم وفى ذلك يقول : «ثم إن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين فظفروا وانهزم الفرنج أقبح هزيمة ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر وقتل منهم خلق كثير . وتقدم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز وقال : هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه فى قلوبهم» . فلمَّا فرغ المسلمون من نصرهم عادوا إلى الحصن فتسلموه عنوةً وقتلوا وأسروا كل من فيه وأخربه زنكى ودكه دكا . ثم سار إلى قلعة حارم ، وهى بالقرب من أنطاكية ، وهى للفرنج أيضاً ، فحاصرها ، فطلب أهلها منه المصالحة والهدنة على أن يعطوه نصف دخل بلدتهم حارم فوافقتهم على ذلك وعاد عنهم. ويعلق ابن الأثير على هذه الانتصارات التى حققها زنكى على الصليبيين بقوله : «وقد استدار المسلمون بتلك الأعمال وضعفت قوى الكافرين ، وعلِموا أنَّ البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم فى حساب وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى مُلك الجميع»[2] .

وفى سنة ٥٣١هـ (١١٣٦م) ، فى شهر شوال سار زنكى من حمص بعد استيلائه عليها وضمها لملكه ، وحاصر حصن «بعرين» ، بالقرب من حماة ،

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ، ص ٢٥٤ .

وكانت فى يد الصليبيين ، وهى من أمنع الحصون وأحصنها . وقد نجح زنكى فى الاستيلاء عليه بعد هزيمة الصليبيين وقتل أعداد كبيرة منهم ، وتسلم الحصن بعد خروج عساكر الصليبيين منه[1] كذلك قام زنكى بفتح معرة النعمان وكفر طاب من الصليبيين .

وبعد هذه الانتصارات التى حققها زنكى على الصليبيين ، خرج القساوسة والرهبان من الأماكن التى استولى عليها زنكى ، إلى القسطنطينية يستنجدون بإمبراطور بيزنطة ، وكذلك إلى غرب أوربا يستنفروا أهلها على المسلمين ، وأعلموهم أنَّ زنكى باستيلائه على القلاع التى استولى عليها من أيديهم سيملك جميع البلاد التى إستولى عليها فى أسرع وقت لعدم وجود من يدافع عنها ، وأنَّ المسلمين عازمون على استرداد بيت المقدس .

ولقد استجاب الأمبراطور البيزنطى[2] لاستنجاد القساوسة والرهبان به وخاف من تزايد سطوة المسلمين ، فسار إلى أنطاكية بحراً ، وأقام ينتظر المراكب التي فيها أثقاله وسلاحه ، فلَّما وصلت سار عنها إلى مدينة نيقية فحاصرها وصالحه أهلها علي مال يؤدونه إليه . وسار عنها إلى مدينة أذنه والمصيصة ، فحاصرهما وتملكهما ، وارتحل إلى عين زربة وملكها عنوة .

على أنَّ زنكى لم يستطع أن يمضى قُدمًا فى مشروعه الخاص بتوحيد قوى المسلمين فى مجابهة الخطر الصليبى واقتلاع جذوره من بلاد الشام ، وذلك بسبب الأحداث التى وقعت حينئذ فى فارس والعراق ، والتى أدت إلى تدخل زنكى فيها إلى توقفه لبعض الوقت عن ميدان بلاد الشام .

---

(١) كان يقود الصليبيين عند حصن بعرين ملك بيت المقدس فولك ، زوج ابنة الملك بلدوين الثانى ، ملك بيت المقدس ، بعد وفاته ، وقد وقع فى الأسر ففى هذه المعركة وأُطلق سراحه لقاء دفع فدية كبيرة ، وقد توفى فولك هذا سنة ٥٣٨هـ/ ١١٣٤م على أثر سقوطه من فوق جواده وهو فى رحلة صيد.
(Grousset, R:H Histoiredes Croisades, t.II, Paris 1936, p. 63) .

(٢) هو الأمبراطور يوحنا كومنين الثانى ، خليفة الأمبراطور الكسيوس كومنين ، تولى حكم الأمبراطورية فى الفترة ما بين سنوات ٥١٢ هـ إلى ٥٣٨ هـ (١١١٨ - ١١٤٣م) .

فلقد أدى موت السلطان السلجوقى محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١م) إلى انقسام خطير فى دولة السلاجقة وفى الأسرة السلجوقية ، وذلك بسبب الثورة التى قام بها أعمام وريث السلطان ، ابنه البكر داود ، ضده ، والصدام الذى وقع بينهم للوصول إلى الحكم . وقد استنجد العم سلجوق شاه بالخليفة العباسى المسترشد ، واستنجد العم مسعود بعماد الدين زنكى[١] . فسار زنكى إلى بغداد لقتال سلجوق والخليفة ، فدخل زنكى بذلك فى دائرة الصراع الواقع بين العراق وفارس .

وعندما زحف زنكى على بغداد ، وقعت به الهزيمة عند تكريت سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣م) . وعاود زنكى المحاولة لكنها باءت بالفشل أيضا ، الأمر الذى شجع الخليفة على مهاجمته فى الموصل وشجع أتابك دمشق على مهاجمة أملاك زنكى فى الشام واستطاع الاستيلاء على بلدة حماة[٢] .

وقد أتاحت الهزائم التى لحقت بزنكى الفرصة للصليبيين ليشددوا هجومهم على حلب وانتصارهم على نائبه هناك فى معركة قنسرين[٣] . على أنَّ الأمور تغيرت لصالح زنكى بعد فشل الخليفة فى الاستيلاء على الموصل بعد حصار لها استمر ثلاثة أشهر فانسحب عنها إلى بغداد ، وبعد وفاة الأمير بورى أتابك دمشق فى نفس العام (٥٢٨ هـ) . وقد تولى حكم دمشق بعد بورى إبنه إسماعيل، الذى خشى على نفسه من مؤامرات أقربائه ، وعرض على زنكى استلام دمشق لحمايته من أعدائه .

ولقد قام إسماعيل بن بورى بتهديد زنكى بتسليم دمشق للصليبيين فى

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٤٩٢ .

(٢) Grousset : Hitstoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, I . II, Paris 1943 - 46, p. 55.

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٤٤٤ .

حالة تقاعسه عن نجدته[1] . وقد وجد زنكى فى ذلك العرض الفرصة التى طالما تمناها لتوحيد الشام الإسلامية لمواجهة خطر الصليبيين ، فسارع من الموصل متوجهًا إلى دمشق لاستلامها . لكن زنكى لم يتسلم دمشق بسبب تغير الأوضاع فيها بقتل إسماعيل بن بورى سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م) فى مؤامرة دبرت ضده ، ورفض أخيه محمود ، الذى خلفه فى حكم دمشق ، الاتفاق الذى تم بين زنكى وأخيه ، ووافقه على ذلك أهل دمشق[2] .

على أنَّ ما طمع زنكى فى تحقيقه فى الشام تحقق له فى العراق ، وذلك لانتهاء عهد الصحوة التى عاشتها الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٣٠هـ) ، بعد أن تجددت سيطرة السلاجقة علي دولة الخلافة فى عهد حكم السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٩ - ٥٤٧ هـ) ، الذى تصدى للخليفة المسترشد وقام بهزيمته ونفيه إلى خارج البلاد ، وقتله على يد جماعة الشيعة الباطنية[3] . ولم يجد الخلفاء الذين تعاقبوا بعد المسترشد ، وهم الراشد ، ثم المتقى ، بُداً من الإستعانة بزنكى ضد السلطان مسعود السلجوقى ، مما قوّى نفوذ زنكى فى جبهة العراق .

ولم يكد زنكى يطمئن على نفوذه فى جبهة العراق ، حتى وجه همه إلى جبهة الشام من جديد . وبدأ فى ربيع سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) بمهاجمة مراكز الصليبيين شرقى نهر العاصى ، ونجح فى استعادة حصن الأثارب منهم ، ومعرة النعمان ، وكفر طاب[4] ، ورد أهلها المسلمين إليها بعد تركهم لها أثناء

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٧٩ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر السابق ونفس الجزء ، ص ٢٧٩ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن أربعة وعشرين رجلاً من الباطنية دخلوا عليه فى خيمة خصصت له فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جرحاً ، ومثلوا به ، فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً (ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ٢٨٣) .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٥٩ .

الإحتلال الصليبى . وقام زنكى كذلك بشن غارات على شيزر وحمص وقنسرين ، ثم عاد إلى قاعدته بالموصل .

وفى الوقت الذى شُغل فيه زنكى بأمر العراق ، قام سيف الدين سوار ، نائبه على حلب ، بغزو إمارة أنطاكية سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦م) ، وقد غطت هذه الغزوة مائة قرية كانت فى يد الصليبيين ، وقد عاد سوار بآلاف الأسرى والكثير من الغنائم[١] .

كذلك قام أهل دمشق بحملة كبيرة على إمارة طرابلس التى كانت فى يد الصليبيين سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧م) ، انتصروا فيها وعادوا منها بغنائم وفيرة . على أنّ زنكى كان يرى ضرورة اتحاد الإمارات الإسلامية فى الشام ، لمجابهة الوجود الصليبى على أراضيها . فقام فى ذلك العام بمحاولة ضم مدينة حمص إلى حكمه[٢] . وتوجه بجيشه إليها ، لكنه اضطر للدخول فى معركة حاسمة مع الصليبيين عند بعرين (بارين) الذين جاءوا لنجدة حمص بناءً على طلب من حكامها البوريين ، وكان يقود تلك الحملة الصليبية الملك فولك ، ملك بيت المقدس ، والأمير ريموند الثانى أمير طرابلس . وقد وقعت للصليبيين هزيمة ساحقة ، فقُتل منهم أكثر من ألفين وأُسر الكثيرون ، من بينهم ريموند الثانى . ونجح فولك فى الفرار إلى قلعة بعرين ، وقام زنكى بمحاصرته هناك .

على أن ملك بيت المقدس نجح فى طلب النجدة السريعة من بطريرك بيت المقدس وأمير الرها وأمير أنطاكية . ولمّا علم زنكى بتحرك هذه النجدة الصليبية إلى بعرين ، آثر السلامة ، وعقد صلحاً مع الصليبيين المحاصرين على أن يفتدى ملك بيت المقدس نفسه مقابل دفع مبلغ خمسين ألف دينار ، وأن يستولى المسلمون على بعرين إضافة إلى المدن التى كانوا قد استولوا عليها

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٩٨ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

شرقى نهر العاصى[1] .

وكان زنكى يتطلع للإستيلاء على أكبر امارتين صليبيتين فى بلاد الشام ، وهما إمارة أنطاكية وإمارة الرها . ولقد كان لمدينة أنطاكية بالذات أهمية دينية وحربية وسياسية خاصة بالنسبة للدولة البيزنطية ، فضلا عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية فى الشام تطرفاً جهة الشمال ، مما جعل الحدود مباشرة بينها وبين البيزنطيين فى قيليقية . وقد استاء الأمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين لاستيلاء الصليبيين على تلك المدينة وإقامة إمارة لهم فيها ، وهم يعلمون بأنها جزء من أرض الإمبراطورية . وقد حنث أولئك الصليبيون اليمين الذى أقسموه أمام الإمبراطور كومنين ، غداة شروعهم فى حربهم الصليبية ونزولهم أرضه ، بإعادة كل ما يستولون عليه للروم[2] . وبذلك كانت مشكلة إمارة أنطاكية من أهم المشاكل التى خلقتها الحملة الصليبية الأولى .

ولقد اختزن الروم فى ذاكرتهم ذلك الحنث باليمن ، وأعمال السلب والنهب وهتك الأعراض التى ارتكبها هؤلاء الكاثوليك اللاتين فى بلادهم ، ولذا امتلأت قلوبهم كرهاً لهم وحقداً عليهم . وانتهى الأمر بتفجر العداء الصريح بين اللاتين الكاثوليك والروم الأرثوذكس . وتحيّن الأمبراطور الكسيوس الفرص وأرسل جيوشه وأساطيله لإستعادة المدن التى استولى عليها الصليبيون ، فأستعادت تلك الجيوش مدن أطنه وطرسوس منهم ، وغيرها من المدن والبلدان التى كانت تدخل فى نطاق إمارة أنطاكية النورماندية . وعلى أثر ذلك سارع بوهيمند أمير أنطاكية التورماندى ، إلى السفر إلى أوربا ليحرض

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٤٤٨ .

(٢) اجبر الأمبراطور الكسيوس كومنين أمراء الصليبيين ، أثناء مرورهم بالقسطنطينية علما أن يقسموا يمين الولاء له وكذلك أن يردوا للامبراطورية البلاد التى كانت تابعة لها فى الشرق ، كما دأب خلفاؤه من الأباطرة أثناء القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) على محاولة فرض السيادة البيزنطية ، على مختلف الإمارات اللاتينية فى الشام . وكان لهذه السياسة التى اتبعها البيزنطيون آثارها على الصليبيين ومراكزهم فى الشرق (عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ١٥٩ ، ١٦٠) .

البابا ضد كومنين متهمًا إياه بخيانة القضية الصليبية ، تاركاً ابن شقيقه «تانكرد» ليحكم إمارة أنطاكية مكانه . وفى الغرب دعا بوهيمند إلى حرب صليبية ضد الأمبراطورية البيزنطية وكومنين نفسه .

ولَمَّا توفى بوهيمند عام ٥٠٥ هـ (١١١١م) ، خلفه تنكرد فى حكم أنطاكية ، الذى كان يكره الروم ورفض إعادة أنطاكية إلى حوزتهم[١] . ولقد انشغل الإمبراطور البيزنطى بحروب مع السلاجقة منذ عام ٥٠٨هـ (١١١٤م) ، الأمر الذى شغله عن استرداد أنطاكية إلى دولته ، وبقاء مشكلة أنطاكية معلقة لبعض الوقت .

ولماً توفى الأمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) ، خلفه إبنه يوحنا كومنين (الثانى) ، (٥١٢ - ٥٣٨هـ / ١١١٨ - ١١٤٣م) ، الذى ، لم ينس استعادة أنطاكية العزيزة على نفسه ، فصادق ، بسبب ذلك ، الأمراء الصليبيين فى الشام وأقام معهم علاقات قوية، ليس حباً فيهم وكرهاً فى المسلمين، ولكن لاتقاء شرورهم ، وأملاً فى ضرب بعضهم ببعض حين تُتاح الظروف . كما حاول التقارب مع زنكى وتبادل الهدايا معه ليصرفه بذلك عن التطلع للاستيلاء على أنطاكية التى كان قد عزم على استردادها من يد النورمان .

ولقد كان النورمان يشكلون خطراً كبيراً على الأمبراطورية الرومانية، وكانوا يخططون ضمن برامجهم الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الأمبراطورية . وبدأ هذا الخطر في التفاقم منذ سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٣م) حين نجح روجر النورمانى بضم صقلية وجنوب إيطاليا إلى مملكته وتتويج نفسه ملكاً فى بالرمو، وبذلك أصبح روجر منافساً للأمبراطورية الرومانية المقدسة فى زعامة غرب أوربا . لذلك سارع الأمبراطور البيزنطى بالتقارب مع الأمبراطورية المقدسة بعقد تحالف مع لوثر ، أمير سكسونيا ، ثم مع خليفته كونراد الثالث ،

(١) الناصرى : الروم والمشرق العربى ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

ضد النورمان ، الأمر الذى خوَّف النورمان وجعلهم يتراجعون عن أطماعهم فى الدولة البيزنطية ؛ وساعد على حل قضية أنطاكية[1] .

وكان الأمبراطور يوحنا ، قد أمن الطريق البرى الذى يربط بين عاصمته وأنطاكية ، بعد تغلبه على السلاجقة فى قيليقيا ، وقام سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧م) بالتوجه نحو أنطاكية وحصارها ، واستسلامها ، وقبل زوج الوريثة النورمانية شروط الصلح مع الأمبراطور البيزنطى بالاعتراف بتبعية أنطاكية للدولة البيزنطية وقيامه نائباً عنه فيها .

وكان التفاهم بين الصليبيين والبيزنطيين الذى وقع سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م) بصدد أنطاكية ، قد أدى إلى تحالف الفريقين ضد المسلمين فتم الاتفاق على تنفيذ مشروع حملة صليبية كبرى ، فى الربيع التالى ، يشترك فيها البيزنطيون والفرنجة الغربيون ضد المسلمين فى الشام . وكان الهدف الرئيسى من مشروع تلك الحملة تحطيم قوة عماد الدين زنكى فى حلب ، وتحطيم إمارة بنى منقذ العربية فى شيزر ، وانتزاع حمص من أتابكة دمشق ، ثم إقامة إمارة صليبية جديدة فى تلك الأنحاء التى تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحمص وحماة . وكذلك تم الاتفاق علي أن يُعين ريمون دى بواتييه أميراً على تلك الإمارة الجديدة ، وأن يُترك إقليم أنطاكية للأمبراطور البيزنطى[2] .

وفى أواخر سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) ، وصل يوحنا كومنين إلى أنطاكية وانضمت إليه هناك قوات أنطاكية والرها الصليبية ، وزحف بتلك القوات ليستولى على حلب ، واستولى فى طريقه إلى حلب على حصن (بزاعا) ، الواقع فى الطريق بين حلب ومنبج . وعلى الجانب الإسلامى ، أرسل زنكى،

(١) الناصرى : الروم ، ص ٤٠٧ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٤٥٥ .

وهو فى حمص قائده «سوار» للدفاع عن حلب ومنع الأمبراطور من الاستيلاء عليها بعد حصاره لها مدة ثلاثة أيام، فانصرف عنها إلى حصن الأثارب واستولى عليه بعد أن هجره أهله بعد اشعال النار فيه وتدميره . ثم توجه الامبراطور إلى معرة النعمان ، واستولى فى طريقه على كفرطاب ، التى كان زنكى قد انتزعها من الصليبين سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) ، ومنها توجه إلى شيزر فهاجمها وحاصرها . واستنجد صاحبها ابن منقذ بزنكى ، فزحف زنكى مسرعاً بقواته لنجدته ، وفى نفس الوقت راسل زنكى السلطان مسعود السلجوقى والأمير داود الأرتقى لمساعدته فى نجدة شيزر . ولجأ زنكى إلى الوقيعة بين البيزنطيين والصليبيين وتخويف بعضهم من بعض ، الأمر الذى نتج عنه انسحاب القوات الصليبية عن المشاركة مع القوات البيزنطية فى حصار شيزر[1] .

وفشلت تلك الحملة الصليبية البيزنطية على شيزر لانسحاب القوات الصليبية منها ، واضطرار الأمبراطور البيزنطى يوحنا كومنين إلى الانسحاب بقواته أيضاً عن حصارها والتوجه إلى أنطاكية ، بعد اتفاقه مع صاحب شيزر على دفع جزية سنوية له رمزاً للتبعية له . ولم يكد الصليبيون والروم ينسحبون من شيزر؛ حتى أرسل زنكى جيشه للاستيلاء على كفرطاب، ثم حصن بزاعا، ثم حسن الأثارب ، وبذلك ضاعت على الصليبين والبيزنطيين كل المكاسب التى حصلوا عليها فى هذه الحملة الصليبية البيزنطية[2] .

أما عن الأمبراطور البيزنطى ، فقد قرر بعد هذه الأحداث فى شيزر ، أن يستولى على أنطاكية استيلاءً فعليًا ، ولا يكتفى بتبعيتها له مع وجود ريموند بواتييه حاكماً لها نيابةً عنه . وما أن وصل بجيشه إلى قلعة بغراس ، التى كانت بيد فرسان الداوية الصليبيين والتى كانت تقطع الطريق بين قيليقية

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٠٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٨٣ .

وأنطاكية ، حتى أرسل إنذاراً نهائياً إلى الأمير النورماندى بواتييه بتسليمه أنطاكية فوراً . ثم توجه الأمبراطور بقواته من بغراس قاصداً أنطاكية . إلا أنَّ القدر لم يمهله لإتمام خطته والإستيلاء على أنطاكية ، بسبب موته على أثر سهم طائش مسموم أصابه فى ذراعه وهو فى رحلة صيد[1] ، فى قيليقية ٥٣٧هـ (٨ أبريل ١١٤٢م) . وبذلك تخلص الصليبيون بالشام من خطر مواجهة قاسية مع الأمبراطور البيزنطى .

على أنَّ العداوة بين البيزنطين والصليبيين استمرت بسبب تواجد الصليبيين فى الشام ، وتهديدهم للأملاك الأمبراطورية هناك واحتفاظهم بما استولوا عليه منها وخصوصاً أنطاكية . وقد حاول الصليبيون ، بعد وفاة الأمبراطور يوحنا كومنين وتولى إبنه عمانويل من بعده (٥٣٨ - ٥٧٦هـ / ١١٤٣ - ١١٨٠م) الاستيلاء على المراكز البيزنطية فى قيليقية . لكن الأمبراطور الجديد أرسل جيشاً وأسطولاً لطرد الصليبيين من قيليقية ، ثم هاجم أنطاكية ذاتها وأوقع الهزيمة بحاكمها ريموند النورماندى . وهكذا ساءت العلاقات بين الروم والصليبيين ، الأمر الذى كان فى صالح زنكى ، والذى حال دون اتفاق الطرفين فى عمل سريع موحد ضده .

ولقد نذر زنكى نفسه للقضاء على الكيان الصليبى ودفع عدوانه عن بلاد المسلمين وتطهير تلك البلاد من دنسهم ، وحتى يتحقق له ذلك كان زنكى مقتنعًا بأنَّ الخطوة الأولى لتحقيق حلمه هذا هى توحيد قوى المسلمين فى الشام وإقامة جبهة اسلامية موحدة تستطيع التصدى للوجود الصليبى هناك وبالتالى تقتلع جذورهم من تلك البلاد . لذلك لم يكد يفرغ زنكى من أمر الحملة الصليبية البيزنطية الفرنجية ، التى انتهى أمرها بالفشل لكلا الحليفين الصليبيين،

(١) الناصرى : الخروم ، ص ٤٠٨ .

حتى أخذ يوجه جهوده نحو ضم الإمارات الإسلامية المجاورة له ، وبخاصة أتابكية دمشق .

ولم يكن أمر ضم هذه الأتابكية لزنكى أمراً سهلاً ، بل كان من العسير عليه تحقيق ذلك بسبب التحالف الذى تم بين هذه الأتابكية وإمارة بيت المقدس الصليبية ، بين معين الدين أنر حاكم دمشق الفعلى[1] والملك فولك ملك بيت المقدس ؛ الأمر الذى جعل زنكى يترك حصار دمشق ، بعد أن شرع فيه ، وينصرف عنها سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م)[2] . وقد جمد ذلك التحالف الدمشقى الصليبى جهود زنكى فى بلاد الشام إلى بعض الوقت ، وجعله يصرف اهتمامه إلى إمارة الرها الصليبية بالعراق . تلك الإمارة التى يفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام ، والتى كانت تُشكل خطراً كبيراً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب ، وبين بغداد وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى .

وقد ساعد زنكى على تحقيق أهدافه فى الإستيلاء على إمارة الرها الصليبية ، ذلك العداء الشديد الذى قام بين ريموند دى بواتييه أمير أنطاكية وجوسلين الثانى أمير الرها . كذلك فإن أمير الرها جوسلين الثانى لم يكن فى شجاعة ولاقوة أبيه فى بلائه ضد المسلمين .

وسارع زنكى بحصار الرها سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، فى الوقت الذى كان فيه ملكها جوسلين متغيباً فى تل باشر ، وبرغم دفاع أهل المدينة عنها

---

(١) لمّا قُتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بورى بن طغتكين صاحب دمشق على فراشه غيلةً ، كتب معين الدين أنر من دمشق إلى أخيه جمال الدين محمد بن بورى صاحب بعلبك واستدعاه ليملك بعد أخيه ، فحضر فى أسرع وقت . . . وفوّض أمر دولته إلى معين الدين أنر ، مملوك جده وزاد فى علو مرتبته وصار هو الجملة والتفصيل ، وأقطعه بعلبك وزوجه أمه (ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠) .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٧٢ .

الصليبيون والأرمن والسريان ، إلا أنها سقطت فى يد زنكى[1] ، رغم متانة تحصينها (يوم ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م) سنة ٥٣٩هـ[2] . ولم يقم زنكى بتخريب مدينة الرها لأنها ، على حد قول ابن الأثير[3] ، «أعجبته ورأى أن تخريب مثلها لا يجوز فى السياسة فأمر ونودى فى العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يُفقد منه شيء إلا النادر الذى أُخذ . وفارق ما أخذه العسكر فعاد البلد على حاله الأول وجعل فيه عسكراً يحفظه»[4] .

وقد استولى زنكى ، بعد فتحه الرها ، على بقية المعاقل الصليبية شرقى نهر الفرات ، فاستولى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م) على مدينة سروج ، ولكنه لم يستولى علي مدينة البيرة الحصينة الواقعة على شاطىء الفرات ، والتى كانت تدافع عنها حامية صليبية قوية . وقد ترك زنكى محاصرة البيرة متجهاً إلى الموصل عندما بلغه خبر مقتل نائبه فيها . أما حامية البيرة الصليبية فقد رأت أنه من الأسلم لها أن تضع القلعة تحت حماية حسام الدين بن ايلغازى أمير ماردين وإبنه نجم الدين .

هذا ولم يكن لسقوط الرها فى يد عماد الدين زنكى من صدى كبير عند الصليبيين ؛ ذلك لأنهم لم يدركوا آنذاك مدى وحجم الخسارة التى وقعت بمشروعاتهم الصليبية الاستعمارية فى بلاد الشام ولم يدروا أنَّ هذه الخطوة ، فى نظر التاريخ ، جاءت «فتح الفتوح» بالنسبة للمسلمين ، وأنها كانت أول

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٢٧٥ (سقطت الرها بعد حصار شديد لها مدة ٢٨ يوماً) .

(٢) أورد ابن الأثير (الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٣١) أنَّ فتح زنكى لهذه المدينة ، وافق يوم السادس من جمادى الآخرة لسنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

(٣) الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٣٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، نفس الجزء والصفحة .

مسمار دُق فى نعش البناء الذى شيده الصليبيون فى المشرق الإسلامى ، وأنها كانت بداية النهاية لوجودهم على تراب أرض المسلمين .

ولقد كان كل ما فعله الصليبيون بالشام ، أن اكتفوا ببعض الإجراءات السياسية للحد من خطر الزنكيين عليهم ، فحالفوا الأراتقة في ماردين كما حالفوا الدماشقة . وفى أواخر أيام حياته ، قام زنكى باخضاع قلعة جعبر ، على الفرات بين بالس والرقة ، والتى كانت تابعة للعقيليين . وقام بحصار هذه القلعة المنيعة لفترة طويلة دون أن يتيسر له فتحها ، واستمر مرابطاً أمامها ، حتى جاءت نهايته بقتله على يد أحد خصيانه ، يوم الخامس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ (منتصف سبتمبر ١١٤٦م)، وهو فى الستين من عمره، ودفنه بالرقة[١] . وقد أتم زنكى من الأعمال ما لم يستطع جميع أمراء المسيحية هدمه، وترك لإبنه نور الدين محمود ولصلاح الدين الأيوبى أمر إتمام ما بدأه ، من جهاد وأعمال ، فلم تمض على وفاة زنكى أربعون سنة حتى عادت القدس إلى أيدى المسلمين[٢] .

ثانيا : نور الدين محمود ومواصلة دفع العدوان عن ديار المسلمين ٥٤١ - ٥٧٠هـ (١١٤٦ - ١١٧٤م) :

انقسمت مملكة عماد الدين زنكى ، بعد وفاته سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) إلى قسمين شرقى وغربى . القسم الشرقى ، ومقره الموصل ، وعليه إبنه الأكبر سيف الدين غازى ، والقسم الغربى ، ومقره حلب ، وعليه إبنه نور الدين محمود ، وكان نهر الخابور ، هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين . وأدى الوضع الجغرافى للقسم الغربى إلى أن يواجه صاحبه المشكلتين الكبيرتين

(١) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
● إبن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
(٢) الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٥٣ .

اللتين صرف زنكى سنى حياته فى معالجتهما ، وهما المشكلة الدمشقية ومشكلة الإمارات الصليبية . وما أشتُهر به نور الدين من الحماس الدينى والرغبة فى دفع العدوان عن ديار المسلمين ، وما وقع فى مستهل حكمه من أحداث ، كان له أكبر الأثر فى مُضيه قُدماً إلى العمل الذى فرضه الوضع السياسى عليه .

ولقد خضعت دولة نور الدين لحكومة مركزية قوية قادرة على أن تمض فى طريق الجهاد ضد الصليبيين دون هوادة . وكان لاسترداده «الرها» Edessa ، من يد «جوسلين الثانى» النورماندى والأرمن سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) ، رد فعل شديد فى العالم المسيحى الغربى ، أثار شعوره وحماسه وأدى إلى الدعوة للحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام . لكن نور الدين كان للصليبيين بالمرصاد ، فقد ورث الجهاد ضدهم عن أبيه ونذر نفسه له حين تولى الحكم بعده .

الحملة الصليبية الثانية :

لقد أثار سقوط «الرها» فى يد المسلمين ، الروح الصليبية فى الغرب المسيحى ، نظراً لما كانت تتمتع به هـذه المدينة من مكانة دينية فى تاريخ المسيحية ، كذلك لكونها أول وأقـدم إمارة صليبية أسسها الصليبيون فـى الشـرق. وزاد فى هذه الإثارة ما تعرضت له إمارة أنطاكية والكنيسة اللاتينية فى الشـرق ما ينذر بزوالها. وقد وصلت أنباء تلك الكوارث التـى حلت بالمسيحية فى تلك البلاد إلى البابا فى الفاتيكان (يوجين الثالث) وإلى بعض ملـوك أوربا، عن طريق الحجاج المسيحيين والمسافرين والأساقفة الأرمن الذين زاروا المقر البابوى بروما ، وعن طريق الرسل الوافدين من أنطاكية وبيت المقـدس . فما كان من البابا إلا أن دعى إلى حرب صليبية جديدة كانت الثانية فى الترتيب[1] .

(١) العرينى : الحروب الصليبية ، ص ٥٥ .

وبصدد الدعوة إلى هذه الحرب والحملة الصليبية الجديدة ، أرسل البابا منشوراً باباوياً إلى فرنسا ، باعتبارها الموطن الطبيعى المتحمس للحركة الصليبية. واتخذ القديس برنارد[1] ، وهو من أعظم المتحمسين للأماكن المقدسة المسيحية بالشرق والراغبين فى سلبها من يد المسلمين ، مبشراً للحملة الصليبية الثانية ، التى شارك فيها كل من «لويس السابع» ، ملك فرنسا ، وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا . والواضح أنَّ هذه الحملة قد حظيت بالعناية والرعاية ما يزيد على ما كان من نصيب للحملة الأولى ؛ إذ أنَّ الملوك حلوا فى هذه الحملة مكان الأمراء الذين شاركوا فى الحملة السابقة . ولكن زيادة الرعاية لتلك الحملة كان زيادةً لفشلها؛ نظراً لكثرة ما وقع فيها من خلاف فى وجهات النظر بين قواد تلك الحملة ومشاكل وما صادفته ، وقت التنفيذ ، من متاعب .

وقد تمثلت هذه المتاعب والمشاكل ، فى موقف الدولة البيزنطية من الصليبيين القائمين بأمر هذه الحملة . وفى اختلاف الأجناس المشاركة فيها ، وفى الطرق التى سلكها رجال الحملة ، وبخصوص الإمبراطورية البيزنطية فإن الأمبراطور القائم آنذاك ، وهو «عمانويل كومنين» ، كان لا يزال متمسكاً بموقف بيزنطة التقليدى حيال المشروع الصليبى ، الذى يقضى بأنَّ كل ما يستولى عليه الصليبيون من بلاد ، يكون إقطاعاً له[2] .

يضاف إلى ذلك ما وقع من خلاف بين بيزنطة و«روجر النورماندى» ، أمير صقلية ، المشارك فى هذه الحملة ، حول الطريق الذى كان على الصليبيين سلوكه إلى بيت المقدس ، علاوة على العداء المتأصل الذى كان قائماً بين النورمانديين والبيزنطيين[3] . وقد أراد «روجر الثانى» ، أن يجنب لويس السابع أخطار الطريق البرى عبر آسيا الصغرى ، فعرض عليه أن يقدم له ولجيوشه السفن اللازمة لنقله إلى الشام مباشرةً ، فضلاً عن استعداده لتزويد الصليبيين

(١) هو رئيس رهبان دير سانت كليرفو بفرنسا .

(٢) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ١٦٠ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٤٨٥ .

بما يحتاجونه من زاد ومؤن أثناء رحلتهم البحرية . وكان روجر يأمل ، فى الواقع ، أن يوجه الحملة لانقاذ أنطاكية التى يحكمها النورمان . غير أنَّ الامبراطور البيزنطى رفض ذلك العرض من قِبل روجر ، لأنَّ الامبراطور تخوف من النورمان ، واعتقد بأنَّ فى وسع روجر ، بعد خضوع الحملة لسيطرته ، أن يوجه الحملة والسفن الصليبية لمهاجمة القسطنطينية لا لتخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، كما هو متفق عليه . ولقد انحاز امبراطور ألمانيا كونراد ، إلى رأى الامبراطور البيزنطى فى إتخاذ الحملة للطريق البرى دون البحرى ، وذلك لما بين الاثنين من رابطة المصاهرة و؛ أن تجتاز الحملة بلاد المجر إلى الأراضى البيزنطية فتخضع الحملة بذلك لاشـــراف الدولة البيزنطية[1] . والواضح أنَّ هذا الاختلاف فى وجهة النظر كان من عوامل فشل هذه الحملة ووأدها وهى فى المهد .

ومن الملاحظ فى هذا الأمر ؛ أنَّ كونراد الثالث ، امبراطور ألمانيا ، لا يمكن أن يقبل وضع يده فى أيدى النورمان ، حتى ولو كان ذلك من أجل التعاون فى خدمة الحركة الصليبية ؛ نظراً لما ساد العصر الذى اشتد فيه النزاع بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة ، من عداء بين الفريقين . ولذلك تمسك كونراد بالطريق البرى إلى الشام ، وتم الاتفاق على أن يسبق كونراد وجيشه فى المسير ، ثم يلحق بهم الفرنسيون إلى القسطنطينية حتى لا يؤدى مسير الجيشين معاً إلى صعوبة فى التموين[2] .

ولم تكن هنالك وحدة حقيقية بين عساكر الجيش الصليبى الكبير ، الذى توجه أساساً إلى بيت المقدس ، ذلك لأن الملكيْن الصليبيْين لم يتحدا فى مسار واحد ، بل سار كل منهما فى طريق مستقل عن الآخر ، وفى أزمنة مختلفة ، إلي أن وصلا بجيوشهما إلى آسيا الصغرى . وقد تقاعست الدولة البيزنطية ،

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٤٨٦ .
(٢) العرينى : الحروب الصليبية ، ص ٥٦ .

هذه المرة ، عن تقديم المساعدات للصليبيين مثلما فعلت فى الحملة الصليبية الأولى ؛ الأمر الذى عرَّض الصليبيين لمتاعب ومشاق كثيرة فى آسيا الصغرى ، وأدى إلى هلاك عدد كبير من جنودهم . وازاء ذلك الموقف المتخاذل من جانب الامبراطور البيزنطى وسوء ظنه فى الصليبيين هذه المرة ، اضطر كونراد إلى العودة إلى القسطنطينية وإتخاذ طريق البحر إلى الشام[1] ، وإلى أن يتخذ الملك الفرنسى لويس السابع الطريق الدائرى الطويل على امتداد الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، ولم يصل إلى بيت المقدس إلا سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) ، بعد أن هلك فى الطريق معظم جنده وعسكره . وكان البيزنطيون قد أظهروا عداءهم ، مرة أخرى ، للصليبيين حين امتنعوا عن تقديم السفن اللازمة لهم ، لإتخاذ طريق البحر بدلاً من طريق البر الطويل الخطير ، مما عرض حملة لويس لهجوم السلاجقة وقتل أعداد كبيرة منهم ؛ الأمر الذى أثار نقمة الغرب الأوربى على أباطرة بيزنطة ، وهى النقمة التى عبرت عن نفسها تعبيراً عملياً فيما بعد بإستيلاء الصليبيين على القسطنطينية ، عاصمة بيزنطة فى الحملة الصليبية الرابعة[2] .

ولماَّ وصل لويس السابع إلى بيت المقدس سنة ٥٤٣هـ (منتصف ابريل سنة ١١٤٨م) وجد الأمبراطور الألمانى كونراد فى انتظاره ، ورحب بهما بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، وطلب منهما الاستيلاء على دمشق ، فوافقاه على القيام بذلك . وهكذا إنحرفت الحملة الصليبية الثانية عن هدفها الأساسى الذى جاءت من أجله ، وهو القضاء على نور الدين محمود بن زنكى ، واستعادة الرها وشمال الشام من يده ، وجنحت نحو مساعدة مملكة بيت المقدس التى كانت فى حقيقة أمرها أقل الممالك الصليبية فى بلاد الشام تعرضاً لضغط المسلمين آنذاك . وبذلك يتضح لنا تخلى الصليبيين عن الهدف الذى

(١) إتجه كونراد ومعه جنوده إلى فلسطين على سفن بيزنطية .
(٢) انظر فيما بعد .

جاءوا من أجله إلى بلاد الشرق ، وهو محاربة المسلمين ونصرة الصليب والتضحية بأنفسهم من أجل ذلك ، وظهروا على حقيقتهم فى تحقيق أطماع ومكاسب مادية على حساب إخوانهم المسيحيين وعلى حساب الصليب[1] .

وفى ذلك العام (٢٤ يونيو ١١٤٨م) عُقد فى مدينة عكا مجلس صليبى كبير ، حضره ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا وملك بيت المقدس وعدد كبير من أمراء الصليبيين وكبار رجال الدين ، واتفقوا فى هذا المجلس على مهاجمة دمشق وقتال أميرها معين الدين أنر ، الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين بالشام . ولم تلبث القوات الصليبية أن تجمعت لمهاجمة دمشق ، وهاجمتها ونجحت ، فى بادئ الأمر ، باحتلال بعض المراكز والقرى الأمامية خارج سور دمشق وفى تلك الأثناء وصلت لدمشق النجدات من الأبواب الشمالية ، مما جعل الصليبيين يتحولون من الهجوم إلى الدفاع[2] . كذلك وصل لعلم الصليبيين استجابة كل من غازى ونور الدين إبنى زنكى طلب (أنر) فى نجدته فخافوا إطباق قوات المسلمين عليهم فقرر لويس وكونراد الانسحاب عن دمشق ورفع الحصار عنها الذى لم يستمر سوى أربعة أيام . وبذلك فشلت الحملة الصليبية الثانية ، وعاد كونراد إلى بلاده سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) ، وأبحر لويس السابع فى العام التالى إلى فرنسا ، وأساء المسيحيون الظن بالحركة الصليبية وفقدوا حماسهم في أعداد حملة جديدة .

وكانت للحملة الصليبية الثانية نتائج هامة بالنسبة للجانب الإسلامى وللجانب الصليبى ، لذلك لا عجب إذا قرر بعض المؤرخين أنَّ فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ الصليبيين فى بلاد الشرق الأدنى[3] . ومن أهم نتائج هذه الحملة اكتشاف

(١) عُرفت هذه الحملة الصليبية فى التاريخ باسم الحرب الصليبية الثانية .

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٣٦ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٤٩٦ .

المسلمين أنَّ الصليبيين أضعف من أن يقوموا بجهد جدى ضد المسلمين ، وعندئذ تشجعت القوى الإسلامية فى الشرق الإسلامى وبدأت تغير على ما جاورها من أملاك الصليبيين وتسترد ما سبق أن سلبه الصليبيون منهم .

وكانت إمارة أنطاكية هى أولى الإمارات الصليبية تعرضاً لهجمات المسلمين عقب فشل الحملة الصليبية الثانية ، وكان نور الدين محمود صاحب هذه الهجمات عليها . فبعد أن أستولى نور الدين على حمص أخذ يوجه جهوده من جديد ضد إمارة أنطاكية ، فأغار فى صيف سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) على الأقاليم المحيطة بقلعة حارم على الضفة الشرقية لنهر العاصى . وبعد أن قام نور الدين بتدمير ما حول حارم من ضياع ، قام بحصار قلعة إنب ، الواقعة قرب معرة النعمان .

وعندما علم ريموند صاحب أنطاكية بذلك خرج علي رأس قوة كبيرة من رجاله لقتال نور الدين ، وانتصر عليه نور الدين انتصاراً ساحقاً ، وقُتل ريموند نفسه فى المعركة[١] . ولقد كان لمقتله فرحة كبرى عند المسلمين لأنه كان على حَد قول إبن واصل «عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم»[٢] . وبعد النصر توغل نور الدين بقواته فى إمارة انطاكية حتى وصل إلى السويدية مينائها واستولى على جميع ممتلكاتها شرقى نهر العاصى ، واكتفى بذلك دون أن يستولى على أنطاكية نفسها ، وعاد إلى بلاده .

وفى الوقت الذى أصاب الحملة الصليبية الثانية ما أصابها من فشل ، كان «جوسلين الثانى» أمير إمارة الرها ، لا يزال فى قاعدته تل باشر ، يشرف على البلاد المتبقية التابعة لإمارته ، وهى سميساط وقلعة الروم والبيرة وعزاز ومرعش ، على حدود إمارة أنطاكية . وكان جوسلين هو الرجل المتبقى من

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٣٠٥ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ١ القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٢١ .

أمراء الصليبيين ، بعد موت ريموند ، والذى كان عليه عبء الدفاع عن مصالح الصليبيين فى شمال العراق والشام . وكان على جوسلين أن يقوم باسترداد ممتلكات الصليبيين التى استحوذ عليها المسلمون ، وبخاصة مدينة الرها ذاتها ، كذلك كان عليه أن يسارع بنجدة إمارة أنطاكية بعد مقتل أميرها . إلا أنه على العكس من ذلك ، فقد زحف على مرعش وأستولى عليها وهى جزء متبقى من حطام إمارة أنطاكية . غير أنه عندما علم باقتراب السلطان مسعود ، سلطان السلاجقة منها انسحب عنها .

وهكذا جاءت الفرصة مواتية للأتراك السلاجقة والتركمان ليرثوا إمارتى أنطاكية والرها . فاستولى السلطان مسعود على مرعش ، وحاصر تل باشر ثم إنسحب عنها بعد قليل . واستولى الأراتقة على الأجزاء الشمالية من إمارة الرها . أما جوسلين الثانى فقد وقع فى يد نور الدين ، وقام بحبسه فى حلب حتى وفاته فى السجن بعد تسع سنوات قضاها فيه سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩م) . وعند أسر جوسلين قام السلطان مسعود سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) بالاستيلاء على تل باشر نفسها ، بينما استولى نور الدين محمود على قلعة عزاز الواقعة شمال شرقى مدينة أنطاكية[١] .

وعندما رأى «بلدوين الثالث» ، ملك بيت المقدس تدهور أحوال إمارتى أنطاكية والرها الصليبيتين ، سارع لتدارك الموقف هناك وتوجه إلى أنطاكية . وفى نفس الوقت عرض الأمبراطور البيزنطى عمانويل على أرملة جوسلين الثانى والوصية على إمارة الرها ، شراء المدن المتبقية تحت حكمها فى إمارة الرها والمدن التى استولى عليها المسلمون وكانت تابعة لتلك الإمارة . وعندما تلقت الملكة العرض سارعت بمراسلة بلدوين تخبره وتسأله الرأى[٢] فوافقها على ذلك . وتمت الصفقة بين أميرة الرها والامبراطور عمانويل كومنين سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) ، على أن يستولى البيزنطيون على كل مدينة ينسحب منها

(١) ابن القلانسى : نفس المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ،ص ٥٠١ .

فرسانها وسكانها من الصليبيين ، وبذلك يعود النفوذ البيزنطى القديم فى تلك الأطراف الشرقية .

لكن الامبراطورية البيزنطية، وإن كانت دفعت لأميرة الرها ثمن هذه المدن، إلا أنها لم تنعم باستردادها بسبب انشغالها بتهديدات النورمان المستمرة فى صقلية ، كذلك بسبب تطلع نور الدين محمود والسلطان مسعود السلجوقى والأراتقة أصحاب ماردين إلى الإستيلاء عليها، وقد نجحوا بالفعل فى الاستيلاء عليها بعد عام واحد من شراء الامبراطور لها . فاستولى مسعود على عينتاب ، واستولى الأراتقة على سميساط والبيرة ، واستولى نور الدين محمود على الراوندان وتل باشـر سنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) . وبذلك تهاوت إمارة الرها الصليبية وعادت أراضيها لأصحابها المسلمين .

ولـم يمض وقت طويـل على تلك الأحداث حتى وفد الملك بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس إلى بلاط الأمبراطور البيزنطى عمانويل كومنين ، لتقديم فروض الطاعة والولاء ، وتوالى قدوم أمراء الصليبيين لإعلان خضوعهم للامبراطور البيزنطى ، الذى عقد معهم معاهدة تعهد فيها بتقديم المساعدة للإمارات الصليبية ضد الدولة النورية . وفى عيد الفصح لعام ١١٥٩م (٥٥٤هـ) ارتحل الامبراطور البيزنطى إلى أنطاكية ، وأعلن لأهلها بأن كل آسيا الصغرى وأعالى الفرات والشام هى أرض رومية يجب أن تعود للإمبراطورية . وتعهد كذلك للأمراء الصليبيين بأنه سوف يتصدى لأطماع نور الدين محمود بحزم ، وأنه سوف ينتزع منه إقليم الرها[1] .

ولقد حاول الامبراطور البيزنطى الاستيلاء على إمارة أنطاكية عن طريق المصاهرة بعد أن فشل فى الإستيلاء عليها عن طريق القوة . فوضع مشروع زواج أرملة ريموند من أخى زوجته ، لكن الأرملة «كونستانس» رفضت هذا

(١) الناصرى : الروم ، ص ٤١٦ .

الزواج وقبلت أن تتزوج من شاب فرنسى وصل إلى الشام فى أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، ثم تخلف عن الحملة فى فلسطين ، هذا الفارس يُسمى «رينو دى شاتيو» ، وعرفه العرب باسم «أرناط» . وقد وافق الملك بلدوين الثالث على إتمام هذا الزواج سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) . وبذلك حصلت إمارة إنطاكية على محارب قوى وفارس صليبى قام بدور بارز فى محاربة المسلمين ببلاد الشام[١] .

ولقد فكر الملك بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، فى القيام بعمل حربى هام يضفى على عهد حكمه أهمية فى نظر معاصريه ، ولم يكن ذلك العمل سوى الاستيلاء على عسقلان ، القاعدة الوحيدة التى بقيت للدولة الفاطمية فى فلسطين ، فشرع فى حصارها سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) مستغلاً فرصة الاضطرابات الداخلية فى مصر الفاطمية[٢] . ودخل الصليبيون المدينة (فى ١٩ أغسطس ١١٥٣م)[٣] .

ولقد كان سقوط عسقلان فى يد الصليبيين آخر نصر حربى كبير أحرزه ملوك بيت المقدس الصليبيين . ولكننا يجب أن نتذكر أنَّ الدولة الفاطمية ، وقت أن فقدت عسقلان ، كانت فى حال من الضعف والانحلال حال بينها وبين القيام بأى عمل حربى ضد الصليبيين .

كذلك فإنَّ أحداً من جانب القوى الإسلامية بالشام لم يسارع بالتدخل لايقاف الصليبيين عن عسقلان ، فلا مجير الدين أتابك دمشق قام بذلك ولا نور الدين محمود أتابك حلب بسبب ما كان بينهما من شقاق . ولقد شجع استيلاء الصليبيين على عسقلان ، شجعهم على الطمع فى دمشق ذاتها واستضعاف حكامها ومتابعة الغارات على أعمالهم حتى وصل بها الأمر أن

(١) سنعرض لسيرة هذا الأمير الصليبى عند حديثنا عن إمارة الكرك الصليبية وعن دوره مع صلاح الدين .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ٢٢٥ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

دخلت تحت حماية الصليبيين الفعلية . وصار أهل دمشق يدفعون ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم ، ولم يكن هنالك ذلٌ أكثر من ذلك عاشت فيه حاضرة الأمويين .

استيلاء نور الدين محمود على دمشق :

كان نور الدين محمود يؤمن بأنَّ الجبهة الإسلامية لم تتحد مالم تكون دمشق فى قبضته ، ذلك لأنها قصبة الشام وأهم مدنه ، ولذلك عمل بعد استيلائه على الرها ومعظم بلاد إمارة أنطاكية على ضم هذه المدينة التى كان يحكمها أتابك دمشق مجير الدين أبق من البيت البورى ، تحت حماية الصليبيين . وقد كان أبق يرى أنَّ حماية الصليبيين له أفضل من حماية نور الدين ، لكن أهل دمشق رأوا غير ذلك . ورأى نور الدين أنَّ دمشق لن تؤخذ بالقوة ولكن بإعمال الحيلة والوقيعة بين حكامها وشعبها ، فلجأ نور الدين إلى ذلك خوفاً من تدخل الصليبيين لحماية حكامها الخونة .

وأخذ نور الدين فى استخدام أساليب السياسة فى التقرب إلى مجير الدين ووصله بالهدايا ، ثـم الوقيعة بينه وبين أمرائه ، وخاصة خادمه «عطاء السلمى» . ثم استخدام السلاح الاقتصادى فى تجويع أهل دمشق حتى يثور سكانها مطالبين بالخبز ، وذلك بقطع نور الدين تموينها من ناحية الشمال . كذلك باستمالة حرس المدينة وبعض رجالها ضد مجير الدين . وجاء استيلاء نور الدين الفعلى لمدينة دمشق حين رفض مجير الدين استقبال سفارة نور الدين إليه ومنعها من دخول المدينة . وقبل أن يستعين مجير الدين بحلفائه الصليبيين ، كان نور الدين قد زحف على دمشق بقواته فى شهر صفر سنة ٥٤٩هـ (٢٥ أبريل ١١٥٤م)[١] .

أما عن كيفية تسليم المدينة فيقول ابن الأثير عن ذلك ما نصه[٢] : «أما

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

كيفية تسليم دمشق فإنه لَمَّا حصرها ، ثار الأحداث الذين راسلهم ، فسلموا إليه البلد من الباب الشرقى ، وملكه، وحصر مجير الدين فى القلعة ، وراسله فى تسليمها ، وبذل له اقطاعاً من جملته مدينة حمص فسلمها إليه وسار إلى حمص ، وأعطاه عوضاً عنها بالس ، فلم يرضها ، وسار منها إلى العراق ، وأقام ببغداد ، وابتنى بها داراً بالقرب من النظامية وتوفى بها» .

ويعتبر سقوط دمشق بيد نور الدين من أهم أحداث الحروب الصليبية ؛ إذ أدى إلى توحيد بلاد الشام فى يد نور الدين . فامتدت دولة نور الدين من الموصل والرها ، ببلاد العراق ، إلى شرق الأردن ، على امتداد الحد الشرقى للإمارات الصليبية ، ولم يبق فى الشام ليس تحت حكمه سوى بعض الإمارات الإسلامية الصغيرة التى احتفظت باستقلالها مثل شيزر ، التى استولى عليها بعد ذلك بثلاث سنين[1] .

وخضعت دولة نور الدين لحكومة مركزية قادرة على أن تمضى فى الجهاد ووحدة الصف الإسلامى دون هوادة ، يضاف إلى ذلك أن صار بوسع نور الدين أن يوجه ضرباته متى أراد إلى الشمال وإلى الجنوب ؛ إذ تحطم الحاجز الذى كان يفصل بين بيت المقدس وحلب ، فأصبحت بيت المقدس فى متناول سلطان حلب وتحت رحمته . فمتى قرر أنَّ الوقت قد حان لضرب ضربته ، صار الطريق مفتوحاً أمامه إلى بيت المقدس .

وقد جاء استيلاء نور الدين على دمشق خطوة كبرى نحو تحقيق الجبهة الإسلامية المتحدة ضد الصليبيين فى الشام . وقبل ذلك الاستيلاء كان المسلمون فى الشرق الأدنى منقسمين إلى وحدتين منفصلتين إحداهما فى الجنوب وهى مصر والأخرى فى الشمال وهى فى شمال العراق والشام . وقد استطاع الصليبيون ، بسبب موقف حكام دمشق الانفصاليين ، توجيه الضربات لكل

(١) العرينى : الحروب الصليبية ، ص ٥٨ .

وحدة من هاتين الوحدتين علي انفراد ، دون أن تتمكن الوحدة الأخرى من دفع الخطر الصليبى المشترك[1] .

وبعد نجاح نور الدين فى تأسيس الجبهة الإسلامية المتحدة ضد الصليبيين ، كان عليه أن يتفرغ لتلقى ضرباتهم وهم يترنحون ويحاولون النيل من هذه الجبهة وزعزعة صمودها . فعندما هاجموا بانياس سنة ٥٥٢هـ (مايو ١١٥٧م) ، بقيادة بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، تصدى لهم نور الدين وهزمهم هناك هزيمة ساحقة[2] . ولمأ استردها بلدوين ثانية لم يتأخر نور الدين عن نجدتها . وعندما استولى الصليبيون على شيزر سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م)[3] وعلى حصن حارم فى العام التالى ومواصلة اعتداءاتهم على القرى والضياع المجاورة له ، والاغارة على منطقة حوران وداريا فى منطقة دمشق تصدى لهم نور الدين وأوقف عدوانهم .

وكان قد حدث آنذاك تقارب بين بلدوين الثالث ، أمير بيت المقدس والامبراطور البيزنطى عمانويل كومنين ، وتمت المصاهرة بينهما بزواج بلدوين من الأميرة «تيودورا» ، إبنة أخ الأمبراطور ، وكانت هدية زواجه منها مدينة عكا وملحقاتها ، والتعهد من جانب الأمبراطور لبلدوين بالمساعدة العسكرية له ضد نور الدين . وقد وجد الامبراطور البيزنطى فى تلك المصاهرة فرصة طيبة للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الامبراطورية فى قيليقية وأنطاكية . لذلك لم تكد الأميرة تيودورا تغادر القسطنطينية إلى بيت المقدس فى صيف سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨م) ، حتى خرج الامبراطور البيزنطى على رأس جيش كبير لغـزو قيليقية واستردادها من الأرمن ومعاقبة أرناط فى أنطاكية على

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٥١٩ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق١ ، ص ٢٧٠ .
(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، طبعة برنستون ، الولايات المتحدة ١٩٣٠ ، ص ٢ .

الإغارة التى قام بها على أملاك الامبراطورية فى جزيرة قبرص سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م)(١) .

ونجح الامبراطور البيزنطى فى احتلال مدن قيليقية وقلاعها الكبرى ، وإتخذ مقامه فى بلدة المصيصة ، ومن هناك أرسل إلى أرناط يستدعيه لمحاسبته على ما فعله بقبرص . وما كان من أرناط إلا أن استنجد ببلدوين الثالث ليشفع له عند الامبراطور ، لكن بلدوين لم يفعل . وهنا وجد أرناط نفسه مضطراً للذهاب إلى المصيصة وطلب العفو من الامبراطور وإظهار ذله وانكساره وتوبته أمامه . وبعد تمثيلية مسرحية قام بها أرناط أمام الأمبراطور ، عفى عنه الامبراطور بعد تعهده بالاعتراف بسيادة الامبراطورية البيزنطية على أنطاكية وبالمسارعة إلى تسليمها للامبراطور البيزنطى متى طلب الأمبراطور ذلك ، وتقديم فرقة من محاربى أنطاكية للعمل فى جيش الامبراطور ، وعزل بطرق أنطاكية الكاثوليكى واحلال آخر أرثوذكسى مكانه . وبعد أن تعهد أرناط بذلك للأمبراطور ، سمح له بالعودة إلى أنطاكية .

وفى نفس هذا الوقت اتجه بلدوين الثالث إلى المصيصة ، وأجرى مباحثات سرية مع الامبراطور البيزنطى ، أكد فيها الأمبراطور الالتزام بتعهده بمساعدة الصليبيين ضد عدوان نور الدين . وبعد ذلك إتجه الامبراطور البيزنطى لزيارة أنطاكية فى سنة ٥٥٤هـ (أبريل ١١٥٩م) ، وقضى بها ثمانية أيام ، مؤكداً فيها على سيادته على المدينة . وقد تم اتفاق بلدوين وأرناط مع الامبراطور البيزنطى ، وهو فى أنطاكية ، على القيام بحملة كبرى مشتركة ضد المسلمين وجهتها المباشرة مدينة حلب ذاتها .

وما أن تحرك الامبراطور البيزنطى ، يقود هذه الحملة ، حتى وصلته سفارة من نور الدين للدخول فى مفاوضات حقناً للدماء . وقد عرض نور الدين على الامبراطور إطلاق سراح جميع من لديه من الأسرى

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٢١ .

الصليبيين[1] . مقابل عقد هدنة بينهما ، فوافق الامبراطور على العرض وأمر بإيقاف الحملة فى الحال . وقد أبطل هذا الاتفاق بين الطرفين مشروع التحالف بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين فى الشام للقيام بعمل حاسم مشترك ضد نور الدين والمسلمين . ولم يبق إلا أن يعتمد الصليبيون على أنفسهم وعلى مساعدات غرب أوربا للاحتفاظ بحكمهم فى بلاد الشام أمام خطر نور الدين الماثل أمامهم .

ولقد انتهز الملك بلدوين الثالث فرصة انشغال نور الدين فى محاربة السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وقام سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) بالإغارة على حوران ودمشق. كذلك قام أرناط بالإغارة والسلب والنهب عند حلب ، لكن نائب نور الدين على حلب قام بالقبض عليه وأسره ، وقد ظل أرناط أسيراً فى حلب مدة ستة عشر عاماً ، دون أن يتحرك ملك بيت المقدس لفك أسره وأن يقوم أهل أنطاكية بأية محاولة لاطلاق سراحه . ولقد صار حكم أنطاكية للأميرة «كونستانس» أرملة بوهيموند الثالث . أما الملك بلدوين الثالث ، فقد توجه إلى بيت المقدس ، ولكنه مرض وهو فى طريقه إليها ، وتوفى فى بيروت سنة ٥٥٨هـ (فبراير ١١٦٢م) ، دون أن يترك وريثًا له فى ملك بلاده . ولذلك تولى من بعده مُلك بيت المقدس أخوه عمورى (أمارى - أماريك) حاكم يافا وعسقلان باسم عمورى الأول (١٨ فبراير ١١٦٢م) .

ولقد إتجه الملك عمورى ، غداة توليه عرش مملكة بيت المقدس بالحروب الصليبية وجهة جديدة ، وهو الاتجاه الجنوبى الغربى داخل الأراضى المصرية . ذلك لأنَّ قيام الجبهة الإسلامية المتحدة على يد نور الدين فى الشام ، تلك الجبهة التى سدت أمام الصليبيين كل باب لها للتوسع فى الإتجاه الشمالى الشرقى ، فلم يتبق لهم سوى باب مصر فى الجنوب الغربى . وكانت مصر

(١) ذكر ابو شامة ان عدد هؤلاء الأسرى كان يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف ، وكان من بينهم قائد فرسان الداوية (الروضتين ، جـ١ ، ق١ ، ص ٣٠٨) .

آنذاك قد بدت لهم لقمة سائغة سهلة الالتهام نتيجة لما تواصل إلى أسماعهم عن أخبارها واختلال أحوالها فى أواخر العصر الثانى لحكم الفاطميين لها .

ثالثاً : الجبهة المصرية فى مواجهة العدوان الصليبى فى العهد الفاطمى:

كانت مصر ، فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، تعيش فى أسوأ عهودها فى ظل العهد الثانى لحكم دولة الفاطميين لها ، وهو العهد الذى شهد تحول العدوان الصليبى على بلاد المسلمين من الشام إلى مصر . ولقد طمع الصليبيون في مصر بعد أن تعرفوا على أهميتها فى منطقة الشرق الأوسط وفى قلب العالم الإسلامى ، استراتيجيا وعسكرياً واقتصادياً . كذلك لكونها أكبر الدول الإسلامية فى المنطقة وأكثرها عدداً ، ولكوْن أهلها شديدو الغيرة على الإسلام .

وازداد طمع هؤلاء الصليبيين فى الإستيلاء على مصر بعد أن أطلعوا على سوء أحوالها واضطراب الأمور فيها وتحكم الوزراء فى خلفائها، وصراعهم الدامى فيما بينهم للاستئثار بالسلطة، دون الخلفاء، فيها . وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين، مثل وليم الصورى وميخائيل السريانى ، أنَّ ملك بيت المقدس بلدوين الثالث كان قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠م (٥٥٥هـ) ، منتهزاً فرصة الاضطراب الذى وقع فيها عقب مقتل الخليفة الفائز الفاطمى[١] . ولكن حكومة الدولة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته هذه مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية كبيرة له . ولمَّا لم تفِ الدولة بتعهدها له تحرك خليفته عمورى الأول بجيشه وغزى الدلتا سنة ٥٥٨هـ (١١٦٢م) حتى وصوله إلى مدينة بلبيس (بمحافظة الشرقية) وحصارها . لكن مياه فيضان النيل فى ذلك العام وغرق أراضى الدلتا أجبراه على الانسحاب من حصار بلبيس وعودته إلى فلسطين[٢] .

ولقد كان لهذه الحملة الاستطلاعية التى قام بها عمورى الأول ملك بيت

(١) توفى الخليفة الفاطمى الفائز سنة ٥٥٥هـ ، وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان قد تولى الخلافة وهو فى الخامسة من عمره (ابن الأثير · الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٣٧)

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٥٣١ .

المقدس على مصر، فائدة كبرى بالنسبة له وللصليبيين عموماً؛ ذلك لأنها أطلعته وأطلعتهم على ضعف دفاعات مصر آنذاك وعلى سهولة غزوها وفتحها . من أجل ذلك أخذ عمورى يعُد العدة لغزوة كبرى لمصر تمكنه من الاستيلاء عليها وتحقيق حلم الصليبيين بتملكها . وفى نفس الوقت نبهت هذه الغزوة نور الدين للخطر الذى يتهدد مصر من قبل الصليبيين ؛ لذلك كان عليه ضرورة التصرف باشغال الصليبيين عن التفكير فى غزو مصر بفتح جبهة أخرى لهم يصرفون طاقتهم فيها وتلهيهم عن غزوها . لذلك قام نور الدين ، عقب وفاة بلدوين الثالث مباشرة ، بمهاجمة مدينة حارم وإمارة طرابلس وحصن الأكراد .

وفى تلك الأثناء لجأ الوزير شاور بن مجير السعدى ، وزير الخليفة الفاطمى العاضد بالله ، آخر خلفاء الفاطميين ، إلى نور الدين مستنجداً به ضد الوزير ضرغام بن عامر ، وأطمعه فى تملك مصر على أن يكون نائباً عنه فيها وعلى أن يدفع له ثلث دخل البلاد إذا ساعده فى العودة إلى وزارة مصر[1] . وقد وجد نور الدين فى استنجاد شاوربه الفرصة للتدخل فى مصر وتفويت الفرصة على الصليبيين للتدخل فيها إذا هو لم يسارع بنجدة شاور ، ذلك لأنَّ شاور ، فى ذلك الوقت ، لا يفرق معه المنقذ له مسلماً كان أم صليبياً .

ولقد استجاب نور الدين لطلب شاور ، وجهز له جيشاً يسير معه إلى مصر سنة ٥٥٨هـ (١١٦٢م) بقيادة قائده الشجاع أسد الدين شيركوه ، الذى اصطحب معه فى تلك الغزوة إبن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب[2] ، وكان فى السابعة والعشرين من عمره[3] . وعندما وصل للوزير

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٣٣٨ .

(٢) ولد صلاح الدين بقلعة تكريت بشمال العراق سنة ٥٣٢هـ، وكان ابوه نجم الدين والياً بها ، ثم انتقل بابنه يوسف إلي الموصل وصار منها إلى الشام فأعطى بعلبك ، فاقام بها مدة (المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الأول ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٤٢) .

(٣) ذكر ابن شداد أن صلاح الدين اصطحب عمه فى هذه الحملة على مصر «على كراهية منه» ووصلوا مصر وشاور معهم فى الثانى من جمادى الأخرة سنة ثمان وخمسون وخمسمائة . (إبن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبعة محمد على صبيح بميدان الأزهر بالقاهرة ، القاهرة ١٣٤٦ هجرية ، ص ٢٩)

ضرغام خبر استنجاد غريمه شاور بنور الدين محمود ، لم يجد ضرغام أمامه من سبيل سوى الاستنجاد بعمورى الأول ، ملك بيت المقدس ، وتعهده له بعقد معاهدة معه تصبح مصر بمقتضاها تابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية .

وكان عامل الوقت آنذاك هاماً بالنسبة للنوريين وللصليبيين ، فأيهما يصل قبل صاحبه إلى القاهرة ستكون له السيطرة عليها . على أنَّ مهارة القائد الكردى شيركوه واسراعه فى قطع الصحراء ، رغم كبر سنه ، جعلته يصل الدلتا أولاً قبل الصليبيين . وعند تل بسطا (بمحافظة الشرقية) ينتصر شيركوه على جيش صغير بعث به ضرغام ، ويتقدم إلى القاهرة ويدخلها بعد أن تخلى الخليفة الفاطمى العاضد والجيش والناس عن ضرغام ، الذى قتل أثناء محاولته الفرار[1] ، ويتولى شاور الوزارة للعاضد[2] .

لكن شاور ، ما كاد يتولى الوزارة ، حتى تنكر لشيركوه ، ورفض أن يدفع له المال المتفق عليه ، وطلب منه الخروج بقواته من مصر . ولكن شيركوه رفض الخروج من مصر وقام باحتلال بلدة بلبيس (بمحافظة الشرقية) ، فقام شاور باستعداء الصليبيين على شيركوه وخوَّفهم من تملك نور الدين لمصر[3] . وسارعت قوات الصليبيين إلى مصر ونازلوا شيركوه عند بلبيس ، «وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو ممتنع بها ، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً»[4] .

فبينما هم كذلك ، إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج عند حارم ، وتملك نور الدين لها ، ومسيره إلى بانياس ومحاصرتها ، فحينئذ أسقط فى أيديهم وأرادوا

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٢ .

(٢) قتل ضرغام عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ، ودُفن فى القرافة وقُتل معه أخوه فارس المسلمين (ابن الأثير : جـ٩ ، ص ٤٦٦) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٦ .

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٦ .

العودة إلى بلادهم ليحفظوها ، فراسلوا شيركوه فى الصلح والعودة إلى الشام وترك مصر ، وتسليم ما بيده منها للمصريين . فأجابهم شيركوه إلى ذلك لقلة أقواته وذخائره . وخرج من بلبيس فى شهر ذى الحجة ، سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م) متجهاً إلى الشام .

وكان نور الدين قد هزم الصليبيين عند حارم ، وهو حصن حصين تجاه أنطاكية[1] ، فى شهر رمضان من ذلك العام واستولى عليه ، فى الوقت الذى توجه فيه الصليبيون ببعض قواتهم لنجدة شاور فى مصر . وقد أراد نور الدين ، بذلك ، الضغط على الصليبيين حتى يعودوا عن مصر . وكان نور الدين قد أرسل إلى قطب الدين مودود ، صاحب الموصل والجزيرة ، وإلى فخر الدين قرا أرسلان ، صاحب حصن كيفا ، وإلى نجم الدين ألبى ، صاحب ماردين ، وغيرهم من أصحاب الأطراف ، يستنجدهم . وقد استجاب له قطب الدين وجمع عسكره وسار مجداً ، وأما فخر الدين صاحب حصن كيفا ، فيحكى عنه ابن الأثير بقوله «فبلغنى عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أى شىء عزمت ؟ فقال : على القعود ، فإنَّ نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، وهو يلقى نفسه فى المهالك ، فكلهم وافقه على هذا الرأى . فلماً كان الغد أمر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك : لقد فارقناك أمس على حالة ، فنراك اليوم على ضدها . فقال : إنَّ نور الدين قد سلك معى طريقاً ، إنْ لم أنْجده خرج أهل بلادى عن طاعتى وأخرجوا البلاد عن يدى ، فإنه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم مالقى المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة ؛ فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونى ويدعون علىَّ ، فلابد من المسير إليه . ثم تجهز وسار بنفسه ، وأما نجم الدين فإنه سيَّر عسكراً»[2] .

(١) هى الآن من أعمال حلب .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

فلمَّا اجتمعت العساكر سار نور الدين نحو حارم فحاصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف عليها ، «فاجتمع من بقى بالساحل من الفرنج فجاءوا فى حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم ، وأقبلوا إليه من كل حدبٍ ينسلون ، وكان المقدم عليهم البرنس بيمند (بوهيمند) صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين - وهو من مشاهير الفرنج - والدوق مقدم كبير الروم»[1] . وقد وقعت للصليبيين هزيمة كبيرة عند حارم وقتل منهم عدد كبير وأُسر الكثير ، وكان فى جملة الأسرى بوهيمند صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس والدوق مقدم الروم وابن جوسلين ، وكان عدد القتلى يزيد عن عشرة آلاف قتيل[2] .

وكان الطريق سهلاً ، بعد تلك المعركة ، أمام نور الدين ليستولى على مدينة أنطاكية ، لكنه قال لمن أشار عليه بذلك «أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة فمنيعة وربما سلموها إلى ملك الروم لأنَّ صاحبها ابن أخيه ، ومجاورة بيمند (بوهيمند) أحب إلىَّ من مجاورة صاحب قسطنطينة»[3] وقد قام بوهيمند بفداء نفسه بمال كثير . وفى شهر ذى الحجة من نفس العام قام نور الدين بفتح قلعة بانياس ، القريبة من دمشق ، وكانت بيد الصليبيين منذ سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) . وقد وصل خبر تملك نور الدين محمود لحارم وحصن بانياس للصليبيين بمصر ، فصالحوا شيركوه على أن ينسحبوا من مصر وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا إلا وقد ملكها نور الدين . وفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م) ، فتح نور الدين حصن المنيطرة من حصون الشام ، وكان بيد الصليبيين[4] .

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٨ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٩ .

(٣) الن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٨١ .
(وهو حصن بين جُبيل وبعلبك) .

تجدد التنافس بين نور الدين والصليبيين حول مصر :

إمتنع كلا المتنافسين حول امتلاك مصر ، نور الدين والصليبيون ، بعد أن ثبروا أحوالها وتأكدوا من ضعف حكومة الفاطميين بها واضطراب أمورها وتدهور اقتصادها ، رغم غناها وعظم ثروتها . كذلك إقتنع الطرفان بضرورة نقل حلبة الصراع بينهما إلى الجبهة المصرية بعد أن تجمد وضعهما على ما هو عليه فى الجبهة الشامية وحافظ كل منهما على ما استحوذ عليه هناك من ممتلكات وبلدان . وكان شيركوه ، لمّاً ترك مصر ، تركها رغماً عنه ، وكان يود البقاء فيها وحمايتها من العدوان الصليبى عليها وإصلاح أمر حكمها . ولم يستطع شيركوه العودة إلى مصر غداة انصرافه منها ، ذلك لأن نور الدين كان فى حاجة له ولقواته فى بلاد الشام فانصرف عن مصر وهى فى ذهنه ، وكان «بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير»[1] .

وفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م) تطلب تطور الأحداث فى مصر ، من نور الدين أن يعيد إرسال شيركوه إلى مصر ، بعد أن استغاث به الخليفة الفاطمى العاضد ، من استبداد وزيره «شاور» وغلبته عليه ، وخوفاً من أن يستنجد العاضد بالصليبيين إذا لم يتداركه نور الدين . عندئذ تهيأ شيركوه للخروج إلى مصر مصطحباً معه أيضاً إبن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى خرج إلـى مصر فى تلك المرة أيضاً على كراهية منه بعد أن ألزمه نور الدين بذلك[2] . وكان توجههم إلى مصر فى ١٢ ربيع الأول من ذلك العام . وعندما وصلت قوات شيركوه دلتا النيل بمصر ، عمل شيركوه حساباً لاحتمال استنجاد شاور بالصليبيين ، ووجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة ، واختار أن يعبر النيل عند «إطفيح» إلى الجيزة ، حيث عسكر بجنوده فى

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٣٠ .

مواجهة الفسطاط علي الضفة الغربية لنهر النيل[1] . وقد صح ما توقعه شيركوه، إذ استنجد شاور، هذه المرة ، بعمورى الأول ، ملك بيت المقدس ، لينقذه من جيش نور الدين ؛ وما لبث عمورى إلا أن سارع بالتوجه إلى مصر على رأس جيشه غازياً لها للمرة الثالثة ؛ طمعاً فى تملكها قبل أن يتملكها نور الدين[2] .

ولقد سلك جيش الصليبيين الطريق المألوف من غزة إلى العريش ، ثم اخترقوا الصحراء الشرقية إلى بلبيس ، وهنالك لحق بهم شاور وقادهم إلى حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل ، قبالة جيش شيركوه الذى عسكر على الضفة الغربية . وقرب الأشمونين (فى محافظة المنيا بالصعيد) دارت معركة بين الطرفين عند بلدة «البابين» سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) ، قرب ديروط ، وأحرز شيركوه الانتصار على الصليبيين . ويعلق ابن الأثير على انتصار المسلمين هذا فى هذه الموقعة ، رغم قلة عددهم بقوله : «وكان هذا من أعجب ما يُؤرَخ ، أنَّ ألفيْ فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل»[3] . وكان فى وسع شيركوه الاستيلاء على القاهرة فى الحال بعد المعركة ، ولكنه لأسباب عسكرية ، آثر أن يتجه شمالاً على الضفة الغربية للنيل ليحتل مدينة الإسكندرية ، فى الوقت الذى ظلت فيه قوات الصليبيين المنهزمة قابعة أمام الفسطاط .

ولقد رحب أهل الإسكندرية بقوات شيركوه وصلاح الدين وفتحوا لها أبواب مدينتهم دون قتال ، وبعد أن دخلها شيركوه ، لم يشأ أن يظل فيها وخشى أن يحصره الصليبيون فيها ، فترك صلاح الدين نائباً عنه هناك ، واتجه بالجزء الأكبر من قواته إلى الصعيد . وما كاد شيركوه يغادر الإسكندرية حتى

(1) Wiet, G: L'E'gypte Arabe, t. IV, Paris 1937, p. 295 .

(2) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣ .

(3) ابن الأثير : الكامل ونفس الجزء ، ص ٤ .

توجه الصليبيون إليها وحاصروا هنالك صلاح الدين ، الذى استنجد بعمه فعاد العم إليه وفك عنه الحصار ، مقابل الصلح مع الصليبيين . وقد وافق الطرفان على الصلح على تبادل الأسرى وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد[1] . وكذلك تضمن الأتفاق بين شيركوه والصليبيين على أن يدفع ملك بيت المقدس خمسين ألف دينار لشيركوه وتعهد بألا يبقى بمصر أحد منهم ، وبناءً على ذلك ارتحل شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . على أنَّ الصليبيين لم يغادروا مصر ؛ إلا بعد أن اتفقوا مع شاور على أن يتركوا بالقاهرة حامية منهم ، وأن تكون أبواب القاهرة بأيديهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكره إليهم . وقد ارتحل عمورى ، بعد أن تعهد له شاور بدفع مائة ألف دينار جزية سنوية[2] ، إلى بلادهم بالساحل الشامى ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم . وقد كان كل هذا الاتفاق مع شاور لأنَّ الخليفة الفاطمى العاضد لم يكن له معه حكم لحجره عليه وحجبه عن الأمور كلها[3] .

والواقع إنَّ الذى شجع ملك بيت المقدس على سرعة قبوله لعرض شيركوه، تلك الأخبار التى وصلته عن سوء الوضع فى الشام ، بعد أن اشترك نور الدين مع أخيه قطب الدين ، أتابك الموصل فى الإغارة على إمارة طرابلس سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) واستيلائهما على «صافيثا» و «عُريمه» و«بانياس» ، و«حصن هونين» و وهو من أمنع حصونهم ومعاقلهم ويتبع إمارة بيت المقدس، كذلك إتجها لمهاجمة بيروت[4] . ولمَّا عاد عمورى إلى بلاده ، إرتأى أن يستعين بفرسان الداوية والاسبتارية فى الدفاع عن الوجود الصليبى فى بلاد الشام . فقام بمنح منظمات الفرسان هذه الكثير من القلاع والمدن للدفاع عنها

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٣٧٠ .
(٢) العرينى : الحروب الصليبية ، ص ٦٣ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥ .
(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٥ ، ٦ .

مثل انطرسوس ومعظم الأجزاء الشمالية من إمارة طرابلس ، ومنطقة البقاع وحصن الأكراد ، وصفد ، وغزة وقلعة كوكب .

وسرعان ما حذك، أمير أنطاكية ، بوهيمند الثالث ، حذو ملك بيت المقدس فى إعطاء فرسان الداوية كثيراً من المناطق حول بغراس ، وفرسان الاسبتارية أجزاء واسعة فى جنوب الإمارة . وهكذا أخذ فرسان الداوية والاسبتارية يبدون عندئذ فى صورة القوة الكبرى التى نهضت بعبء حراسة الأراضى والممتلكات الصليبية ببلاد الشام[1] .

وبعد أن أمَّن عمورى بلاده ، عاود التفكير فى غزو مصر ، وأدرك حينئذ أنه بحاجة لحليف قوى خارجى يمكنه من تحقيق حلمه فى الاستيلاء عليها ، وبذلك إتجه فكره إلى الامبراطور البيزنطى وتقوية الرابطة معه بالزواج من الأميرة «مارى كومنين» قريبة الامبراطور . وقد كان الامبراطور البيزنطى على علم بما كان يجرى من أحداث على مسرح الشرق وكان يطمع فى أن يكون له نصيب فى (الكعكة) التى يتنافس على التهامها كلٌ من الصليبيين والزنكيين . ولم يلبث الامبراطور أن أرسل سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) مبعوثين من طرفه إلى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك ضد مصر تقوم به الامبراطورية مع الإمارة الصليبية ، على أن يكون الثمن الذى يتقاضاه الامبراطور ، نظير المساعدة ، اعطاؤه أنطاكية وجزءً من مصر . ووافق عمورى على تلك الشروط ، وتم ، على أثر ذلك ، عقد اتفاقية بين الطرفين البيزنطى والصليبى تقضى بتقسيم البلاد المصرية بين الصليبيين والبيزنطيين[2] .

ورغم هذا الاتفاق الذى تم بين عمورى والامبراطور عمانويل على ارسال حملة مشتركة صليبية رومية لغزو مصر ، فإن الملك الصليبى عمل بمفرده وتوجه على رأس حملة سنة ٥٦٤هـ (أواخر أكتوبر سنة ١١٦٨م) لغزو مصر

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ،ص ٥٣٩ ، ٥٤٠ .

(٢) الناصرى ، الروم ، ص ٤١٧ .

للمرة الرابعة فوصل بلبيس وحاصرها وقام رجالها بنهبها وسلب أهلها واحراق دورها وقتل عدد كبير من سكانها ، مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس الناس[1] .
ولمّا اقترب عمورى من القاهرة ، عاشر شهر صفر ، وقام بحصارها ، خاف أهلها أن يفعل بهم كما فعل مع أهل بلبيس ، فامتنعوا وحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه . ويعلق المؤرخ ابن الأثير على ذلك التصرف من ملك بيت المقدس ورد فعل المصريين تجاهه بقوله : «فلو أنَّ الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس ، لملكوا مصر والقاهرة ، ولكن الله تعالى حسَّن لهم ذلك ، أى ما فعلوا ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾[2] . وأمر شاور باحراق مدينة مصر (الفسطاط) ، تاسع صفر ، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة وأن يُنهب البلد فانتقلوا ، وبقوا فى الطرق ، ونُهبت المدينة وافتقر أهلها ، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خوفاً أن يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً»[3] .

وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين ، وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال : «هذه شعور نسائى ، من قصرى ، يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج» فشرع فى تسيير الجنود إليه[4] . وفى الحقيقة فإن نور الدين محمود أخذ يتخوف آنذاك من تردد الصليبيين على مصر بين حين وآخر ، وأدرك «أنَّ شاور يلعب بهم تارة وبالأفرنج تارة أخرى» . وعلم أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد (المصرية) مع بقاء شاور[5] . ولم يكد نور الدين يسمع بعودة عمورى والصليبيين إلى مصر إلا وأسرع بتجهيز العساكر خوفاً على مصر .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٣ .
(٢) الأنفال : ٤٤ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٢ ، ١٣ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٣ .
(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣١ ، ٣٢ .

ولقد صحب صلاح الدين عمه شيركوه فى تلك الحملة الجديدة على مصر ، وإن كانت المصادر[1] تشير أيضاً إلى تمنعه وعدم رغبته فى الخروج حتى أجبره نور الدين على ذلك ، وعندئذ لم يستطع صلاح الدين مخالفة سيده نور الدين ، فسار على كُره منه . ويعلق ابن الأثير على هذا المسير بقوله : «أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وملكه»[2] .

وسار أسد الدين شيركوه قاصداً مصر، فى منتصف ربيع الأول (٥٦٤هـ) ، فلماً قارب مصر ، ارتحل الصليبيون إلى بلادهم ، عائدين بخفى حنين . ولماً سمع نور الدين بانسحابهم عن مصر ، سُر لذلك ، وبث رسله فى الآفاق مبشرين بذلك . وقد كان ذلك فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد المسلمين . أما شيركوه فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ، ودخلها ، واجتمع بالخليفة الفاطمى العاضد ، الذى خلع عليه . وفرح به أهل مصر ، وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة . ولم يستطع شاور أن يمنع الناس فرحتهم بمقدم نور الدين وجيشه . وشاع شاور يماطل شيركوه فى اعطائه ما كان بذله لنور الدين من المال واقطاع الجند وإفراد ثلث البلاد لنور الدين .

ولقد عزم شاور على الغدر بشيركوه والأمراء الذين معه بعمل دعوة يدعوهم إليها ، ثم يُقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فى منع البلاد من الصليبيين . فنهاه إبنه الكامل عن ذلك وقال له : «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن شيركوه» ، فقال له أبوه : «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً» فقال : «صدقت ، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية ، خير

---

(١) ذكر ابن شداد أن صلاح الدين قال له فى ذلك المقام : «كنتُ أكره الناس للخروج فى هذه الواقعة وما خرجت مع عمى باختيارى وهذا معنى قوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم» (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٤ .

من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بنيك وبين عوْد الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ، ويملكون البلاد ، فترك ما كان عزم عليه»[١] .

ولماَّ رأى عسكر نور الدين مماطلة شاور ، خافوا شره واتفقوا على قتله ، لكن شيركوه نهاهم عن ذلك فتوقفوا لفترة ، وهم على ذلك العزم من قتله . فاتفق أنَّ شاور قصد عسكر أسد الدين ، على عادته ، فلم يجده فى الخيام ، وكان قد مضى يزور قبر الإمام الشافعى ﵁ . فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك فى جمع من العسكر ، ولماَّ سألهم عن شيركوه ، أجابوه بأنه يزور قبر الإمام الشافعى ، فقال : «نمضى إليه» ، فساروا جميعاً ، وسايره صلاح الدين وجرديك ، وألقوه إلى الأرض ، عن فرسه ، فهرب أصحابه عنه ، وأُخُذ أسيراً فى خيمة مفردة .

وفى الحال جاء صلاح الدين التوقيع من الخليفة العاضد والمصريين ، على يد خادم خاص بضرورة قتل شاور والإتيان برأسه إليه ، «جرياً على عادتهم فى وزرائهم فى تقرير قاعدة فيمن قوى منهم على صاحبه ، فحُزت رقبته وأُنفذ رأسه إليهم»[٢] . ولماَّ دخل شيركوه القاهرة ورأى فيها اجتماع الخلق ، ما أخافه على نفسه ، فقال لهم : «أمير المؤمنين العاضد ، يأمركم بنهب دار شاور» ، فتفرق الناس عنه إليها فنبهوها . وقصد هو قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ولُقب بالملك المنصور أمير الجيوش[٣] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٢ .
(ذكر ابـن الأثير أنَّ قتل شاور قد تم فى السابع عشر من ربيع الآخر (٥٦٤ هـ) ، إبن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٥) .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥ .
(الواقع أنَّ مقتل شاور كان خاتمة المتاعب التى تعرضت لها مصر فى أواخر العصر الفاطمى ، فلم يعد للصليبين بمصر من ينصرهم ، وكان خروج الصليبين من مصر ، فى نظر نور الدين ، فتحاً جديداً لها وحفظاً لسائر بلاد الشام) .

هذا ولم يدم شيركوه فى الوزارة للعاضد سوى شهرين وخمسة أيام ، إذ وافقه المنية يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستون وخمسمائة[1] (مارس ١١٦٩م) .

صلاح الدين يخلف عمه شيركوه فى الوزارة :

يعتبر عصر صلاح الدين من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية، ويُعتبر هو من أشهر من دفعوا العدوان عن بلاد الإسلام ودحروا أعداء الإسلام فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، فى الفترة الزمنية المحددة لموضوع بحثنا هذا . وكان لزاماً على صلاح الدين ، بعد أن ورث تركة الجهاد والوحدة من زنكى وإبنه نور الدين ، أن يمضى قُدماً فى الطريق الذى رسموه للدفاع عن بلاد المسلمين ضد عدوان الصليبيين والمسيحيين ولإعلاء كلمة الحق والدين . ولقد تميز صلاح الدين بما تميز به هؤلاء الزعماء من قوة العزيمة وشدة الإيمان بالهدف الذى سعوا إليه ، وقام صلاح الدين بالنصيب الأكبر والأوفر للوصول بهذا الهدف إلى غايته . فهو الذى وضع الخطة العامة لاخراج الصليبيين من بلاد الشرق الإسلامى ، وهى التى استغرق تنفيذها إلى زمن السلطان المملوكى خليل بن قلاوون ، أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

ولقد وُلد صلاح الدين بقلعة تكريت من بلاد الاكراد[2] سنة ٥٣٢ هـ وانتقل مع أسرته إلى الموصل ، ثم إلى بعلبك التى وليها أبوه من قبل عماد الدين زنكى ، وتلقى بها التعليم الدينى والعسكرى ، ثم لحق بخدمة عمه

(١) ذكر ابن شداد أنه توفى يوم الثانى والعشرين من جمادى الآخرة ، بينما ذكر ابن الأثير أنه توفى يوم السبت الثانى من جمادى الآخرة (الكامل ، جـ١٠ ، ص١٥) . وقد أرجع ابن شداد موت شيركوه إلى كثرة أكله للحوم (الغليظة) ، مما كان يسبب له خوانيق (بواسير شديدة) ، وقد اعتراه خانوق عظيم فقتله فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٢) .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٨ .

شيركوه ، قائد نور الدين فى حلب . وقد لقى صلاح الدين من نور الدين المحبة والتشجيع لمهارته العسكرية وخبرته الإدارية والحربية . وما جرى من الحوادث ، التى عرضنا لها ، بمصر والشام ، حدَّد مستقبل صلاح الدين ؛ فاشترك مع عمه شيركوه فى حملات سنوات ٥٦٠هـ (١١٦٤م) ، ٥٦٣هـ (١١٦٧م) ، ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ، التى قام بها على مصر . وما اكتسبه صلاح الدين من الخبرات العسكرية والادارية والسياسية فى هذه الحملات ، كان كفيلاً لترشيحه لمنصب الوزارة للخليفة الفاطمى فى مصر . فهو الذى تولى أمر قاعدة بلبيس ، ووفر لحمايتها المؤن والذخائر في مصر . فهو الذى تولى أمر قاعدة بلبيس ، ووفر لحمايتها المؤن والذخائر ، وهو الذى وجَّه عساكر شيركوه فى موقعة «البابين» . وهو الذى شجع أهالى الإسكندرية على مقاومة الصليبيين ، وقد حاز ، بشجاعته ومهارته القيادية ، اعجاب أعدائه الصليبيين[1] .

ولقد كره بعض الأمراء الأتراك أن يتولى صلاح الدين الكردى الوزارة فى مصر ، وقد كانوا من قواد نور الدين ، فعادوا ساخطين إلى الشام . ولم يتجاوز صلاح الدين الثانية والثلاثين من عمره ، حين ولى الوزارة الفاطمية ، وقد جمع مع الوزارة ، فى نفس الوقت ، قيادة قوات نور الدين فى مصر ، والنيابة عنه فيها . وأراد نور الدين الإفادة من هذا الوضع بضرورة إعادة مصر إلى المذهب السنى ، مذهب الخلافة العباسية ، والخلاص من المذهب الشيعى بخلع الخليفة الفاطمى العاضد عن الخلافة ، حتى تكتمل للمسلمين وحدتهم السياسية والمذهبية[2] .

والتزم صلاح الدين التأنى فى تحقيق رغبة سيده نور الدين هذه ، خوفاً

---

(١) عن شجاعة صلاح الدين انظر ما أورده عنه ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ١٣٤٦هـ ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٢ جـ٥ ، ص ٣٥٥ .

مـــن الاصطدام بمقاومة الجيش الفاطمى ورجال الإدارة الفاطميين ورجال القصر . وقد تطلع صلاح الدين إلى أن تكون مصر له وأن يكون له فيها دولة ولأولاده من بعده ، حين ولى الوزارة بها . وقد امتثل فى ذهنه آنذاك نفس الوضع الذى كان عليه سيده عماد الدين زنكى وما قام به من جهود فى خدمة السلطان السلجوقى ملكشاه والخليفة العباسى ، ومكافأته بأتابكية الموصل ، التى استقل بها وأقام له أسرة حاكمة فيها .

ولقد قام صلاح الدين بالغاء الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١[١] ، واتفق مرض الخليفة العاضد وقتذاك ، فاستشار صلاح الدين الأمراء فى قطع الخطبة له ، فوافقه البعض وتردد الآخرون . وكان بمصر آنذاك رجل أعجمى اسمه «الخبوشانى» أعلن استعداده القيام بهذا العمل والدعاء للخليفة العباسى ؛ فألقى بالفسطاط بجامع عمرو بن العاص أول خطبة باسم الخليفة العباسى «المستضئ بنور الله» في أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ (١٠ سبتمبر ١١٧١م)[٢] . وقد تم ذلك الأمر الخطير دون أن يحتج أحد ، ودون أن تتحقق المخاطر التى كان يتوقعها صلاح الدين من القيام بالغاء خلافة حكمت بلاداً مدة تزيد عن القرنين من الزمان ، وكان العاضد مريضاً طريح الفراش آنذاك ، وقد اشتد عليهه المرض ، وقت الإعلان ، فلم يدر شيئاً عما حدث ، ومات بعد هـذا الإعلان بثلاثة أيام ، وكان عمر العاضد ، عند وفاته ، ثلاثة وعشرون عامًا ، وكانت خلافته أحد عشرة سنة[٣] .

وقد جلس صلاح الدين فى عزائه ، ومشى فى جنازته ودفنه عند أهله، وبعد أيام من موته ، استولى صلاح الدين على ما فى قصر الخلافة من أموال

(١) المقريزى : السـلوك لمعرفة دولة الملوك ، الجزء الأول ، القسـم الأول ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٤٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٤٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ١ ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٠١ .

وذخائر وتحف وجواهر وخدم وخيل ومتاع وغيره[1] . وانقضت أيام خلفاء الفاطميين ، وكان العاضد آخرهم ، بعد أن حكموا مائتين وثمان سنوات ، وعادت مصر ثانيةً إلى تبعية الخلافة العباسية والولاء لخليفة بغداد العباسى .

وبموت الخليفة العاضد ، أصبح صلاح الدين الحاكم الفعلى الوحيد فى مصر ؛ وما لبث صلاح الدين أن فكر فى الاستقلال بحكم مصر ، ونجح فى ذلك ، وأقام بها الدولة الأيوبية التى انتسبت لإسمه ، والتى استمرت تحكم البلاد مدة أحد وثمانين عاماً ، وكانت نهايتها على يد أمراء المماليك سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م .

ولقد واجه صلاح الدين المصاعب والمؤامرات بعد الغائه الخلافة الفاطمية من مصر، ومن هذه المؤامرات: مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر سنة ٥٦٧هـ[2] ،

(١) اختلف المؤرخون فى سبب وفاة العاضد ، فقال أحدهم : أن العاضد تفكر فى أموره فرآها فى إدبار ، فأصابه ذرب (اسهال) فمات منه وقال الثانى : أنه لمّا خطب لبنى العباسى بلغه ذلك فاغتم ومات (ابو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين) ، جـ١ ، ص ١٩٦) وقيل أن أهله أخفوا عنه ذلك وقالوا : إنّ سلِم فهو يعلم ، وإن مات فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الأيام التى بقيت من عمره . وقال الثالث : أنه لمّا أيقن بزوال دولته كان فى يده خاتم له فص مسموم فمصه ومات منه (القوصى : تاريخ مصر الإسلامية ، ص ١٨١) .

(٢) من المعروف أنّ صلاح الدين منذ أن وزر للخليفة الفاطمى (سنة ٥٦٧هـ) ، أخذ يفكر فى الاستقلال بحكم مصر ، وتطلب منه ذلك أن يدعم مركزه فى البلاد ويثبت أقدامه فيها فاستبد بالأمور دون الخليفة ومنعه من التصرف فى شىء وصادر ممتلكاته ، وزاد فى التضييق عليه وعلى رجال قصره فى الوقت الذى قام فيه باقطاع أصحابه وقواد جيشه البلاد . وقد أثار ذلك الأمر أعوانه الفاطميين وأتباعهم ، فحاولوا استعادة سلطانهم ونفوذهم فى البلاد ، وكان على رأس هؤلاء الثائرين متحكم القصر : مؤتمن الخلافة جوهر (نجاح) ، الذى دبر بالاتفاق مع الفرنج مؤامرة للتخلص من صلاح الدين والقضاء على نفوذ بنى أيوب فى مصر . غير أنّ هذه المؤامرة لم يقدر لها النجاح ، فقد أدت المصادفة إلى إكتشافها وبالتالى إلى إحباطها . ونجح صلاح الدين فى القبض على القائمين بها ، كما تخلص من مؤتمن الخلافة بأن أرسل إليه من قتله فى منطقة اقطاعه (ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، جـ ١، ص ١٧٦ ، أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، طبعة بولاق ١٢٨٨هـ ، جـ١ ، ص ١٧٨) .

وثورة السودان سنة ٥٦٨هـ[١] ، وثورة عمارة اليمنى سنة ٥٦٩هـ[٢] ، وثورة بنى الكنز سنة ٥٧٠هـ[٣] . واستطاع صلاح الدين أن يتخلص من مدبرى هذه الثورات ؛ الأمر الذى أدى إلى تثبيت مركزه فى مصر مما قوى رغبته فى الاستقلال بها والانفصال عن تبعيته لسيده نور الدين محمود بن زنكى .

ولقد أحس السلطان نور الدين محمود برغبة صلاح الدين فى الاستقلال بمصر ، حين أرسل صلاح الدين رسولاً من طرفه إلى الخليفة العباسى يحمل

(١) شدد صلاح الدين ، بعد إحباط مؤامرة الخلافة ، قبضته على قصر الخليفة ، فعزل جميع الذين يتولون أمر القصر واستعمل عليه أحد رجاله الأشداء ، وهو بهاء الدين قراقوش ، الذى تولى زمام القصر وقام بإذلال جميع من فيه . ولما علم عبيد القصر والجند السودان بمقتل مؤتمن الخلافة تألموا لذلك كثيراً لأن حبهم له كان شديداً فثاروا ضد صلاح الدين وخرجوا فى عدد كبير يزيد عن الخمسين ألفاً وقصدوا حرب جنود صلاح الدين ، وانضم للسودان فى ثورتهم أعداد كبيرة من الأمراء والعامة وحملوا السلاح واتجهوا إلى دار الوزارة ، قرب باب النصر ، حيث يقيم صلاح الدين . وفى شوارع القاهرة دارت معركة كبيرة استمرت يومين عند بين القصرين غير أن السودان هزموا فى نهاية الأمر ، وانسحبوا إلى المنصورة ، محلتهم فى القاهرة ، وهناك لحقت بهم قوات صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه وهزمتهم وقتلت منهم أعداداً كبيرة . (ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٧٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ١٧٨) .

(٢) ذكر المقريزى فى (السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٥٣) قصة هذه المؤامرة التى دبرها عمارة اليمنى مع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد وأن يفتكوا بصلاح الدين ومكاتبتهم للفرنج لمساعدتهم فى ذلك

(٣) كانت إمارة بنى الكنز ، عند أسوان ، بمثابة اقطاع أقطعه لهم خلفاء الفاطميين من أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وقد تمتع بنو الكنز ، فى اقطاعهم هذا ، بسلطة شبه تامة فى العهد الفاطمى ، ولم يتقبل بنو الكنز الوضع الجديد الذى فرضه صلاح الدين على البلاد حين قام بالغاء جميع الاقطاعات الفاطمية ووضع يده على كل أراضى البلاد وقام بقسيمها إلى اقطاعات جديدة إدارية وحربية قصر توزيعها على أهل بيته وكبار قواد جيشه . وفى هذا التقسيم الجديد أقطع صلاح الدين امارة الكنز لأخيه توران شاه الذى أقطعها بدوره إلى قائده أخى أبى الهيجاء السمين . فرفض بنو الكنز ذلك وثاروا ضد صلاح الدين سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م فوجه صلاح الدين لهم قواته بقيادة أخيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر الذى استطاع الانتصار عليهم عند بلدة طود بالقرب من مدينة قوص وقتل زعيمهم كنز الدولة وعدد كبير من قواته .

- المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
- عطية القوصى : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

لــه البشارة بإلغاء الخلافة الفاطمية دون أخذ الأذن فى ذلك من سيده نور الدين . كذلك حين أمره نور الدين بملاقاته بقواته عند حصن الكرك لمقابلة الصليبيين بجيشهما معاً ، ولكنه لم يمتثل لمطلبه خوفاً من أن يغدر به نور الدين ويقبض عليه هناك ويتخلص منه .

وعندما ازدادت شكوك نور الدين فى نوايا صلاح الدين ، بسبب تصرفاته معه ومماطلته إياه ، صمم على أن يخرج بجيشه لإزاحة صلاح الدين عن مصر[1] .

ولقد أرسل نور الدين سنة ٥٦٩هـ موظفاً من عنده ليحاسب صلاح الدين وأن يقدم له كشف حساب عن إيرادات مصر ومصروفاتها . وفكر صلاح الدين وقتها فى ترك مصر والخروج إما إلى اليمن أو النوبة خوفاً من بطش نو الدين بعد أن كادت الحرب تقع بين العاهلين الكبيرين . إلا أن القدر كان رحيماً بصلاح الدين ، إذ فاجأ الموت نور الدين بغتةً سنة ٥٦٩هـ[2] ، فأنقذه الله وأنجاه من خطر محقق مؤكد هدد وجوده فى مصر .

وبموت نور الدين ، زالت أهم العقبات فى طريق صلاح الدين فى سبيل تحقيق حلمه فى تكوين دولة له ولأسرته من بعده فى مصر ، وإقامة الجبهة الإسلامية المتحدة للدفاع عن الإسلام والمسلمين من خطر عدوان الصليبيين والجهاد فى سبيل الله الذى نذر نفسه له .

ومن أجل وحدة الصف الإسلامى كان لزاماً على صلاح الدين حكم الشام وضمه إلى دولته بمصر ، ولم يكن يتسنى له ذلك إلا بالاستيلاء على ممتلكات نور الدين فى الشام . ولم يكن في استطاعة صلاح الدين ذلك طالما كان نور الدين باقياً وهو من القوة بمكان يجعله يصرع كل من يتعدى على

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٢٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣ .

بلاده مهما كانت قوته ، ولكن الآن وقد مات نور الدين وآلت دولته إلى إبنه الطفل الضعيف إسماعيل جاءت الفرصة السانحة لصلاح الدين لاتمام مخططه الذى رمى من ورائه توحيد الجبهة الإسلامية فى ملاقاة العدو . ومن أجل ذلك خرج صلاح الدين سنة ٥٧٠هـ لفتح الشام ؛ فدخله بعد أن انتصر على القوات التى اعترضت طريقه ، وتسلم قلعة دمشق ، ثم استولى على حمص وحماه وبعلبك . وصفيت لصلاح الدين كل بلاد الشام بعد معركة «قرون حماه»[١] التى انتصر فيها سنة ٥٧١هـ على عساكر الموصل وحلب ، ومعركة «تل السلطان» سنة ٥٧٢هـ ، التى حُسم النصر فيها لصالحه .

وقام صلاح الدين بتمكين أسرته فى مصر والشام ، واستعان بهم فى الإدارة والجيش وقام بتوزيع الإقطاعات عليهم وعلى كبار قواده بعد أن سلب الاقطاعات القديمة من اتباع الفاطميين . وقضى صلاح الدين على كل بقايا المقاومة الفاطمية واستأصل جذور المذهب الشيعى من البلاد . وفى نفس الوقت ، تقرب من المصريين وخفض عنهم ما كانوا يعانونه من وطأة المكوس والضرائب التى فرضت عليهم فى عهد الفاطميين ، فألغى جميع هذه المكوس ولم يعد يتحصل من الناس سوى زكاة أموالهم[٢] . وكان صلاح الدين يتحرى أحكام الدين فى كل معاملاته مع الناس على قدر إمكانه . وقد أمر بأن يُقطع ما كان يؤخذ من الحجاج من رسوم ، وعوَّض عنها أمير مكة فى كل سنة ألفى دينار وألف أردب غلة ، سوى إقطاعًا بصعيد مصر وباليمن ومقداره ثمانية آلاف اردب[٣] . ولقد أمر صلاح الدين ببناء سور يحيط بالقاهرة وقلعة الجبل وأقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فشرع فى بناء قلعة الجبل وعمل السور وحفر الخندق حوله . وبدأ صلاح الدين بعمل مدرسة بجوار

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٢٦ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص ٣ .
(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٥٤ ، القاهرة ١٩٦٨ .

قبر الإمام الشافعى، رضي الله عنه، فى القرافة ، وعمل مارستاناً (مستشفى) بالقاهرة ، وعمرَّ الأسطول ، وتهيأ للجهاد ضد الصليبيين .

رابعاً: تدابير صلاح الدين لمواجهة العدوان الصليبى على ديار الإسلام :

لقد سبق أن أشرنا إلى اشتراك صلاح الدين فى الحملات التى قادها شيركوه على مصر ، لإقرار الأمن بها ، ومنع وقوع مصر فريسة فى أيدى الصليبيين ، وإعادتها إلى حظيرة المذهب السنى ؛ فأصبحت له خبرة كبيرة فى قتال الصليبيين وفى رسم الخطط الحربية وقيادة الجيوش .

وزادت خبرة صلاح الدين الحربية وتجربته ، بعد أن رد عن ثغر دمياط ، سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ، الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة . وقد أورد ابن الأثير أخبار هذه الحملة عند حديثه عن أحداث سنة ٥٦٥ للهجرة ، حيث قال: «فى هذه السنة فى صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط ، من الديار المصرية وحصروها ، وكان الفرنج بالشام لمَّا ملك أسد الدين شيركوه مصر ، قد خافوه وأيقنوا بالهلاك ، وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر ، وإنهم خائفون على البيت المقدس منهم . فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح واستعدوا للنزول على دمياط ، ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به الديار المصرية»[1] .

ويواصل ابن الأثير ذكر تصدى صلاح الدين والمصريين لهذه الحملة وانتصارهم على الصليبيين ، وذلك بقوله : «فإلى أن دخلوا ، كان أسد الدين قد مات ، وملك صلاح الدين ، فأجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها . فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل ، وحشر فيها كل منْ عنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر . وأرسل إلى نور الدين يشكو ماهم فيه

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٣ .

من المخافة ويقول : إنى إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سرتُ إليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنج أمامى فلا يبقى لنا باقية . فسيَّر نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً ، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية ، فنهبها وأغار عليها واستباحها ، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع . فلماً رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشىء ، ووجدوا بلادهم خراباً وأهلها بين قتيل وأسير ، فكانوا موضع المثل القائل : (خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين) . وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى»[1] .

وفى هذه السنة (٥٦٥هـ) ، فى شهر جمادى الآخرة ، أغار نور الدين على حصن الكرك (بالأردن) ، وهو من أمنع معاقل الصليبيين ، فى طريق التجارة بين الشام والحجاز، وحاصره ونصب عليه المنجنيقات. وقد قام نور الدين بذلك لتأمين وصول نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين ، وجماعة من أصحاب صلاح الدين ، إلى مصر . وكان صلاح الدين قد استأذن نور الدين فى مسيرهم إليه ليأتنس ويتقوى بهم . وبفضل ما قام به نور الدين لم يتعرض الصليبيون فى الكرك لنجم الدين وصحبه ووصلوا إلى مصر سالمين ، وقد خرج الخليفة العاضد لاستقبالهم عند وصولهم اكراماً لهم ولصلاح الدين[2] .

وازدادت خبرة صلاح الدين القتالية أيضاً بعد انتصاره على الصليبيين فى غزة سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) ، ومهاجمته أيلة (العقبة) وانتزاعها من أيديهم[3] بعد أن حاصرها براً وبحراً ، وفتحها فى العشر الأوُل من ربيع الآخر[4] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣ .
(٣) العرينى : الحروب الصليبية ، ص ٨٠ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣١ .

يضاف إلى ذلك ما قام به سنوات ٥٦٧هـ (١١٧١م) و ٥٦٩هـ (١١٧٣م) من غارات على الشوبك والكرك بناء على طلب نور الدين[١] ، وما أحرزه من انتصار على الحملة الصليبية التى قدمت إلى الإسكندرية من صقلية سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) ، لمساندة أنصار الفاطميين فى مصر .

إلغاء الخلافة الفاطمية من مصر :

لمّا ثبتت أقدام صلاح الدين بمصر ، وأزال المخالفين له ، وضعف أمر الخليفة العاضد الفاطمى بها ، وصار صلاح الدين المتحكم فى قصره هو ونائبه قراقوش ، كتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة للعاضد الفاطمى وإقامتها للخليفة العباسى المستضىء بالله .

وقد إمتنع صلاح الدين عن ذلك ، فى أول الأمر ، واعتذر بالخوف من قيام وثورة المصريين عليه لميلهم إلى الفاطميين العلويين . وكان صلاح الدين يكره أن يقطع الخطبة للفاطميين ويريد بقاء حكمهم الضعيف يستظل بظله خوفاً من نور الدين . فلقد كان صلاح الدين مقتنعاً ، تمام الإقتناع ، أنَّ نور الدين لا محالة قادم إليه بجيوشه لسلب حكم مصر منه بعد أن يتأكد لـه تثبت صلاح الدين فى مصر ومحاولته الاستقلال بحكمها فى ظل الخليفة الفاطمى الضعيف . ولقد اعتذر صلاح الدين لسيده نور الدين عن تنفيذ رغبته فى إلغاء الخلافة الفاطمية من مصر ، لكن نور الدين ألح عليه وألزمه ذلك إلزاماً لا فسحة له فى مخالفته وهو نائب عنه فى حكم مصر[٢] .

واتُّفق أن مرض العاضد فى ذلك الوقت مرضاً شديداً ، فلماً عزم صلاح الدين ، آخر الأمر ، الالتزام بأمر سيده نور الدين وعزم على قطع الخطبة للعاضد ، قام باستشارة أمرائه فى ذلك ، فمنه من وافقه ومنهم من اعترض .

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٣ .

وكان رأى الموافقين أرجح فمال صلاح الدين إلى رأيهم . وكان قد دخل مصر آنذاك رجل فارسى يُعرف بالأمير العالم ويُلقب بالخبوشانى تطوع بأن يخطب الجمعة ويدعو للخليفة العباسى فى خطبته . وقد تم له ذلك فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) ، ودعا للخليفة العباسى «المستضىء بنور الله» . ولم يكن لهذا الحدث أى رد فعل مُعادٍ لصلاح الدين ، وهو كما قال عنه ابن الأثير «لم ينتطح فيها عنزان»[١] .

وقيل أن العاضد لم يعلم بأمر إلغاء خلافته ، وأن أهله أخفوا عنه ذلك ، وقيل بلغه ، وهو على فراش الموت ، فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه فخاف صلاح الدين أن تكون تلك خديعة من جانبه فلم يتوجه إليه . ومات العاضد فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائه ، وانقضت دولة الفاطميين من مصر بموته وندم صلاح الدين على قطع خطبته وقال : «ليتنى صبرت حتى يموت»[٢] . ثم كتب صلاح الدين يخبر نور الدين بالغاء الخلافة الفاطمية من مصر وعودة مصر إلى حظيرة الدعوة العباسية . فكتب نور الدين كتاباً بذلك إلى الخليفة العباسى ببغداد يزف له الخبر ، من إنشاء العماد الكاتب الأصفهانى . وما لبث أن أقيمت الاحتفالات فى بغداد ، تعبيراً عن شعور الفرح بذلك الانتصار الكبير الذى تحقق للخلافة العباسية ، وزوال منافستها الخلافة الفاطمية على الزعامة الروحية للعالم الإسلامى . وأسرع الخليفة العباسى «المستضىء» إلى إرسال الخلع إلى كل من نور الدين وصلاح الدين ، ومعها الأعلام والرايات السوداء ، شعار العباسيين[٣] .

ولقد قام صلاح الدين فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) ، بالخروج من مصر فى شهر صفر لغزو الصليبيين وجس نبض قواهم بمهاجمة حصن «الشوبك» ،

---

(١) الكامل ، نفس الجزء ، ص ٣٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٣٥٦ .

(٣) إبن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٥ .

الذى يبعد عن الكرك مسيرة يوم ، وقام بمحاصرته وضيَّق على من به من الصليبيين ، واستمر محاصراً لهم مدة عشرة أيام . فلمَّا سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين ، سار عن دمشق قاصداً بلاد الصليبيين ليدخل إليه من جهة أخرى ويطبق الجانبان عليهم . وعندئذ قال مستشارو صلاح الدين له محذرين من تدخل نور الدين : «إن دخل نور الدين بلاد الفرنج ، وهم على هذه الحال ، أنت من جانب ونور الدين من جانب ، ملكها (نور الدين) ، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ نور الدين ملكهم ، لم يبق بديار مصر لك مقام مع نور الدين ، وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا فلابد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ، إن شاء تركك أولا ، فقد لا تقدر على الامتناع عليه ، والمصلحة الرجوع إلى مصر»[1] .

فأخذ صلاح الدين برأى مستشاريه ، وارتحل عن الشوبك عائداً إلى مصر دون الاستيلاء عليه . وكتب إلى نور الدين ، الذى كان قد طلب منه الاجتماع إليه ، يعتذر باضطراب الأحوال فى مصر غداة الغائه الخلافة الفاطمية فيها ، حسب ما وصل إليه من أخبارها ، عن بعض تصرفات لشيعة الخليفة الفاطمى العلويين وعزمهم الوثوب عليه وخوفه الابتعاد عن مصر أكثر من ذلك . وأطال الاعتذار ، لكن نور الدين لم يتقبل عذره وتغير عليه . وقد أدرك نور الدين حينئذ نوايا صلاح الدين وتيقن من أطماعه فى الاستقلال بأمر مصر فوقع بذلك الخلاف بينهما[2] .

وعزم نور الدين التوجه إلى مصر وإخراج صلاح الدين منها ، وشاع ذلك الخبر ، ووصل إلى مسامع صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه من

(١) إبن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .
● ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٥٦ .

عزم نور الدين وقصده إليه ، واستشارهم فى الأمر . فلم يجبه أحد بكلمة واحدة ، فقام تقى الدين عمر ، ابن أخى صلاح الدين ، فقال : «إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد» ووافقه غيره من أهله . فقام نجم الدين وأنكر ذلك واستعظمه وشتمهم ، وخص بالشتم تقى الدين وطلب منه القعاد والسكوت . ثم توجه لصلاح الدين قائلاً : «أنا أبوك ، وهذا خالك شهاب الدين ، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى ، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين ، لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ؟ وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم ، وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فإن أراد سمعنا وأطعنا . والرأى أن تكتب كتاب مع نجّاب تقول فيه : بلغنى أنك تريد التحرك لأجل البلاد ، فأى حاجة إلى هذا ؟ يكفى أن يرسل مولاى نجاباً يضع فى رقبتى منديلاً ويأخذنى إليك وما ههنا من يمتنع»[1] .

وبعد أن أنهى نجم الدين كلامه إلى إبنه صلاح الدين ، انصرف الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا ، فلمَّا اختلى الوالد بإبنه قال له : «بأى عقل فعلت هذا ؟ أما تعلم أنَّ نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه وحينئذ لا نقوى عليه ، وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ، ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكر مصر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أُقتل»[2] . ففعل صلاح الدين ما أشار والده به ، فترك نور الدين ، بالفعل ، قصده وانشغل بغيره فكان الأمر كما ظنه نجم الدين أيوب فتوفى نور الدين دون أن يقصد صلاح الدين ، وملك صلاح الدين البلاد . وكان رأى نجم الدين هذا من أحسن الآراء وأجودها .

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٣٦ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

وكان من الأمور التى انشغل بها نور الدين عن غـزو صلاح الدين فى مصر ، إلى جانب ما وصله من أخبار عما تم فى اجتماع صلاح الدين مع والده ومستشاريه ما طمأن قلبه حول احتمال تمرد صلاح الدين عليه ، أن قام فى هذا العام (٥٦٧هـ / ١١٧١م) بغزو أنطاكية وطرابلس ومحاصرة حصن عرقة وتخريب حصن ربضة وأخذ حصن صافيثا وعريمة عنوة وتخريبهما . وكان سبب تلك الغزوة استيلاء الصليبيين على مركبين تجاريتين مسلمتين كانتا قد خرجتا من مصر إلى الشام وأرستا فى ميناء اللاذقية ، وكانتا مملوءتين بالأمتعة والبضائع . وقـد نكث الصليبيون بذلك الهدنة التى كانت بينهم وبين نور الدين . فما كان من نور الدين إلا أن يقاتل الصليبيين لنقضهم الهدنة ، واستعادة المركبين بجميع ما فيهما سالمتين . فتراجع الصليبيون لذلك عما فعلوا وسلموا نور الدين ما أراد وطلبوا منه تجديد الهدنة فأجابهم إلى ذلك وهم صاغرون .

وفى العام التالى (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) قام نور الدين بمهاجمة أعمال طبرية ، فنهب جيشه تلك الأعمال وأحرقها وخربها ، وكان ذلك رداً على هجوم الصليبيين فى ربيع ذلك العام ، واغارتهم على بلدة حوران ، من أعمال دمشق ولمّا سمع الصليبيون بأمر هذا الهجوم سارعوا بالدفاع عن طبرية وأعمالها . ووقع قتال شديد بين الطرفين وحاول الصليبيون أن يستردوا من المسلمين غنائمهم فلم يقدروا وعادوا إلى بلادهم دون أن يستردوا شيئاً »[1] .

وعلى الجانب الآخر فقد قام صلاح الدين بغزو بلاد النوبة فى نفس العام، وذلك بإرسال أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه بن أيوب من مصر إلى تلك البلاد لتكون ملجأ له فى حاله مهاجمة نور الدين لمصر وعزله عنها . وكان صلاح الدين وأهله موقنين بأن نور الدين عازم على الدخول إلى مصر ؛ فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن ، حتى إذا وصل إليهم نور

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٤٥ .

الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فإن قووا على منعه أقاموا بمصر ، وإن عجزوا عن منعه ، ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى قد افتتحوها . فجهز صلاح الدين أخاه بجيش وسار به إلى أسوان ، ومنها إلى بلاد النوبة ، فنازل قلعة «إبريم» واستولى عليها وأقام بها . ولمَّا عاين فقر البلاد وجدبها وقلة حاصلاتها ومواردها تركها وعاد منها إلى مصر ومعه ما غنمه منهم من عبيد وجوارى»[1] .

وفى شهر شوال من نفس العام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) ، ارتحل صلاح الدين من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الصليبيين يريد حصار حصن الكرك ، والاجتماع مع نور الدين عليه ، والاتفاق بينهما على قصد الصليبيين من جهتين ، كل واحد منهما فى جهة بعسكره . وسبب ذلك أنَّ نور الدين لَّما أنكر على صلاح الدين ارتداده من بلاد الصليبيين فى العام الماضى ، وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه وأرسل يعتذر له واعداً إياه على تعويضه عن ذلك . فاستقرت القاعدة بينهما أنَّ صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه ، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه .

فسار صلاح الدين عن مصر ، لأنَّ طريقه أبعد وأشق ووصل إلى الكرك وحاصره ؛ أما نور الدين ، فإنه لَّما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر ، تحرك سائراً إلى الكرك فوصل إلى الرقيم[2] ، وبينه وبين الكرك مرحلتان . فلمَّا سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله ، واتفق رأيهم

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ٢٧٥ .

● ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٥٩ معارف عامة ، الجزء الثانى ، القسم الثانى ، ورقة ٤٩٢ .

(٢) وهو المكان الذى أشار إليه القرآن الكريم فى سورة الكهف عن أصحاب الكهف والرقيم بقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ الكهف : ٩ ، ١٠ .

على العودة إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين ؛ لأنهم علموا أنه إن اجتمعا ، كان عزله على نور الدين سهلاً . فلمَّا عاد صلاح الدين إلى مصر أرسل الفقيه عيسى الهكارى إلى نور الدين يعتذر له عن رحيله بأنه قد ترك أباه فى مصر وهو فى أشد حالات المرض ، وهو يخشى عليه الموت وخروج البلاد عن أيديهم لوفاته ، وأرسل معه تحفاً وهدايا قيمة . فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه بذلك ، فعظُم الأمر عليه وعلم المراد من عودة صلاح الدين ، إلا أنه لم يُظهر للرسول تأثراً ، بل قاله له : «إنَّ حفظ مصر عندنا أهم من غيرها» .

وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد توفى يوم السابع والعشرين من شهر ذى الحجة من ذلك العام . وقد ذكر ابن شداد أن سبب وفاته وقوعه عن ظهر الفرس[1] . وفى شهر رجب من سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م)[2] بعث صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه لفتح بلاد اليمن ، لتكون ملاذاً لصلاح الدين وأهله ، إذا ما هاجمه نور الدين فى مصر . وكان قد ثار باليمن ، ضد الخلافة العباسية فى بلدة زبيد ، ثائر شيعى يُدعى «عبد النبى» ، قطع الخطبة العباسية ودعى للشيعة العلويين . فنجح جيش توران شاه فى هزيمة عبد النبى وأسره بعد الاستيلاء على زبيد ، ثَم الاستيلاء على ميناء عدن وقلعتى تعز والجند وغيرها من المعاقل والحصون . ودخلت بذلك بلاد اليمن ضمن ممتلكات صلاح الدين وعادت الخطبة والدعاء فيها للخليفة العباسى .

وفى اليوم الثانى من شهر رمضان ذلك العام قام صلاح الدين بصلب جماعة من أصحاب الخلفاء الفاطميين أرادوا قتله والثورة والتمرد عليه ،

(١) النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

(وقد قال عنه ابن شداد بأنه كان شديد الركض بالخيل ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس) .

(٢) ابن شداد : نفس المصدر السابق ، ص ٣٦ .

وإعادة الحكم للفاطميين . وكان من بين هؤلاء الشاعر «عمارة اليمنى» و«عبد الصمد الكاتب» ، وداعى الدعاة «ابن العويرس» وغيرهم من جند المصريين والسودانيين وحاشية قصر الخليفة الفاطمى المعزول . وقد وافق هؤلاء على الثورة ضد صلاح الدين ، بعض أمرائه وجنده ، واتفق رأيهم على استدعاء الصليبيين من صقلية ومن ساحل الشام إلى مصر على شىء بذلوه لهم من المال والبلاد . فإذا قصدوا البلاد ، خرج لهم صلاح الدين بنفسه ، ثاروا هم فى القاهرة والفسطاط وأعادوا الدولة الفاطمية . وقد وشى أحد أتباع صلاح الدين له بأمر هذه المؤامرة وعمل على فشلها بعد أن قبض عليهم وقام بقتلهم وصلبهم[1] .

وفى شهر شوال من ذلك العام ، شرع نور الدين محمود يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ولإزاحته عن حكم مصر ، بسبب ما وجده من فتور عند صلاح الدين فى غزو الصليبيين بسبب الخوف منه ومن الاجتماع به ، وخاف إمتناع صلاح الدين بالصليبيين ضده . فأرسل نور الدين إلى الموصل وديار بكر والجزيرة يطلب العساكر للغزو ، وقرر أن يترك بلاده مع ابن أخيه سيف الدين غازى ، صاحب الموصل والشام ، ويسير هو بعساكره إلى مصر . فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذى لا مرد له يوم الأربعاء الحادى والعشرين من الشهر سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وذلك فى قلعة دمشق[2] . وأقام مقامه ولده الملك الصالح إسماعيل .

وفى ذلك العام ثار بنو الكنز ضد صلاح الدين[3] ، بقيادة زعيمهم كنز الدولة

---

(١) ابن الأثير : جـ١٠ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ٢١٩ - ٢٢١ .

(٢) ذكر ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٣٧) أن سبب وفاته خوانيق اعترته أيضاً ، مثلما اعترت والده زنكى ، عجز الأطباء عن علاجها ، عن ٥٨ سنة .

(٣) عن بنى الكنز وإمارتهم التى قامت فى جنوب بلاد مصر ، انظر للمؤلف كتاب تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة ١٩٨١ .

أمير أسوان ، بسبب عدم تقبلهم الوضع الجديد الذى فرضه صلاح الدين على البلاد المصرية حين قام بالغاء اقطاعات الفاطميين القديمة ووضع يده على كل أراضى البلاد ، وقام بتقسيمها إلى اقطاعات جديدة إدارية وحربية ؛ قصر توزيعها على أهل بيته وأقربائه وكبار قواد جيشه[1] . ولقد ساء بنو الكنز أن يُقطع السلطان صلاح الدين إمارتهم فى جنوب البلاد ، التى أقطعهم إياها خلفاء الفاطميين ، منذ أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، إلى أخيه توران شاه ، الذى أقطعها بدوره إلى أخى «أبى الهيجاء السمين» ، أحد كبار قواده[2] . وكان على بنى الكنز أن يختاروا أحد أمرين : إما أن يستسلموا لإرادة السلطان ويتخلوا عن إمارتهم ونفوذهم ، وإما أن يتحدوا قرار السلطان ويرفضوا الإذعان لمشيئته ويثورون ضده مهما كان الثمن . وقد اختار بنو الكنز الأمر الثانى لأن المسألة غدت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت ، ولهذا أعلنوا الثورة ضد صلاح الدين[3] .

ويذكر ابن شداد عن ثورة كنز الدولة بقوله : «والكند (الكنز) إنسان مقدم من المصريين كان قد نزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويُخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية . وكان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر وقصدوا قوص وأعمالها»[4] . كما يشير كل من ابن خلكان والمقريزى وأبى المحاسن إلى التفاف المصريين حول كنز الدولة تحقيقاً

---

(١) نقل صلاح الدين إلى مصر ما هو معروف بالاقطاع السلجوقى والزنكى ، وهو نوعان : اقطاع ادارى اختص به الأمراء من الأسرة الحاكمة وكبار الأمراء ، وإقطاع حربى اقترن بما يؤديه المقطع من خدمات حربية (الباز العرينى : الاقطاع فى الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٣٤) .

(٢) يعلق المقريزى على ذلك قائلا : «منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا ، فإنَّ أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده (المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٩٦) .

(٣) عطية القوصى : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٧٢ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ .

لذلك الهدف . فابن خلكان يقول : «إن الكنز جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة المصرية ، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم ، فانضافوا إلى الكنز المذكور»[1] . والمقريزى يقول : إن كنز الدولة استطاع بإغراء المال أن يجمع حوله أعداداً من المصريين ممن يهوى هوى الفاطميين[2] . وأما أبو المحاسن ، ابن تغرى بردى فيقول : «بلغ صلاح الدين أنَّ إنساناً جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة العبيدية المصرية (الفاطمية) ، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم فأنضافوا إليه ، فسَّير صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل فساروا والتقوا به وكسروه فى السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائه»[3] .

وكانت أحداث ثورة بنى الكنز ضد صلاح الدين قد قام بها أميرهم «كنز الدولة ابن المتوج بالهجوم» فى أوائل سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م ، على أخى أبى الهيجاء السمين ، وقتله ، كما قتل فى هذا الهجوم عدد آخر ممن كانوا مع السمين من أمراء صلاح الدين وأخذ كنز الدولة ، بعد ذلك ، فى إعداد جيشه لمحاربة قوات صلاح الدين فاجتمع عليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وجمع وافر وقصدوا قوص وأعمالها[4] . وكانت طلائع هذا الجيش من منهزمى ثورة مؤتمن الخلافة ، رئيس القصر الخلافى الفاطمى ، وعمارة اليمنى من الجند المصرين والسودانيين[5] .

وقد إتفق قيام ثورة بنى الكنز على صلاح الدين مع إنشغاله برد هجوم أسطول كبير للفرنج على الإسكندرية ، وكان هذا الأسطول قد أرسله «وليم الثانى» ملك صقلية بقيادة ابن عمه «تانكرد» كونت ليتشى ، لمهاجمة

(١) وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص ١٦٥ .

(٢) السلوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٥٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٢٤ .

(٤) ابن شداد : النوادر ، ص ٣٧ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ٢٣٥ .

الإسكندرية ، وكان يتكون من مائتى وأربع وثمانين سفينة[1] . كما إتفق قيام ثورة كنز الدولة مع قيام ثورة أخرى فى داخل البلاد ، قام بها رجل يُعرف باسم عباس بن شادى عند بلدة «طود» بصعيد مصر[2] .

ولقد أرسل صلاح الدين أخاه الملك العادل سيف الدين أبو بكر[3] إلى طود للقضاء على ثورة ابن شادى فقضى عليها ، وقام بتخريب قرية طود وقتل أعداد كبيرة من أهلها ، «وأسرعت البلية إليها وبها وقعت وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلتها»[4] . ثم أتبع الملك العادل مسيره للقاء بنى الكنز الذين كانوا قد وصلوا إلى مشارف طود فوقعت معركة مريرة بينه وبينهم انتهت بهزيمة بنى الكنز وقتل كنز الدولة بن المتوج نفسه فى المعركة وعدد كبير من قواته . ويبالغ بعض المؤرخين فى ذكر أعداد من قُتل من رجال كنز الدولة ويقدرهم بثمانين ألف من مائة ألف كانوا معه[5] . وبعد هذه الهزيمة التى وقعت لبنى الكنز قاموا بالارتحال عن أسوان إلى بلاد النوبة الشمالية .

وفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م وصل أسطول الصليبيين من صقلية إلى مدينة الإسكندرية ، وكان سبب ذلك ، ما سبق ذكره ، من إرسال أهل مصر إلى ملك بيت المقدس عمورى الأول وإلى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر «فجهز صاحب صقلية أسطولاً كبيراً

---

(١) رونسيمان : تاريـــخ الحـروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيـروت ١٩٦٨ ، جـ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٢) طود ، قرية صغيرة من قرى الصعيد القديمة بمركز الأقصر ، وهى لا تزال قائمة حتى الآن (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القاهرة ١٩٦٣ ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، ص ١٦٢) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٦ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ٢٣٥ .

(٥) إبراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بن أيوب ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١ ورقة ١٩ ب ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٢٧٦ح ، جـ٨ ، ورقة ٢١٤ .

عدته مائتى (شينى)[1] تحمل الرجال وستا وثلاثين (طريدة)[2] تحمل الخيل وست مراكب كباراً تحمل آلة الحرب ، وأربعين مركباً تحمل الأزواد ، وفيها من الراجل خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائة . . وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية ، وسيَّره إلى الإسكندرية من ديار مصر فوصلوا إليها فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة»[3] .

ويذكر ابن الأثير أنَّ أهل الإسكندرية خرجوا لقتال الصليبيين بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول إلى البر ، لكن والى المدينة طلب منهم ملازمة السور والدفاع عن المدينة عنده . ولَمَّا نزل الصليبيون إلى البر نصبوا على المدينة الدبابات والمنجنيقات ، وقاتلهم أهل الإسكندرية قتالاً شديدا ، «ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم»[4] .

وأُرسلت الكتب فى الحال إلى صلاح الدين يستدعيه فيها أهل الإسكندرية المجيء مسرعاً لدفع العدو عنهم ، ودام القتال ثلاثة أيام . واستبسل أهل المدينة فى القتال حين علموا بمقدم صلاح الدين إليهم . ولَمَّا سمع الصليبيون بقرب صلاح الدين فى عساكره أُسقط فى أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والأزواد . «وكثر القتل فى الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها ، فسلم بعضهم وركب ، وغرق

(١) الشينى مفرد شوانى وكذلك الشينية ، وهى سفن كبيرة تميزت بأبراج للدفاع والهجوم ، وهى تحتوى على أهراء (مخازن) لخزن الحبوب وصهاريج لخزن الماء العذب (المقريزى : الخطط ، جـ١ ، بولاق ١٢٧٠هـ ، ص ٤٢٨) .

(٢) الطريدة مفرد طرائد ، وكانت سفن تستخدم لنقل الخيول .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٣ .

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

بعضهم[1] . وغاص بعض المسلمين فى الماء وخرق بعض شوانى الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين . . ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم ، فصاروا بين قتيل وأسير ، وكفى الله المسلمين شرهم»[2] .

فتح دمشق لإتمام وحدة الجبهة الإسلامية فى مجابهة العدوان الصليبى :

إرتأى صلاح الدين ضرورة توحيد الجبهة الإسلامية فى مجابهة العدوان الصليبى وقبل بدء جهاد العدو القابع على أرض الشام والمهدد لمصر . وكان صلاح الدين مطمئناً لمتانة جبهة الشام فى مجابهة العدو الصليبى طالما كان الشام تحت حكم سيده نور الدين محمود . لكن الآن وقد مات نور الدين، وكثر الطامعون فى دولته بعد أن خلفه فيها إبنه الصغير «الصالح إسماعيل»، فقد أرتأى صلاح الدين سوء الوضع هناك مما يطمع الصليبيين فى الاستحواذ على أملاك سيده فى الشام والإطباق منها على أملاكه فى مصر . فقرر ضرورة التدخل وأن يرث مُلك نور الدين فى الشام ، كما ورث عنه مهام الحرب مع الصليبيين بعد أن تسلم رايتها منه ، وساقته الأقدار لأداء هذا الدور العظيم فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

يقول ابن شداد فى ذلك ما نصه : «ولمّا تحقق السلطان (صلاح الدين) وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلاً لا ينهض بأعباء المُلك ولا يشتغل بدفع عدو الله عن البلاد تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أصل بلاد الإسلام»[3] . وكان الصالح إسماعيل ، الذى لم يتجاوز سنه الحادية عشرة عند وفاة أبيه ، قد راسل صلاح الدين يستنجد به من أطماع أقاربه وأمرائه فى حكم إمارته . وكان أكثر الطامعين من أقاربه سيف الدين غازى و ابن قطب الدين مودود بن

(1) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٤ .
(2) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ .
(3) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

زنكى ، أتابك الموصل ، الذى ما أن وصله نبأ موت عمه حتى سارع باحتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة وغيرها من الأماكن التى كانت تابعة لنور الدين فى إقليم الجزيرة[1] . ثم أنَّ النزاع لم يلبث أن نشب كذلك بين أقوى إثنين من أمراء نور الدين وهما : الأمير شمس الدين على ، ابن الداية ، والأمير ابن المقدم ، محمد بن عبد الملك . وكان سبب النزاع بينهما هو الوصاية على الملك الصالح إسماعيل . فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها مركز دولة نور الدين ، فى حين تحفظ فى دمشق ابن المقدم على شخص الملك الصالح إسماعيل .

وكان صلاح الدين قد أرسل إلى دمشق ، عقب وفاة نور الدين ، معلناً حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل وأملاك نور الدين بقوله فى رسالته : «ولو لم يُعجل عليه (نور الدين) الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى»[2] . وقد ترتب على النزاع بين ابن الداية وابن المقدم أن تعرضت أملاك نور الدين فى الشام لخطر الصليبيين الماثل فى بلاد الشام ، وتعرضت الجبهة الإسلامية المتحدة لخطر التصدع بعد أن حرص كل من نور الدين وصلاح الدين على دعمها وتقويتها لمجابهة العدو .

وفى ذلك الوقت نادى القاضى «كمال الدين الشهرزورى» بضرورة الرجوع إلى رأى صلاح الدين والعمل تحت قيادته للخروج من تلك الأزمة الطارئة ، وهو يمثل فى نظره أقوى نواب نور الدين على الساحة الإسلامية . ولكن هؤلاء الأمراء الطامعين خشوا من بأس صلاح الدين ، وخافوا من أن يؤدى تدخله إلى الاطاحة بهم جميعاً وضمه بلاد الشام إلى ملكه فى مصر . وقد تأخر صلاح الدين لبعض الوقت عن الذهاب إلى الشام بسبب انشغاله فى القضاء على ثورة عمارة اليمنى ضده ، والتصدى للأسطول النورماندى الذى نزل عند الإسكندرية .

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ٣ .

وكان الصليبيون ، لم يكتفوا بمهاجمة مصر وثغرها الإسكندرية ، بل هاجموا ، فى نفس الوقت ، بلدة «بانياس» من بلاد الشام . وكان على ابن المقدم وأمراء نور الدين التصدى لهذا الهجوم ودفعه عن يانياس ، ولكنهم لم يفعلوا ، واكتفوا بملاطفتهم والتعهد بدفع مبلغ كبير من المال مقابل انسحابهم عن المدينة واطلاق سراح أسراهم فى دمشق ، وطلب التحالف معهم ضد عدوهم المشترك ، صلاح الدين . ولقد أغضب هذا الاتفاق بين الأمراء والصليبيين صلاح الدين ، وكان أخشى ما يخشاه هو تصدع الجبهة الإسلامية بانفصال الشام عن مصر ، لأنَّ الأمر كما قال : «إذا إنفردت مصر عن الشام ، طمع أهل الكفر فى بلاد الإسلام»[1] .

ولقد زادت حدة الانقسامات فى بلاد الشام ، عقب وفاة نور الدين ، وذلك بظهور طرف جديد فى النزاع وهو «سعد الدين كمشتكين الخادم» ، أحد أمراء نور الدين ، الذى سيطر على الصالح اسماعيل وقام بنقله من دمشق إلى حلب ، وقام باعتقال ابن الداية ، وأنفرد بأتابكية الملك الصالح إسماعيل واستبد بتدبير أموره[2] . ولقد أثار ذلك الحدث ابن المقدم وبقية الأمراء وأدخل الخوف فى قلوبهم ، فراسلوا أتابك الموصل ، سيف الدين غازى يعرضون عليه تملك دمشق ، لكن غازى لم يستجب لهم ، فما كان من ابن المقدم وباقى الأمراء إلا أن استدعوا صلاح الدين لتسلم دمشق . وكان ذلك غاية ما يتمناه صلاح الدين ، وهو أن يتسلم دمشق دون قتال ، ليوفر القتال للصليبيين بعد أن يوحد دمشق مع القاهرة ويطبق بذلك على الصليبيين من الشمال والجنوب ويضعهم بين شقى الرحى .

ولقد رحب صلاح الدين بهذه الدعوة ، وتوجه ، من ساعته ، إلى دمشق التى خرج إليها على رأس سبعمائة فارس ، بعد أن استخلف فى القاهرة أخاه

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٢) ابن واصل : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٠ .

الملك العادل ، فوصل دمشق ودخلها يوم الثلاثاء أول ربيع الآخر ٥٧٠هـ (أواخر نوفمبر ١١٧٤م)[1] . وقد تأكد أنَّ خروج صلاح الدين إلى الشام سنة ٥٧٠هـ ، لم يكن لتحقيق مكاسب شخصية ، وإنما كان لتحقيق الوحدة الإسلامية والقضاء على عوامل الفرقة والشقاق التى ظهرت فى دولة نور الدين بالشام بقصد مواجهة الصليبيين صفاً واحداً متراصاً ودفع العدوان عن ديار الإسلام . وقد عبَّر صلاح الدين عن ذلك فى قوله : «لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمع الكفار فى البلاد ، وإنالا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم»[2] .

ولقد قوبل صلاح الدين، عند دخوله دمشق ، استقبالاً حافلاً من أهلها ، وقام ابن المقدم بتسليمه قلعتها . وأعلن صلاح الدين أمام الجميع ولاءه للصالح إسماعيل بن نور الدين ، وأنه مملوكه ، وأنه ما جاء إلى الشام إلا لنصرته وخدمته واستعادة بلاده التى سُلبت منه . وقد جعل الخطبة والسكة كلها فى البلاد باسمه[3] . واستمال صلاح الدين أهل دمشق بتوزيع الأموال والهبات عليهم ، وأبطل ما فُرض عليهم من مكوس بعد وفاة نور الدين . وبعد أن عيَّن صلاح الدين أخاه سيف الدولة طغتكين بن أيوب ، حاكماً على دمشق تابعاً للصالح إسماعيل ، إتجه إلى حلب لمحاربة كمشتكين .

وقد بدأ صلاح الدين حربه بالإستيلاء على مدينة حمص من حكامها النوريين ، ثم على مدينة حماه . وبعد ذلك إتجه إلى حلب، لكن حلب قاومته ورفضت الاستسلام، واستعان حاكمها كمشتكين بالباطنية[4]

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج المكروب ، جـ٢ ، ص ١٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٦ .

(٤) أرسل سنان ، مقدم الباطنية الإسماعيلية فى قلعة الموت ، جماعة من الفداوية (الفدائيين) لقتل صلاح الدين ، وقد أوشك هؤلاء على النيل من صلاح الدين لولا انكشاف أمرهم (ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٨١) .

والصليبيين[١] .

وقد سارع ريموند الثالث ، أمير طرابلس ، والوصى أيضاً على عرش مملكة بيت المقدس ، إلى نجدة حلب ، وقيامه بدور الحامى لمصالح الصالح إسماعيل ابن نور الدين ، الذى أدرك أهمية تحالف الصليبيين مع حلب وخطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب . ولقد أدرك ريموند ، أيضاً ، أنَّ استقلال حلب وبقاءها فى يد بيت نور الدين هو الضمان الوحيد لمنع إقامة جبهة إسلامية متحدة تمتد مـن النيل إلى الفرات تقف أمام أطماعهم فى بلاد المسلمين .

ولكى يجبر ريموند صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب ، قام بمهاجمة حمص ، التى استولى عليها صلاح الدين منذ وقت قريب . فاضطر صلاح الدين إلى فك الحصار عن حلب وتوجه بقواته لنجدة حمص ، وما أن علم ريموند بتحرك صلاح الدين نحو حمص حتى انصرف عنها إلى حصن الأكراد بعد أن حقق غرضه . وقد عبر كمشتكين عن عرفانه بالجميل للصليبيين باطلاق سراح من كان فى قلعة حلب من أسرى الصليبيين وعلى رأسهم رينودى شاتيون (أرناط) وجوسلين الثانى[٢] .

ولقد أدرك الزنكيون أنَّ صلاح الدين ، باستيلائه على حلب ، يشكل خطراً كبيراً عليهم ويعرض مما لكهم للزوال ، وضرورة إتحادهم لمواجهة ذلك الخطر المشترك . لذلك أرسل أتابك الموصل ، سيف الدين غازى جيشاً إلى الشام بقيادة أخيه عز الدين ، وبعد أن انضم إليه جيش حلب زحف الجميع إلى حماه لأخذها من يد صلاح الدين . وقد عرض عليهم صلاح الدين أن

---

(١) ارسل كمشتكين إلى ريموند الثالث ، أمير طرابلس الصليبى يطلب منه المساعدة ويعده بثمن مغرٍ إذا هو نجح فى رفع حصار صلاح الدين لمدينتهم حلب . وطلب منه أن يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطره إلى رفع الحصار عن حلب .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٦١٤ .

يعطيهم حمص وحماه على أن تظل دمشق فى يده ، يحكمها فى ظل الملك الصالح إسماعيل ، فرفضوا ذلك العرض ، وقد أملوا فى استرداد دمشق من يده بعد مغادرته الشام وعودته إلى مصر . واضطر صلاح الدين إلى محاربتهم عند «قرون حماه» يوم الأحد التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ (أواخر أبريل ١١٧٥م) ، فانتصر عليهم صلاح الدين وهزمهم وغنم كل ما معهم[١] . وأسر جماعة منهم ، ثم منَّ عليهم وأطلقهم ، ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهى الدفعة الثانية ، وصالحوه على أن يأخذ المعرة وكفرطاب وبارين[٢] .

وكان صلاح الدين قد كتب للخليفة العباسى ببغداد يعدد له فتوحاته وجهاده للفرنج ، واعادته الخطبة العباسية بمصر ، واستيلائه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى كل بلاد اليمن . . وطلب من الخليفة تقليد مصر واليمن والمغرب والشام وكل ما يفتحه بسيفه . فوافته ، وهو بحماه ،رسل الخليفة المستضىء بأمر الله ، بالتشريف والأعلام السود وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها . فسار ونزل على بعرين (بارين) وحاصر حصنها حتى تسلمه فى العشرين من الشهر ورجع إلى حماه[٣] . ثم سار منها إلى دمشق ، ثم رحل منها فنزل مرج الصُفر[٤] ، ووافته به رسل الفرنج فى طلب الهدنة فأجابهم إليها بشروط اشترطها عليهم . وقد فوض صلاح الدين أمر دمشق إلى ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

وفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) تجهز الحلبيون لقتال صلاح الدين ، فاستدعى عساكر مصر ، فلماً وافته بدمشق فى شعبان ، سار فى أول رمضان ، فلقيهم

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٥٩ (قرون حماه هو موضع بالقرب من مدينة حماه) .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) أحد المروج الواقعة حول مدينة دمشق (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٤٨٨) .

فى عاشر شوال وكانت بينهما موقعة تل السلطان انتصر فيها صلاح الدين واستولى على أموال وذخائر وفُرش وتحف كثيرة . ونزل صلاح الدين حلب يوم الرابع عشر من شوال ، فأقام بها خمسة أيام ، ثم ارتحل منها إلى بُزاغه ، من أعمال حلب وهى تقع بينها وبين منبج ، وتسلم حصنها بعد قتال أهله والانتصار عليهم، ثم سار إلى منبج وحاصرها وملكها ، ثم إرتحل إلى عزاز ، شمالى حلب فتسلمها ، ثم عاد إلى حلب[1] ، ومنها إلى مصر ليتفقد أحوالها[2] .

ولقد تعرض صلاح الدين ، أثناء حصاره عزاز ، للاغتيال للمرة الثانية من قبل جماعة الباطنية الاسماعيلية (الحشاشين) فى صيف سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) ، وقد تسلل واحد منهم إلى معسكر صلاح الديـن وطعنه بسكين فى رأسه فجرحه ، ولكن هذه الطعنة لم تكن قاتله بسبب المغفر الحديدى الذى كان يرتديه صلاح الدين تحت القلنسوة . وقد قتل رجال صلاح الدين ذلك الفدائى الباطنى[3] . وقد ثار صلاح الدين من الباطنية ، فلم يكد يفرغ من عقد الصلـح من أهالى حلب ، حتى اتجه لحصار «مصياف» ، بلد الباطنية وحصنهم، فنصب عليه المجانيق وأوسعهم قتلاً وأسراً ، حتى شفع فيهم شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين ، وصاحب حماه ، لجواره لهم ، فقام برفع الحصار عن حصنهم .

وفى أعقاب انتصار صلاح الدين على الحلبيين فى موقعة «تل السلطان» فى صيف سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)، قام بلدوين الرابع، بمحاولة مساعدة الحلبيين ضد صلاح الدين فأغار على منطقة البقاع ، خارج دمشق ، وقد خرج له

---

(١) المقريزى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٦١ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ، ص ٢٧ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٢٧ .

توران شاه ، أخو صلاح الدين ونائبه فى دمشق وتصدى له وأوقع به الهزيمة عند عين الجر[١] . وما لبث الصليبيون أن ارتدوا إلى بلادهم مسرعين عند علمهم باقتراب قدوم صلاح الدين بجيشه إليهم . على أنَّ صلاح الدين ، لمَّا رأى إنسحابهم ، لم يشأ يتعقبهم وآثر العودة إلى مصر[٢] ، تاركاً الأمر فى بلاد الشام لأخيه توران شاه ، بعد إقامته بدمشق حتى الرابع من شهر ربيع الأول وخروجه منها إلى القاهرة[٣] . ولقد أخذ صلاح الدين فى هذه السنوات الأولى من سلطنته ببذل كل ما فى وسعه لمقاومة الزنكيين والباطنية الاسماعيلية والصليبيين ، وهى القوى الثلاث التى تحالفت ضده لتحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر ، وتكوين جبهة التحدى الإسلامية لدفع العدوان عن ديار الإسلام وتحرير أرض المسلمين من دنس أقدام المستعمرين الصليبيين . وما أن نجح صلاح الدين فى القضاء على تلك العقبة وإزالتها من طريقه إلا وتفرغ للوفاء بما نذر نفسه له وبما ساقته إليه المقادير فى السنوات التالية من حكمه لمصر والشام .

✍ ✍ ✍

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٦٣ .

(٢) قبل أن يعود صلاح الدين إلى مصر فى ذلك العام ، تزوج من أرملة نور الدين محمود ، عصمة الدين خاتون إبنة معين الدين أنر ، لتقوية الرابطة بين شخصه وبيت نور الدين مما يساعده على تحقيق مشاريعه المستقبلية .

(٣) ذكر ابن الأثير عند ذكره حوادث ذلك العام بأن صلاح الدين أمر فى هذا العام ببناء المدرسة التى على قبر الإمام الشافعى ، رضي الله عنه بمصر ، وأنه عمل بالقاهرة بيمارستان ، ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة (ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٨٤) .

الباب الرابع

دور صلاح الدين وسلاطين الأيوبيين
فى دفع العدوان الصليبى عن ديار المسلمين

أولاً : صلاح الدين والصليبيون

ثانيًا : موقعة حطين واسترداد بيت المقدس من يد الصليبيين

ثالثًا : دفاع المسلمين عـن ديارهم وصدهم لعدوان الحملة الصليبية الثالثة

رابعًا : الأيوبيون بعد صلاح الدين ودورهم فى رد العدوان الصليبى

الباب الرابع

دور صلاح الدين وسلاطين الأيوبيين
فى دفع العدوان الصليبى عن ديار المسلمين

أولاً: صلاح الدين والصليبيون (٥٧٢ - ٥٨٥ هـ / ١١٧٦ - ١١٨٩م):

ما أن عاد صلاح الدين من الشام إلى مصر حتى فوجىء بتدبير الصليبيين لمشروع حملة صليبية بيزنطية على مصر سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) ، فى الوقت الذى لم يكن صلاح الدين قد ثبت أقدامه بعد فى شمال الشام . وقد كانت تلك فرصة ذهبية للصليبيين لطعن صلاح الدين فى ظهره وهو يواجه متاعب ومصاعب فى تلك البلاد وداخل مقر حكمه فى مصر . وكانت الظروف مواتية لإحراز الصليبيين النصر على صلاح الدين بعد أن وضع الامبراطور البيزنطى عمانويل كومنين إمكانات قواته البرية والبحرية لمشاركة الصليبيين فى غزو مصر وضرب صلاح الدين ضربة قاضية فى عاصمة ملكه . ولكن ، لحسن حظ صلاح الدين والمسلمين أنَّ هذه الحملة لم تتم ، ولم تُتح للصليبيين بعد ذلك مثل هذه الفرصة ، لوفاة الامبراطور عمانويل بعد ذلك بثلاث سنوات ٥٧٦ هـ (١١٨٠م) ، وخلفه على عرش بيزنطة أباطرة ضعاف عاملوا الصليبيين فى الشام كأعداء لا حلفاء . وقد أتاح ذلك الفرصة لصلاح الدين ليتقوى فى مصر ويثبت أقدامه فى الشام ويحرز الانتصارات الباهرة على الصليبيين فيما بعد .

ولقد كان الامبراطور البيزنطى عمانويل كومنين ، قد أراد أن يُنهى حياته بعمل حربى كبير ضد المسلمين يعوض به هزيمة قاسية ألحقها به سلاجقة الروم فى العام السابق (٥٧٢ هـ / ١١٧٦م) ، عند موضع يُقال له «موريو كيفالون» Myriocephalon ، وهو احدى الممرات الجبلية الضيقة ذات رؤوس كثيرة فى منطقة فريجيا[١] . وقد قُدرت تلك الهزيمة فى هذه المعركة بمساواتها بهزيمة منزيكرت منذ قرن مضى[٢] ، وقضت علىٰ هيبة الامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى وبلاد الشام . ولكى يُظهر كومنين صدق عزمه فى تنفيذ مشروع تلك الحملة الصليبية البيزنطية على مصر ، أرسل إلى ميناء عكا سبعين سفينة حربية تحمل عددًا كبيرًا من المقاتلين تكون طليعة لذلك الغزو المرتقب .

وكان بلدوين الرابع ، ملك بيت المقدس ، آنذاك مريضًا ، غير قادر على المشاركة بنفسه فى الحملة الصليبية البيزنطية المرتقبة على مصر ، فعرض على كونت الفلاندرز ، فيليب الألزاسى ، الذى كان قد حضر إلى بيت المقدس على رأس قوة من الفرسان الفلمنكيين لأداء فريضة الحج إلى الأراضى المقدسة، وقد رفض فيليب ذلك العرض ومسئولية قيادة الحملة المزعومة ضد مصر . وطال الجدل حول هذا الأمر ، ولمَّا يئس مبعوثو الامبراطور البيزنطى من جدية الصليبيين فى القيام بهذه الحملة المشتركة ، انسحبوا بسفنهم من عكا عائدين إلى القسطنطينية .

وإذا كان فيليب الألزاسى ، كونت الفلاندرز ، قد رفض التوجه لغزو مصر، فإنه قبل أن يغير على حماه وحمص، من إمارة طرابلس، سنة ٥٧٣ هـ

---

(١) الناصرى : الروم والمشرق العربى ، ص ٤١٩ .

(٢) فقدت الامبراطورية البيزنطية فى هذه المعركة سيادتها على آسيا الصغرى إلى الأبد ، وأملى السلطان السلجوقى قلج أرسلان شروطه على امبراطور الروم المنهزم ، وهى : هدم وازالة جميع حصون الروم وقلاعهم الحربية فى آسيا الصغرى ، والتنازل عن إدعاءاته فى أراضى السلاجقة ، والاعتراف بحق سيادة السلاجقة على ما تحت أيديهم من أرض آسيا الصغرى .

(١١٧٧م) بعد أن أمَدّه ملك بيت المقدس بقوة من فرسانه ومشاته . وقام فيليب بمحاصرة حماة فى منتصف ذلك العام لمدة أربعة أيام ، لكنه فشل فى إسقاطها فى يده ؛ فانسحب عنها متوجهًا إلى قلعة «حارم» ، شرقى نهر العاصى بناءً على طلب من أمير أنطاكية فى مساعدته فى الإستيلاء عليها . وحاصر الصليبيون حارم مدة أربعة أشهر دون أن يستطيعوا إسقاطها فى أيديهم لبسالة مقاومة حاميتها[١] .

ثم لم يلبث صلاح الدين أن حضر من مصر إلى الشام ليهاجم مملكة بيت المقدس ، فى جمادى الأولى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) ، ووصل إلى عسقلان فى الرابع والعشرين منه على رأس جيشه[٢] . ولَمَّا تيقن الصليبيون من قصد صلاح الدين لبيت المقدس انسحبوا عن حارم ، التى استولى عليها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين . ومن الواضح أنَّ فشل الحملة الفلمنكية أمام حماه وحارم أدى إلى تبدد آمال الصليبيين فى استرداد سيطرتهم على حوض نهر العاصى . وقد عاد فيليب الألزاسى ، بعد إنسحابه عن حارم ، إلى بيت المقدس ، ومن هناك إتجه إلى ميناء اللاذقية ، ثم سلك منه طريق البحر إلى القسطنطينية . أما حارم فقد استولى عليها الصالح إسماعيل بن نور الدين وانضمت إلى أملاكه[٣] .

أمَّا عن سيْر صلاح الدين ، بعد عسقلان ، فقد توجه إلى الرملة[٤] ، قاصداً حصار بعض حصون الصليبيين هناك ، واستولى جنوده على غنائم كثيرة هناك ، وأثناء انشغالهم بجمع الغنائم مطمئنين ، استطاع بلدوين الرابع أن يشق طريقه إلى خارج عسقلان ، بعد أن تأكد من ابتعاد صلاح الدين ورجاله ،

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٦٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٥ .
(٣) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٧ .

وسرعان ما اجتمع حوله ملوك الصليبيين وحاميات المدن الصليبية القريبة ، وباغتوا قوات صلاح الدين وأوقعوا بهم الهزيمة عند تل الصافية بالرملة . واستطاع صلاح الدين النجاة بنفسه بصعوبة ، وعاد إلى مصر ، ومعه فلول جيشه ، فى حالة سيئة ، فوصل القاهرة ، فى نصف جمادى الآخرة (٨ ديسمبر ١١٧٧م)[١] .

ولقد شجع هذا الانتصار الذى أحرزه الصليبيون عند الرملة ، الملك بلدوين الرابع ، ملك بيت المقدس ، على مهاجمة إقليم حماه فى الشمال ثم شيزر فى صيف سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) . كذلك قام هذا الملك بتشييد قلعة حصينة عند بيت يعقوب ، قرب بانياس فى مكان يُعرف «بمخاضة الأحزان»[٢]، وعهد إلى فرسان الداوية بالدفاع عنه وقطعهم الطريق على قوافل المسلمين . كذلك شيد الصليبيون ، آنذاك ، حصنًا آخر على جبل «هونين» إلى الشمال الغربى من بحيرة الحولة ، فى مواجهة بانياس . وبذلك شكلً هذان الحصنان خط دفاعى حصين لحماية مملكة بيت المقدس من ناحية دمشق فى الشمال .

وفى شهر ذى القعدة من سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) ، أغار الصليبيون على دمشق ، وأعمالها ، فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا ، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه «عز الدين فرخشاه» لقتال قواد هذه الحملة بلدوين الرابع وهمفرى دى تورون ، صاحب حصن بانياس[٣] . ونجحت قوات صلاح الدين فى هزيمة

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٢ .

(ذكر ابن الأثير أنَّ من جملة أسرى المسلمين فى يد الصليبيين فى هذه المعركة الفقيه عيسى الهكارى ، وهو من أعيان الأسدية ، وبقى سنين فى الأسر ، وافتداه صلاح الدين بستين ألف دينار (الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٦) .

(٢) وهى القلعة التى عُرفت فى نهاية القرن السابع الهجرى باسم «حصن جسر بنات يعقوب ، الواقع بين طبرية وصفد من ناحية الجنوب ودمشق من ناحية الشمال .

(٣) يقول ابن الأثير عن شجاعة همفرى : «وما أدراك ما هنفرى ، كان يُضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين - الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٩٣ .

الصليبيين فى معركة دارت بينهما ، ونجا ملك بيت المقدس بصعوبة من القتل بعد أن أصيب بإصابات بالغة فى حين قُتل فيها همفرى .

ولم يلبث صلاح الدين عقب احراز ذلك النصر أن شرع مباشرة فى حصار حصن بيت الأحزان وتخريبه سنة ٥٧٥ هـ (أواخر مايو سنة ١١٧٩م) ، ثم انصرف عنه بعد قليل ، وعاد بالغنائم والأسرى إلى بانياس . وتجهز صلاح الدين بعد ذلك لحصار الحصن ، فسار إليه فى شهر ربيع الأول وأحاط به ، وسقط الحصن فى يده (يوم الخميس ٢٤ ربيع الأول) و ودخل المسلمون الحصن عنوة ، وأسروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين. وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج وأرسل الباقين ليسجنوا بدمشق . وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالأرض[1] . وأما الصليبيون فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن ، فلمَّا أتاهم الخبر بأخذ صلاح الدين له ، فت ذلك فى أعضادهم ، فتفرقوا إلى بلادهم .

ودخل صلاح الدين فى معركة حامية مع بلدوين الرابع سنة ٥٧٥ هـ (يونيو ١١٧٩م) قرب تل القاضى بسهل مرجعيون ، انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً باهراً ، نجا منها الملك الصليبى بصعوبة للمرة الثانية . ثم أغار صلاح الدين ، بعد ذلك ، على صور وصيدا وبيروت وعكا . وإزاء هذه الضربات الموجعة المتتالية التى وجهها صلاح الدين لملك بيت المقدس ، اضطر هذا الملك إلى طلب عقد الهدنة مع صلاح الدين . ووافق صلاح الدين على عقد هذه الهدنة معه سنة ٥٧٦ هـ (مايو ١١٨٠م) . كذلك اضطـر ، أمير طرابلس ، ريموند الثالث إلى عقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين بعد ما هاجم أسطوله انطرسوس وأنزل بها خسائر كثيرة .

ولقد رأى صلاح الدين أن يوقف هجماته ، مؤقتًا ، ضد الصليبيين ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٩٦ .

خصوصًابعد أن وصل إليه قيام محاولات للتحالف بينهم وبين البيزنطيين . كذلك بسبب رغبته فى الاستحواذ على حلب والموصل لتأمين جبهة العراق إذا ما شرع فى الحرب الفاصلة بينه وبين الصليبيين .

ولقد حدثت تطورات فى الموصل وحلب سنة ٥٧٦-٥٧٧هـ (١١٨٠-١١٨١م) ، إقتضت ضرورة تدخله فى أمورهما ، وذلك بعد وفاة أتابك الموصل سيف الدين غازى[١] (٥٧٦ هـ) ، ثم لحق به أتابك حلب الصالح نور الدين إسماعيل . وقد أدى تخوف أمراء الموصل من أطماع صلاح الدين إلى حرمانهم أبناء غازى من أن يرثوا مُلك أبيهم ، لصغر سنهم ، فاستدعوا عز الدين مسعود ، أخا غازى ، لتولى أتابكية الموصل ، لكبر سنه وشجاعته ورجحان عقله[٢] . وكان الملك الصالح إسماعيل قد أوصى ، وهو على فراش الموت ، بأن يخلفه ابن عمه الأمير عز الدين مسعود فى حلب أيضًا، وبذلك جمع مسعود بين حلب والموصل فى جبهة واحدة فى مواجهة صلاح الدين . ومن المعلوم أنَّ هذه الأمور لم ترق لصلاح الدين ومشروعه الخاص بتوحيد الجبهة الإسلامية فى العراق والشام ومصر لمحاربة الصليبيين وجهادهم .

وفى الوقت الذى كان يتدبر فيه صلاح الدين أمره سياسيًا وعسكريًا فى مصر استعدادًا للمجابهة الكبرى الفاصلة مع الصليبيين . كانت أحوال الصليبيين تسوء يومًا بعد يوم ؛ فصحة الملك بلدوين الرابع ، كانت آخذة فى التدهور ، وقد شارف على الموت دون أن يخلِف وراءه وريثًا للعرش[٣] .

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠٠ (وهو سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، صاحب الموصل والجزيرة ، وكان مرضه بالسل ، توفى وعمره نحو ثلاثين سنة) .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠١ .

(٣) فوَّض الملك بلدوين الرابع ، صهره جاى لوزجنيان Guy Losignian ليكون حاكمًا فعليًا لمملكة بيت المقدس الصليبية ، بينما يحتفظ هو بالإسم فقط . وكان جاى قد تزوج من سيبيلا Sibylle أخت الملك بلدوين الرابع ، وبذلك أصبح له أحقية تتويجه ملكًا على بيت المقدس .

وتدهورت أيضًا أحوال إمارة أنطاكية بتدهور أحوال حاكمها بوهيموند الثالث ، الذى استسلم لشهواته ونزواته . كذلك فقدت الامبراطورية البيزنطية ، الامبراطور مانويل كومنين ، حليف الصليبيين ، الذى توفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠م) . وقد قام وريثه فى الحكم و الكسيوس كومنين الثانى (٥٧٦-٥٧٩هـ / ١١٨٠-١١٨٣ م) بعقد مصالحة مع صلاح الدين ، غداة توليه الحكم ، مما يدل على التغير الواضح الذى طرأ على سياسة بيزنطة تجاه المسلمين وتجاه الصليبيين فى بلاد الشام[1] .

وفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠م) ، توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، صاحب الموصل وديار الجزيرة[2] ، وصار الحكم من بعده لأخيه عز الدين مسعود بن مودود ، دون ابنه معز الدين سنجرشاه الطفل الذى كان يبلغ من العمر آنذاك اثنتى عشر سنة . وكان مسعود شجاعًا عاقلاً قوى النفس . وفى هذه السنة سار صلاح الدين من الشام إلى ملطية وسنواس وقونية من بلاد قلج أرسلان ليحاربه ، بسبب استنجاد صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر به من قلج أرسلان ، بعد أن هادن صلاح الدين الصليبيين . فلمّا اقترب صلاح الدين من قلج أرسلان ، أرسل إليه أكبر أمرائه يوضح له حقيقة الخلاف بينه وبين صاحب حصن كيفا . وقد رأى صلاح الدين الحق مع قلج أرسلان ، فأصطلح معه وعاد إلى بلاده دون قتال[3] .

وبعد أن فرغ صلاح الدين من أمر قلج أرسلان قصد حرب الأرمن لمحاربة

(١) ذكر المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٢) أنّه فى شهر صفر سنة ٥٧٦ هـ ، قدم رسول ملك القسطنطينية إلى القاهرة فوقع صلحًا مع صاحبها وأطلق فى جمادى الآخرة مائة وثمانين أسيرًا من المسلمين .

(٢) توفى وعمره حينئذٍ نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر ، ولمّا اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لإبنه سنجرشاه وكان عمره عندئذٍ اثنتى عشر سنة فخاف عليه وعلى الدولة من صلاح الدين وجعلها لأخيه عز الدين (ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٠ ، ١٠١) .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ ١٠ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

«ابن ليون الأرمنى» ، بسبب غدره بقوم من التركمان كان قد استمالهم للإقامة ببلاده ، وبعد أن استقروا فيها قام بأسر رجالهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله . فنزل صلاح الدين على (النهر الأسود) وبث الغارات على بلاده ، فأرسل ابن ليون يطلب الصلح على أن يطلق من عنده من الأسرى وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده . فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، واستقر الحال ، وأطلق الأسرى وأعيدت أموالهم ، وعاد صلاح الدين عنه فى جمادى الآخرة[1] .

وفى هذه السنة تُوفى شمس الدولة تورانشاه ، الأخ الأكبر لصلاح الدين بالاسكندرية التى كانت اقطاعًا له ، وكانت له أكثر بلاد اليمن . ولمَّا بلغ صلاح الدين خبر وفاته سار إلى مصر فى شعبان من نفس العام ، واستخلف بالشام عز الدين فرخشاه ، ابن أخيه شاهنشاه ، نائبًا عنه بها .

وفى صيف سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١م) قام الأمير رينودى شاتيو ، المعروف عند العرب باسم البرنس أرناط[2] ، صاحب حصنى الكرك والشوبك (ببلاد الأردن) ، وخرج على رأس قوة من رجاله وتوغل فى صحراء جزيرة العرب حتى وصل إلى واحة تيماء ، الواقعة فى منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة . وقد قصد أرناط أن يزحف ، بعد ذلك ، من تيماء إلى المدينة المنورة ذاتها للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة . وقد تناسى أرناط ، بغارته هذه، أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس . وقد أفزعت تلك الغارة بلاط بيت المقدس ، لأنها عكرت صفو السلام مع صلاح الدين ، وهو سلام كانت مملكة بيت المقدس شديدة الحاجة إليه آنذاك .

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) كانت قد سبقت الإشارة إلى وقوع أرناط هذا أسيرًا فى يد المسلمين سنين طويلة قضاها فى قلعة حلب، وعندما أطلق سراحه سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) تزوج من وريثة صاحب الأردن مما مكنه من أن يرث عن أبيها الأردن وحصنى الشوبك والكرك

ولمّا علم الأميرعز الدين فرخشاه ، ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق ، بأمر هذه الغزوة التى قام بها أرناط ، سارع إلى غزو الأردن وتخريب أعمال الكرك ونهبها ؛ مما جعل أرناط يعجل بالعودة إلى إمارته للدفاع عنها ووقف مشروعه العدوانى بغزو أراضى المسلمين المقدسة ، بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلب منها ثروة ضخمة . ولمّا علم فرخشاه بعودة أرناط إلى بلاده فك حصاره للكرك وعاد إلى دمشق[١] .

ولقد غضب صلاح الدين من تصرف أرناط ونقضه للهدنة المعقودة بينه وبين الصليبيين ، وأرسل إلى ملك بيت المقدس يطلب منه رد ما سلبه أرناط من المسلمين ومن قافلتهم التجارية . فأرسل الملك بلدوين الرابع (المريض) إلى أرناط يطلب منه ذلك ؛ لكن أرناط امتنع عن رد أى شىء استولى عليه من المسلمين . وصادف أن غرقت سفينة تجارية مسيحية فى ساحل دمياط ، كان عليها بعض الحجاج المسيحيين ، فأخذهم صلاح الدين رهينة حتى يطلق أرناط ما بيده من أسارى المسلمين[٢] .

وأخيراً ، غادر صلاح الدين مصر إلى الشام فى خامس المحرم سنة ٥٧٨هـ (مايو ١١٨٢م) ، وكانت هذه آخرة مرة يرى فيها صلاح الدين وجه القاهرة ، إذ قدر له أن يظل بعدها ببلاد الشام حتى وافاه الأجل هناك بمدينة دمشق[٣] . وقد دخل صلاح الدين دمشق يوم الاثنين (١٧ صفر) ، فأقام بها لبعض الوقت ، ثم أغار على طبرية ، وقاتل الصليبيين عند حصن كوكب[٤] ، ثم عاد إلى دمشق (يوم ١٤ ربيع الأول) . وكان عز الدين فرخشاه قد خرج

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٨ .

- المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٧٧ .
- (قدر المقريزى عدد الأسرى بألف وستمائة وتسعون نفسًا سوى من غرق) .

(٣) المقريزى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٧ .

(٤) قلعة حصينة بالجبل المطل على مدينة طبرية (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٢٨) .

من دمشق ، وأغار على طبرية وعكا وشقيف أرنون[1] ، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم .

وخرج صلاح الدين ، فى نفس العام ، من دمشق يريد حلب ، فنزل عليها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى ، ونازلها ثلاثة أيام ، ثم رحل إلى الفرات ، فخيَّم على غربى البيرة ، ورحل إلى الرها فتسلمها ، وسار عنها إلى حران وقام بترتيب أمورها ، ثم انفصل عنها إلى الرقة فملكها وما حولها ، ونازل نصيبين حتى ملكها وملك قلعتها . فورد الخبر بقصد الفرنج دمشق ونهبهم القرى ، فسار ونازل الموصل يوم الخميس حادى عشر رجب ، وألح فى القتال فلم ينل غرضًا ، ورحل يريد سنجار ، فنازلها وضايقها وتسلمها بالأمان ، وأعطاها لابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر ، ورحل إلى نصيبين، ثم حران ، ثم آمد يوم السابع عشر من ذى الحجة[2] .

على أن صلاح الدين عاد من نزاله فى جبهة العراق ليواصل نشاطه فى شمال الشام ، وترْك حصار الموصل ليبدأ حصار حلب . ولم تكن عند أتابك حلب ، عماد الدين زنكى الثانى ، شجاعة ودهاء أخيه عز الدين أتابك الموصل. ذلك أنَّ صلاح الدين ما كاد يحاصر حلب حتى ارتبك عماد الدين ولم يقم بطلب النجدة لا من أخيه ولا من الصليبيين . وقد ارتأى بالتنازل لصلاح الذين عن حلب مقابل إعطائه سنجار ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وزاده على سنجار أن أعطاه الخابور ونصيبين والرقة وسروج[3] . وهكذا تمت الصفقة واستولى صلاح الدين على حلب فى شهر المحرم سنة ٥٧٩ هـ (١٢ يونيو ١١٨٣م) . ولم تلبث حامية حارم ، التابعة لحلب ، أن استسلمت

(١) قلعة حصينة قرب بانياس ، من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل (ياقوت : نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠) .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦١٣

مختارة لصلاح الدين وسلمته القلعة بعد إثنتى عشر يومًا ، وبذلك سيطر صلاح الدين على حلب وحارم فى مدى شهر واحد(١) . وعاد صلاح الدين إلى دمشق فى ثالث جمادى الأولى ، ثم خرج منها يريد فتح حصن الكرك ، فحاصره وضربه بالمجانيق ، ثم ترك حصاره ، وسار إلى نابلس ، وقام بتخريبها ، ومنها سار إلى سبسطية(٢) ، ثم إلى جنين وقام بنهبها ، ثم عاد إلى دمشق(٣) .

وفى شهر ذى القعدة من نفس العام ، سار صلاح الدين لحصار الموصل ، للمرة الثانية ، يريد فتحها ، فوصل إلى حلب ، ثم عبر إلى أرض الجزيرة ووصل إلى حران ، وسار منها إلى الموصل ، وهو موقن بسهولة الاستيلاء عليها لضعف أمر حاكمها عز الدين مسعود . إلا أن المدينة قاومته بما جاءها من نجدات من الجزيرة ، فارتأى صلاح الدين رفع الحصار عن الموصل والسير إلى ميافارقين فسار إليها واستولى عليها فى جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م). ولما فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين ، أحكم قواعدها ، عاد إلى الموصل ، عن طريق نصيبين ، فوصل إلى «كفر زمار» ، من أعمال الموصل ، وأقام بها شهرى شعبان ورمضان . وترددت الرسل بينه وبين صاحبها عز الدين مسعود ، وعاد صلاح الدين إلى حران ، بسبب مرضه ، وهنالك جاءه رسل حاكم الموصل بطلب الصلح ، فوافقهم على ذلك . وتقرر الصلح بينهما على أن يسلم عز الدين إلى صلاح الدين «شهرزور» وأعمالها وولاية «القرابلى» ، وجميع ما وراء نهر الزاب من أعمال ، وأن يخطب لصلاح الدين على منابر بلاده وأن يُضرب اسمه على السكة(٤) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) بهذه البلدة يوجد مشهد زكريا عليه السلام .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

وبعد أن أتم صلاح الدين الصلح مع عز الدين مسعود ، حاكم الموصل ، وأمّن نفسه من ناحية جبهة العراق ، إتجه إلى حران يتمرض بها ، حتى عوفى من مرضه وعاد إلى دمشق فى المحرم من سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦م) . وعند ذلك الوقت تخوف الصليبيون من اتساع ممتلكات صلاح الدين وادراكهم متانة الجبهة التى يقويها لمنازلتهم فى مصر والشام والعراق ، وترقبهم للدخول معهم فى حرب فاصلة حاسمة . فقد عمل صلاح الدين على تنمية موارد مصر وصارت تحت تصرفه ، كذلك صارت دمشق وحلب فى قبضة يده ، ولم يعد من حوله عدو خطير يخشى بأسه إذا هو قاتلهم . فالخليفة العباسى فى بغداد يؤيده فى كل ما يفعل وخصوصًا فيما يتصل بأمر مجاهدة أعداء الدين ، وأتابك الموصل صار تابعًا له ، وسلطان سلاجقة الروم يخطب وده ، والامبراطورية البيزنطية أخذت موقف الحياد من مشروع الحروب الصليبية بعد مصالحتها له . ولذلك كله لم تكن هنالك أى عقبة أمام إعلان صلاح الدين الجهاد ضد الصليبيين ، بعد أن أعد للأمر عدته امتثالاً لقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾[1] .

ثانيا : موقعة حطين واسترداد بيت المقدس من يد الصليبيين :

اضطراب أحوال مملكة بيت المقدس :

فى الوقت الذى ازدادت فيه قوة صلاح الدين ، ونجاحه فى تدعيم جبهة النضال الإسلامى وحشد الحشود وإعداد العُدة للعمل المقدس العظيم ، وهو دفع العدوان عن ديار الإسلام ودحر الاستيطان الصليبى فى بلاد الشام ودفع

(١) الأنفال : ٦٠ .

ذلك الخطر عن مصر وسائر بلاد المسلمين ؛ كانت مملكة بيت المقدس الصليبية تعانى التدهور والانهيار . فلقد اشتد المرض بمليكها بلدوين الرابع ، الذى كان مريضًا بالجذام وعاجزًا عن الحركة[1] . ولَمَّا توفى الملك ، تولى الوصاية على المملكة صهره وزوج أخته «جاى لوزيجنان» ، الذى صار الحاكم الفعلى للمملكة. وكان صاحب طرابلس «ريموند» ، قد تزوج من صاحبة طبرية ، وانتقل إليها وأقام عندها بطبرية ، وقد ساءه استئثار لوزيجنان بالسلطة فى المملكة وعظُم الأمر عليه ، فما كان منه إلا أن راسل صلاح الدين يستنجد به ويطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه فى تملك إمارة بيت المقدس الصليبية . ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد ، «وضمن له أنه يجعله ملكًا مستقلاً للفرنج قاطبة»[2] .

وكان عند صلاح الدين جماعة من فرسان صاحب طرابلس أسرى ، فأطلق سراحهم ، فحلَّ ذلك عنده أعظم محل ، فاختلفت بذلك كلمة الصليبيين وتفرق شملهم ، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم[3] . وسيَّر صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج ، وعادت سالمة غانمة ، فوهن الصليبيون بذلك وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم[4] .

الحملات الصليبية على البحر الأحمر:

أرناط ومهاجمة الحرمين الشريفين:

وفى تلك الأثناء أقدم أرناط ، صاحب حصن الكرك ، على خطوة جريئة

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤١ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤١ .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٢ .

(٤) هاجم صلاح الدين بيسان واستولى عليها بسهولة ، وعند عين جالوت استولت قواته على امدادات كانت آتية من الأردن والكرك والشوبك لمساعدة جيوش المملكة .

فى الصراع بين المسلمين والصليبيين سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١م) ، استهدف به فتح جبهة جديدة فى المشروع الصليبى على بلاد المسلمين بمحاولته فرض سيادة الصليبيين على البحر الأحمر وعلى سواحله المصرية والحجازية وقطع طريق الحج والتجارة عن المسلمين ، ومنعهم أداء الفريضة المقدسة إلى البيت الحرام ؛ كذلك حرمانهم من مصدر الدخل الهام العائد عليهم من الإتجار فى هذا البحر، الذى كان يمثل الشريان الحيوى للتجارة العالمية بين الشرق والغرب .

ولقد تحدث ابن الأثير عن عداوة أرناط وكراهيته للإسلام والمسلمين ، وعن عدوانه المستمر على ديار الإسلام بقوله : «كان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج ، وأخبثهم ، وأشدهم عداوة للمسلمين ، وأعظمهم ضررًا عليهم . فلمّا رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرَّةً بعد أخرى ، فذَلّ وخضع ، وطلب الصلح من صلاح الدين فأجابه إلى ذلك ، وهادنه وتحالفا . وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام . فلمّا كان هذه السنة (٥٨٢هـ) إجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الجند ، فغدر اللعين بهم ، وأخذهم عن آخرهم ، وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وأودع السجون من أسر منهم . فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبِّح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال ؛ فلم يجب إلى ذلك ، وأصر على الامتناع ، فنذر صلاح الدين نذرًا أن يقتله إن ظفر به»[1] .

وقد بدأ أرناط غزوه للبحر الأحمر حين أعد أخشابًا من عسقلان وحملها على الجمال حتى ميناء أيلة (إيلات الحالى) ، على خليج العقبة[2] ، وقام باحتلال هذا الميناء . وبنى أسطولاً يتكون من خمس سفن كبيرة فى هذا الميناء وعددًا آخر من السفن الصغيرة ، وأبحر فى مياه البحر الأحمر بهدف الاستيلاء

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٢ .

(٢) Kammerer : La Mèr Rouge à travers les ages, T. I., Le Caire 1929, p. 23.

على المدينتين المقدستين : مكة والمدينة[1] . وكانت محاولة أرناط هذه أول محاولة اعتداء أوربية فى مياه هذا البحر ، ويقول المقريزى بصدد ذلك «وأحدثوا حوادث لم يُسمع فى الإسلام بمثلها ، ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع»[2] . وقد حمل أرناط فى سفنه قرابة من ألف فارس[3] .

وقد فشلت هذه الحملة الأولى التى قام بها أرناط فى البحر الأحمر ؛ بعد أن توقفت قواته عند واحة تيماء ، بسبب عدم قدرتها مواصلة السير فى الصحراء بسبب شدة حرارة الشمس وقلة ما لديهم من مياه[4] . كذلك بسبب إسراع عز الدين فرخشاه ، نائب صلاح الدين فى مصر وابن أخيه ، إلى القيام بحصار أعمال الكرك ونهبها ؛ مما اضطر أرناط وأرغمه على العودة لإنقاذ إمارته[5] .

وفى العام التالى ٥٧٨ هـ (١١٨٢م) أعد أرناط حملة ثانية ، وتحول نشاطه المعادى هذه المرة إلى قلب البحر الأحمر نفسه ، وهاجم أسطوله ميناء «عيذاب» ، على الساحل المصرى ، ونهبوا إحدى القوافل التجارية التى كانت تعبر صحراء عيذاب متجهة إلى قوص[6] . وقد أورد الرحالة الأندلسى «ابن جبير» تفاصيل ذلك الهجوم على عيذاب فى كتاب رحلته الشهير[7] ، وذكر أن الصليبيين وصلوا إلى عيذاب ، بعد أن استولوا على ميناء أيله ، وأوقفوا فيها مركبين عند جزيرة القلعة ، ومنعوا الناس استقاء الماء ، ومضى الباقون فى

---

(١) Attiya A.S. : Crusade, Commerce and Culture, London 1962, p. 77.

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٩ .

(٣) Newbold : The Crusaders in the Red Sea SNR, XXVI, Part II, London 1945, p. 221.

(٤) Rushbrook : Western Arabia, and the Red Sea, Oxford, 1946, p. 245.

(٥) عطية القوصى : تجـارة مصر فى البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٥٤ ، نقلاً عن ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٥ .

(٦) أحمد دراج : عيذاب ، مقال بمجلة نهضة افريقية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٨ .

(٧) ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٤ .

مراكبهم إلى عيذاب ؛ فقطعوا طريق التجارة وشرعوا فى القتل والنهب والأسر.

وأورد ابن جبير أنَّ الصليبيين أحرقوا فى مياه البحر الأحمر ستة عشر مركبًا، وأنهم أخذوا فى عيذاب مركبًا كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضًا ، فى البر ، قافلة تجارية كبيرة جاءت من قوص إلى عيذاب وقتلوا جميع من فيها . وأضاف ابن جبير ، بأن الصليبيين استولوا على مركبين كانتا مقبلتين لتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ساحل عيذاب كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، وذكر أنه لم يكن بين الصليبيين وبين المدينة النبوية المنورة سوى مسيرة يوم واحد وأنهم مضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية . وأنَّ هدف شخوصهم إلى تلك البقاع المقدسة دخول مدينة الرسول ﷺ وسرقة جسده الطاهر[1] . وقام أرناط ، بعد هجومه على عيذاب ، بمهاجمة الساحل الحجازى تجاه المدينة المنورة ، وتوغلت سفنه فى البحر الأحمر قاصدةً مياه عدن ؛ بقصد الاستيلاء على هذا الثغر الإسلامى الهام ، عند مدخل البحر الجنوبى ، والذى كان مركز تجار الكارمية[2] .

وقد أوضح صلاح الدين ، نوايا الصليبيين العدوانية على ديار المسلمين ومقاصدهم الشريرة بقوله فى الخطاب الذى أرسله للخليفة العباسى بخصوص هذه الهجمة الصليبية الشرسة على الأراضى المقدسة بقوله : «.. وأمَّا الطريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر أن يمنع الحاج عن حجه ويحول بينه وبين فجه ، وأخذ تجار اليمن وأكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح المحارم ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم»[3] .

(1) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٤ .

(2) عن تجارة الكارم ، انظر للمؤلف كتاب تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٩١-١٢٣ .

(3) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٣٧ ، كان هذا الكتاب بخط كاتبه القاضى الفاضل .

وكان قواد سفن الصليبيين يستخدمون المجاديف فى تسيير سفنهم ، فكانت تسير ، لذلك ، فى البحر أسرع من سفن المسلمين التى كانت تستخدم الشراع دون المجاديف[1] . فكتب صلاح الدين إلى أخيه العادل أبى بكر ، نائبه فى مصر ، بأن يرسل حملة سريعة لمطاردة سفن الصليبيين . و،أسرع العادل بإرسال الأسطول بقيادة الحاجب «حسام الدين لؤلؤ» ، متولى الأسطول بديار مصر ، لمطاردة الأسطول الصليبى . فسار حسام الدين من ميناء القلزم (السويس) إلى أيلة ، فظفر فيها بمركبين من مراكب الصليبيين راسيتين بساحلها؛ فأحرقهما ، وأسر من فيهما ، ثم سار إلى عيذاب ، ولمَّا لم يجد فيها أحدًا من الفرنج ؛ سار فى البحر ، متتبعًا أثر مراكبهم ، فوقع بها ، بعد أيام ، عند «رابغ» ، بالساحل الحجازى ، واستولى عليها ، وأطلق منْ فيها من التجار المأسورين ورد عليهم ما أُخذ لهم . وصعد البر ، فركب خيل العرب حتى أدرك من فرَّ من الفرنج وأخذهم . ويقول المقريزى عن نهاية هؤلاء الغزاة المنهزمين : «فساق منهم اثنين إلى منى ونحرهما بها كما تُنحر البُدن ، وعاد بالأسرى إلى القاهرة فى ذى الحجة فضربت أعناقهم كلهم»[2] .

ولقد قُدر عدد أسرى الصليبيين بمائة وسبعين أسيرًا[3] ، فُرقوا على البلاد ليُقتلوا بها ، وقد شهد ابن جبير ، وهو فى مدينة الاسكندرية ، عددًا من هؤلاء الأسرى، وهم فى طريقهم إلى القتل، وسجل ذلك فى كتاب رحلته[4]. ورغم فشل محاولتى عدوان أرناط الصليبى على البحر الأحمر وعلى الأماكن المقدسة ؛ فإن الصليبيين لم ينصرفوا بعد ذلك الفشل عن التفكير فى تهديد

(١) De Gaury : Rulers of Mecca, London 1951, p. 80.

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٩ .
(ذكر ابن واصل أنَّ هذا النحر تم يوم عيد الأضحى العاشر من ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ - مفرج الكروب ، ص ١٣١) .

(٣) Rushbrooke : Western Arabia, p. 245.

(٤) رحلة ابن جبير ، ص ٣٤ .

طريق الحج والتجارة عبر هذا البحر بقصد إضعاف دولة الإسلام[(١)] .

وبسبب أفعال أرناط الطائشة هذه ، وتجرؤه على مهاجمة مقدسات المسلمين ، ونقضه الهدنة مع صلاح الدين ، نذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به[(٢)] . وقد نبَّه عدوان أرناط هذا صلاح الدين إلى الخطر الذى يهدد دولته من ناحية الكرك ووادى عربه ، وهى المنطقة الاستراتيجية الهامة والتى تربط بين مصر والشام والحجاز ، والتى من يتملكها يتحكم فى طريق التجارة والحج إلى الأراضى المقدسة . لذلك قرر صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م الخروج لحصار الكرك والقضاء على أرناط ، وإزالة ذلك المانع الذى يمثل شوكة فى جنب وحدة الجبهة الإسلامية لدفع العدوان عن ديار الإسلام .

ولقد كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد ، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان . «ثم خرج من دمشق أواخر المحرم فى عسكرها وحلقتها الخاص ، فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية ؛ فلمَّا اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل على ليجتمع إليه من يرد إليه منها ، وسار هو إلى بُصرى جريدة ، وكان سبب مسيره وقصده إليها أنه أتته الأخبار ، أنَّ البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم ، وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصرى يصدهم عن الوصول إلى صلاح

(١) فى سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م اقترح رئيس فرقة الداوية الصليبية على البابا بأن يوحى إلى كل المسيحيين بمقاطعة تجارة الشرق عبر البحر الأحمر وتحويل طريقها عن مصر إلى العراق التى كانت وقتذٍ تحت حكم المغول . ونادى الكاتب الصليبى المتعصب «غليوم آدم» بضرورة سد مدخل البحر الجنوبى بمساعدة قراصنة البحر الأحمر . وما حركة الكشوف الجغرافية فى التاريخ الحديث سوى حرب صليبية اقتصادية القصد منها اضعاف مصر الإسلامية والكشف عن طريق بديل لطريق البحر الأحمر يوصل إلى بلاد الهند والشرق الأقصى . (Kammerer : La Mèr Rouge, p. 23)

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٢ .

الدين ، فصار إلى بصرى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفًا عليه . وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين ، وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره[1] . فلمَّا سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه ، وانقطع عما طمع فيه ، فوصل الحجاج سالمين . فلمَّا وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرها ، فنهبوا وخربوا وأحرقوا ، والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده ، وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفًا من العسكر الذى مع ولده الأفضل فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين»[2] .

وكان صلاح الدين ، بعد اطمئنانه إلى وصول قافلة الحجاج سالمة ، قد شرع فى مهاجمة أرناط فى حصنه ، فسار إلى الكرك فى إثنى عشر ألف فارس ونازلها وقطع أشجارها ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك . وكان أرناط قد رسم خطته على أساس قطع الطريق على القوات الآتية من مصر ومنعها من الوصول إلى صلاح الدين ، لكن صلاح الدين أفسد خطته بتقدمه إلى الأمام وملاقاته العسكر المصرى قرب الكرك ، وقد حوصر أرناط فى الكرك بلا حول ولا قوة .

موقعة صفورية (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م):

كانت أحوال الصليبيين فى ذلك العام لا تبشر بالخير ، بسبب الانقسام الحادث فى صفوفهم آنذاك بسبب الصراع بين جاى لوزيجنان ، ملك بيت المقدس ، من ناحية وريموند ، صاحب طرابلس ، وبوهيمند أمير أنطاكية من ناحية أخرى ، وعدم التعاون بينهم . وتعدى ذلك إلى ما أنذر بالصدام بين

(١) ذكر أبو شامة (الروضتين ، جـ ٣ ، ص ٧٥) ، أنَّه كانت فى هذه القافلة إحدى أخوات صلاح الدين وابنها محمد بن عمر لاجين ، لكن ابن الأثير لم يذكر سوى الإبن .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

جاى لوزيجنان وريموند ، أمير طرابلس . ذلك أنَّ ريموند كان يمتلك مدينة طبرية ، بوصفه أميرًا على إقليم الجليل . فاعتصم بها عقب تتويج جاى ملكًا على بيت المقدس ، وعندئذ اتفق فرسان الداوية مع جاى على محاصرة طبرية وانتزاعها من ريموند[1] . وقد دفع ذلك الموقف من ملك بيت المقدس وفرسان الداوية ، إلى أن يلتجىء أمير طرابلس ، ريموند ، إلى محالفة صلاح الدين وطلب مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية .

ولقد رحب صلاح الدين بالتحالف مع أمير طرابلس ، فأمده بالمعونة اللازمة ، ثم سار صلاح الدين إلى بانياس ، القريبة من طبرية لمتابعة الموقف عن كثب ، فى الوقت الذى كان فيه ملك بيت المقدس يستجمع قواته فى بلدة الناصرة لمهاجمة طبرية وانتزاعها من يد أمير طرابلس . على أنَّ ملك بيت المقدس ، تراجع ، فى آخر الأمر عن الهجوم على طبرية ، بعد إقناع بعض أمراء الصليبيين له بضرورة تركيز جهوده على حرب صلاح الدين والمسلمين وليس محاربة أقرانه الصليبيين ، وقيامهم بالوساطة بالصلح بينه وبين أمير طرابلس حتى يلتئم الصف الصليبى فى مواجهة المسلمين .

وفى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) ، اعتزم صلاح الدين القيام بغارة على إقليم عكا ، الذى كان بيد الصليبيين ، فجهز جيشًا جعل قيادته لإبنه «الأفضل» ، وأمره بنهب ميناء عكا وتخريبه[2] . وانضم لهذا الجيش بقواته كل من صاحب حران والرها ، وهما من أكابر الأمراء ، وغيرهما من الأمراء . على أنه لكى تصل تلك القوة من يانياس إلى عكا ، كان لابد لها من إختراق إقليم الجليل . فاستأذن صلاح الدين أمير الجليل ، ريموند الثالث ، وقد كان آنذاك بطبرية ، أن يسمح لقواته بعبور الجليل للوصول إلى عكا . ولم يستطع ريموند الممانعة فى ذلك ، لما كان بينه وبين صلاح الدين من تحالف . ووصلت قوات صلاح

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٤ .

الدين بلدة صفورية ، أواخر شهر صفر . وهنالك اعترضت طريقهم قوات الداوية والاسبتارية وغيرهما من الصليبيين وعددهم خمسمائة . ودارت بين الطرفين حرب ، وصفها ابن الأثيربأنها «حرب تشيب لها المفارق السود»[1] لشدة ضراوتها واشتداد سعيرها . وقد قُتل فى هذه المعركة عدد كبير من الصليبيين وأُسر عدد كبير ، وكان من جملة القتلى مقدم الاسبتارية ، «وكان من فرسان الفرنج المشهورين ، وله النكايات العظيمة فى المسلمين»[2] . ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين ، وكان عودهم بطريق طبرية ، وبها ريموند ، الذى لم ينكر ذلك ، فكانت موقعة صفورية فتحًا كبيرًا وانكسارًا عظيمًا لفرسان الداوية والاستبارية الصليبيين ، الذين وصفهم ابن الأثير بأنهم «جمرة الفرنج»[3] ، وقد سقط فيها معظم الصليبيين ما بين قتيل وأسير . ولم ينج من الخمسمائة فارس صليبى سوى القليل ، من بينهم مقدم الداوية . وعندما سارعت قوة صليبية لعون إخوانهم، كان المسلمون قد حسموا الأمر وأنهوا المعركة لصالحهم .

ولَمَّا أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الداوية والاستبارية (فرسان المعبد) ، وتركهم بين قتيل وأسير ، عاد عن الكرك إلى العسكر الذى مع ولده الملك الأفضل عند «الأقحوانة» ، بالقرب من طبرية[4] . وقد وافتهم هنالك جموع العساكر والأمراء ، وبلغت عدتهم اثنى عشر ألف فارس ، بخلاف أعداد المتطوعة . وكانت محالفة ريموند ، كونت طرابلس لا تزال متصلة مع صلاح الدين . لكن ، بعد هذه الهزيمة التى لحقت بالصليبيين فى صفورية ، قام البطريرك والقسوس والرهبان وكثير من الفرسان بمراسلة ريموند الثالث ،

(١) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٤ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٤ .

(٤) طبرية ، بلدة مطلة على بحيرة طبرية بالأردن .

وأنكروا عليه تحالفه مع صلاح الدين ، وشككوا فى نصرانيته وعدم استنكاره بما حل بالداوية والاستبارية من هزيمة وخزلان على يد المسلمين ، وقد وافقهم على ذلك عساكره فى طبرية وطرابلس . وقام البطريرك بتهديده بالحرمان من غفران الكنيسة ، وفسخ اقترانه بزوجته إلى غير ذلك من التهديدات .

فلمّا رأى ريموند شدة الأمر عليه ، خاف واعتذر وتنصل عن معاهدته لصلاح الدين والمسلمين وأعلن لهم توبته ، فقبلوا عذره وغفروا له ذلته ، وطلبوا منه الاتفاق معهم على حرب المسلمين ومؤازرة الصليبيين فى الحفاظ على ما تملكوه من بلاد فى الشام . فأجابهم إلى ذلك وسار إلى ملك بيت المقدس ليثبت صدق توبته ورجوعه ، فاجتمعت بذلك كلمة الصليبيين بعد فرقتهم ، ولم تغن عنهم من الله شيئًا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا إلى صفورية ، «وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وقد ملئت قلوبهم رعبًا»[1] .

ولَمَّا اجتمع الصليبيون عند مرج صفورية بأرض عكا ، وسار ريموند الثالث إلى جاى لوزيجنان ، ملك بيت المقدس نادمًا ، وارتضى أن يسير تحت رايته لمحاربة المسلمين ، علم صلاح الدين بذلك وأدرك أنَّ ريموند نقض الهدنة والاتفاقية المعقودة بينهما ، لذلك قام بجزء من قواته بمهاجمة مدينة طبرية ، وهي من أملاك أمير طرابلس ، يوم الخميس ، الثالث والعشرين من ربيع الآخرة ٥٨٣ هـ (أوائل يوليو ١١٨٧م) وقام بإحراقها عدا قلعتها المتينة[2] ، التى استعصى فتحها على المهاجمين . وكانت أميرة طرابلس ، زوجة ريموند الثالث (إشيفا) داخل القلعة .

ولقد قصد صلاح الدين بالهجوم على طبرية ، إجبار الصليبيين على ترك مواقعهم الحصينة فى صفورية وتلالها ، والنزول إلى الوادى لتخليص طبرية ،

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٥ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦١ .

وأن يصلوا إليه متعبين منهكين لا قدرة لهم على القتال . وقد خاف ريموند على زوجته ، لكن فى نفس الوقت خاف أكثر من ترك الصليبيين لمواقعهم الحصينة والنزول إلى الوادى للقاء قوات المسلمين ، ومنعهم من ذلك قائلاً فى إجتماعهم للمشورة : «إنَّ طبرية لى ولزوجتى ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقى القلعة وفيها زوجتى وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى وما لنا بها ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديمًا وحديثًا ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقنا وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم ؛ فيضطر إلى تركها ، ونفتك منْ أسر منا»[1] .

هذا ولم يعجب قول أمير طرابلس أرناط ، صاحب الكرك ، الذى كان توافًا للحرب ، فقال له محتجًا : «لقد أطلت فى التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وإلا ما كنت تقول هذا . وأمًّا قولك إنهم كثيرون ، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب» ، فرد ريموند على أرناط بقوله : «أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون»[2] . فقوىً عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم ، فارتحلوا من معسكرهم الذى التزموا به ، واقتربوا من معسكر المسلمين . فلمًّا سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء ، وكان الفصل صيفًا شديد الحرارة ، فأصاب الصليبيين العطش ، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين ، وكان الماء الذى فى صهاريجهم قد نفد ، ولم يتمكنوا من الرجوع عن موضعهم الجديد ، خوفًا من المسلمين ، فبقوا على حالهم إلى الغد ، وهو يوم السبت ، وقد أخذ العطش منهم .

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٦ .

وعن المسلمين فيقول ابن الأثير عن وضعهم آنذاك : «وأمَّا المسلمون ، فإنهم طمعوا فيهم ، وكانوا من قبل يخافونهم ، فباتوا يحرض بعضهم بعضًا ، وقد وجدوا ريح النصر والظفر . وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخزلان زاد طمعهم وجرأتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم»[1] . ولقد أبدى صلاح الدين سروره وارتياحه عندما علم بزحف الصليبيين إليه وابتلاعهم الطعم الذى قدمه لهم دون أن يتدبروا أمرهم وقال : «جاءنا ما كنا نريد»[2] . وقد أمر صلاح الدين قواته بالتحرك غربى طبرية ، مسافة خمسة أميال ، والنزول بسهل حطين حيث يتواجد الماء والمرعى[3] . ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين ، وكانت فى يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) فى وسط نهار الجمعة ، وكان صلاح الدين كثيرًا ما يقصد لقاء العدو فى يوم الجمعة عند الصلاة ، تبركًا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر[4] .

موقعة حطين :

زحف الصليبيون ، بصعوبة ، من صفورية إلى حطين ، وكان الوقت صيفًا شديد الحرارة ، ووصلوا إلى سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين، وكان هذا السطح يُمثِل هضبة ، لها قمتان ، أطلق عليها العرب ، بسببهما ، قرون حطين . وعند وصول الصليبيين إلى تلك الهضبة كان قد بلغ بهم الإنهاك والتعب مبلغه واشتد بهم العطش حتى كاد يهلكهم ، وقد حال صلاح الدين وجيوشه بينهم وبين ماء بحيرة طبرية . وقد قضى الصليبيون

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٦ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٩٦ .

● ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) ذكر ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٦٢) أنَّ عند حطين قبر النبى شعيب عليه السلام .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣١ .

ليلتهم الأولى فوق الهضبة بعيداً عن خطر المسلمين ، وهم فى شدة العطش . وقام المسلمون بإشعال النيران فى الأعشاب والأشواك الكاسية للهضبة ، وقد ساعدت الريح على شدة اشتعالها ، «وحملت حر النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال»[1] .

وفى صباح يوم السبت (٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٤ يوليو ١١٨٧م) ركب المسلمون وركب الصليبيون ودنى بعضهم من بعض ، واقتتلوا أشد القتال، «ودام القتال حتى لم يبق إلا الظفر ، فحال الليل بينهم ، وناما على المصاف ، وتحقق المسلمون أنَّ من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم إلا القتال والجهاد . وأصبحوا من الغد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب ؛ وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد (الله أكبر) وألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين ، وكان حقًا علينا نصر المؤمنين»[2]. وصبر الفريقان ، ورمى جاليشية (رماة) المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر ، فقتلوا من خيول الصليبيين الكثير . وأشعل المسلمون النار حولهم وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر حتى كادوا يستسلمون للأسر خوفًا من القتل[3] . ولم يستطع النجاة من القتل فى هذه المعركة سوى ريموند الثالث ، أمير طرابلس ، الذى فر من المعركة إلى بلدة صور مع عدد قليل من رجاله ، ومنها إلى بلدة طرابلس .

أما بقية الصليبيين ، فقد آووا إلى جبل حطين ليعصمهم من الفناء ، فأحاط المسلمون بالجبل وظلوا يطاردونهم من أسفل وهم يتراجعون أمامهم فى إتجاه قرون حطين . وفى تلك الأثناء قُتل أسقف عكا الذى كان يحمل «صليب

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٧ .

قال أبو شامة فى ذلك : «فبلغوا أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام فى الاصطلاء والاصطلام . . نار الضرام الأعشاب) ونار الأوام (العطش) ونار السهام (الحرب)» (الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٧) .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٢ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٢ .

الصلبوت» المقدس[1] . وقد سقط الصليب منه ، مع سقوطه ، فاستولى عليه المسلمون ، وكان ذلك نذير هزيمتهم وفنائهم[2] . وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل ويتراجع الصليبيون من أمامهم وهم يتساقطون تساقط ورق الشجر فى الخريف ، حتى فنيت جموعهم ، ولم يبق منهم سوى مائة وخمسون فارسًا يحيطون بملك بيت المقدس . فقبض المسلمون عليهم وهم يكادون يموتون من الإنهاك والخوف وشدة العطش وأخذوهم أسرى . وكثُر القتل والأسر فى الصليبيين «فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدًا ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدًا»[3] . وكان من جملة الأسرى ملك بيت المقدس جاى لوزيجنان وأخوه، وأرناط، وابن الهنفرى النورماندى، وابن صاحب طبرية، ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية، وأما الباقون من المقدمين فقد قتلوا، «وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفًا على نفسه»[4] .

وكانت تلك أفدح الهزائم التى حلت بالصليبيين منذ قيامهم بمشروع حملاتهم ، ويؤكد ابن الأثير ذلك بقوله : «وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة»[5] وأورد ابن شداد يحكى عن خذلان الصليبيين واستسلامهم للأسر يوم حطين بقوله : «حكى لى منْ أثق به أنه لقى بحوران شخصًا واحدًا معه طنب (حبل) خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرًا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم»[6] .

ويواصل ابن شداد حديثه عن أحداث يوم حطين ، وقد كان ممن حضر المعركة وشارك فيها بقوله : «. . فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم .

---

(1) هو صليبهم الأكبر الذى يدعون أن به قطعة من الخشب الذى صُلب عليه المسيح ، حسب زعمهم .

(2) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ٢٣ .

(3) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٨ .

(4) ابن شداد : النوادر ، ص ٦٣ .

(5) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٨ .

(6) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٣ .

أما القومص (ريموند أمير طرابلس) ، الذى هرب فإنه وصل إلى طرابلس وأصابته ذات الجنب (إلتهاب الكلى) فأهلكه الله بها . وأما مقدم الاسبتار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم . وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إذا ظفر به قتله (لغدره بقافلة تجارية) وقوله ما يتضمن الاستخفاف بالنبى محمد ﷺ وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله . ولمَّا فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان فى دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت والناس يتقربون إليه بالأسر ومن وجدوه من المقدمين . ونصبت الخيمة وجلس فرحًا مسرورًا لما أنعم الله به عليه . ثم استحضر الملك جفرى وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك جفرى شربة من جلاب مثلج فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذى سقيته وأما أنا فما سقيته . وكان على عادة جميل العرب وكرم أخلاقهم أنَّ الأسير إذا أكل أو شرب من ماءِ لمن أسره أمِن بذلك جريًا على مكارم الأخلاق . ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضعٍ عُين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئًا ثم عادوا ، فاستحضرهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم وأقعد الملك فى الدهليز، واستحضر البرنس أرناط وأوقفه على ما قال وقال له : ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ . ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل ، ثم سل النِمجاة[1] (السيف الصغير) وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه مَنْ حضر وعجل الله بروحه إلى النار فأخذ ورُمى على باب الخيمة ، فلمَّا رآه الملك قد خُرِج به على تلك الصورة لم يشك أنه يُثنى به ، فاستحضروه وطيَّب قلبه وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ؛ أما هذا فقد تجاوز حده فجرى ما جرى»[2] .

وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور وأكمل حبور ، ترتفع أصواتهم

---

(١) النِمجاه : كلمة فارسية معربة ، تعنى الخنجر أو السيف الصغير أو السكين المنحنية .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح فى يوم الأحد . وفى ذلك اليوم عاد صلاح الدين إلى طبرية ونازلها ؛ فأرسلت صاحبتها ، زوجة ريموند الثالث ، تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها ، فأجابها إلى ذلك فخرجت بالجميع ووفىَّ لها ، فسارت آمنة ، ثم أمر صلاح الدين بالملك جاى لوزيجنان وجماعة من أعيان الأسرى ، فأرسلوا إلى دمشق . وأمر بمن أُسر من الداوية والاسبتارية أن يجمُعوا ليقتلهم . وطلب ممن عنده أسير منهم أن يحضره مقابل أخذه خمسين دينارًا مصريًا ، فأُحضر عنده ، فى الحال ، مائتا أسير منهم ؛ فأمر بهم وضربت أعناقهم ، وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم كانوا أشد شوكة من جميع الصليبيين ، فأراح الناس من شرهم[1] ، وسيق بقية الأسرى إلى دمشق[2] .

وقد قيلت قصائد كثيرة فى هذا النصر الكبير الذى تم للمسلمين يوم حطين، ومن تلك القصائد قصيدة نظمها العماد الكاتب الأصهانى . وهى قصيدة طويلة أوردها صاحب كتاب الروضتين مطلعها[3] :

يا يومَ حطــين والأبطــال عابســة	وبالعجاجــة وجــهُ الشمس قد عبسا
حططــت على حطــين قدر ملوكهم	ولم تُبقِ مــن أجناس كفرهــم جنسا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم	ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا
وقد طــاب ريانًا علـــى طبريــة	فيا طيبها ريًا ويــا حُسنهــا مرســى

كذلك قصيدة طويلة أخرى كتبها الشاعر ابن الساعاتى[4] ، بمناسبة هذا الفتح المبين مطلعها :

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٩ .

(٢) ذكر أبو شامة (الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٨٢) أنَّ عامة فرسان وجند الصليبيين بيعوا فى أسواق الرقيق ، وقد بلغ من كثرتهم أنَّ الأسير كان يباع فى دمشق بثلاثة دنانير ، وكان يُباع الرجل مع أسرته ، بيعة واحدة ، بثمانين دينارًا .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

(٤) هو الشاعر أبو الحسن على بن محمد، المعروف ببهاء الدين ابن الساعاتى، توفى بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ.

جلـــت عزماتـــك الفتـــح المبنّا فقـــد قـــرت عيـــون المؤمنينـــا

ولمَّا فرغ صلاح الدين من طبرية وتسلمها ، سار عنها ، يوم الثلاثاء إلى عكا ، التى كانت فى يد جوسلين الثالث ، أحد الفرسان الذين هربوا من حطين مع ريموند الثالث ، والتى وصلها يوم الأربعاء ، آخر شهر ربيع الآخر ، وقاتلها صباح يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) ، وأخذها . واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين ، وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير[١] ، واستولى على ما كان فيها من الأموال والذخائر والبضائع ، لأنها كانت محطة للتجار المسافرين عبر البحر (المتوسط) . ثم سار صلاح الدين من عكا ونزل «تبنين» ، بين دمشق وصور ، يوم الأحد (١١ جمادى الأولى)، وهى قلعة منيعة ، فحاصرها مدة أسبوع حتى أخذها ، ثم ارتحل عنها إلى صيدا وتسلمها . ثم ارتحل عنها إلى بيروت واستولى عليها بعد حصارها لمدة أسبوع ، ثم قصد ، بعد ذلك ، عسقلان ، ونزل عليها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة واستولى عليها بعد احتلال الصليبيين لها مدة خمس وثلاثون عامًا[٢] . وقد ترك صلاح الدين الحرية للصليبيين بالبقاء فى البلاد التى افتتحها أو الخروج فقصد معظمهم مدينة صور . ولمَّا تسلم صلاح الدين عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس «شمَّر عن ساق الجد والاجتهاد فى قصد القدس المبارك، واجتمع عليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل ، فسار بهم نحو القدس ، معتمدًا على الله تعالى ، مفوضًا أمره إليه ، منتهزًا الفرصة فى فتح باب الخير الذى حُث على انتهازه بقوله ﷺ : «من فُتح له بابُ خير فينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه»[٣] .

ولقد كان فى إمكان صلاح الدين الاستيلاء على القدس مباشرة بعد نصر

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٥ .

(٢) أخذ الصليبيون عسقلان سنة ٥٤٨ هـ واستردها صلاح الدين من أيديهم فى ذلك العام (٥٨٣ هـ) .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٦ .

حطين ، وكان ذلك يسيراً عليه ، حيث كانت القدس تفتقر آنذاك الجند المقاتلين والقيادة الرشيدة ، بعد هزيمة حطين . وقد آثر صلاح الدين الاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية ، ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالغرب الأوربى فيظلوا محصورين داخل بلاد الشام ، وبعد ذلك تتساقط فى يده المعاقل والمدن الصليبية فى الداخل بعد أن يتقطع الشريان الذى يربطها بقلب الحركة الصليبية ، وهو الغرب الأوربى . هذا فضلاً عن استيلاء صلاح الدين على تلك المدن الساحلية على البحر المتوسط سيوفر له سهولة الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام[1] .

استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين :

كان الصليبيون قد استولوا على القدس ، بعد فتحه الأول زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨م ، فى خلافة المستعلى بالله الفاطمى ، ووزارة بدر الجمالى . وقد أقام القدس بيد الصليبيين ، قرابة التسعين عامًا ، إلى يوم أن استرده صلاح الدين يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب (ليلة الإسراء والمعراج) سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م[2] .

وكان صلاح الدين قد استقبل ، وهو أمام عسقلان ، بعثة من أهل القدس ، فعرض عليهم تسليم المدينة مصالحةً ، دون اللجوء لفتحها عنوة ، وتعهد بأن يؤمنهم على أرواحهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، ويسمح لمن أراد منهم الخروج من المدينة أن يخرج سالمًا إلى حيث يريد . لكن غالبية أهل المدينة لم يرضوا الاستسلام ، وارتأى بعضهم[3] «أنَّ الموت أهون عليهم من أن

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٣٩ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .

يتملك المسلمون بيت المقدس»[١] . وكان بطريرك المدينة ، الزعيم لهذه المعارضة ومعه من نجا من الفرسان فى حطين ، ومع من انضم إليهم من أهل عسقلان ، فحثوا قواتهم للدفاع عن المدينة المقدسة .

وقد سمح صلاح الدين لأرملة الملك عمورى الأول ، ولغيرها من النساء من أراد الخروج منهن ومعهن أولادهن إلى طرابلس آمنين . وعاود صلاح الدين عرضه على أهل القدس بالاستسلام ، صيانةً لحرمة المدينة المقدسة من الدمار والتخريب ، لكنهم أصروا على المقاومة ؛ فما كان من صلاح الدين إلا أن إتخذ قراره بغزو المدينة . وأخذ يتحسس مواطن الضعف فى أسوار المدينة الحصينة حتى عثر على هذا الموطن الضعيف فى الجهة الشمالية ، عند باب عمود . وقام رجاله بنقب سور المدينة فى تلك الجهة يوم الأحد خامس عشر رجب[٢] . بعد أن رماه بالمجانيق . ودخلت قوات صلاح الدين داخل المدينة ، واقتتلوا مع أهلها أشد قتال ، أُستشهد فيه جماعة من المسلمين . وآخر الأمر أيد الله بنصره المؤمنين ، فطلب ، ساعتها ، أهل المدينة الأمان . فأعطاهم صلاح الدين الأمان ، بعد تمنع كثير منه بسبب عنادهم أول الأمر . وكانت شروط الصلح ، «أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية، سواء كان غنيًا أو فقيرًا ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل من الذكور والإناث دينارين ، ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار . وتسلم المسلمون القدس ، يوم الجمعة سابع عشرين رجب[٣] ، وأُخرج من فيه من الفرنج ، وكانوا نحو الستين ألفًا بعد ما أُسر منهم نحو ستة عشر ألفًا ما بين رجل وامرأة وصبى وهم ممن لم يقدر على شراء نفسه . وقبض السلطان من

(١) كان من أكثر المتحمسين لقتال المسلمين «باليان بن بيرزان» صاحب الرملة (ابن الأثير : الكامل، جـ ١٠، ص ١٥٤) .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٦ .

(٣) (٢ أكتوبر ١١٨٧م) .

مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية سوى ما أخذه الأمراء ، وما حصلت فيه الخيانة»[1] .

ولقد أُفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين ، «وكانوا خلقًا عظيمًا»[2] وقد ارتحل معظم من فادى نفسه من الأسر من الفرنج إلى مدينة صور . وقد تفاءل المؤرخ ابن شداد ، مؤرخ صلاح الدين ، بمناسبة يوم الفتح وموافقتها ليلة مقدسة عند المسلمين ، هى ليلة الإسراء والمعراج بقوله : «وكان تسلمه القدس، قدس الله روحه، فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلة كان المعراج المنصوص عليها فى القرآن المجيد . فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسَّر الله عوْدُه إلى أيدى المسلمين فى مثل زمان الإسراء بنبيهم ﷺ ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى وكان فتوحًا عظيمًا شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن أرباب الحرف والطرق . وذلك أنَّ الناس لَمَّا بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور . وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير . وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحُط الصليب الذى كان على قبة الصخرة وكان شكلاً عظيمًا ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر»[3] .

ولَمَّا فتح صلاح الدين بيت المقدس[4] ، أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان ، وقام خلال تلك المدة يعمل على إزالة كل أثر للصليبيين فـى

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٧ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٦ .

(قام صلاح الدين بهدم الكنائس المحدثة التي أسسها الصليبيون بعد احتلالهم القدس ، لكنه ترك الكنائس القديمة على حالها ، وبخاصة كنيسة القيامة اقتداء بما فعله الخليفة عمر بن الخطاب حيث لم يهدمها لَمَّا فتح القدس (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥١٨) .

(٤) كان بقاء القدس فى يد الصليبيين إحدى وتسعين سنة (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٥١٨) .

القدس . فأعاد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى سابق عهديهما ، وأنزل الصليب الذهبى الكبير الذى وضعه الصليبيون أعلى قبة الصخرة[1] . وغُسلت الصخرة نفسها وبُخرت وفرشت ، وصلى صلاح الدين فوقها صلاة الجمعة . وقام صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وتجميله . وأغلق كنيسة القيامة مدة ثلاثة أيام ، ثم قام بفتحها وفرض على كل من يرد إليها مبلغًا من المال يؤديه[2] .

وسمح صلاح الدين للنصارى اليعاقبة والأرثوذكس ، بالبقاء فى القدس ، على أنهم أهل ذمة يدفعون الجزية السنوية ، مع إعفاء الفقراء والعجزة والنساء والصبيان والرهبان عن دفعها[3] . وأرسل امبراطور بيزنطة «اسحق انجيلوس» إلى صلاح الدين يهنئه بفتح القدس ، ويطلب منه وضع كنيسة القيامة وغيرها من كنائس النصارى تحت إشراف الكنيسة الأرثوذكسية التى تعين الدولة البيزنطية رجالها ، «وأن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه» .

أما اليهود فقد كانوا أكثر الناس فرحًا لإنهاء حكم الصليبيين للمدينة المقدسة ، وانقضاء القهر الذى كانوا يعيشون فيه فى ظل ذلك الحكم . ومن المعروف والثابت أنَّ صلاح الدين كان يتحرى العدالة ويطلق تعاليم الشرع فى جميع معاملاته ويتوخى رضا الله فى تعامله مع رعايا دولته سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين . ولم تقتصر عدالة صلاح الدين على المسيحين ولكنها شملت أيضًا اليهود الذين كانوا فى أسوأ حال حين تولى صلاح الدين حكم مصر والشام . وقد تنفس اليهود الصعداء حين سمح لهم السلطان بالعودة إلى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ .

(٢) ذكر وليم الصورى حفاظ صلاح الدين على كنائس المسيحين وبخاصة كنيسة القبر المقدس (مؤلف مجهول : تتمة كتاب وليم الصورى ، ترجمة أسامة زكى ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص ٦١) .

(٣) قُدرت هذه الجزية بدينار واحد يدفعه الذمى مرة فى العام ، وتسقط الجزية بإسلام الذمى حسب قواعد الشريعة الإسلامية .

القدس وفلسطين وبحرية العمل والعبادة فى أرض هذه البلاد المقدسة[1] . وكان الصليبيون قد طردوا اليهود من فلسطين والقدس وحرموا عليهم العيش فيها غداة نجاح حملتهم الصليبية الأولى ، وفرضوا عليهم ذلك الحظر الذى سبق أن فرضه عليهم أباطرة الرومان تيتوس وهادريان[2] .

ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبى فى كل مدن فلسطين ، وشملهم القتل والأسر فى يافا وحبرون (الخليل) وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية . ونتيجة لذلك الاضطهاد الواقع عليهم ، هرب من تبقى منهم من مدن فلسطين ناجيًا بحياته إلى أماكن أكثر أمانًا حتى كادت مدن فلسطين أن تخلوا تمامًا من اليهود . وقد ذكر الرحالة اليهودى «بنيامين التطيلى» ، الذى زار فلسطين سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) أنه رأى مدن فلسطين خالية من اليهود أو تكاد ، وروى أنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهوديًا واحدًا[3] .

ولقد ظل شتات اليهود وتحريم سكناهم مدن فلسطين والقدس ، على وجه الخصوص ، قائمًا حتى فتح صلاح الدين لهذه المدينة . فبعد أن فتح صلاح الدين القدس ، سمح لليهود بالعودة إليها ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهل المدينة ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير . وإنَّ أبلغ ثناء لصلاح

(١) عطية القوصى : صلاح الدين واليهود ، مقال بالمجلد رقم ٢٤ لسنة ١٩٧٧ ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، ص ٣٩-٥٤ .

(٢) فى سنة ٧٠ ميلادية ، هدم الامبراطور الرومانى تيتوس هيكل اليهود ، وقام بقتل وطرد اليهود من فلسطين والقدس . كذلك تكرر الأمر مع اليهود فى سنة ١٣٥م ، حين فشلت الثورة التي قاموا بها فى فلسطين ضد الرومان فى عهد الامبراطور هادريان فى الفترة ما بين سنوات ١٣٢-١٣٥م ، وهى الثورة التى عُرفت باسم ثورة باركوكبا (ابن النجوم) ، وكانت آخر ثوراتهم فى فلسطين . وبعد أن أخمد القائد يوليوس سيفروس ، قائد هادريان ، هذه الثورة قام بهدم معبد اليهود ، وأقام مكانه معبدًا وتمثالاً للإله جوبيتر كابيتولينوس . كما قام هادريان بتغيير اسم مدينة القدس إلى «ايليا كابيتولينا» ، كذلك غيَّر كل الأسماء العبرية فى المدينة إلى أسماء رومانية . واصدر هادريان قرارًا يحرم على اليهود دخول مدينة القدس والعيش فيها ، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك ، وظلت القدس وسائر مدن فلسطين محرمة على اليهود حتى الفتح الإسلامى لها .

(٣) Simon Dubnov : History of the Jews, V. IV, London 1968, pp. 797-813.

الدين فى هذه المناسبة ، ما أورده المؤرخ المستشرق (لين بول) حيث قال : «إذا كان فتح بيت المقدس والمعاملة الطيبة التى أبداها صلاح الدين لسكانها هى الحسنة الوحيدة التى فعلها لكفاه ذلك أن يكون أعظم الفاتحين وأرقهم قلبًا فى عصره ، بل وربما فى كل العصور»(1) .

ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل مع النصارى واليهود مثلما فعل الصليبيون الأول من ضروب التوحش والإبادة التى وقعت على سكان القدس ، فلقد كانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة الصليبية الأولى(2) . وحين شعر اليهود بسماحة أخلاق ، ذلك الفاتح العظيم ، وعدم تعصبه للدين ، أخذوا فى العودة من مخابئهم إلى أرض فلسطين وإلى القدس خاصةً ، بدايةً من سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠م) .

وقد كتب الشاعر الأديب اليهودى «يهوذا الحريزى» ، الذى زار مدينة القدس ، بعد ربع قرن من عودتها إلى يد صلاح الدين (حوالى سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م) عن ذلك الأمر يقول : «. . . ولكن لماذا لم يُسمح لليهود بالبقاء فى فلسطين حين كانت فى قبضة الصليبيين المسيحيين ؟ . . قيل أن السبب فى ذلك أننا المتسببون فى قتل إلههم ، وأنذروا لذلك بأنهم سوف يأكلوننا أحياء إذا تمكنوا منا . لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين وزوده بالحكمة والشجاعة فسار بجيش من مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعونه ، المدينة فى يده . وعندئذ أرسل السلطان مناديًا ينادى فى أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة إبراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل الأماكن التى إلتجأوا إليها»(3) .

(1) Stanley Lane Pool : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Beriut 1964, p. 234.

(2) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السعيد الباز العرينى، بيروت ١٩٦٧، جـ ٢، ص ٧٥٣ .

● جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٢٩ .

(3) Dubnov : History of the Jews, IV, p. 816.

ولقد شهد على عدالة وتسامح صلاح الدين وحسن معاملته لليهود ، غداة فتحه بيت المقدس ، أكبر أعداء المسلمين فى العصر الحديث وزعيمهم «دافيد بن جوريون» ، حيث أورد فى كتابه ما نصه : «لقد أصدر صلاح الدين نداءً ، غداة فتحه للقدس ، يحث فيه اليهود ، صغارًا وكبارًا ، الهاربين من حكم الصليبيين أن يعودوا إليها . وفى خلال سنوات قليلة من حكم هذا السلطان العادل أعيد التجمع اليهودى فى القدس ، وعاد اليهود من كل صوب وحدب إليها ، وكان على رأس العائدين عدد من كبار العلماء والربابنة اليهود ، منهم ثلثمائة جاءوا من فرنسا وانجلترا وأسبانيا وسكنوا القدس . ولقد استقبل الملك العادل ، أخا صلاح الدين ، سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) هؤلاء العلماء الثلثمائة استقبالاً طيبًا وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية»[١] .

وبعد أن أتم صلاح الدين غزو فلسطين وفتح القدس ، أخذ يفكر فى اقتلاع جذور الصليبيين من البقاع الصليبية على ساحل البحر المتوسط من مدن أمثال : صور وطرابلس وأنطاكية ؛ فضلاً عن القلاع الداخلية التابعة لهذه المدن مثل حصن الأكراد وحصن المرقب . وقد بدأ صلاح الدين ، الجولة الثانية من جهاده للصليبيين بمحاولة الاستيلاء على مدينة وميناء صور[٢] ، «فنزل عليها فى يوم التاسع من شهر شعبان ، وكانت حصينة ، وقد استعد الفرنج فيها»[٣] ، وقد وصلتها نجدة ، غير منتظرة ، من الأمير كونراد دى مونتفرات (المركيش)[٤] ، الذى جاء إليها لاجئًا سنة ٥٨٣ هـ (منتصف يوليو ١١٨٧م) ورحب به أهلها[٥] ، وانضم إلى الأعداد الكبرى من بقايا الصليبيين الذين

(١) Ben - Gurion, David : The Jews in their Land, London 1966, pp. 217-218.

(٢) كانت صور آنذاك تابعة لرينو ، حاكم صيدا .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٥٩ .

(٥) فى الوقت الذى سقطت فيه بيت المقدس بيد المسلمين ، وأصبح الصليبيون فى حاجة ماسة لقائد رشيد ينظم صفوفهم ، شاء حظهم أن يظهر بين صفوفهم زعيم قوى هو «كونراد دى مونتفرات» (المركيش) =

خرجوا من مدن فلسطين التى استولى عليها صلاح الدين وصاروا قوة بها لها خطرها . «وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير ، وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها ، وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد . ووصل صلاح الدين إلى عكا ، وأقام بها أيامًا ، فلما سمع المركيش بوصوله إليها جدَّ فى عمل سور صور وفنادقها وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها ، ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان»[1] .

«وتلاحقت العساكر بالسلطان صلاح الدين ، ونصب على صور عدة من المجانيق وحاصرها ، واستدعى الأسطول من مصر، فقدم عليه عشر شوانى ، وصار القتال فى البر والبحر فأخذ الفرنج خمس شوانى»[2] ، وقد حكى ابن الأثير ظروف استيلاء الصليبيين على هذه السفن الحربية الإسلامية الخمسة بقوله : «أرسل صلاح الدين إلى الشوانى التى جاءته من مصر وهى عشر قطع، وكانت بعكا ، فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها ، وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين ، فتمكن المسلمون حينئذ بالقرب من البلد ومن قتاله ، فقاتلوه براً وبحراً ، وضايقوا حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار لما لم يكن فى الحساب ، وذلك أنَّ خمس قطع من شوانى المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه ، فباتوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم عبد السلام المغربى ، الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته . فلمًّا كان وقت السحر أمنوا فناموا ؛

= وكان هذا الأمير الفرنسى قد جاء من بلاده عن طريق القسطنطينية ليشارك فى معركة حطين ، لكنه وصل متأخراً بعد المعركة . ولمًا وصل عكا وجد المسلمين يحتلونها ، أقلع منها إلى صور وتولى قيادة الصليبيين هناك ومقاومة المسلمين .

(١) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٩ .

(٢) المقريزى السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٧

فما شعروا إلا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم ، فأوقعت بهم ، فقتلوا من أرادوا قتله ، وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور ، والمسلمون فى البر ينظرون إليهم ، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق»[1] ، وكانت هذه أول هزيمة تلحق بصلاح الدين .

وقد وقع هذا الحدث للأسطول المصرى يوم السابع والعشرين من شوال[2]، وعظُم ذلك على صلاح الدين وضاق صدره بحصار صور ، وفشل هجماته عليها ، فلم ير بُدًا من تركها وتوجيه جهوده ضد امارتى طرابلس وأنطاكية . وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الأمطار التى منعت الناس عن القتال؛ فجمع صلاح الدين الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءًا من الراحة ويستعدوا لهذا الأمر استعدادًا جديدًا فرأى ذلك رأيًا[3] ، فرحل عنها فى يوم الأحد ثانى ذى القعدة ، بعد أن رمى المنجنيقات وسيَّرها ، وأحرق ما لا يمكن حمله لثقله . وتفرقت العساكر ، فسار كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو ، فى جماعة من خواصه ، بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة ٥٨٤هـ .

ويُرجع ابن الأثير أسباب هذا الانكسار أمام ميناء صور إلى صلاح الدين نفسه وذلك لتجميعه بقايا منهزمى الصليبيين فى هذه المدينة وتجميع أمورهم هناك واستعادتهم لقوتهم وشجاعتهم فى قتال المسلمين ، يقول ابن الأثير : «ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها (صور) غير صلاح الدين ؛ فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٦٠ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٨ .
(٣) ابن شداد : نفس المصدر والصفحة .
● ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٨ .

ذلك . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ؛ فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ؛ فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم . فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجأون إليها ؛ فزادهم ذلك حرصًا على حفظها والذب عنها . وسنذكر ، إن شاء الله ، ما صار إليه الأمر بعد ذلك ، ليعلم أنَّ الملك لا ينبغي له أن يترك الحزم ، وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازمًا خيرٌ له من أن يظفر مُفرِطًا مُضيعًا للحزم وأعذر له عند الناس»[1] .

وفي شهر المحرم سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) ، انحسر الشتاء ، فسار صلاح الدين ، فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب ، جنوب غربي بحيرة طبرية ، التي كانت تابعة للاسبتارية ، وكانت قلعة منيعة ، حاصرها مدة شهرين ولم يستطع الاستيلاء عليها ، فارتحل عنها في شهر ربيع الأول إلى دمشق ، ودخلها في سادسه ، وكان قد غاب عنها سنة وخمسة وستين يومًا افتتح خلالها بيت المقدس[2] .

وبلغ صلاح الدين أنَّ الصليبيين قصدوا بلدة «جَبَله» (جبيل) واستولوا عليها ، فخرج إليها مسرعًا لنجدتها ، فلمَّا علم الصليبيون بخروجه إليهم انسحبوا منها[3] ، وكان قد بلغ صلاح الدين وصول عماد الدين ، صاحب سنجار ، ومظفر الدين بن زين الدين ، صاحب إربل ، وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين الغزو معه ، وسار صلاح الدين نحو حصن الأكراد[4] ، ثم

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٩ (أثناء تلك الأيام قدم ابن شداد ، على صلاح الدين والتحق بخدمته وولاه قضاء العسكر) .

(٣) ابن تغري بردي : جـ ٦ ، ص ٣٩ .

(٤) هو حصن منيع على الجبل الذي مقابل حمص من جهة الغرب (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦) .

اجتمع بهم وتقوى بقواتهم ، وتوجهوا جميعهم إلى «أنطرسوس» ، يوم الأحد سادس جمادى الأولى واستولوا عليها وأحرقوها وغنموا جميع ما فيها . وتوجه صلاح الدين ، بعد ذلك ، بقواته ، وقوات إبنه الملك الظاهر بعساكر حلب إلى جُبيل فاستولى عليها بعد قتال شديد ، وبعد أن طلب أهلها الأمان . ثم سار صلاح الدين عنها إلى اللاذقية ، واستولى عليها ، «وغنم المسلمون منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار»[1] . ثم ارتحل عن اللاذقية إلى حصن صهيون[2] ، واستولى عليه بعد طلب أهلها الأمان ، فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير ومن كل صغير ديناران ، الذكر والأنثى سواء .

وأقام صلاح الدين بهذه الجهات حتى أخذ عدة قلاع منها «بلاطنس»[3] ، وغيرها من الحصون المتعلقة بصهيون . ثم ارتحل عنها إلى قلعة «بكاس» ، على نهر العاصى ، وافتتحها عنوة وغنم جميع من فيها . ثم سار إلى «بُرزية»، وهو حصن منيع أخذه عنوة ، ثم إلى قلعة «دربساك» المنيعة وأخذها عنوة ، ثم إلى قلعة «بغراس» ، القريبة من أنطاكية ، وقاتلها قتالاً شديداً حتى طلب أهلها الصلح فصالحهم . ثم سار صلاح الدين فى أوائل شهر رمضان يريد «صفد»[4] وتسلمها بالأمان فى رابع شوال ، وفى نفس الشهر تسلم صلاح الدين حصن الكرك من نواب صاحبها أرناط ، الذى قتله صلاح الدين يوم حطين . وفى ثامن ذى الحجة دخل السلطان القدس وصلى به العيد ، ثم توجه إلى عسقلان، ثم سار منها إلى عكا وأصلح أحوالها وجعل عليها الأمير بهاء الدين قراقوش وأمره بعمارتها وعمارة سورها[5] .

---

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠ .

(٢) صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل البحر المتوسط ، من أعمال حمص .

(٣) حصن منيع بساحل الشام مقابل اللاذقية ، وهو من أعمال حلب .

(٤) صفد : مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، وهما من جبال لبنان .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

ودخل صلاح الدين دمشق فى مستهل صفر من سنة ٥٨٥ هـ ، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول ، ثم خرج إلى شقيف أرنون[١] ، وهو موضع حصين ، وقد جاءه صاحبه ، وصاحب صيدا وعرض تسليمه له دون قتال على شروط اشترطها عليه[٢] . وفى أثناء شهر ربيع الأول وصل إلى صلاح الدين خبر استسلام «الشوبك» بعد حصار قواته له لمدة عام ونفاد ما كان عند أهله من زاد. وهكذا استولى صلاح الدين على جميع القلاع التى كانت بمثابة المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية ، ولم يبق لإمارة انطاكية نفسها سوى المدينة نفسها وحصن المرقب . وقد صمدت طرابلس وبعض قلاع الداوية والاستبارية .

كذلك لم يبق من حصون مملكة بيت المقدس إلا شقيف أرنون وصور ، التى أخطأ صلاح الدين بعدم الإصرار على فتحها بعد فتحه عكا ، تركها تلك المدة لتجتمع فيها فلول الصليبيين من مختلف مدن وحصون إمارة بيت المقدس، ليزودوا المدينة بالقوة البشرية إضافة إلى منعتها الطبيعية وحصانتها من البر والبحر . ولقد زاد من قوة المدينة ، تولى الأمير كونراد الصليبى المتعصب المتحمس القيادة فيها ، وعمله على زيادة تحصينها واستعانته بمعونات الغرب المسيحى[٣] التى جاءته عبر البحر ؛ الأمر الذى جعل منها مركز المقاومة الصليبى الرئيسى فى بلاد الشام لصلاح الدين ولأسرته من بعده[٤] .

وهكذا نرى فتوحات صلاح الدين ورده لعدوان المعتدين على ديار الإسلام نتائج هامة ، منها عودة الإسلام إلى سابق عهده من المجد والرفعة ، ودحر

(١) وهى قلعة حصينة فى الجبل قرب بانياس تقع ما بين دمشق وساحل البحر .

(٢) استولى رينو ، صاحب صيدا على هذا الحصن عقب استيلاء المسلمين على صيدا ، وصار صاحبها ، وهو الذى عرض تسليمه شقيف أرنون لصلاح الدين دون قتال لكن رينو هذا نكث بعهده لصلاح الدين وذهب إلى صور وهنالك اتفق مع كونراد مونتفرات حاكمها بتجميع قوى الصليبيين هناك ومقاتلة المسلمين .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨١ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

المسلمين العدوان الصليبى على ديارهم ، ودفاعهم عن تلك الديار لما قام به الغرب المسيحى ، قبل ذلك ، من عدوان بما وقع لهم على يد صلاح الدين والزنكيين من هزيمة وخذلان . كذلك من نتائج فتوح صلاح الدين ، أن استعادت الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) ما كان لها من مكانة فى العالم المسيحى ، بعد أن ضعف شأنها زمن حكم الغرب اللاتينى . فرحب المسيحيون الشرقيون بعودة الحكم الإسلامى ، لما درج عليه المسلمون من تسامح وما وجدوه فى الإسلام من سماحة وعدل ، ولما كان من عداء تقليدى بين روما والقسطنطينية ، وعداء بيزنطة للصليبيين ولا سيما بعد وفاة الامبراطور البيزنطى «عمانويل كومنين» . ولقد غيرت بيزنطة سياستها مع المسلمين ، نتيجة تلك الانتصارات ، وتحالفت معهم ضد الصليبيين ، وعاد القسس الأرثوذكس إلى القدس .

وعلى الجانب الآخر ، فقد اعتبر الغرب اللاتينى انتصارات صلاح الدين على الصليبيين كارثة خطيرة وضربة موجعة لكيانهم وكبريائهم ، ولابد لهم من الثأر من صلاح الدين واستعادة ما استولى عليه وتلقينه درسًا شديدًا بعد إيقاع هزيمة ساحقة به وبجيوش المسلمين . وبسبب ذلك تجددت الدعوة ، للمرة الثانية ، لمشروع الحملات الصليبية على بلاد الشرق الإسلامى . ولم تلبث أن وصلت الأخبار للمسلمين ولصلاح الدين بأنَّ عدوانًا جديدًا تشرع فى وقوعه أوربا الغربية قادم فى الطريق إلى الأراضى المقدسة ، بقيادة ملوك ألمانيا وفرنسا وانجلترا فانتعشت بذلك آمال المسيحيين اللاتين. وشرع صلاح الدين والمسلمون فى الاستعداد لدحر هذا العدوان الجديد ، الذى عُرف فى كتب التاريخ باسم الحرب الصليبية الثالثة ، كما دُحر الصليبيون ، من قبل ، فى حملتيهم الأولى والثانية[1] .

---

(١) تسمت الحملة الصليبية التى وقعت سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧م) ، بالحملة الصليبية الأولى ، وتسمت الحملة التى قادها الامبراطور الألمانى (فردريك) وملك فرنسا لويس السابع سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) بالحملة الصليبية الثانية .

ثالثًا : دفاع المسلمين عن ديارهم وصدهم لعدوان الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ - ٥٨٨ هـ / ١١٨٩ - ١١٩١ م) :

من المعروف أن هزيمة الصليبيين فى حطين ، ثم سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين وعودته إسلاميًا بعد تطهيره من دنس الصليبيين ، قد أحدثا رد فعل عنيف فى الغرب الأوربى ، الذى شعر بتقصيره وبعقدة ذنب ضياع الأماكن المسيحية المقدسة من أيديهم ؛ لعدم استجابتهم للنداءات المتكررة التى أصدرها الصليبيون بالشام والدعوات الكثيرة التى دعا لها بابا روما والمتدينون من مسيحيى الغرب اللاتين .

ولقد تجددت نداءات الصليبيين بالشام ولم يتوقفوا عن دعوة ملوك الغرب المسيحيين لتدارك الأمر وتصحيح موقفهم من ذلك المشروع الدينى المسيحى الكبير ، ومسارعتهم بنجدتهم حتى لا يلقيهم صلاح الدين فى البحر ووقتها يندمون ، حيث لا ينفع الندم . وكان أكثر المستنجدين بالغرب الأوربى الأمير الصليبى «كنراد مونتفرات» ، الذى كان قد استقر بمدينة صور منذ سنة ٥٨٥هـ (١١٨٧م) ، والذى لم يكتف بتدبير شئون الدفاع عنها وتحصينها برًا وبحرًا ، وشحنها بفلول الصليبيين المهاجرين إليها من عكا وأنطاكية وطرابلس وشتى حصون الصليبيين التى استولى عليها صلاح الدين فى بلاد الشام ، بل صار يبعث الرسل إلى أوربا المسيحية يستنفرها لقتال صلاح الدين واسترداد ما استولى عليه من بلاد وحصون كانت فى أيدى الصليبيين. وكان «جوسياس» ، رئيس أساقفة صور ، آخر من أرسلهم كنراد سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) لطلب النجدة العاجلة من ملوك الغرب وأمرائه .

ويُروى بأن الرهبان والقسس فى المدن الصليبية لبسوا ملابس الحداد بعد سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين ، وأن البطريرك جوسياس أخذ جماعة منهم إلى غرب أوربا ، وطاف بهم مستنجدًا بأهلها ، حاثًا لهم على استرجاع

القدس ، وحملوا فى أيديهم صوراً تصور المسيح ، عليه السلام ، ومعه رجل عربى يضربه بالعصا[1] ، وقد سالت الدماء من وجه المسيح ، وكانوا يستنفرون الناس لقتال المسلمين بقولهم : «هذا هو المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه ، ثم قتله ، فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء»[2] .

ولقد رأينا ، كيف أنَّ صلاح الدين قد أطلق سُرح جاى لوزيجنان ، ملك بيت المقدس ، بعد حطين ، «بعد أن أقسم بألا يُشهر عليه سيفًا ، ويكون عتيقه ومملوكه» . لكنه ما أن وصل إلى صور ، حتى خان عهده ، واتفق مع كنراد على حشد حشود القوات الصليبية لقتال صلاح الدين وأخذ الثأر منه . واستطاع كنراد وجاى أن يؤلبا ملوك الغرب المسيحيين فى أوربا ؛ وبذلك جرت الاستعدادات لتأليف الحملة الصليبية الثالثة .

ولقد اختلفت الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشرق الإسلامى ، عن الحملة الأولى ، فى أنها لم تنبع من البابوية ، التى كانت تجتاز ، وقتذاك ، مرحلة من مراحل إنهيارها ، إنما نبعث ، هذه المرة ، من السلطة الزمنية ، التى تمثلها الملكيات الثلاثة القوية فى أوربا : ألمانيا وانجلترا وفرنسا ، والتى صار لها، وقتذاك ، السيادة والسلطان فى أوربا . وكان «جوسياس» ، رئيس أساقفة صور ، قد توجه إلى الفاتيكان ليشرح للبابا المسن المريض «أوربان الثالث» ، الوضع المائل للصليبيين ببلاد الشام ويصور له الخطر المحدق بهم والفشل المتوقع للمشروع الصليبى فى بلاد الشرق الإسلامى . ولم يتحمل البابا تلك الأخبار المؤلمة التى نقلها جوسياس له ، فمات كمدًا حزينًا ، بسببها ، سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) ، دون أن يفعل شيئًا . كذلك لم يستطع خليفة البابا ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ .
- ابن أيبك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٨٣ .

الذى تولى رئاسة الكنيسة الكاثوليكية بعده ، وهو الباب جريجورى الثامن ، أن يفعل للصليبيين شيئًا ، بسبب وفاته ، هو الآخر ، فى نفس العام . وقد جاء الدور على البابا «كليمنت الثالث» ، الذى تولى زعامة العالم المسيحى الغربى بعد وفاة البابا جريجورى (١١٨٧-١١٩١م) ، أن يتولى دعوة الامبراطور الألمانى فردريك الأول ، الذى عُرف بفردريك (باربا روسة)[1] ، لقتال المسلمين ، فى الوقت الذى انتقل فيه جوسياس إلى ملكىّ فرنسا وانجلترا، لدعوتهما لنفس الأمر ، وتقابل معهما على حدود نورمانديا واستجابا لدعوته.

ولقد استجاب ملوك أوربا الثلاثة فى الاشتراك فى توجيه حملة صليبية إلى الأراضى المقدسة ، ففى ألمانيا ، أعلن «ديات ماينز» فى عيد القيامة سنة ١١٨٧م ، (٥٨٣هـ) ، الاشتراك فى توجه هذه الحملة الصليبية إلى الشرق ، وفى فرنسا وانجلترا قرر كلاً من فيليب أغسطس ، ملك فرنسا ، وهنرى الثامن، ملك انجلترا ، اتخاذ التدابير اللازمة لإعداد حملة صليبية مشتركة ضد المسلمين . وفى ذلك دليل على علمانية هذه الحملة ، إذ تقرر سنة ١١٨٩م (٥٨٥ هـ) فرض الضريبة المعروفة باسم عشور صلاح الدين[2] . وقد قُدرت هذه الضريبة بالعشر من الخراج والأملاك تُجبى من العلمانيين ، فى تلك البلاد، ممن لم يشاركوا فى الحروب الصليبية . وبناءً على ذلك ، أقبل عدد كبير من الرجال على الالتحاق بالجيش فى فرنسا وانجلترا ، هروبًا من دفع تلك الضريبة ، التى صارت أساسًا ماليًا للعمليات الحربية فى كلتا الدولتين . ومن الممكن التسليم بالقول بأن الحملة الصليبية الثالثة التى خرجت من غرب أوربا سنة ١١٨٨م (٥٨٤ هـ) ، قد صحبتها فكرة إحياء الروح الدينية الصليبية فى الغرب الأوروبى ، «بعد أن أجرم هذا الغرب فى حق الله وتقاعس عن

(١) أى ذو اللحية الحمراء ، وقد كانت له لحية حمراء بالفعل .

(٢) السيد الباز العرينى : الحروب الصليبية ، ص ٨٧ .

نصرة الصليب، فحلت النقمة على المسيحيين بضياع بيت المقدس، و «بيت الرب» من أيديهم» كما زعم المتدينون المسيحيون .

وعلى الرغم من اتفاق ملك فرنسا وانجلترا على أن تخرج جيوشهما جنبًا إلى جنب إلى الشام ، إلا أنهما لم ينفذا إتفاقهما على الفور ، بل تباطأوا فى التنفيذ بسبب وفاة هنرى الثانى ، ملك انجلترا ، وتولى إبنه «ريتشارد قلب الأسد» الحكم من بعده . وفى صيف ٥٨٦ هـ (١١٩٠م) أبحر الملكان بجيشيهما إلى جزيرة صقلية ، كل منهما على حدة . وهكذا اصطبغت هذه الحملة ، من أول أمرها ، بالصبغة الفردية ، وتأثرت بروح العداء[١] والشك المتأصل بين الملكين ، مما حال دون قيامهما بعمل واحد مشترك ضد صلاح الدين والمسلمين[٢] .

أما الامبراطور الألمانى فردريك الأول (بارباروسة) ، الذى كان قد شارك، من قبل فى الحملة الصليبية الثانية ، كما أسفلنا ، فبرغم أنه لم تكن له مصالح شخصية خاصة فى فلسطين ، ولم تكن للألمان بالشرق إلا جالية قليلة العدد ، وبرغم أنه لم ترد له دعوة من حكومة بيت المقدس الصليبية لمساندتها، فإنه قرر المشاركة فى هذه الحملة الصليبية وأن يكون له حظٌ فيها . وقد حمله على المشاركة دعوة أسرة مونتفرات ، الحاكمة فى صور له وحمله على القدوم إلى الشرق ، لتوطيد مركزه فى بلاده وتسوية مشاكله مع البابوية والنورمان فى صقلية . ولقد استخدم فردريك الدبلوماسية فى تمهيد طريق وصوله إلى الأراضى المقدسة ، حتى لا يتعرض لما تعرض له من العقبات فى الحملة الصليبية الثانية ؛ فأرسل السفارات إلى ملك المجر والامبراطور البيزنطى وسلطان السلاجقة فى آسيا الصغرى ، يطلب منهم تيسير مرور عساكره

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٦٤ .

(٢) عن هذا العداء بين الدولتين آنذاك ، أنظر ، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ ، صفحات ٢٥٦-٢٥٩ وما بعدها .

ببلادهم. وتلقى الرد بالموافقة من ملك المجر والامبراطور البيزنطى والسلطان السلجوقى ، لكن صلاح الدين أظهر له التحدى وأبدى له استعداده لقتاله . وخرج فردريك من بلاده على رأس جيشه سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) .

ومن الواضح أنَّ أسرة أنجليوس التى وليت عرش بيزنطة فى الفترة ما بين سنوات ١١٨٥-١٢٠٤م (٥٨١-٦٠١هـ)[١] ، كانت شديدة العداء للصليبيين وللنورمان فى إيطاليا ، حلفاء فردريك بارباروسة ، وللسلطان السلجوقى ، ولذلك لجأت إلى التحالف مع صلاح الدين . وتعبيراً عن هذا الوئام الإسلامى الرومى ، سمح الامبراطور البيزنطى إسحاق الإنجيلى (١١٨٥-١١٩٥م / ٥٨١-٥٩٢هـ) بإقامة شعائر الصلاة فى مسجد القسطنطينية والدعاء للخليفة العباسى من فوق منبره فى صلاة الجمعة . وقيل أنَّ هذا الامبراطور قد أرسل يحذر صلاح الدين من قرب قدوم الحملة الصليبية الثالثة حتى يأخذ للأمر حيطته[٢] . ونتيجة لهذا التقارب بين البيزنطيين وصلاح الدين تشجع الامبراطور البيزنطى على تجميع جيشه لطرد البلغار من تراقيا والصرب من مقدونيا وهزيمة النورمان وإرغامهم على الجلاء عن سالونيك ودورازو وإبعادهم عن تهديد القسطنطينية ، وقبول وليم الثانى ، ملك النورمان ، صاغراً توقيع معاهدة مع الامبراطور ، أنهى بها إلى الأبد خطر النورمان على الامبراطورية البيزنطية[٣] .

ولقد أصبح امبراطور بيزنطة ، مع شروع الصليبيين فى حملتهم الثالثة ، فى موقف حرج ، فهو حليف لصلاح الدين ، عازف عن محاربته ، وفى نفس الوقت كان يتوجس خيفة من نوايا الحملة الصليبية ونوايا الصليبيين

---

(١) الناصرى : الروم ، ص ٤٢٧ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٨ (أورد ابن شداد أنَّ الذى أرسل التحذير هو الملك الظاهر ، ابن صلاح الدين من حلب) .

(٣) الناصرى : نفس المرجع ، ص ٤٢٩ .

وخاصة أنَّ أحد زعمائها وقوادها هو الامبراطور الألمانى فردريك بارباروسة ، صديق وحليف النورمان أعداء الروم الألداء[1] . ولم يكن فى مقدور الامبراطور البيزنطى أن يُظهر ما بداخله ، فتظاهر بالاستعداد للتعاون لتسهيل مهمة الحملة المزمعة داخل أراضى بلاده ، وفى نفس الوقت أرسل إلى حليفه، صلاح الدين ، يحذره ويخبره بمشروع هذه الحملة[2] . وقد التقى الامبراطور البيزنطى مع فردريك عند أدرنه ، وتعهد له بنقل قواته عبر آسيا الصغرى ، على طريق البسفور ، وأن يمدهم بما يحتاجون إليه من مؤن . واخترق بارباروسة ، آسيا الصغرى ، سالكًا الطريق البرى الوعر عبرها . وقد تعرضت قواته لمضايقات كثيرة من جانب السلاجقة والبيزنطيين ، الأمر الذى زاد من حنق بارباروسة على الامبراطور البيزنطى ، مما جعله يفكر فى الدعوة لتحويل هذه الحملة الصليبية عن بيت المقدس إلى القسطنطينية عاصمة بيزنطة ، وخاصة حين افتضح له أمر الوفاق الإسلامى الرومى .

وشاءت إرادة الله تعالى ، أن يخلص المسلمون والروم كليهما من شرور نوايا هذا الامبراطور الألمانى العدوانية ، بغرقه وهو يستحم في نهر «السالف» بقيليقية ، وهو يستعد لعبوره بقواته فى شهر يوليو ١١٩٠م (٥٨٦ هـ)[3] . وقد اعتبر المؤرخ ابن الأثير موت ذلك الملك لطفًا من الله للمسلمين ، وذلك بقوله : «ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان ، وإلا كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين»[4] .

---

(١) بلغت هذه الصداقة حدًا كبيرًا بينهما ، لدرجة أنَّ فردريك زوَّج ولى عهده هنرى من وريثة مملكة صقلية النورماندية .

(٢) قام الامبراطور إسحاق بتجديد المعاهدة التى عقدها سابقه الامبراطور أندرونيكوس مع صلاح الدين والتى تقضى بالتصدى سويًا لوقف الزحف الألمانى فى آسيا الصغرى ، وقد اعتبر الغرب اللاتينى والدوائر البابوية ذلك دليل إتهام ضد خيانة بيزنطة للقضية الصليبية بتحالفها مع أعداء المسيح .

- (رأفت عبد الحميد : قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢٠، ١٢١) .

(٣) رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٨٤ .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الألمانية بالفشل ، فى الوقت الذى وصلت فيه الحملتان الفرنسية والانجليزية إلى جزيرة صقلية وقضائهما فصل الشتاء فى دفء هذه الجزيرة . وصار على الصليبيين فى الشام الاعتماد على أنفسهم ، وعلى ما عساه يصلهم من جموع صليبية صغيرة متفرقة يدافعون بها على ما تبقى لهم من أشلاء بيت المقدس والإمارات الصليبية بالشام .

ولقد تغيرات دفة الوضع بالصليبيين فى الشام ، وتحولوا من مرحلة الدفاع إلى الهجوم ، بعد أن توحدت قيادتهم وتوطد نفوذهم فى عكا[1] وصور ، بمعاودة ظهور الملك جاى لوزيجنان ، ملك بيت المقدس السابق فى عكا ، وظهور الأمير كونراد دى مونتفرات فى صور .

وكان صلاح الدين ، كما سبق أن علمنا ، قد أفرج عن ملك بيت المقدس، ولم يقتله ، بعد معركة حطين ، إذ أرسله وبعض اتباعه إلى دمشق ، ثم ما لبث أن أطلق سراحه سنة ٥٨٣ هـ (يوليو ١١٨٨م) وأتباعه ، الذين كانوا عشرة من أعيان أسرى الصليبيين ليكونوا رفقاء وبطانة له ، منهم عامورى لوزيجنان ، أخاه مقدم الداوية[2] ، بعد أن تعهد له جاى بالإخلاص والولاء وعدم التصدى لحربه . كذلك أطلق صلاح الدين سراح والد كونراد دى مونتفرات ، الذى لحق بابنه فى صور .

ولقد نكث جاى لوزيجنان بعهده لصلاح الدين لمّا توجه إلى صور ، وهنالك حاول السيطرة على المدينة وتولى حكمها ، لكن كونراد منعه من ذلك، بل أغلق باب المدينة فى وجهه حين توجه إليها سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨م). وقد قضى جاى لوزيجنان بضعة أشهر خارج أبواب صور ، وبعدها إتجه لتولى القيادة فى عكا ، ثانية مدن مملكة بيت المقدس الصليبية بعد

(١) كان على عكا الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى ، المعروف بالمشطوب ، والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحى (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

القدس ، وأهم موانيها الساحلية وأمنعها . وقد جمع جاى ، عند طرابلس ، كل ما أمكن جمعه من فلول الصليبيين المشردين ، ثم تقدم بهم صوب عكا فى أواخر سنة ٥٨٥ هـ (أواخر أغسطس ١١٨٩م) ، واستطاع بهم الاستيلاء عليها وتولى أمر القيادة ومقاومة غزو المسلمين لها .

وكان جاى ، قد تصافى مع كونراد واتفق على مهاجمة عكا سويًا وتخليصها من يد الحامية الإسلامية التى بها ، وقد نجحت قواتهما فى النزول شرقى المدينة ، عند تل المصلبين (٢٧ أغسطس ١١٨٩م) ، ثم لحق بهم صلاح الدين ، بعد ذلك بيومين وعسكر بقواته ، على مقربة من الصليبيين عند تل العياضية[١] . وكان فى إمكان صلاح الدين والحامية الإسلامية الموجودة بمدينة عكا ، سحق هذه القوات الصليبية ، لولا وصول النجدات الصليبية لها وبشائر الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوربى ، ومساعدات المدن الإيطالية التى استجابت لدعوات البابا فى تجهيز تلك الحملة . وقد قُدِّر عدد الجنود المقاتلين الصليبيين الذين احتشدوا أمام عكا بأكثر من عشرين ألفًا . وفى أواخر شهر سبتمبر من نفس العام ، وصلت قوات كونراد ، من صور ، لتقاتل ، جنبًا إلى جنب ، مع هذه القوات ، المسلمين ، والثأر لهزيمة الصليبيين يوم حطين .

ولم يقف صلاح الدين ساكنًا أمام هذا الحشد الصليبى عند عكا ، ولكنه بدأ هجومه عليهم (فى منتصف سبتمبر ١١٨٩م) ، وأنزل بهم خسائر فادحة ، وصار قاب قوسين من دحرهم[٢] ؛ إلا أنَّ انتشار وباء فى المنطقة بسبب انتشار

---

(١) ابو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ١٠ ، ص ١٨٧) «بانَّ سيوف الله اخذتهم من كل جانب ، فلم يفلت منهم احد بل قُتل اكثرهم ، وأخذ الباقون اسرى . وفى جملة من أسر مقدم الداوية ، الذى كان قد اسره صلاح الدين واطلقه (يوم حطين) ، فلمّا ظفر به الآن قتله . وكانت عدة القتلى سوى من كان إلى جانب البحر نحو عشرة الاف قتيل فامربهم فالقوا في النهر الذى يشرب الفرنج منه . وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج فإنَّ الرجالة لم يلحقوهم . وكان فى جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل فلمّا أسرن وألقى عنهن السلاح عُرفن أنهن نساء» .

جثث القتلى المتعفنة ، جعل صلاح الدين ، بناءً على مشورة الأمراء والأطباء، الابتعاد بقواته من تل كيسان إلى منطقة الخروبة ، رابع شهر رمضان ، وأمر منْ بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط[1] .

ولقد انتهز الصليبيون تلك الفرصة واغتنموها ، فحاصروا عكا وأحاطوا بها من البر والبحر ومراكبهم فى البحر تحصرها ، وشرعوا فى حفر خندق حول المدينة وعملوا السور من التراب الذى يخرجونه من حفر الخندق ، ليتحصنوا بهما من صلاح الدين إن عاد لقتالهم . وقد أحكم الصليبيون ، بذلك ، أمرهم وحصنوا فى عكا أنفسهم بقدر استطاعتهم . وطالت الحرب أمام عكا ، واتخذت طابع حرب الخنادق ، وشارك نساء الصليبيين رجالهم فى القتال[2] .

وفى شهر ذى القعدة من سنة ٥٨٥ هـ (أواخر نوفمبر ١١٨٩م) ، جاء الملك العادل ، على رأس العسكر المصرى لمساعدة أخيه صلاح الدين ، وبعد ذلك بشهر ، جاءه «حسام الدين لؤلؤ» ، قائد الأسطول المصرى فى البحر الأحمر ، على رأس خمسين قطعة من أسطوله إلى مياه عكا ، ونجح فى الوصول إلى الميناء وإمداد المسلمين المحاصرين بالمدينة ، من ناحية البحر ، بكثير مما كانوا يحتاجونه من مؤن وزاد وسلاح ، ورجال . وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد ظلت الغلبة للصليبيين بعكا ، لما كان يأتيهم من إمداد من ناحية البحر ، وبفضل جهود سفن المدن الإيطالية التى كانت تتولى نقل المؤن والعتاد للصليبيين بداخل المدينة .

وبسبب ذلك ، استنفر صلاح الدين جميع حكام المسلمين فى المشرق

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٨ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٨٣) «فحشروا وحشدوا حتى النساء ، فإنهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الأقران ، ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم ، فاجتمع لهمَ من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء» .

والمغرب لإرسال نجدات له ، لحرج موقف قواته أمام عكا . فجاءت صلاح الدين النجدات من الأراتقة ، أصحاب دارا ، ومن الخليفة العباسى ببغداد ، ومن السلاجقة الزنكيين ، وقد فرح صلاح الدين بمقدم هؤلاء جميعًا ، وبخاصة الأمراء أبناء البيت الزنكى . كذلك أرسل صلاح الدين سفارة إلى أمير المسلمين ، أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن ، أمير دولة الموحدين بالمغرب والأندلس ، يطلب منه فيها وقف إمداد سفن المدن الإيطالية بالمؤن للصليبيين ووقف مسيرهم فى البحر المتوسط وإرسال سفن من أسطوله لمساعدته[1] .

وهكذا سارت الحرب بين المسلمين والصليبيين سيرًا بطيئًا أمام عكا ، دون أن تنتهى إلى نهاية حاسمة . وقد ضاق الأمر بأهل عكا المحاصرين وتعرضوا للمجاعة ، بسبب نقص الغذاء عندهم ، رغم نجاح بعض سفن المسلمين فى تهريب بعض الأغذية لهم ؛ إلا أن كميات هذه الأغذية كانت تنفذ بعد أيام قليلة ، ويعود أهل المدينة إلى ما كانوا عليه من مواجهة الجوع والهلاك . فكان فى استطاعة الصليبيين آنذاك اسقاط عكا فى أيديهم ، لولا وقوع الخلاف بين كونراد وجاى لوزيجنان ، بسبب التنافس على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية بعد وفاة مليكتها ، زوجة جاى ، أمام عكا سنة ٥٨٦ هـ (أكتوبر ١١٩٠م)[2] . وقد أحدث ذلك الخلاف إنشقاقًا خطيرًا بين صفوف الصليبيين أمام عكا ، لولا وصول الملك الفرنسى فيليب أغسطس ، إلى عكا ، (أبريل ١١٩١م) ، الذى نجح فى أمر المصالحة بينهما وجمع شمل الصليبيين جميعًا ، تحت زعامته ، وتوجيه جهودهم نحو حرب المسلمين .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ انظر الباب الخامس.

(٢) لمّا ماتت «سيبل» زوجة جاى ، والوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس ، أصبح حق الوراثة بعدها إلى أختها الأميرة «ايزابيل» ، الزوجة الثانية لعمورى الأول ، ملك بيت المقدس الأسبق . ولم يكن لجاى الحق فى وراثة عرش زوجته ، حسب قانون المملكة ، لذلك أسرع الأمراء بتزويج ايزابيل من كونراد دى مونتفرات ، مما أغضب جاى وأحدث خلافًا وانشقاقًا خطيرًا بين صفوف الصليبيين أمام عكا .

وكان فيليب أغسطس ، وريتشارد قلب الأسد قد وصلا ، إلى جزيرة صقلية ، وأمضيا فيها شتاء عام ٥٨٧ هـ (١١٩١م) ، وفى ربيع ذلك العام ، إرتحل فيليب بقواته البحرية إلى عكا ، بينما ظل ريتشارد فى قبرص ، وقضى فصل الربيع بها ؛ فى الوقت الذى كان الصليبيون أمام عكا ينتظرون حضورهم فى قلق بالغ . وكان فيليب ، قد وصل إلى صور ، قبل توجهه إلى عكا حيث رحب به كونراد هناك ، ثم صحبه إلى عكا التى وصلوا إليها يوم الثانى عشر من ربيع الأول ٥٨٨ هـ (٢٠ أبريل ١١٩١م) . ولم يكن مع فيليب سفن كثيرة ، وإنما كان معه ست (بطس) كبار عظيمة[١] . وقد بادر فيليب بمهاجمة عكا ، فور وصوله لها ، وتشجع بقية الصليبيين بضرب أسوار المدينة بالمنجنيقات ضربًا متواصلاً .

وأثناء عمل هذه القوات الصليبية أمام عكا ، وصل ملك انجلترا ، ريتشارد قلب الأسد ثالث عشر جمادى الأولى (٨ يونيو ١١٩١م) ، فى خمس وعشرين سفينة كبيرة مملوءة بالرجال والعتاد ، فتقوى به الصليبيون واشتدت به نكايتهم فى المسلمين . وقد امتدح ابن الأثير ريتشارد بقوله عنه : «وكان رجل زمانه ، شجاعةً ومكرًا وجلدًا وصبرًا ، وبُلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثيل لها»[٢].

ولقد سجل التاريخ للمسلمين بعكا وحاميتها الإسلامية صفحات مضيئة من نور ، لما قاموا به من الدفاع عن بلدتهم وديارهم أمام هذا الحصار الرهيب والقذف المتواصل بالمجانيق الذى تعرضت له مدينتهم . ولقد ظلوا فى

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٥ .

(عندما خرج ريتشارد من صقلية قاصدًا عكا ، هبت في الطريق ريح قوية على أسطوله فجنح به إلى جزيرة قبرص . وكانت قبرص آنذاك تابعة لبيزنطة المعادية للصليبيين آنذاك فاستولى ريتشارد عليها وغدت الجزيرة من أملاكه . وبعد أن ترك ريتشارد بعض رجاله لحكم الجزيرة أبحر إلى عكا فوصلها فى ٨ يونيو ١١٩١م) .

صمودهم ، تحت قيادة بهاء الدين قراقوش ، فى شجاعة تستوجب الاحترام .
ولمَّا وصل ريتشارد بقواته أمام عكا ، لم يثن ذلك عزم صلاح الدين عن مواصلة القتال ودفع الحصار عن عكا ومن بها من المسلمين . وبمجرد أن وصله خبر وصوله ، أمر صلاح الدين بتجهيز «بطسة» كبيرة مملوءة بالرجال والعدد والأقوات وتسييرها إلى عكا . «فتجهزت وسُيِّرت من بيروت ، وفيها سبعمائة مقاتل فالتقت مصادفةً بسفن ريتشارد التى قامت بالاشتباك معها ، وصبر مَنْ فيها على القتال برغم قلة عددهم مقابل أعداد الصليبيين ، وقاموا قدر استطاعتهم . ولمَّا يئسوا من الخلاص رفضوا الاستسلام ، وظلوا يقاتلون أربعين سفينة من سفن العدو ، نجحوا فى إحراق واحدة منها . ورفض قائد البطسة يعقوب الحلبى ، المعروف «بغلام ابن شقتين» تسليم السفينة لريتشارد «وقام بخرقها خرقًا واسعًا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع من فيها ، وكانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم»[1].

«وقد قام الصليبيون بعمل «دبابات» ، وزحفوا بها ، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد ، وأخذوا تلك الدبابات . فلما رأى الصليبيون ذلك عديم النفع قاموا بعمل تل كبير مستطيل من التراب ، قاتلوا من خلفه واستظلوا به ، فلم تعد تصل إليهم سهام ولا نيران المسلمين . فحينئذ عظمت المصيبة على مَنْ بعكا من المسلمين ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم، ولم يقدر لهم صلاح الدين على نفع . وفى يوم الجمعة ، سابع عشر جمادى الآخرة ، استولى الصليبيون على عكا»[2] ، «وسمحوا لحاميتها بالخروج منها مقابل فدية قدرها مائتى ألف دينار ، وتحرير ألفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين ، ورد صليب الصلبوت»[3] .

(1) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٥ .
(2) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٠ .
(3) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

وهكذا دخل الصليبيون عكا ، بعد أن حصروها قرابة عامين ، ولقد استنكر صلاح الدين تلك الشروط التى سلُمت بمقتضاها المدينة للصليبيين ويقول فى ذلك ابن شداد[1] : «ولمَّا وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك إنكاراً عظيمًا وعظمُ عليه الأمر وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع ، واضطراب الأمراء ، وتقسم فكره وتشوش وعزم أن تكتّبْ فى الليلة كتب مع الرجل العوّام[1] وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه. وهو فى مثل هذا الحال ، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد ، وذلك فى ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الأخرى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصاح الإفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين ، وانحصر كلام العقلاء من الناس فى تلاوة : إنا لله وإنا إليه راجعون» .

ولقد أثار سقوط عكا فى يد الصليبيين أسى وحزن المسلمين ، كما أثار أسى وحزن صلاح الدين . وزاد من هذا الحزن ما قام به الصليبيون من عدم الوفاء بعهدهم ونقضهم لأهم شروط الصلح معهم ، وهو إطلاق سراح من أُسر فى عكا من المسلمين ، وقيامهم بإجراء مذبحة لهم قُتل فيها ثلاثة آلاف أسير[3] .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٦١ .

(٢) خـــرج يوم الجمعة ١٧ جمادى الأخرة سنة ٥٨٧ هـ ، من عكا رجل عوام فى البحر (يُدعى عيسى العوام) ، ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه وأنهم تيقنوا الهلاك حتى أخذت البلد عنوة ضُربت رقابهم وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب ومائتى ألف دينار وخمسمائة أسير مجاهيل ومئة أسير معينين من جماعتهم وصليب الصلبوت على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال ، والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم (ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٤٤ ، ٤٥) .

(٣) ابن شداد : نفس المصدر ، ص ١٦٥ .

● المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٠٥ .

وبرغم نجاح الصليبيين فى إسقاط عكا فى أيديهم وفشل المسلمين فى محاولة إنقاذها ، إلا أن الخلاف سرعان ما دب بين أهلها الأصليين ، الذين كانوا قد نزحوا منها عندما استولى عليها المسلمون وعادوا إليها لاسترداد ممتلكاتهم ونفوذهم واستئناف نشاطهم السابق بها ، وبين الصليبيين الفاتحين الجدد للمدينة ، والذين اعتبروا المدينة وما فيها غنيمة لهم بعد انتصارهم على المسلمين . كذلك تجدد النزاع القائم بين جاى لوزيجنان وكونراد مونتفرات حول وراثة مملكة بيت المقدس . واستعان جاى ، فى هذا النزاع بفرسان الداوية وريتشارد قلب الأسد ، بينما استعان خصمه كونراد بملك فرنسا فيليب أغسطس . وبرغم عقد الصليبيين لمجلس موسّع لحل وفض ذلك النزاع بين الرجلين (٢٧ يوليو ١١٩١م) ، إلا أنَّ ذلك المجلس لم يصل إلى حل يرضى الطرفين .

هذا ، وقد أصاب فيليب أغسطس المرض ، أثناء تواجده فى عكا ، ولم يستطع تحمل البقاء أكثر من المدة التى قضاها فى بلاد الشرق بعيدًا عن بلاده ، وقرر العودة إليها ، بسبب ما وصله من أخبار عن بعض المشاكل الداخلية التى وقعت بها أثناء غيابه . كذلك فإنه ضاق زرعًا بالمشكلات التى خلفها فتح الصليبيين لعكا والنزاع بين أهلها الأصليين والفاتحين لها ، والنزاع بين جاى وكونراد ، وآثر العودة إلى بلاده ، تاركًا حل تلك المشاكل لزميله ريتشارد قلب الأسد . وقد أبحر فيليب من ميناء صور إلى بلاده فرنسا ، عن طريق «برنديزى» ، يوم الثالث من شهر أغسطس سنة ١١٩١م .

وهكذا خلت ساحة قيادة الصليبيين فى المشرق الإسلامى لريتشارد ، المتهور ، الذى بادر بإجراء تلك المذبحة التى استشهد فيها ثلاثة آلاف مسلم عند تل العياضية[1] ، لمجرد أن تباطأ المسلمون ، بعض الوقت ، فى تنفيذ شروط

---

(١) عماد الدين الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٩٣ .

صلح تسليم عكا ؛ الأمر الذى جعل صلاح الدين يواصل الحرب ضد القيادة الصليبية الجديدة . وقد وضع ريتشارد ضمن خطة زحفه استرداد الساحل الشامى الفلسطينى من عكا حتى عسقلان ، حتى يضمن تموين أسطوله من البحر لقواته المقاتلة بالمؤن والرجال والعتاد . وليضمن كذلك تمويل سفن المدن الإيطالية له بما يحتاج لمواصلة قتال المسلمين . فاستولى ريتشارد على قيسارية بعد أن استولى على حيفا ، التى كانت قد أخلتها حاميتها الإسلامية . ثم واصل زحفه على «أرسوف» . وعند أرسوف وقعت معركة حامية بين المسلمين والصليبيين قُتل فيها الكثير من الجانبين[1] . ثم سار الصليبيون إلى «يافا» ، ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها .

وبعد هزيمة أرسوف ، سار صلاح الدين إلى الرملة وهنالك اجتمع بأمرائه ومستشاريه ، يستشيرهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بتخريب «عسقلان» حتى لا تقع فى يد العدو ، مثل وقوع عكا فى أيديهم والاستفادة بما فيها . وقد عارضهم صلاح الدين أول الأمر ، فى ذلك الرأى ، لكن غُلب على أمره فى آخر الأمر ، فأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان (٥٨٧ هـ / ١١٩١م)[2] . ولمَّا خربت عسقلان وأُحرقت رحل صلاح الدين عنها ثانى شهر رمضان ، ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وأحرقها ، ثم سار إلى القدس ، بعد تخريبه لقلعة «الماطرون المنيعة ، لتقوية استحكاماتها واعدادها للدفاع أمام زحف ريتشارد فى طريقه للاستيلاء على المدينة المقدسة .

ولا شك فى أنَّه كان لإنتصار الصليبيين فى أرسوف ، دافع كبير لمواصلة ذلك الانتصار على المسلمين ، وتحول الحرب الصليبية لصالحهم فى السنوات

(١) قتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين إسمه «أياز الطويل» ، وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن فى زمانه مثله (ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٨) .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٩ .

(ذكر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٦) حزن أهل عسقلان على تخريبها وبيعهم ما لا يقدرون على حمله بثمن بخس وتشتتهم هم وأولادهم إلى مدن مصر ومدن الشام) .

القادمة ، وطمعهم فى تحقيق هدفهم الأكبر ، وهو الاستيلاء على بيت المقدس من يد المسلمين . ولقد بادر ريتشارد بالفعل ، بقصد بيت المقدس من يافا ، فإتجه إلى اللد والرملة ، وهما الطريق إلى القدس ، وكان صلاح الدين قد خرب الرملة ، فاضطر الصليبيون إلى نصب معسكرهم بين أنقاضها وخرائبها . وقد عسكر صلاح الدين عند «الماطرون» ، فى منتصف الطريق إلى بيت المقدس ، لحمايتها من الصليبيين ، ثم سرعان ما قام صلاح الدين بهدم الماطرون وتخريبها وذهابه إلى القدس وإعدادها للدفاع والقيام بعمارتها[1] .

وما أن وصل ريتشارد إلى الماطرون وبيت نوبة ، صار على بعد أميال قلائل من المدينة المقدسة ، فتهيأ للهجوم عليها فى نهاية سنة ٥٨٨ هـ (١١٩١م) . لكن صلاح الدين فوجيء بإمتناع ريتشارد عن مهاجمة القدس ، وتراجعه بقواته إلى الرملة دون تحقيق هدفه . ويُرجع المفسرون سر هذا التراجع إلى المحادثات السرية التى كانت تجرى آنذاك بين ريشتارد وصلاح الدين برغبة توقف الحرب بينهما والصلح . وكانت هذه المحادثات قد بدأت بين العاهلين الكبيرين الإسلامى والصليبى ، فى أواخر سنة ٥٨٨ هـ (١١٩١م) ، عندما أرسل ريتشارد ، من معسكره بالقرب من بلدة يازور ، إلى صلاح الدين يطلب منه الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح ، بعد أن أتعبت الحرب كليهما . وقد أناب صلاح الدين أخاه الملك العادل فى تلك المفاوضات ، التى لم يكتب لها النجاح لإصرار الصليبيين على استعادة بيت المقدس على حالها الذى كانت عليه سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) ، مع تمسكهم بعسقلان وحصون الأردن . لكن صلاح الدين رفض هذه الشروط متمسكًا بحق المسلمين فى تملك القدس لقداستها عندهم .

وكان من بين الاقتراحات التى اقترحها ريتشارد على صلاح الدين ، بصدد المصالحة ، أن يتزوج الملك العادل ، أخو صلاح الدين من أخت ريتشارد

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٠٨ .

الأميرة جوانا ، أرملة ملك صقلية ، التى اصطحبته من صقلية فى حملته[1] . وقد هدف ريتشارد من ذلك الزواج السياسى أن يشترك المسلمون والصليبيون فى ملك بيت المقدس ومدن فلسطين الساحلية . كذلك أن يسترد ريتشارد صليب الصلبوت وأن يحصل مقدمو الداوية والاستبارية على بعض القرى دون الحصون ، وأن يرحل ريتشارد إلى بلاده فى البحر . وقد وافق صلاح الدين على هذا الاقتراح ، لعلمه باستحالة تنفيذه ، ولعلمه بمكر ريتشارد وهزله[2] ، ورفض أخته الإقتران برجل مسلم حتى ولو كان أميراً[3] .

ولمّا فشل مشروع ريتشارد للصلح مع صلاح الدين ، وانصرافه عن غزو بيت المقدس ، عاد ريتشارد إلى عسقلان وشغل نفسه بإعادة بناء أسوارها وترميمها ، غير أنَّ المسلمين لم يمكنوه من ذلك بسبب هجمات جماعة من الأسدية وغيرهم له ، وتوالى الوقائع بينهما[4] . ونجح ريتشارد فى الاستيلاء على قلعة الداروم فى شهر جمادى الآخرة (٢٣ مايو ١١٩٢م) ، بعد أن قامت حاميتها بالدفاع عنها دفاعًا شديدًا . كذلك قام ريتشارد بمباغتة قافلة عسكرية مصرية كانت فى طريقها للسلطان فى الشام ، وأخذ جميع ما معها ، وأسر الصليبيون من رجالها خمسمائة رجل ، ونحو ثلاثة آلاف جمل[5] .

وقد شجعت ، تلك الانتصارات التى حققها ريتشارد على المسلمين ، على أن يعاود التفكير فى غزو بيت المقدس ، وأرسل فى الوقت نفسه إلى الصليبيين

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) ابن شداد : نفس المصدر ، ص ١٨٩ .

(٣) أورد ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ١٨٩) «انَّ الملكة لمّا عرض عليها أخوها النكاح (من العادل) سخطت من ذلك وغضبت بسببه وأنكرت ذلك إنكارًا عظيمًا وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها «لا تفعل ذلك وكيف تمكن مسلمًا من غشيانها . ثم قال أخوها إنَّ الملك العادل يتنصر وأنا أتمم ذلك وترك باب الكلام مفتوحًا» .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٠٨ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٩ .

فى صور وطرابس وعكا يستنفرهم للذهاب إلى القدس . ولقد تركت إنجازات ريتشارد أثراً سيئًا فى روح الجيش الإسلامى المعنوية ، وطالب بعض الأجناد والأمراء صلاح الدين بالتخلى عن القدس حتى لا يكون مصيرهم على يد ريتشارد مصير أهل عكا .

على أنَّ الموقف بين المسلمين والصليبيين لم يلبث أن تبدل فجأة إلى النقيض، وذلك بسبب الخلاف الذى وقع بين الصليبيين أنفسهم ، ممن يؤيدون الزحف على القدس والاستيلاء عليه، ومعارضى ذلك الرأى. وكان الصليبيون الفرنسيون هم المؤيدون ، بينما كان ريتشارد والانجليز من المعارضين وحجتهم فى ذلك نضوب الماء خارج المدينة بعد تغوير صلاح الدين الآبار[1] . وانتهى الأمر برفض الهجوم، وإنسحاب القوات الصليبية إلى الرملة وطلب الصلح مع صلاح الدين فى العشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ (أواخر يوليو ١١٩٢م).

وكان لإنسحاب قلب الأسد إلى الرملة وقع طيب فى صفوف المسلمين وارتفاع الروح المعنوية بينهم وتأكدهم من يأس الصليبيين فى مواصلة قتالهم وحدة الصراع بين قوادهم ، الأمر الذى جعل صلاح الدين يرفض شروط الصلح الأولى مع الصليبيين. على أن ريتشارد ألح على صلاح الدين فى طلب الصلح بسبب حاجته الملحة فى العودة السريعة إلى بلاده لاضطراب الأمور فيها وحاجتها إلى تواجده قبل فوات الأوان . وقد قدَّر صلاح الدين موقف ريتشارد ، ولهجته المعتدلة فى المكاتبة إليه بصدد شروط الصلح . وبعد أن تم الاتفاق بين العاهلين الكبيرين على قبول مبدأ الصلح ، لم تتبق إلا التفاصيل فيما يتعلق بما سوف يصير عليه مستقبل بيت المقدس وبعض المدن السورية الساحلية . وهنا تنازل قلب الأسد عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس، واكتفى بالتمسك فى حق الصليبيين فى حماية أماكنهم المقدسة ، وعلى رأسها كنيسة القيامة ، مع ضمان حرية الحج والعبادة للمسيحيين .

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

ولقد اتفق الطرفان على أن يمتلك الصليبيون البلاد السورية الساحلية من صور إلى يافا ، على أن تظل عسقلان وما وراءها خرابًا محايدًا ، على أن تبقى داخلية فلسطين بأيدى المسلمين[1] . وبرغم الاتفاق المبدئى على هذه الخطوط العريضة من المصالحة بين الطرفين الإسلامى والصليبى ؛ إلا أنَّ الاتفاق التام على الصلح بينهما قد تعثر بسبب رغبة ريتشارد فى الحفاظ على عسقلان وإعادة تعميرها . فما كان من صلاح الدين من رد على ذلك سوى قيامه بهجوم كبير على يافا ومحاصرتها وأخذها عنوة من الصليبيين فى العشرين من رجب سنة ٥٨٨ هـ (١١٩١م) ، واستولى على ما بها وكان أكثر مما أخذه الصليبيون من الحامية المصرية[2] . على أنَّ صلاح الدين لم يهنأ بيافا ، لسرعة نجدة ريتشارد لها وقدومه من عكا ، على رأس قواته ، وإيقاعه الهزيمة بالمسلمين بعد تقاعس بعض أمرائه عن القتال ، وعلى رأسهم «الجناح» ، أخو المشطوب بن على بن أحمد الهكارى[3] . فانسحب صلاح الدين بقواته إلى «يازور» ومنها إلى «الماطرون» .

ولم يلبث ريتشارد أن أصابه مرض شديد وهو فى يافا ، فخاف أن يموت بعيدًا عن بلاده ، ولذلك أرسل إلى صلاح الدين رسله يتعجل الصلح ويتساهل فى بعض الأمور . ولَمَّا وصل رسول ريتشارد إلى صلاح الدين ، وهو ابن الهنفرى[4] ، وهو من أكابر أولاد ملوك الصليبيين . ويذكر ابن شداد، الذى كان حاضرًا عند صلاح الدين ساعة وصل رسول ريتشارد إليه : «وكان غرضه (صلاح الدين) رحمه الله ، أن يفسخ قاعدة الصلح فإنه التفت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٧ .

(٣) قال الجناح لصلاح الدين : «يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون ، إذا كـان القتال فنحن وإذا كانت الغنيمة فهم» (ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٧) .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٩٦ .

إلىّ فى آخر المجلس ، بعد انفصالهم ، وقال : متى ما صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فإننى لو حدث بى حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر وتقوى الافرنج فالمصلحة أن لا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت . هذا كان رأيه ، قدَّس الله روحه ، وإنما غُلب على الصلح»[1] .

كذلك ذكر ابن شداد تخوف صلاح الدين من الصلح مع الصليبيين بقوله: «قال لى فى بعض محاوراته فى الصلح أخاف أن أصالح وما أدرى أى شىء يكون منى فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قلعته ، يعنى حصنه ، وقال لا أنزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه ، وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة فى الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة وكانت مصلحة فى علم الله تعالى فإنه اتفقت وفاته بُعْيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر فما كان الصلح إلا توفيقًا وسعادة له»[2] .

ولقد تم صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين فى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ (الثانى من سبتمبر ١١٩٢م)[3] ، وهو الصلح الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية السورية من صور إلى يافا ، بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ، أما عسقلان فتكون للمسلمين ، فى حين يتقاسم الطرفان اللد والرملة . أما بيت المقدس فقد تقرر أن تكون فى يد المسلمين ، على أن تكون للمسيحيين حرية الحج والتعبد فيها دون دفع أى ضرائب مقابل ذلك . ومن شروط الصلح أيضًا حرية تنقل المسلمين والنصارى بين بلاد الطرفين . أما مدة الصلح فقد أُتفق على أن تكون ثلاث سنوات وثلاثة

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) ابن شداد : نفس المصدر ، ص ٢٣٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٤٨ .

● المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٠ .

أشهر[1] . وقد ناب عن صلاح الدين فى توقيع الصلح ولدا صلاح الدين الأفضل والظاهر وأخوه الملك العادل ، وناب عن ريتشارد الأمير هنرى دى شامبنى وباليان بن بارزان ، صاحب طبرية[2] .

ولقد قوبل صلح الرملة بالارتياح التام من الجانبين الإسلامى والصليبى ، بعد أن سئموا تلك الحرب المستعرة التى لم يصل أطرافها فيها إلى نتيجة حاسمة، وبعد أن فشل الصليبيون فى تحقيق ما أدعوا أنهم أشعلوها بسببه ، بعد أن استمات المسلمون فى الدفاع عن ديارهم وبذلهم قصارى جهدهم فى محاولة تطهير أرضهم من دنس احتلالهم .

ولقد ظهر هذا الارتياح المشترك واضحًا فيما ذكره مؤرخو هذه الحرب الصليبية ، من أمثال ابن شداد وابن تغرى بردى والمقريزى وغيرهم . فيقول ابن شداد[3] عن يوم عقد الصلح : «وكان يومًا مشهودًا غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى» . وقال ابن تغرى بردى[4] : «وكان يومًا مشهودًا نال الطائفتين فيه من السرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى» وقال المقريزى[5] : «ونودى فى الطرقات وأسواق العسكر (ألا إنَّ الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل» ، وكان يوم الصلح يومًا مشهودًا ، عمَّ فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب ، فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين ، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة ، ودخل خلق

(١) «وعُقدت هدنة عامة فى البر والبحر مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها حادى عشر شعبان - وهو أول شهر أيلول على أن يكون للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور وطرابلس وأنطاكية» (المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٠) .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٦ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٢٣٧ .

(٤) النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٨ .

(٥) السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٠ .

عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة ، فأكرمهم السلطان ومد لهم الأطعمة وباسطهم» .

وبعد توقيع الصلح ، ارتحل ملوك الصليبيين إلى ناحية عكا[1] ، ورحل صلاح الدين إلى القدس ، وسار منها إلى دمشق ، فلقيه الأمير بهاء الدين قراقوش ، بعد التخلص من أسره فى طبرية . ودخل السلطان صلاح الدين إلى دمشق يوم ٢٥ شوال ، وكانت غيبته عنها أربع سنين ، وأذن للعساكر فى التفرق إلى بلادهم فساروا إليها[2] .

وكان صلاح الدين ، قبل إرتحاله إلى القدس ومنها إلى دمشق ، قد أمر بتخريب عسقلان ، حتى لا يطمع الصليبيون فى أخذها ، فقام فى الخامس والعشرين من شعبان بندب «علم الدين قيصر» إلى تخريبها ، وسيَّر معه جماعة من النقابين والحجارين ، ووقع التخريب فيها فى يوم السابع والعشرين من الشهر[3] .

ولقد قام صلاح الدين بتشجيع التجار والحجاج للقيام بتجارتهم وحجهم ، ويقول ابن شداد عن ذلك : «واختلط العسكر ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدو إلـى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا، وكثر ذلك من الافرنج ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم . ولمَّا علم الملك (ريتشارد) كثرة من يزور منهم صعُب عليه ذلك وسيَّر إلى السلطان يسأله منع الزوار ويقترح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابة .

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٨ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ١١٠ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا فى الحج ، فكان يرد منهم فى كل يوم جموع كثيرة مقدمون وأسباط وملوك متنكرون . وشرع السلطان فى إكرام من يرد ومد الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم وعرفهم إنكار الملك ذلك . واعتذر إلى الملك بأن قومًا وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم»[1] وقد أكد ابن تغرى التردد بين بلاد المسلمين والصليبيين من كلا الجانبين بقوله : «وأمِن الناس وتردد المسلمون إلى بلاد الفرنج وجاءوا هم أيضًا إلى بلاد المسلمين وحُملت البضائع والمتاجر إلى البلاد»[2] . وقد كان صلاح الدين حريصًا على مواصلة إتجاره مع بلاد أوربا ، رغم الحرب الصليبية، لدعم إقتصاد بلاده وحل المصاعب الاقتصادية التى واجهت حكمه منذ بداية توليه حكم مصر .

المصاعب الاقتصادية والمالية التى واجهت صلاح الدين فى بداية تكوين دولته :

ولقد واجه صلاح الدين ، وهو يشرع فى تثبيت حكمه فى مصر ، مصاعب اقتصادية ومالية نجمت عن اضطراب أحوال البلاد فى أواخر عهد الفاطميين . وكان للسياسة الاقتصادية الحكيمة التى إتبعها صلاح الدين فى مجابهة ما تعرض له من مشاكل الفضل فى التغلب عليها . كما كان لفشل حركة المقاطعة الأوربية لتجارة المرور بين الشرق والغرب عبر الأراضى المصرية وعودة سفن تجار الجمهوريات الإيطالية إلى الموانى المصرية فى عهد صلاح الدين الفضل الأكبر فى عودة الازدهار التجارى الذى كان لمصر فى عهد الفاطميين[3] .

وقد أشار المقريزى ، وهو بصدد حديثه عن أحداث سنة ٥٦٧ هـ ، إلى

(١) ابن شداد : النوادر ، ص ٢٣٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٤٨ .

(٣) المؤلف : تاريخ مصر الإسلامية ، ص ١٨٢-١٨٤ .

قيام أزمة نقدية فى مصر ذلك العام ، أيام كان صلاح الدين يحكم مصر نيابة عن سيده السلطان نور الدين محمود ، وتحدث عن نفاذ العملة الذهبية والفضية من أسواق مصر ، وأورد ما نصه على لسان القاضى الفاضل : «وفيها عمت بلوى الضائقة بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا وعُدما فلم يوجدا ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك ، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له ، وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له»[1] .

ولم تكن حركة المقاطعة الأوربية لتجارة المرور عبر الأراضى المصرية هى العامل الوحيد فى خلق هذه الأزمة الاقتصادية فى بدء عهد حكم صلاح الدين، وإنما كانت هنالك عوامل أخرى ساعدت على خلقها ، ومنها :

نضوب موارد الذهب من مناجمه المعروفة فى ذلك الوقت ، ونفاد كمية كبيرة من المخزون منه بإرسال صلاح الدين إياها إلى سيده نور الدين محمود وإلى الخليفة العباسى ، فضلاً عن توزيع كمية كبيرة منه بين أفراد أسرته[2] . وقد أدرك صلاح الدين حاجته الماسة إلى الذهب وهو بصدد بناء دولة مستقلة فى مصر وخاصة حين شرع فى بناء جيش وأسطول لمجاهدة الصليبيين[3] . ونجح صلاح الدين فى التغلب على هذه الأزمة الاقتصادية بما قام به من حسن استغلال لموارد البلاد ومن تنظيم لأمورها المالية واصلاح النقد[4] .

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٤٦ .

(٢) Ehrenkreutz : Contributions to the Knowledge of the Financial administration of Egypt in the Middle Ages, BSOAS, V. XVI, Part 3, London 1954, p. 514.

(٣) Ehrenkreutz : Arabic dinars struck by the Crusaders, JESHO, V. II, Part 2, London 1964, p. 178.

(٤) Wiet, G: L'Ègypte Arabe, T. IV, p. 383.

كذلك انتعش اقتصاد مصر فى عهد صلاح الدين بسبب عودة تجارة المرور بين الشرق والغرب عبر أراضيها بعد انقطاعها فترة من الزمن بسبب الحروب الصليبية ، وذلك بعودة الجمهوريات التجارية الايطالية إلى الاتجار مع مصر رغم استمرار الحروب الصليبية . وكان اقتصاد هذه الجمهوريات قد أضير بسبب قرار المقاطعة ولم تعوضها المكاسب والامتيازات التجارية التى نالتها من قادة الصليبيين عما كانت تجنيه من عائد التجارة مع مصر . وقد وازنت هذه الجمهوريات بين مدى ما سوف تستفيده من جانب الطرفين المتنازعين ، المسلمين والصليبيين ، فوجدت أنها سوف تستفيد أكثر من الجانب الإسلامى المعتدى عليه ؛ لذلك رجحت عندها كفة التعامل معه[1] .

وكان للجهود التى بذلها صلاح الدين وخلفاؤه من بعده فى حكم الدولة الأيوبية ، أثر كبير فى جذب التجار الإيطاليين ثانيةً إلى الموانىء المصرية . وقد تغلب على عوامل المقاطعة الرغبة المشتركة بين مصر وهذه الجمهوريات فى الإستفادة من هذا الباب الوفير من الربح فى تجارة الشرق . وفضلاً عن ذلك، فقد أفلحت الجهود التى بذلها صلاح الدين فى تحييد أباطرة بيزنطة فى حربه مع الصليبيين ، وقد تم له ذلك فعلاً بتوقيعه معاهدة سلام فى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م مع الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الثانى[2] . وكان من نتائج هذه المعاهدة أن أجاز البيزنطيون لصلاح الدين أن يعمر المسجد القائم بالقسطنطينية.

وعلى أثر عقد هذه المعاهدة تشجعت الجمهوريات الإيطالية على العودة للإتجار مع مصر من جديد ؛ ذلك لأنَّ من أهم الأسباب التى دفعت هذه الجمهوريات للدخول فى مقاطعة الإتجار مع مصر هو خوف حكامها من تهديد

(١) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٤٥ .

(٢) السيد الباز العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧٣ .

أباطرة بيزنطة لهم وخضوعهم لأوامرهم بعدم الإتجار مع المسلمين[١] .

وقد أدت سياسة التسامح التى اتبعها الأيوبيون إزاء تجار الفرنج وعدم القصاص منهم بسبب اشتراك حكوماتهم فى الحرب إلى جانب الصليبيين ، إلى عودة التجار غير عابئين بتهديدات البابوية . وكانت قرارات البابوية الخاصة بمنع الاتجار مع المسلمين قد لقت اعتراضات كثيرة من جانب تجار الفرنج . كما أوضحت البندقية للبابا «أنوسنت» أنَّ إقفال سوقٍ لها مثل تلك الأهمية أمام تجارها يُعتبر بمثابة ضربة قاضية لاقتصادها . فرضخ البابُ أمام هذه الاعتراضات وقصر الحظر على بيع المواد الخام التى تخدم مباشرة القوة الحربية لمصر[٢] .

ولقد رحب صلاح الدين ، برغم حالة الحرب التى كانت قائمة بينه وبين الصليبيين ، كما سوف نرى ، بالتجار الإيطاليين ، وفتح لهم أبواب بلاده ، وأغراهم بالعودة إلى نشاطهم التجارى السابق بمدينة الاسكندرية . وقد نجحت جهوده فى هذا الصدد ، وتجلى ذلك النجاح فى المعاهدات التجارية التى عقدها مع ممثلى جنوه وبيزا والبندقية فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م[٣] .

وقد أثار ذلك العمل موجة من النقد فى العالم الإسلامى ضد صلاح الدين ، لكن صلاح الدين لم يأبه لذلك ولم يعبأ بما وُجه إليه من نقد ، وبادر بالكتابة فى العام التالى (٥٧٠هـ / ١١٧٤م) إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله يبرر فيها سياسته ، ومما ورد فى هذه المكاتبة قوله : «ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنويين ، كل هؤلاء غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم وتارةً يكونون سفاراً يحتكمون إلى الإسلام فى الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة . وما منهم إلا منْ هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده

---

(١) السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٨١٤ .

(٢) شارل ديهل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٨ .

(٣) Wiet, G: L'Ègypte Arabe, T. IV, pp. 307 , 308.

ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قررت معهم المواصلة»[1] .

ونتيجة لعودة سفن الغرب إلى الإسكندرية نشطت الحركة الملاحية والتجارية فى هذا الثغر ، وقد شهر الرحالة الأندلسى «ابن جبير» ، عند وصوله، وهو فى رحلته للحج، إلى ميناء الاسكندرية سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣م، الأعداد الهائلة من سفن التجار الأوربيين التى جاءت لتحميل تجارة الشرق ونقلها إلى الموانىء الأوربية[2] . وفى شتاء سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧-١١٨٨م ، كان بميناء الاسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من جنوه وبيزا والبندقية وغيرها من الدول الأوربية[3] . وفى الخريف السابق على هذا الشتاء مباشرةً كان صلاح الدين قد سيَّر عددًا كبيرًا من الأسرى الأوربيين للحاق ببلادهم ، ولَمَّا رفض رؤساء السفن نقلهم رفض والى الاسكندرية تسليمهم صوارى مراكبهم ودفاتها إن لم يقوموا بنقل هؤلاء الأسرى مع معاملتهم المعاملة الطيبة[4] .

وبلغ حرص التجار الأجانب على استمرار صلاتهم الطيبة مع حكومة مصر واستمرار نشاطهم التجارى معها أنهم حذروا سنة ٥٨٧هـ / ١١٩٠م صلاح الدين من أن فردريك بارباوسة يُعد حملة صليبية لمهاجمة بلاده[5] . وضمن أحداث سنة ٥٨٨هـ / ١١٩١م يورد ابن تغرى بردى القول عن ازدياد

(١) الباز العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ، ص ٧٢ ، نقلاً عن أبى شامة .

(٢) انظر ، رحلة ابن جبير ، «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٤ .

(٣) هايد : تاريخ التجارة فى الرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ترجمة أحمد رضا ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٤٩ .

(ويعلق هايد على هذا العدد بقوله أنَّ هذا العدد من السفن لا يبدو فى ذاته كبيرًا ولكن إذا علمنا أن الغالبية الكبرى من التجار كانوا يزاولون أعمالهم فى مصر فى الفصل الملائم وأن ربابنة السفن يقضون فصل الشتاء فى بلادهم فإنا نميل إلى التسليم بأن مئات السفن وليس ٣٧ سفينة فقط كانت تتجمع فى ميناء الاسكندرية فى فصول الربيع والصيف والخريف) .

(٤) العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ، ص ٢٠٢ .

(٥) العرينى : نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

التبادل التجارى بين بلاد المسلمين والفرنج وازدياد تردد التجار ما بين مصر وأوربا بسبب الصلح الذى عقده صلاح الدين مع الصليبيين والأمان الذى أعطاه للتجار فى ذلك العام[1] .

وكانت البندقية أول المدن التجارية الأوربية التى سارعت بإعادة العلاقات التجارية مع مصر ، وتضمنت معاهدتها التى عقدتها مع صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م منحها تسهيلات واسعة لتجارها فى ميناء الاسكندرية[2] . وجاءت جنوة ، بعد البندقية ، وعقدت معاهدة مع صلاح الدين فى نفس العام، وسُمِح لها ، بمقتضى هذه المعاهدة ، باتخاذها قنصلاً لها فى الاسكندرية يشرف على تجارها المقيمين فى المدينة وعلى تجارها المترددين عليها . إلا أن جنوة لم تعين قنصلاً لها فى الاسكندرية إلا فى سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م .

كذلك أرسلت بيزا سفيرها «الدبراندو» إلى القاهرة وعقد مع صلاح الدين معاهدة تجارية ذات شروط سخية . واستمرت حكومة بيزا على وئام تام مع صلاح الدين ؛ حتى أنَّ صلاح الدين أشرك البيزيين معه فى الدفاع عن مدينة الاسكندرية حين تعرضت لهجوم الصليبيين عليها فى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م[3].

هذا ولم تنته العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية التجارية ومصر بوفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٢م[4] ، فقد واصل خلفاؤه من بعده سياسته إزاء الفرنج وتجارهم ، واستمروا فى الترحيب بهم ؛ الأمر الذى أدى إلى نتائج طيبة فى العصر الأيوبى[5] . وقد قامت كلٌّ من جمهوريتى بيزا والبندقية

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٨ .

(٢) العرينى : نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

(٣) سامى سعد : أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الادنى والجمهوريات الإيطالية من ١١٠٠ إلى ١٤٠٠م ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٧٠ ، ٧١ .

(٤) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى حسن وحسن محمود ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ ١ ، ص ١٥٠ .

(٥) Wiet, G: L'Ègypte Arabe, T. IV, p. 308.

بإرسال سفير لها لعقد معاهدة مع الملك العادل ، أخى صلاح الدين ، الذى صار فى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م سلطانًا على مصر وصاحب الجانب الأكبر من أملاك صلاح الدين بالشام . ووصل سفير بيزا (مارزوكو تيبرتى) Marzucco Teperti إلى مصر فى أواخر سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م وعقد مع الملك العادل معاهدة تجارية فى أوائل العام التالى[١] ، وضمنت هذه المعاهدة للبيازنة امتيازاتهم الأولى التى حصلوا عليها زمن صلاح الدين[٢] .

ووصل سفير البندقية إلى مصر عام ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م ، وعقد معاهدة مماثلة مع الملك العادل الأيوبى[٣] . وتعتبر هذه المعاهدة من أهم المعاهدات التى عقدتها البندقية مع حكومة مصر ؛ إذ أصبحت ، بمقتضاها ، صاحبة المركز التجارى الأول بين الدول الأوربية فى مصر والشام . وقد أعفت مصر فى هذه المعاهدة تجار البندقية من عدة ضرائب مباشرة ومنحتهم حرية مطلقة فى الاتجار فى اللآلئ والأحجار الكريمة والفراء . كما سمحت لها الحكومة المصرية ببناء فندق ثانٍ لتجارها فى الاسكندرية إضافةً إلى فندقها الأول الذى كانت قد بنته فى المدينة أيام حكم الفاطميين . كذلك صرحت لها ببناء كنيسة داخل هذا الفندق وبناء عدد من الحمامات[٤] . وحصلت البندقية أيضًا ، بمقتضى هذه المعاهدة ، على حق تعيين قنصل لها فى الاسكندرية وتعيين نائبٍ له فى دمياط

(١) سامى سعد : نفس المرجع ، ص ٧٢ .

(٢) هذه الوثيقة لا تزال محفوظة فى دور الأرشيف الأوربية (مصر الإسلامية) مع وثيقتين أخريتين ، وهى كل الوثائق التجارية التى وصلتنا وتختص بالعلاقات التجارية بين مصر والجمهوريات التجارية الإيطالية فى عهد الأيوبيين . وهذه الوثيقة عبارة عن مكاتبة بين الملك العادل والقناصل ببيزا ، أما الوثيقتان الأخريتان فالأولى عبارة عن شكوى بعض التجار البيازنة والبنادقة والفرنج مقدمة إلى الملك العادل وهى مؤرخة فى سنة ١٢٠٨م (٦٠٥هـ) ، والثانية هى نص مكاتبة متبادلة بين أسقف بيزا والقناصل بها إلى الملك الكامل ومؤرخة بسنة ١٢١٥م (٦١٢هـ) (أحمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية - مصر الإسلامية ، مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس - أبريل ١٩٦٩ ، جـ ١ ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٧) .

(٣) العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ، ص ٢٠٣ .

(٤) Wiet, G: L'Ègypte Arabe, T. IV, p. 385.

يرعيان مصالحها فى الشام . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح قنصل البندقية أهم القناصل الأوربيين فى مصر ، وأصبح له ، بفضل هذه المكانة ، الحق فى التشرف بمقابلة السلطان بالقاهرة عشر مرات فى السنة . كذلك تضمنت هذه المعاهدة السماح للبندقية بحماية الحجاج الأوربيين أثناء حجهم إلى بيت المقدس. وقد رأت البندقية أن هذا التعهد من جانب الحكومة المصرية يعطيها الحق فى فرض حمايتها على المسيحيين الغربيين بكافة طوائفهم وفى كل الأوقات فى الأراضى المسيحية المقدسة . وقد قام قنصلها فى القدس ، فعلاً فيما بعد ، بواجبات هذه الحماية[١] .

وقد حرصت البندقية حرصًا شديدًا على الامتيازات التى حصلت عليها بمقتضى هذه المعاهدة ، وحاولت جهدها أن تثبت أمام الحكومة المصرية بأنها جديرة بهذه الثقة الكبيرة التى أولتها إياها السلطات المصرية . لذلك لم يتوانى البنادقة فى تزويد مصر بما تشددت الكنيسة فى تحريم بيعه للمسلمين من أسلحة وذخيرة وأخشاب ورقيق[٢] .

على أنه برغم تلك الميزات السخية والتسهيلات الكبيرة التى أعطتها مصر لهذه الجهوريات الإيطالية ؛ إلا أنها سرعان ما كانت تنحاز إلى الصليبيين فى مشروعاتهم العسكرية ضد مصر إذا ما بدى لها بريق من الأمل فى نجاح تلك المشروعات ، وكان ذلك أيضًا رغبةً منهم فى تحقيق المزيد من الكسب المادى .

ففى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م ، استجابت الجمهوريات الإيطالية جميعها لقادة الحملة الصليبية الخامسة ، وشاركت فى نفس العام فى الحملة الصليبية على مدينة دمياط المصرية بغرض الاستيلاء على هذا الثغر التجارى الهام الذى يخدم مصالحها التجارية[٣] . وقد أبدت سفن تلك الجمهوريات نشاطًا زائدًا فى

(١) أحمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٢) Wiet, G: L'Ègypte Arabe, T. IV, p. 384-385.
(٣) سامى سعد : أسس العلاقات الاقتصادية ، ص ٧٧ .

محاولة هدم أسوار المدينة والاستيلاء عليها . ولكن بعد فشل هذه المحاولة ، عاود تجار البندقية إبداء رغبتهم في العودة للتعامل التجارى مع مصر ، وقدَّم حكامهم اعتذاراتهم للحكومة المصرية عمّا بدر منهم فى حق مصر ، وسرعان ما قبلت منهم الحكومة المصرية تلك الأعذار وعفت عنهم . وقد قدم ممثلو البندقية إلى مصر فى نفس العام (٦١٢هـ / ١٢١٥م) لتجديد معاهدتهم السابقة مع سلاطين الأيوبيين(١) .

وظلت البندقية ، بعد ذلك ، على علاقتها الطيبة مع مصر ، والدليل على ذلك أنها أرسلت فى سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م سفارة من رجلين إلى الملك العادل (الثانى) وعقدت معه معاهدة تجارية جديدة جددت فيها الحصول على الكثير من الإعفاءات والامتيازات(٢) ، كذلك أرسلت البندقية إلى مصر سفارة أخرى سنة ٦٢٤هـ / ١٢٣٤م ، فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لتأكيد الامتيازات التى حصلت عليها من أخيه الملك العادل (الثانى)(٣) .

ويدلنا تجدد هذه المعاهدات وحرص البندقية عليها واحترام ما جاء فيها من بنود على أن حكومة البندقية كانت حريصة على أن تثبت لكل حاكم جديد يتولى الحكم فى مصر عن رغبتها الأكيدة فى استمرار صلاتها التجارية معه . ومن الطبيعى أن تحذو بقية الجمهوريات الإيطالية حذو البندقية فى استمرار علاقاتها التجارية الطيبة مع مصر رغم استمرار الحروب الصليبية .

وهكذا نرى أن سياسة البابوية وقادة الحروب الصليبية قد فشلت فى فرض الحظر التجارى على مصر والمقاطعة الاقتصادية ، وبالتالى فشلوا فى ضرب اقتصاد مصر فى العصر الأيوبى بحرمانها من المورد المالى الهائل الذى كانت تحققه من وراء تجارة المرور العالمية بين الشرق والغرب .

---

(١) Wiet, G: L'Ègypte Arabe, T. IV, p. 385.

(٢) سامى سعد : أسس العلاقات ، ص ٧٩ .

(٣) سامى سعد : نفس المرجع السابق ، ص ٧٩ .

وبعد هذا الصراع الطويل مع الصليبيين ، الذى انتهى بصلح الرملة مؤقتًا، بينه وبينهم ، والذى استغرق اثنتين وعشرين سنة ، هى كل سنوات حكمه لمصر والشام ، إختار الله تعالى صلاح الدين إلى جواره ، كى يترك ساحة الجهاد من بعده للدولة التى أسسها فى مصر والشام وحملت اسمه الأيوبى ، وللأتراك المماليك الذين حكموها من بعدهم . ولقد تسلل المرض إلى جسد صلاح الدين ، وهو غير مبالٍ به ، وكان كل همه منازلة عدو الإسلام والدفاع عن الديار وحرمة الدين ، تاركًا المرض يتمكن منه حتى صرعه حين وافاه الأجل ، بعد مداهمته له بإثنى عشر يومًا . وكان أول نزول المرض به وهى حمى فى رأسه[1] ليلة السبت سادس عشر شهر صفر سنة ٥٨٩هـ (١١٩٢م) ، وتزايد به حتى ليلة السابع والعشرين منه ، فاحتضر ومات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء[2] ، وكانت وفاته خسارة كبرى للإسلام وللمسلمين .

ولقد علَّق المؤرخ ابن شداد على وفاة صلاح الدين يوم وفاته بقوله : «وكان يومًا لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين . وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا فى ذلك اليوم فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قُبل الفداء لفُدى بالنفس»[3] ، ولقد مات بموته رجاء الرجال وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال .

تُوفى صلاح الدين ، وهو يبلغ من العمر السابعة والخمسين عامًا ، قضاها فى تأسيس دولة قوية حكمت مصر والشام إحدى وثمانين عامًا (٥٦٧-٦٤٨هـ /

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٥١ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٤٦ .
(٣) ابن شداد : نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .
● ابن تغرى بردى : النجوم الزهرة ، ص ٥١ .

١١٧١-١٢٥٠م) ، وكان قدرها ، كقدر منشئها ، التصدى للعدوان الصليبى على الإسلام وعلى المسلمين ، ودحر هذا العدوان ، واقتلاع جذور الصليبيين نهائيًا من على أرض المسلمين على يدهم وعلى يد مماليكم الأتراك الذى ورثوا حكم دولتهم من بعدهم .

وكان صلاح الدين ، قد تسمى بالملك الناصر ، تيمنًا بهذا اللقب الذى يحمل فى طياته أمل نصر الإسلام والمسلمين[١] . وكان من الحكام العظام الذين شمل حكمهم بلاد مصر والشام واليمن وأفريقية والحجاز ، وارتبط إسمه برمز الجهاد فى سبيل الله ورفع راية الإسلام خفاقة فى الآفاق . ولقد لقت شخصية صلاح الدين التقدير والإعجاب من جميع من عرفوه وجالسوه ودرسوا سيرته من الأعداء قبل الأصدقاء مسلمين وغير مسلمين . فلقد أجمع الجميع على شجاعته وشهامته وحبه للجهاد واستخفافه بالموت دونه ، وطلبه للاستشهاد فى كل معاركه التى خاض غمارها ، وتقدمه لصفوف المقاتلين وجرأته وجسارته ، وسعة إنفاقه فى سبيل الله ، وتقتيره فى الصرف على نفسه. ويكفى دليلاً على كرمه أنه لمَّا مات لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهم ناصرية[٢] . وقد ذكر ابن الأثير[٣] ، أن بلغه أن أخرج فى مدة مقامه على عكا ، قبالة الفرنج ، ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال . وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر ، وأنه قد فرَّق جميع ما أخذه من ذخائر الفاطميين ، وكان عددًا لا يُحصى من سائر

(١) ولو أنَّ هذه التسمية أغضبت الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، إذ أرسل فى سنة ٥٧٧هـ يعاتبه فى تسمية نفسه بالناصر ، مع علمه أنَّ الخليفة قد سبقه فى اختيار هذا اللقب لنفسه (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٥١٧) .

(٢) وأضاف ابن تغرى بردى إلى ذلك (النجوم الزاهرة ، جـ ، ص ٥٢) أنه لم يخلِّف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٥ .

الأنواع ، ولم يحتفظ لنفسه بشىء منه . وذكر السيوطى[1] أنه لما توفى صلاح الدين وصل إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد رسول صلاح الدين من دمشق، وفى صحبته لامة الحرب (عدة الحرب) التى لصلاح الدين وفرسه ودينار واحد وستة وثلاثون درهمًا ، لم يخلف من المال سواها .

كذلك أجمع المؤرخون على تواضع صلاح الدين ؛ حتى أنَّ من جالسه كان لا يشعر بأنه يجالس سلطانًا لشدة هذا التواضع ، وأنه لم يتكبر على أحد من أصحابه ، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك ، «وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ، ويعمل لهم السماع ، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير»[2] . وكانت مجالس صلاح الدين منزهة عن اللهو والهزل ، وكانت حافلة بأهل العلم والفضل وقارئى القرآن ورواة الحديث[3] . وكان لا يصلى إلا فى جماعة ، وله إمام راتب ملازم ، وكان يصلى ، قبيل الصبح ، ركعات إذا استيقظ[4] . وكان ، رحمه الله ، شديد الحياء ، سريع الدمعة ، شديد الخوف من الله ، وكان «من محاسن الدنيا وغرائبها»[5] . وكان يحب العدل ، يجلس فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء . وأكثر صلاح الدين من بناء المدارس ، فبنى سنة ٥٧٢ هـ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى ، التى عُرفت بتاج المدارس ، لشرفها بجوار مشهد الإمام الشافعى[6] . وأنشأ أيضًا مدرسة المشهد الحسينى[7] . وجعل دار الوزير

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ٥١٩ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر ، ص ٢٢٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٣ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٥٢ .

(٦) السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ٢٢٥ .

(٧) ومحلها الآن الإيوان الشرقى عند المحراب الحالى لمسجد الإمام الحسين بحى الحسين بمنطقة الجمالية بمدينة القاهرة (السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤) .

عباس الفاطمى مدرسة للحنفية[١] . كذلك بنى المدرسة الشافعية ، المعروفة بمدرسة زين التجار[٢] ، ووقف على هذه المدارس وقفًا كبيرًا[٣] .

وبنى صلاح الدين خانقاه سعيد السعداء[٤] ، وهى أول خانقاه أقيمت فى الإسلام . أنشأها لإقامة فقراء الصوفية الواردين على مصر من البلاد الشاسعة، ووقفها عليهم سنة ٥٦٩ هـ ، ورتب للصوفية فيها فى كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا ، وبنى لهم بجوارها حمامًا . كذلك بنى صلاح الدين مارستانًا داخل مدينة القاهرة ، وأوقف له وقفًا جيدًا[٥] كذلك بنى قلعة الجبل ، ثم قلعة المقس ، ثم سور القاهرة ، وله بالقدس مدرسة وخانقاه[٦] .

وقد قام عدد من الشعراء المعاصرين لصلاح الدين ، بمدحه وإبراز فضائله، ومنهم الشاعر الحسن بن على الشاتانى ، والشاعر ابن الشحنة الموصلى ، الذى امتدحه بقصيدة عدد أبياتها ١١٣ بيتًا . كذلك امتدحه الشعراء : ابن قلانس ، الشاعر السكندرى ، والشاعر ابن الدروى ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتى ، والإربلى ، ومحمد بن إسماعيل بن حمدان[٧].

ولقد أنجب صلاح الدين ستة عشرة ولدًا ذكرًا وابنة واحدة ، وكان الأمير الأفضل على هو أكبر أبنائه ، وهو المستحق بوراثة الحكم بعده ، لكن الذى

---

(١) وهى المدرسة المعروفة بالمدرسة السيوفية (السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة) .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٥٥ .

(٣) ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ، ص ٥١٨) أنّ هذه المدرسة بناها صلاح الدين فى موضع كنيسة من تلك الكنائس التى أحدثها الصليبيون فى بيت المقدس ، وقام بهدمها ، أما الكنائس القديمة ، وبخاصة كنيسة القيامة فقد أبقاها على حالها .

(٤) الخانقاة ، مفرد خوانق ، أو خانقاوات ، أحدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة ، جُعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة (السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧) .

(٥) عطية القوصى : تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، نقلاً عن أبى المحاسن بن تغرى بردى ، جـ ٦ ، ص ٥٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٧) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٩ .

خلفه فى السلطنة إبنه العزيز عثمان ، الذى كان نائبًا عن أبيه فى مصر أثناء إنشغال صلاح الدين بفتح السواحل بالبلاد الشامية ، وقد وُلد بمصر سنة ٥٦٧هـ[1] .

رابعاً : الأيوبيون بعد صلاح الدين ودورهم فى رد العدوان الصليبى :

١ - سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ / ١١٩٢ - ١١٩٨ م) :

يوم أن توفى صلاح الدين[2] ، كان إبنه العزيز عثمان ينوب عنه فى مصر، وكان يقيم فى دار الوزارة فى القاهرة ، فبايعه قواد عسكر أبيه ، كذلك بايعه قواد عسكر أخيه الأكبر الملك الأفضل .

وثار الأخ الأكبر على أخيه العزيز محتجًا على توليه السلطنة مكانه ، وكان يلى أمر الشام ، فسار إليه العزيز بجيشه وحصره بدمشق . واستغل الملك العادل بن نجم الدين أيوب ، أخو صلاح الدين ، العداء الذى نشب بين الأخوين والقتال الذى وقع بينهما لصالحه ، فشجع العزيز على مواصلة قتال أخيه حتى تؤول السلطنة إليه بعد وفاة العزيز . وخرج العزيز لقتال أخيه الأفضل فى بلاد الشام مرة ثانية وترك عمه العادل ينوب عنه فى حكم مصر . لكن العادل حاول أن يجمع السلطة فى يده حتى خاف العزيز منه أن يعزله عن السلطنة وأن يستأثر بها دونه ، فعاد إلى مصر مسرعًا دون أن يحسم الأمر مع أخيه الأفضل . وجرى الصلح بين الأخوين على أن يعود الأفضل إلى مملكته بدمشق وأن يقيم العادل مع ابن أخيه العزيز بمصر وتوليهما معًا تدبير أمور

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٢ .

(٢) دُفن صلاح الدين بقلعة دمشق ، إلى أن بُنيت له قبة شمالى الكلاسة ، التى هى شمال جامع دمشق، ثم نُقل من مدفنه إلى هذه القبة يوم عاشوراء سنة ٥٩٢ هـ ، ثم بنى ابنه الملك العزيز إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية ، لما ملك دمشق من أخيه الملك الأفضل (ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٥٣) .

الدولة ، وأن تكون حلب للملك الظاهر غياث الدين غازى[1] .

وخرج العادل مع العزيز ثانيةً لمحاربة الأفضل ، فحصراه فى دمشق واستوليا عليها بعد عدة معارك وقع بعدها الأفضل أسيرًا فى يد أخيه . وقد قام العزيز بنفى أخيه الأفضل إلى بلدة صرخد ، وعاد العزيز إلى مصر ، بعد أن أقام عمه العادل بدمشق نائبًا عنه فيها . وظل العادل بدمشق حتى وفاة العزيز ، فى العشرين من شهر المحرم سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م[2] .

وكان العزيز عثمان جوادًا شجاعًا ، عادلاً حليمًا ، كثير الخير رفيقًا بالرعية محبوبًا عندهم ، وكان أبوه صلاح الدين يحبه أكثر من باقى إخوته[3] . ولمَّا مات العزيز كان قد أنجب عشرة أولاد ، وأوصى أن يخلفه فى الحكم إبنه ناصر الدين محمد ، دون أو يوصى بذلك لعمه العادل .

٢ - سلطنة الملك المنصور ناصر الدين محمد (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٨ - ١١٩٩ م) :

تولى ناصر الدين محمد بن العزيز عثمان السلطنة وهو طفل صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره باسم الملك المنصور ، وقام بالوصاية عليه الأتابك بهاء الدين قراقوش ، فاختلف على ولايته أمراء الأيوبيين ، وكاتبوا عمه الملك الأفضل بالحضور وتولى السلطنة . فقدم الأفضل من منفاه فى صرخد ، واستولى على الأمور فى البلاد ، وقام بالحجر على الملك المنصور ولم يُبق له من الأمر سوى الإسم . وحاول الأفضل انتزاع دمشق من الملك العادل فأرسل له قوات لإتمام ذلك ؛ لكن العادل هزم هذه القوات عند بلدة بلبيس (بصحراء

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٥١٩ .

(٢) توفى العزيز عن عمر ناهز السابعة والعشرين سنة ، بعد حكم استمر ست سنين بعد وفاة أبيه صلاح الدين ، وكان موته ، بسبب وقوعه من على فرسه أثناء قيامه بالصيد فى الاسكندرية (ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٥٢) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٢٧ .

الشرقية) سنة ٥٩٦ هـ ، فطلب الأفضل الصلح مع العادل فوافقه على الصلح مقابل أن يحكم الأفضل فى صرخد . ودخل العادل القاهرة ، وجعل من نفسه أتابكًا للملك المنصور ، وسرعان ما قام بعزله عن السلطنة يوم العشرين من شهر شوال ، بعد حكم لمدة سنة واحدة وثمانية أشهر[١] .

٣ - سلطنة الملك العادل سيف الدين أبو بكر (٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٨ م) :

صار الملك العادل سلطانًا على مصر فى ٢١ شهر شوال من سنة ٥٩٦ للهجرة ، وخطُب له بديار مصر والشام . وقام بإخراج الملك المنصور وإخوته من القاهرة إلى مدينة الرها منفيين هناك . واستناب إبنه الملك الكامل محمد عنه فى الحكم ، وعهد إليه بعده بالسلطنة ، وأقسم الأمراء له يمين البيعة[٢] . ولقد ساعدت الظروف التى ألمت بالبيت الأيوبى بعد وفاة صلاح الدين على إبراز أهمية الملك العادل على مسرح الأحداث بصفته كبير ذلك البيت وزعيم آله . كذلك فإن هذه المكانة لهذا الأمير الكبير ألقت عليه مسئولية كبرى على عاتقه فيما يختص بالدفاع عن ديار المسلمين ضد أى عدوان جديد يقع عليها من جانب الصليبيين المتربصين بالمسلمين . وفعلاً كان العادل رجل الساعة ، ورجل المواجهة مع الصليبيين مثلما كان أخوه صلاح الدين ، وذلك قبل توليه السلطنة .

ذلك أنَّ العادل تصَّدى فى سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧م) فى سلطنة العزيز عثمان لبعض الصليبيين الألمان ، الذين جاءوا ، دون قيادة ، إلى الشام وهاجموا السواحل السورية ، وأسرع العادل بتوجيه من العزيز إلى جمع القوى

---

(١) كان للعزيز عثمان عشرة أولاد ، وقد أوصى بالملك من بعده لأكبر أولاده ناصر الدين محمد ، ونص عليه فى الوصية ولم يذكر فى الوصية عمه العادل (ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٦) .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

● المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٥٢ .

الإسلامية ، ونجح فى إيقاع الهزيمة بالصليبيين الألمان عند منطقة تل العجول ، قرب غزة . ثم سارع بالاستيلاء على يافا سنة ٥٩٣هـ (١١٩٧م)[١] . وقد رد الصليبيون ، على ذلك ، بالاستيلاء على مدينة بيروت وميناثها فى الشهر التالى، وشرعوا فى الزحف إلى بيت المقدس . إلا أن العادل ذهب بقواته للدفاع عن بيت المقدس ، وبعث للسلطان العزيز عثمان فى إرسال نجدة مصرية إليه ، فأرسلها له وتمكن العادل بها وبما معه من قوات من الوقوف فى وجه الصليبيين غداة وصولهم إلى المدينة وانصرافهم عنها يجرون أذيال الخيبة وراءهم . ثم خرج العزيز بنفسه ، ومعه عساكر مصر لقتال الصليبيين[٢] ، فنزل على الرملة يوم ١٦ صفر ، «وقدّم الجند الصلاحية والأسدية ، وعليهم شمس الدين سنقر الدوادار ، وسُرا سنقر ، وعلاء الدين شقير ، وعدة من الأكراد ، فلحقوا العادل وهو على تبنين»[٣] .

وسار العزيز عثمان فى أثر الصليبيين الألمان ، فكانت بينه وبينهم وقائع شهيرة آلت إلى رحيل الصليبيين إلى صور ، وقد ركب العزيز والعادل ، فى أثرهم ، فقتلوا منهم أعدادًا كبيرة . وترك العزيز العساكر تحت قيادة العادل ، وعاد إلى القاهرة فى الثامن من جمادى الآخرة ، بسبب وصول خبر مؤامرة تُحاك ضده فى القاهرة . ولمَّا أنهى العادل الحرب مع الصليبيين ، عاد إلى دمشق، بعد أن عقد معهم سنة ٥٩٥هـ (١١٩٨م) ، هدنه لمدة ثلاث سنين[٤] .

ولمَّا صار العادل سلطانًا على مصر ، نجح فى توحيد الدولة الأيوبية من

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .
- ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٧ .
- تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس، بين دمشق وصور (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٢٤) .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤١ .

جديد ، ونجح أيضًا فى توحيد الجبهة الإسلامية ، مرة أخرى ، فى وجه الصليبيين ، ليواصل ، استنادًا على هذه الجبهة ، الدفاع عن ديار الإسلام ودحر ما يقع عليها من عدوان المعتدين . وكان ما أحوج البلاد إلى مثل هذا الفارس لتولى قيادة المسلمين فى حلبة الصراع مع عدوهم ، خاصةً حينما إتجه هذا العدو إلى ضرب قلب العالم الإسلامى آنذاك ، ضرب مصر .

المسلمون والصليبيون فى أواخر القرن السادس الهجرى وأوائل السابع :

تعتبر الحملة الصليبية الثالثة ، حملة صليبية فاشلة ، لم تحقق الهدف الذى جاءت إلى بلاد الشام بسببه[1] ، وهو استخلاص بيت المقدس من يد المسلمين؛ برغم نجاح قادة هذه الحملة فى استخلاص بعض مدن الساحل السورى من يد المسلمين ، أمثال : صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا ، فضلاً عن عكا ، أهم تلك المدن . ولقد صارت عكا ، منذئذٍ هى قاعدة العهد الجديد لمملكة بيت المقدس ، بعد فشل الصليبيين فى الاحتفاظ ببيت المقدس عاصمةً لهذه المملكة .

ولقد أصبحت مملكة بيت المقدس ، مرتبطة بالغرب الأوربى وحماية أساطيل المدن الإيطالية التجارية لكيانها ، وبذلك فقدت استقلالها الذاتى ، وصارت القوى الغربية ، وبخاصة الجمهوريات الإيطالية التجارية تفرض الوصاية عليها وتتدخل فى شئونها . ولقد استفادت هذه المملكة من الاضطراب الذى وقع فى الدولة الأيوبية غداة وفاة صلاح الدين وانشغال البيت الأيوبى الحاكم فى الصراع على الحكم .

ولقد واجه ملك بيت المقدس الجديد «هنرى دى شامبنى» ، عقبات عدة من جانب جاى لوزيجنان ، المطالب بحقه القديم فى المملكة ، والبيزين . فقد استولى جاى على مقاليد الحكم فى جزيرة قبرص ، ومن هناك أخذ فى العمل

(١) رأفت عبد الحميد : قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢١ .

على استعادة حكمه لبيت المقدس مستعينًا فى ذلك بتحالفه مع الأيوبيين[1] ، ثم مع البيازنة ضد الصليبيين ، وفى نفس الوقت مستعينًا بهم ضد البيزنطيين الطامعين فى استرداد جزيرة قبرص منه . كذلك تحالف مع البيازنة ، على أن يعطيهم امتيازات سياسية وتجارية فى مملكته ، مقابل مساعدتهم له فى الاستيلاء على ميناء صور وتسليمه له . وما أن علم ملك بيت المقدس بذلك الاتفاق بينهما حتى حرم على البيازنة الإقامة فى صور ، وقام بطردهم من عكا ، ومن المدن التابعة له ، فأمن بذلك شرهم . وقد ظل العداء قائمًا بين ملك بيت المقدس من ناحية ، وجاى لوزيجنان والبيازنة من ناحية أخرى . ولمَّا توفى جاى سنة ٥٩١هـ (١١٩٤م) وخلفه أخوه «عمورى» فى حكم قبرص ، خفت حدة العداء بين الطرفين لإتباع عمورى سياسة معتدلة فى تعامله مع ملك بيت المقدس .

وفى السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، ظهرت على مسرح الأحداث مملكتان صليبيتان جديدتان فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وهما مملكة قبرص ، ومملكة أرمينية الصغرى . وقد قُدر لهاتين المملكتين أن تتصدرا الحرب مع المسلمين لسنوات عديدة من العقود التالية . ولقد تُوج كل من عمورى لوزيجنان فى قبرص ، وليو الثانى النورمندى فى أرمينية ملكًا على بلاده ، بعد اتصال وتفاهم مع الامبراطور هنرى السادس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة والباباوية . وقد ترتب على ذلك إعتراف ملك قبرص وملك أرمينية بالتبعية للامبراطورية الرومانية الغربية، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تتخذ موقفًا معاديًا من المملكتين فى قبرص وفى أرمينية تظهر نتائجه فى علائق دول أوربا مع بعضها فى تلك العصور ، وفى أحداث الشرق الإسلامى أيضًا .

---

(١) يذكر أبو شامة (الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٧٨) أنَّ رسل جاى حضروا لطلب المساعدة من صلاح الدين .

وكان «هنرى السادس» ، امبراطور ألمانيا (١١٩٠-١١٩٧م) ، من أشد حكام أوربا الغربية حماسة للحروب الصليبية ، وأشدهم كراهية للمسلمين وتعصبًا ضدهم . وقد رأى هذا الامبراطور ضرورة استعادة بيت المقدس من يد المسلمين وإخضاع الشرقيْن اللاتينى والبيزنطى للامبراطورية المقدسة العالمية ، التى كان يحلم بقيامها وبرياستها .

وقد كتب ملك بيت المقدس (هنرى دى شامبنى) إلى هذا الامبراطور يستحثه على القدوم إلى الشام لنجدة الصليبيين[١] ، ولتخليص عظام أبيه (بارباروسة) المدفونة فى صور من أسر المسلمين لها[٢] . كذلك أعد هذا الملك العدة لاسترداد يافا من يد المسلمين ، لكنه توفى فجأة سنة ٥٩٤ هـ (سبتمبر ١١٩٧م) . وكان على الصليبيين أن يبحثوا لعرش مملكة بيت المقدس عن ملك قوى يستطيع التصدى للمسلمين ، فاختاروا عمورى لوزيجنان ملك قبرص لهذا العرش ، بعد أن يتزوج من الملكة (إيزابيل) ، الوريثة الشرعية للمملكة ، وقد تم ذلك الزواج ٥٩٥هـ (١١٩٨م) ، وبذلك توحد تاج قبرص مع تاج مملكة بيت المقدس تحت سيادة عمورى . ولقد بارك معظم أمراء الصليبيين بالشام هذه الخطوة ، كذلك باركها فرسان الداوية والإسبتارية والبابا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى الغرب .

ولقد حاول عمورى ، بعد توليه أمر مملكة بيت المقدس ، إستخلاص يافا من يد المسلمين ، لكنه فشل فى ذلك ، إلا أنه نجح ، عوضًا عن ذلك ، فى الاستيلاء على ميناء بيروت[٣] . وقد مكنت سيطرة الصليبيين على بيروت اشرافهم على ساحل الشام ما بين طرابلس وعكا . ولقد حاول الصليبيون

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) أبو شامة : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ (فملوكها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة) .

الألمان ، عقب استيلاء عمورى على بيروت ، وقيادته لهم الإستيلاء على بيت المقدس . وقد ساروا ، بالفعل ، لتحقيق ذلك ، إلا أنهم حاصروا ، وهم فى طريقهم إلى القدس ، حصن تبنين ، أول صفر سنة ٥٩٤هـ (أواخر سنة ١١٩٧م) ، لكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليه لصمود المسلمين المدافعين عنه ، ولوصول النجدات إليه من سائر البلاد .

ولقد انسحب هؤلاء الصليبيون الألمان عن تبنين إلى صور ، على عزم العودة إلى بلادهم ، بعد فشل حملتهم ، وبعد أن تواصل إلى سمعهم ، خبر وفاة امبراطورهم هنرى السادس فى الغرب[١] . وبذلك انتهى أمر الحملة الصليبية الألمانية دون أن تحقق أى شىء .

على أن الغرب الأوربى خرج من هذه الحرب وسابقتها بنتيجة مؤداها ، أنه إذا أريد للفكر الصليبى النجاح فلابد من القضاء على بيزنطة ، وإذا أريد للوجود الصليبى الدوام فى بلاد الشرق الإسلامى فلابد من تدمير مصر تمامًا ، باعتبار بيزنطة ومصر «رأس الأفعى» ، ومن ثم كانت الحملة الصليبية الرابعة التى خرجت تستهدف مصر ، فأسقطت القسطنطينية . وتحقق الحلم البابوى والفكر الصليبى بالانتصار على دولة متمردة وكنيسة مارقة ، وخرجت ، بعد ذلك ، الحملتان الصليبيتان الخامسة والسابعة ، تبتغى مصر ، إلا أنهما عادتا وقد أُبتليتا بلدغ الأفعى ، وليموت من جراء ذلك ، تدريجيًا ، المشروع الصليبى فى العصور الوسطى[٢] .

الحملة الصليبية الرابعة :

شهدت السنوات المتبقية من القرن السادس الهجرى ، وأوائل سنوات القرن السابع ، حملة صليبية جديدة على بلاد العالم الإسلامى ، عُدت الرابعة

(١) ابن الأثير   نفس المصدر والجزء . ص ٢٤٦
(٢) رأفت عبد الحميد   قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢١

فى الترتيب وفى التوقيت الزمنى . وقد عُرفت هذه الحملة فى الغرب الأوربى، بحملة الأمراء ، لتولى قيادتها عدد كبير من أمراء أوربا وباروناتها فرنسيين وفلمنكيين وغيرهم ، وقد كانت الغلبة فيها للأمراء الفرنسيين ، وعلى رأسهم: بلدوين التاسع ، أمير إقليم الفلاندرز الفرنسى ، وأخوه هنرى ، وكانوا لا يقلون فى حماستهم عن دعاة الحملة الصليبية الأولى . وقد بارك حماسة هؤلاء الشباب الباب «أنوسنت الثالث» ، الذى تولى منصب البابوية سنة ٥٩٥هـ (١١٩٨م) ، وكان شديد الحماس لاستعادة بيت المقدس من يد المسلمين .

ولقد استهدفت هذه الحملة الجديدة مصر ، على أساس ضرب هذه القاعدة الكبرى التى اعتمد عليها الأيوبيون ، ممثلين فى شخص السلطان العادل، فى توحيد الجبهة الإسلامية فى وجه الصليبيين . وظهرت فى أواخر القرن السادس الهجرى ، الدعوة فى غرب أوربا بضرورة إرسال حملة صليبية كبرى ضد مصر ، قلب العالم الإسلامى آنذاك . وسرعان ما أخذت الاستعدادات لهذه الحملة الصليبية تسير سيراً سريعًا ، وتُحشد لها الحشود وتُجمع لها الأموال والأزواد ؛ الأمر الذى يكفل لها النصر والنجاح . وقد راح ، البابا أنوسنت الثالث ، يعمل فى حرية للإعداد لهذه الحملة وتحميس القائمين بها ، بعد أن تخلص من عدو البابوية اللدود ، ملك ألمانيا هنرى السادس ، صاحب المشروعات التوسعية فى الهيمنة على العالم المسيحى ، بوفاته (فى سبتمبر ١١٩٧م) ، وهو فى شرخ الشباب[1] .

ولقد اتفق قادة هذه الحملة على أن تكون وجهة ضربهم ، هى مصر ، بوصفها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين بالشام ، والمصدر الحقيقى الذى يزود الأيوبيين بالموارد البشرية والمادية اللازمة لمحاربة الصليبيين . فإذا ما نجحوا فى غزو مصر ، حسب ظنهم ، سيكون من السهل عليهم استعادة بيت المقدس

(١) عاشور الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٣٣ ، ٧٣٤

طواعيةً واختياراً ولذلك استقر الرأى بين قادة هذه الحملة على أن تكون مصر مقصد هذه الحملة الصليبية الرابعة . وبعد أن حدد الصليبيون وجهة حملتهم ، بقى عليهم أن يوفروا السفن اللازمة لحملهم ونقلهم إلى الشواطىء المصرية ، فلم يكن أمامهم سوى (جمهورية) البندقية لتحقيق ذلك الغرض .

ولقد شهدت البندقية ، آنذاك ، عصرها الزاهر ، أيام حكم الدوق «انريك داندولو» Enrico Dandolo الشهير ، الذى يُعد واحدًا من أعظم حكام البندقية، رغم كونه ضريراً ويبلغ الثمانين من العمر[1] . وكان هذا الدوق يضع مصالح بلاده فوق كل اعتبار ، فوق البابا والكنيسة والدعوة الصليبية ، إذ كان يدير إمارته بعقلية «تاجر البندقية» ، الذكى الصبور ، الذى يزن كل شىء بميزان الربح والخسارة . وبفضل تلك السياسة ، حقق هذا الدوق لجمهورية البندقية السيطرة التامة على حوض البحر المتوسط ، متفوقًا فى ذلك على بقية الجمهوريات (القوميونات) الإيطالية ، جنوه وبيزا وأمالفى .

وكانت من أهداف دوق البندقية ، ضم مدينة القسطنطينية ، المركز التجارى الهام بين الشرق والغرب ، إلى جمهوريته ليتحكم فى طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وقد جاءته هذه الفرصة حين وفد إليه وفد الحملة الصليبية الرابعة يطلبون منه تأجير سفنه لنقل رجال الحملة إلى سواحل مصر . ولم يكن داندولو على استعداد لمعاداة مصر وسلطانها العادل ، الذى تربطه معه معاهدة صداقة حصل بموجبها على تسهيلات تجارية كبرى فى مصر ، وعومل على أثرها التجار البنادقة المقيمون بمصر معاملة طيبة على أنهم رعايا دولة صديقة[2] .

(١) الناصرى الروم ، ص ٤٣٧ .

(٢) Wiet, G: L'Ègypte Arabe, T. IV, p. 384-385.

أنظر ما سبق

وفى صيف عام ٥٥٩هـ (١٢٠٢م) ، أخذ الصليبيون يحتشدون فى البندقية ، استعداداً لنقلهم إلى السواحل المصرية ، لكن الوازع الدينى لم يكن هو المحرك للبنادقة للمشاركة فى هذه الحملة الصليبية ، بقدر ما كانت المصالح الخاصة هى محركهم . وقد انتهزت البندقية فرصة حاجة الصليبيين إلى المال وعجزهم عن دفع ثمن نقلهم بالسفن إلى مصر ، فطلبت من الصليبيين ، فى المقابل ، مهاجمة الصليبيين لميناء «زارا» Zara ، على ساحل دلماشيا فى بحر الأدرياتيك ، وانتزاع ذلك الثغر الهام من ملك المجر (هنغاريا) . ولمَّا كان ذلك الملك المجرى مسيحيًا تقيًا ، شارك فى الحملات الصليبية السابقة ، فقد ارتاب البابا أنوسنت الثالث فى نوايا البنادقة ورفض الموافقة على طلبها . إلا أنَّ زعماء الحملة الصليبية استجابوا لطلبه وقد أُسقط فى يدهم . وهكذا تحول مسار الحملة عن مصر إلى زارا ، البلدة المسيحية الآمنة . وضرب البنادقة والصليبيون الحصار حول الميناء ، الذى لم يستطع أهله المقاومة ، فاستسلموا للصليبيين والبنادقة (فى نوفمبر ١٢٠٢م) .

ولقد بلغ الاستياء حده من جانب البابا ، الأمر الذى جعله يصدر قرار الحرمان من غفران الكنيسة على البنادقة الذين شاركوا فى الحملة على زارا ، والذين تحملوا مسئولية إنحراف الحملات الصليبية عن مسارها الذى قامت من أجله .

وبعد الاستيلاء على زارا ، انتظر الصليبيون حتى شهر مايو (١٢٠٣م) ، وطالبوا الدوق داندولو بنقلهم إلى سواحل مصر ، إلا أنَّ مندوبيه طالبوهم بسداد ما عليهم من دين ، وفى نفس الوقت أخذوا يغرونهم بترك أمر غزو مصر إلى حين والتوجه لغزو القسطنطينية وقد زينوا لهم سهولة فتحها ، بعد الاضطراب الواقع فيها ، بسبب قيام ثورة هناك انتهت بخلع الامبراطور اسحاق الثانى وفرار ابنه الكسيوس إلى الغرب طالبًا المساعدة من البابوية والصليبيين وقد أسرف الكسيوس فى وعوده لكل من البابا والصليبيين والبنادقة . إذا ما

أعيد إلى العرش . فوعد البابا بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت زعامته، ووعد الصليبيين بتسديد الدين الذى للبنادقة عليهم ، ومساعدتهم فى تجهيز الحملة الصليبية إلى مصر ؛ كما وعد البنادقة بإطلاق يدهم فى تجارة القسطنطينية وتضييق الخناق على منافسيهم من تجار بيزا وجنوة .

ولقد استطاع داندولو أن يثبت خيانة البيزنطيين للصليبيين ، وأنهم سبب فشل حملاتهم ، وأنها دولة تتعامل سراً مع المسلمين . وبذلك نجح داندولو فى استغلال كل هذه الظروف ليحوّل الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأساسى لتتجه صوب القسطنطينية بدلاً من مصر[1] .

وفى مطلع القرن السابع الهجرى (٢٤ مايو ١٢٠٣م) وصل الأسطول البندقانى قبالة سواحل القسطنطينية[2] . وضرب الحصار حولها ، وبعد حصار دام شهرين ، سقطت العاصمة البيزنطية فى يد الصليبيين والبنادقة ، وقاموا بنهبها وقتل الكثير من سكانها المسيحيين ، وقام الصليبيون بإقامة امبراطورية لاتينية فى القسطنطينية سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م)[3] .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الرابعة فى تحقيق هدفها المعلن ، وهو غزو سواحل مصر ، توطئة لاسقاط بيت المقدس فى يد قادة هذه الحملة ، بعد أن إنحرفت هذه الحملة عن مسارها إلى زارا والقسطنطينية . فبدلاً من محاربتها

---

(١) الناصرى : الروم ، ص ٤٣٩ .

(٢) «فى شعبان سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣م) ، امتلك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم ، وأزالوا مُلك الروم عنها» - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٨ .

(٣) لم يستسلم البيزنطيون لهذا الغزو الكاثوليكى الغربى ، فقد أقاموا لهم إمارات إقطاعية فى جبال البانيا وابيروس وتراقيا وآسيا الصغرى ، إلى أن استطاع ميخائيل الثامن باليولوجوس البيزنطى الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٢٦١م ، وأنهى على الامبراطورية اللاتينية التي أقامها الصليبيون فى القسطنطينية سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) ، وعادت الامبراطورية البيزنطية إلى سابق عهدها . (عن الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية أنظر ، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٦ صفحات ٦٤٣-٦٤٩)

للمسلمين حارب ، رجالها الصليبيون ، إخوانهم المسيحيين وقاموا بتقتيلهم وسلبهم ونهب ديارهم ، مما يعرى الوجه الحقيقى لهذه الحملات الصليبية التى ارتدت قناع الدين ، وظهرت على حقيقتها بأنها حملات بربرية وحشية استعمارية لا صلة لها بالدين ولا بالصليب .

ولقد كان من نتائج هذه الحملة ، فتور الحماسة الدينية عند المشاركين فيها، واحتلال المصالح الاقتصادية والتجارية لقوادها والقائمين بها بدلاً منها . فضلاً عن نشوب العداء والبغضاء بين النصارى الشرقيين والنصارى الغربيين ، الذى ترتب عليه حرمان الصليبيين بالشام من مساعدة إخوانهم المسيحيين فى القسطنطينية وقت الشدة . وقد جعلت هذه الحملة الطريق البرى إلى الشام أصعب منالاً وأشد خطورة على الصليبيين من ذى قبل . كما أدت هذه الحملة إلى إضعاف مركز الصليبيين بالشام وخراب ديارهم ونضوب المقاتلين فى بلادهم ؛ الأمر الذى جاء نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها . وهو الأمر الذى وقع فى القرن التالى (السابع الهجرى) الذى شهد فشل الحملات التى قام بها الصليبيون على مصر فى بقية عصر حكم الأيوبيين ، والهزائم التى وقعت لهم على يد سلاطين المماليك ، الذين نجحوا فى آخر الأمر ، باقتلاع آخر جذورهم ببلاد الشام والإلقاء بهم فى عرض البحر المتوسط[1] .

---

(١) يتوقف البحث عند هذه النقطة إلتزامًا بالمدة الزمنية المقررة له ، وهما القرنان الخامس والسادس الهجريان (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديان) .

الباب الخامس

دفع المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس العدوان عن ديارهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين)

أولاً : حال بلاد المغرب الإسلامى والأندلس فى القرن الخامس الهجرى

ثانيًا : حكم دولة المرابطين للمغرب والأندلس ودفعهم للخطر الصليبى عن ديارهم

ثالثًا : حال بلاد المغرب الإسلامى والأندلس فى القرن السادس الهجرى

رابعًا : بلاد المغرب والأندلس تحت حكم الموحدين ودفاعهم عنها

دفع المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس العدوان عن ديارهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين)

أولاً : حال بلاد المغرب الإسلامى والأندلس فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) :

(أ) بلاد المغرب الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى :

بدأت حملات المسلمين على بلاد شمال أفريقية ، التى عُرفت عندهم باسم بلاد المغرب ، بعد فتحهم لمصر سنة ٢٠ للهجرة (٦٤٠ م)[1] ، بقيام واليها عمرو بن العاص سنة ٢٣ للهجرة (٦٤٣ م) بفتح إقليمى برقة وطرابلس فى ذلك العام لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم (البيزنطيين) ، الذين كانوا يحكمون المغرب الأدنى ويسيطرون على حوض البحر المتوسط. وتشير الروايات العربية إلى أن عمرو بن العاص أراد ، بعد فتحه لطرابلس (الغرب) ، أن يفتح ماورائها من بلاد أفريقية، وأنه أستأذن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فى ذلك، لكن الخليفة لم يستجب لطلبه خشيةً على جنود المسلمين من أخطار الروم .

(١) ابن الحكم : فتوح مصر ، نشر هنرى ماسيه ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ٥٦ .

وبعد وفاة الخليفة عمر سنة ٢٤ هـ (٦٤٤ م) ، قرر الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فتح بلاد المغرب ، وأرسل فى سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) ، أخاه من الرضاعة «عبد الله بن سعد بن أبى السرح» ، والى مصر ، على رأس حملة قوية إلى بلاد المغرب، اجتاز بها مدينة طرابلس ، وواصل مسيرته إلى أن التقى بجيوش البيزنطيين عند مكان يُعرف باسم «سبيطلة» ، هزمهم عنده . كذلك التقت سفن المسلمين مع أسطول الروم فى معركة «ذات الصوارى»، سنة ٣٤ هـ (٦٥٤ م) ، التى انتهت بأول نصر إسلامى على الروم فى معركة بحرية .

وفى ظل الحكم الأموى للدولة الإسلامية ، بعث الخليفة الأموى الأول «معاوية بن أبى سفيان» قائده «معاوية بن حديج الكندى» ، سنة ٤٥ هـ (٦٦٥م) لفتح المغرب ، ونجح فى فتح مدن قابس ، وبنزرت ، وسوسة من مدن إفريقية (تونس) ، والإغارة على جزيرة صقلية . وتابع هذا الفتح للمغرب القائد التابعى الشهير «عقبة بن نافع» ، الذى ولى الإمارة على المغرب مرتين : (من ٥٠-٥٥ هـ / ٦٧٠-٦٧٥ م) ، و(من ٦٢-٦٤ هـ / ٦٨١-٦٨٤ م) ، نجح فى خلالهما من تثبيت النفوذ الإسلامى فى تلك البلاد، وتأسيس مدينة «القيروان» (٥١-٥٥ هـ) هناك لتكون قاعدة للحكم الإسلامى فى تلك البلاد، تنطلق منها جيوش المسلمين لفتح باقى بلاد المغرب.

وقد قام عقبة ، فى ولايته الثانية ، بحملته الكبرى المشهورة التى فتح فيها المغرب من أدناه إلى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسى واقتحمه بفرسه قائلاً قولته المشهورة : «اللهم فاشهد أنى قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لبقيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد أحدٌ سواك»[1] . ولقد استشهد عقبة سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م ، وهو يقاتل الروم عند قرية تُعرف باسم «تهودة»[2] .

(١) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٣ .

(٢) لا يزال موضع تهودة يُعرف اليوم «بسيدى عقبة» ، وهو عبارة عن واحة جميلة تمتلئ بالنخيل ، بالقرب من مدينة «بسكرة» ، جنوبى مدينة قسنطينة ، وبها مقام هذا الفاتح العربى الكبير .

وواصل الخليفة عبد الملك بن مروان فتوح المسلمين فى المغرب ، على يد قائده «حسان بن النعمان الغسانى» سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) ، الذى نجح فى القضاء على ثورة «الكاهنة» البربرية[١] ، وقتلها فى مكان يُعرف ببئر الكاهنة فى جبال أوراس ، وبنائه مدينة «تونس» سنة ٨٢ هـ (٧٠١ م) . ولم يتوطد حكم المسلمين فى المغرب إلا فى عهد ولاية «موسى بن نصير» (٨٦-٩٥ هـ / ٧٠٤-٧١٣ م) ، بعد أن ثبَّت نفوذه فى المغربين الأدنى والأوسط وقيامه بغزو المغرب الأقصى حتى شواطئ المحيط الأطلسى .

ولقد دخلت بلاد المغرب فى تبعية دولة الخلافة الأموية ، بعد تمام فتحها ، ثم دخلت فى تبعية الخلافة العباسية التى ورثت الخلافة الأموية . وكانت تلك البلاد تحكم إما على أنها ولاية تابعة لوالى مصر ، وإما على أنها ولاية مستقلة عليها والى يحكمها مع بلاد الأندلس تحت تبعية دولة الخلافة . وظل الأمر كذلك حتى انفصلت هذه البلاد عن دولة الخلافة ، وقامت بها مع مطلع القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أربع دويلات مستقلة ، هى : دولة الأغالبة فى القيروان ، ودولة الرستميين الخوارج فى تاهرت ، بالمغرب الأوسط ، ودولة بنى واسول فى سجلماسة ، ودولة الأدارسة العلويين فى المغرب الأقصى .

ومع مطلع القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، تعود الوحدة السياسية من جديد لبلاد المغرب ، تحت راية الفاطميين العلويين ، الذين سينجحون فى إقامة دولة لهم، ويعلنون قيام خلافتهم فى أفريقية سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٨ م)[٢] . لكن الفاطميين ، لم تكن طموحاتهم قاصرة على المغرب ، بل تطلعوا إلى أن تكون مصر قاعدة خلافتهم ، لذلك وجهوا كل جهودهم لفتح

(١) قادت هذه المرأة التى عُرفت باسم «الكاهنة» البربر «البُتر» فى ثورة كبرى ضد المسلمين فى جبال أوراس وضد البربر «البرانس» .

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٥ .

مصر ونجحوا فى ذلك حين استطاع «جوهر الصقلى» ، قائد «المعز لدين الله الفاطمى» أن يفتحها ويتسلمها سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م)[١] . ولاشك فى أنَّ الفاطميين ، بعد انتقالهم إلى مصر ، قد تخلوا تماماً عن المغرب وتركوه لأسرة بربرية محلية تدين لهم بالولاء ، وهى أسرة بنى زيرى الصنهاجيين ، وذلك فإن المعز لدين الله ، حين اعتزم الرحيل إلى مصر سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) ، عهد بحكم ولاية افريقية والمغرب إلى «بلكين بن زيرى بن الصنهاجى» . وقد ظل بلكين موالياً للفاطميين ، بعد رحيلهم إلى مصر ، لكن إبنه وخليفته «الفتح المنصور» ، عمل على الاستقلال ببلاد المغرب عن الخلافة الفاطمية[٢] وذلك سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) .

وظل بنو زيرى على استقلالهم ببلاد المغرب ، إلى أن أرسل إليهم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى قبائل بنى هلال، الذين استقروا فى صعيد مصر ، لمحاربتهم[٣] . وقد قام بنو هلال بالإفساد والتخريب فى بلاد المغرب عندما حلوا بها ، وقضوا على حكم بنى زيرى فيها . وظلت بلاد المغرب فى حالة من الفوضى السياسية حتى قيام حكم دولة المرابطين بها . والذى يدرس حالة المغرب ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، يجد أنه كان يعانى محنة سياسية ودينية كبيرة . وقد أعطانا «البكرى» صورة واضحة لموجة التنبؤ والشعوذة التى عمت جزءاً كبيراً من بلاد المغرب الأقصى فى تلك الفترة . كما صور لنا «ابن عذارى» ، فى كتابه «البيان المغرب» ، حالة الفوضى السياسية التى كان يعيشها المغرب بتلك العبارة المختصرة : «وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس»[٤] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٢٨ .
(كان ذلك يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ / يوليو ١٩٦٩ م) .
(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٥ .
(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ١٤ .
(٤) أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، نقلاً عن ابن عذارى ، ص ٢٩٧ .

ولقد سادت المغرب ، قبل وصول المرابطين إلى حكمه فى القرن الخامس الهجرى ، أربعة قوى هى : قبائل غمارة فى الشمال ، وقبائل برغواطة فى الغرب ، وقبائل زناته ، التى كانت فى نطاق برغواطة ، وطوائف الشيعة الرافضة والوثنيين فى الجنوب .

وكانت قبائل غمارة ، وهى فرع من قبائل مصمودة ، تسكن جبال الريف الممتدة بحذاء البحر المتوسط من نواحى سبته وطنجة غرباً إلى وادى نكور بالقرب من «الحسيمة» شرقاً ، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب مدينة فاس . وقد ظهر فى هذه القبيلة ، فى القرن الرابع الهجرى ، متنبؤون ومشعوذون ، كما قصدتهم الخوارج لمنعة جبالهم[١] .

أما قبائل برغواطة ، فكانوا يسكنون إقليم «تامسنا»[٢] ، وهى الأراضى التى تبدأ من مكان مدينة الرباط الحالية وتنتهى عند بلدة «أزمور» ، عند مصب وادى أم الربيع[٣] ، وهم ، على رأى ابن خلدون ، قبيلة من المصامدة ، وأنها امتداد لقبائل غمارة المصامدة المجاورين لها[٤] .

وقبائل زناته ، التى تشمل مكناسة ومغراوة وبنى يفرن وغيرها من القبائل الزناتية التى تداولت حكم المغرب قبل مجئ المرابطين . وهذه القبائل قبائل سُنية المذهب ، حكمت المغرب بعد زوال نفوذ الأدارسة العلويين منه . وأهم مراكزها إمارة سلا ، وكان يحكمها بنو يفرن ، وفاس وتحكمها مغراوة ولمخمات وتحكمها مغراوة أيضاً . وكانت هذه القبائل من أشد الامارات وطأة على برغواطة ، لكنها لم تستطع القضاء تماماً عليها[٥] .

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٢١٦ .
(٢) تامسنا ، كلمة بربرية بمعنى الأرض القفراء .
(٣) البكرى : المغرب فى وصف افريقية والمغرب ، نشرةدى سلان ، الجزائر ١٩١١ ، ص ٨٧ .
(٤) ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ، ص ٢١٠ .
(٥) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣١٠ .

أما الطائفة الرابعة ، وهى طائفة روافض الشيعة والوثنيين ، الذين استقلوا بحكم بعض النواحى فى بلاد السوس ، فى أقصى جنوب المغرب ، وبخاصة فى مدينة «تارودانت» ونواحيها[1] ، وكان روافض الشيعة قد اختلف المؤرخون فى مذهبهم ، فبعضهم يعتبرونهم إسماعيلية والبعض الآخر يعتبرونهم إمامية . أما العناصر الوثنية التى كانت تقيم فى جنوب المغرب ، فى جبل وعر بنواحى الأطلس الكبير ، فكان أفرادها يعبدون الكبش[2] .

ومن هذا العرض لهذه الدويلات الطائفية ، التى حكمت المغرب حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ، يتبين لنا أن تلك البلاد كانت تعيش فى محنة دينية وسياسية خطيرة ، وأنها كانت فى حاجة إلى معجزة تنقذها من ذلك الوضع الخطير ، وهنا يأتى دور المرابطين . ولاشك فى أن المرابطين كانوا على علم تام بتلك الأوضاع وعلى الأخص بخطورة برغواطة ، أقوى دولة طائفية فى المغرب آنذاك .

بلاد المغرب تحت حكم المرابطين (٤٤٨-٥٤١ هـ / ١٠٥٦-١١٤٧ م) :

يبدأ تاريخ المرابطين فى جناح المغرب الأيمن ، فى الصحراء الغربية ، المعروفة بصحراء «شنجيط» ، أو ما يُسمى اليوم ببلاد «موريتانيا»[3] ، وهم من قبائل صنهاجة اللثام البربرية[4] : «لمتونة» ، فى شمال الصحراء، و «مسوفة» ، جنوباً ، و «جدالة» غرباً . وهى قبائل اتصفت بالشجاعة والاستبسال فى القتال. وقد انتشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق السرايا العسكرية التى أرسلها حكام المغرب الأوائل إلى هذه المنطقة ، وعن طريق التجار المسلمين

(١) الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر هنرى ماسيه ، الجزائر ١٩٥٧ ، ص ٣٩ .
(٢) البكرى : المغرب فى وصف افريقية والمغرب ، ص ١٦١ .
(٣) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٨ .
(٤) كانت هذه القبائل تتقنع وتتلثم ، ولهذا سميت بصنهاجة اللثام ، وقد أخذوا هذه العادة عن زنوج أفريقيا المجاورين ، الذين كانوا يتلثمون لدفع العين الشريرة عنهم .

الذين كانوا يمرون عبر هذه البلاد وهم فى طريقهم إلى بلاد السودان .

وقد ظلت هذه القبائل ضعيفة الإسلام ، متفرقة الكلمة حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ، عندما حدثت فيها تلك الانتفاضة الدينية الإصلاحية التى ألفت بين قلوبهم ووحدت صفوفهم على أسس دينية وأخلاقية صحيحة تحت قيادة زعيمهم الأمير «يحيى بن إبراهيم الجدالى» ، وزعيمهم الدينى الفقيه «عبد الله بن ياسين الجزولى»[1] .

ولقد أقامت هذه الدعوة الدينية دولة صحراوية على أسس دينية صحيحة، قضت على الفوضى السياسية والخرافات والخزعبلات التعبدية التى كان المغرب يتخبط فيها لسنين طويلة ، عقب زوال حكم الفاطميين من المغرب وانتقال حكومتها إلى مصر ، وفى الوقت الذى تولى أمر البلاد فيها حكام الطوائف ورجال القبائل الذين تغلب كل منهم على ما تحت يده .

وقد خرج المرابطون من الصحراء ، يقودهم زعيمهم الدينى «عبد الله ياسين»[2] ، وقائدهم العسكرى «أبو بكر عمر اللمتونى» ، فاتجهوا أول ما اتجهوا إلى بلاد السوس واستولوا على قاعدتها «تارودانت» ، وقضوا على الشيعة والوثنيين فى تلك البلاد ، كما قاتلوا اليهود المنتشرين فى تلك النواحى، فأعادوا ، بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السُنة والجماعة[3] . ثم اتجهوا ، بعد ذلك ، إلى بلاد «الحوز»، واستولوا على عاصمتها «أغمات»، التى اختاروها عاصمة مؤقتة لهم ، حتى بنى أميرهم أبو بكر بن عمر مدينة «مراكش» سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، واتخذوها عاصمة ثابتة لهم[4] .

(١) André Julian : Histoire de l'Afrique Nord, Paris 1952, p. 77.

(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، طبعة نورمبرج ، أبسالة ١٨٤٣ ، حـ ٢ ، ص ٢١-٢٤ .

(٤) قيل أنها سميت بذلك باسم عبد أسود كان يستوطنها ويخيف الطريق اسمه «مراكش» (عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة القاهرة ١٣٣٢ هـ ، ص ١٠٠) .

هذا ولم يقتصر جهاد المرابطين على منطقة الشمال ، بل امتد إلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان الغربى جنوباً ، والذى كان آنذاك ، تحت حكم مملكة «غانا» . وقد جاءت نهاية مملكة غانا وانتشار الإسلام بين أهلها على يد هؤلاء المرابطين فى أواخر القرن الخامس الهجرى . وقد تولى قيادة الجهاد ، فى تلك البلاد ، الأمير أبو بكر ، بعد بنائه مدينة مراكش ، وتركه أمر الحكم فيها لابن عمه «يوسف بن تاشفين»[1] . ويقول ابن أبى زرع ، «أنَّ أبا بكر ، بعد أن فتح بلاد غانا واستولى على ما مسيرته ثلاثة أشهر من بلادهم أُستشهد (سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) بسهم مسموم ، بعد أن استقر له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان»[2] .

وقد تولى يوسف بن تاشفين حكم دولة المرابطين ، منفرداً ، بعد استشهاد ابن عمه أبى بكر ، الذى كان ينوب فى الحكم عنه عند خروجه للجهاد . ويُعتبر ابن تاشفين المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين ، لأنه هو الذى وطد أركان الدولة ودعمّ أساساتها ، ومنحها الكيان الدولى الثابت[3] . وفى خلال مدة حكمه كنائب أو سلطان قام يوسف بن تاشفين بسلسلة من الأعمال الداخلية والخارجية لتدعيم دولته الوليدة وتنظيم أمورها وإصلاح مواردها ، وإخراجها، قدر إمكانه ، من طور البداوة التى كانت عليه إلى طور التمدين .

ومن هذه الأعمال والإنجازات : إتمامه فتح بلاد المغرب الأقصى ، وبنائه أسطولاً حربياً كبيراً ساعده فى امتلاك الثغور الشمالية المطلة على مضيق جبل

(١) يقول السلاوى الناصرى فى ذلك ما نصه : «ثم إن أهل غانا ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم فى المائة الخامسة ، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال وزحف إليهم فاتح المغرب الأمير أبو بكر عمر اللمتونى وفتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر وجعل الكثير منهم ممن لم يكن قد أسلم قبل ذلك على الإسلام فدانوا له ، ثم اضمحل مُلْك أهل غانا بالكلية.

(السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣٠٦ هـ ، جـ ٥ ، ص ١٠٠) .

(٢) روض القرطاس ، جـ ٢ ، ص ٣٥ .

(٣) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٦٥ .

طارق ، وهى ثغور : سبته وطنجة ومليلة . كما عمل على ضم المغرب الأوسط إلى دولته وتوحيده مع المغرب الأقصى . كذلك إتمامه لبناء العاصمة مراكش ، وتأسيسه للدواوين والإدارات الحكومية المختلفة بها ، وسكه لعملات ذهبية وفضية .

واتخذ ابن تاشفين لنفسه لقب «أمير المسلمين» ، ولقب «ناصر الدين» ، وأحاط مُلكه بسياج شرعى بإرسال الخليفة العباسى له تقليداً بحكم ما تحت يده من بلاد وما يفتحه من بلاد الأعداء[1] . وهكذا صار للمغرب فى القرن الخامس الهجرى وحدة سياسية ودينية فى ظل حكم دولة المرابطين القوية ، فى الوقت الذى كان الأندلس فيه يعانى من التفكك السياسى فى ظل حكم ملوك الطوائف[2] .

وفى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، أخذ ابن تاشفين البيعة من بعده لإبنه أبى الحسن على[3] . وفى أواخر سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) مرض ابن تاشفين بقصره بمراكش لمدة عام وشهرين ، وتوفى فى مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦ م)[4] ، ودفن بالقصر . وكان ابن تاشفين قد بلغ ، عند وفاته المائة عام من العمر ، قضى نصفها فى الزعامة والكفاح والجهاد فى سبيل الله، ووصول الدولة المرابطية الكبرى على يديه ذروة عظمتها وقوتها .

وخلف ابن تاشفين ، إبنه الحسن على ، الذى تلقى البيعة من شيوخ القبائل والأكابر والقادة وأخيه أبى الطاهر تميم ، وأُخذت له البيعة ، بعد ذلك، فى سائر قواعد البلاد ، وكان على آنذاك فى الثالثة والعشرين من

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، الجزء الثالث ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ٣١٤ .

(٢) أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٣) لم يكن أبو الحسن على أكبر أبنائه ، وكان أكبرهم إبنه أبو الطاهر تميم ، ولكنه آثر علياً على أخيه لورعه وحزمه ونباهته .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبعة بولاق ١٢٨٣ ، حـ ٢ ، ص ٤٤٨ .

العمر. وقد سار على نهج أبيه فى الحكم ، وفى متابعة الجهاد ، وتحقيق العديد من الأعمال النافعة .

ب- بلاد الأندلس[1] فى القرن الخامس الهجرى :

المراد بلفظ الأندلس أسبانيا الإسلامية بصفة عامة ، وقد أُطلق فى بادئ الأمر ، على شبه جزيرة أيبيريا كلها ، على اعتبار أنها كانت جميعها فى يد المسلمين ، ثم أخذ لفظ أندلس يقل مدلوله الجغرافى شيئاً فشيئاً تبعاً للوضع السياسى الذى صارت عليه الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة حتى صار هذا اللفظ قاصراً ، آخر الأمر على مملكة غرناطة ، آخر معاقل المسلمين هناك ، فى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية .

وبصدد الحديث عن حال بلاد الأندلس فى القرن الخامس الهجرى[2] ، سيقتصر كلامنا على السنوات الأخيرة من عصر دولة الخلافة الأموية للأندلس (٤٠٠-٤٢٢ هـ / ١٠٠٩-١٠٣١ م) ، فى عهد السيادة العامرية وعهد آخر حكام بنى أمية هشام الثالث . وعلى عصر ملوك الطوائف الأول فى حكم الأندلس (٤٢٢-٤٧٩ هـ / ١٠٣١-١٠٨٦ م) ، وعصر حكم المرابطين للأندلس من سنة ٤٢٢ للهجرة حتى نهاية القرن[3] .

---

(١) أشتق العرب كلمة «أندلس» من كلمة «ڤاندلوسيا» ، وهى اسم قبائل الوندال الجرمانية ، التى اجتاحت أوربا فى القرن الخامس الميلادى ، واستقرت فى السهول الجنوبية الأسبانية وأعطتها اسمها ، ولما فتح العرب تلك البلاد عربوا هذا الاسم وجعلوه «الأندلس» .

(٢) تم للمسلمين فتح بلاد الأندلس فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فى الفترة من سنة ٩١ هـ حتى سنة ٩٥ هـ . فى عهد ولاية موسى بن نصير على أفريقية ، بقيادته وقيادة قائده البربرى الأصل «طارق بن زياد» . وتحولت هذه البلاد من التبعية لحكم القوط الجرمان إلى حكم المسلمين ، وصارت ولاية تابعة للدولة الإسلامية الكبرى ، يحكمها ولاة من قبل دولة الخلافة الأموية ، ثم ولاة من قبل الخلافة العباسية يعينهم والى افريقية أو والى مصر حسب تبعية هذه البلاد لإفريقية أو لمصر .

(٣) حكم المسلمون الأندلس لمدة ثمانية قرون ، ولقد اصطلح المؤرخون تقسيم هذا الحكم إلى عصور عُرف العصر الأول منه بعصر الولاة (من ٩١ - ١٣٨هـ) ، ثم عصر الخلافة الأموية (٣٠٠ - ٤٢٢ هـ) . ثم عصر ملوك الطوائف الأول (من ٤٢٢ - ٤٧٩ هـ) ، ثم عصر السيطرة المغربية ، سيطرة =

بلاد الأندلس خلال السنوات الأخيرة من عصر دولة الخلافة الأموية (٤٠٠-٤٢٢ هـ/ ١٠٠٩-١٠٣١ م) :

تحولت الأندلس من إمارة أموية إلى خلافة أموية ، فى عهد عبد الرحمن الناصر (الثالث) الذى حكم البلاد لمدة نصف قرن (٣٠٠-٣٥٠ هـ / ٩١٢-٩٦١ م) ، واستمر لقب خليفة فى ذريته من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م . وخلفه فى الحكم إبنه الحكم (الثانى) المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦ هـ / ٩٦١-٩٧٦ م) ، ثم حكم من بعده إبنه الطفل هشام (الثانى) المؤيد بالله ، الذى لم يكن له فى الأمر شئ ، لصغر سنه، وسيطرت عليه فى بادئ الأمر أمه «صبح»[1] ، وعن طريقها سيطرت عليها وعلى إبنها شخصية محمد بن أبى عامر ، الذى لُقب ، فيما بعد ، بالمنصور[2] . واستطاع الحاجب المنصور بن أبى عامر وولداه المظفر وعبد الرحمن فى الفترة ما بين سنوات ٣٦٦-٣٩٩ هـ / ٩٧٦-١٠٠٨ م ، أن يستبدوا بحكم الأندلس دون الخليفة ، وتُعرف هذه الفترة فى حكم الأندلس بعهد حكم الأسرة العامرية .

ولقد كانت سيطرة العامريين على دولة الخلافة بالأندلس أشبه بسيطرة البويهيين والسلاجقة على الخلافة العباسية فى بغداد ، ومثل أسرة بدر الجبالى التى سيطرت على الخلافة الفاطمية فى مصر والشام . ولاشك فى أن تجريد

= المرابطين ثم الموحدين (من ٤٧٩ - ٦١٢ هـ) ، وأخيراً مملكة غرناطة ، عصر بنى الأحمر (من ٦١٢-٨٩٨ هـ / ١٢١٥-١٤٩٢ م) .

(١) كانت صبح فى الأصل جارية بشكنسية ، وكانت حظية عند الخليفة الحكم المستنصر بالله ، ثم أنجب منها إبنه هشام فصارت أم ولد ، واستطاعت بذكائها وحب الخليفة لها أن تتمتع بنفوذ كبير فى القصر .

(٢) هو المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، وهو من أسرة عربية قديمة يمنية الأصل تنسب إلى قبيلة معافر اليمنية ، دخل جده عبد الملك إلى الأندلس مع طارق بن زياد . وكان والده من رجال العلم والدين ، أدى فريضة الحج وتوفى فى طريق عودته بمدينة طرابلس الغرب (ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ ٢ ، ص ٢٥٧) .

خلفاء الأمويين من سلطتهم الزمنية كان مقدمةً لنهاية هذه الخلافة بالأندلس ، لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور فى الخلافة نفسها ، وهو أمر خطير لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل[1] .

وقـد جـاءت نهاية الدولة العامرية بقتل عبد الرحمن بن المنصور سنة ٣٩٩ هـ، وتميزت الفترة الباقية من العصر الأموى بالأندلس (٣٩٩-٤٢٢ هـ)، بالفتن والاضطرابات ، تصارعت فيها عناصر الدولة المختلفة من أهل قرطبة والبربر والصقالبة ، وخربت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة[2] . ويكفى للدلالة على انقسام الدولة واضطراب أمورها آنذاك أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كانوا ست خلفاء[3] ، وهم يزيدون فى عددهم عن الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية فى الأندلس .

وفى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله ، ثم أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور انتهاء رسم الخلافة تماماً لعدم وجود من يستحقها وصيرورة الأمر شورى بأيدى الوزراء وخيرة الزعماء (الجماعة) ، وهكذا تحول الحكم فى قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهورى عُرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة .

عصر ملوك الطوائف (الأول ٤٢٢-٤٧٩ هـ / ١٠٣١-١٠٨٦ م :

ولقد كان من نتيجة سقوط الدولة الأموية ، أن تقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة ، واستقل كل أمير بما تحت يده وأعلن نفسه ملكاً

(١) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٧٣ .

(٢) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٧٤ ، نقلاً عن ابن الخطيب .

(٣) وهم محمد (الثانى) المهدى بن هشام (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ) ، سليمان المستعين بن الحكم (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ، عبد الرحمن (الرابع) المرتضى (٤٠٧ - ٤١٤ هـ) ، عبد الرحمن (الخامس) المستظهر بن هشام (٤١٤ هـ) ، محمد (الثالث) المستكفى بن عبد الرحمن (٤١٤ - ٤١٨ هـ) ، وهشام (الثالث) المعتد ابن عبد الرحمن (الرابع) (زامباور : معجم الأنساب ، ط ، ص ٢) .

عليه، واستند كل منهم على طائفته ، ولذلك عرفت تلك الفترة من سقوط الخلافة الأموية وضم المرابطين الأندلس إلى دولتهم ، والتى تجاوزت النصف قرن من الزمان بعصر ملوك الطوائف . وقد إنضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سيادته على الأندلس ، هذه الأحزاب هى : الحزب الأول ، وهو يمثله أهل الأندلس الأصليين ، والذين عرفوا بأهل الجماعة . وكان من زعمائهم : بنو عباد اللخميون فى أشبيلية ، وبنو جهور فى قرطبة ، وبنو هود فى سرقسطة ، وبنو تجيب فى المرية ، وبنو برزال فى قرمونة ، وبنو خزرون فى أركش ، وبنونوح فى مورور، وبنو عامر فى بلنسية[١] .

أما الحزب الثانى فيمثله المغاربة البربر الحديثو العهد بالأندلس ، والذين استقروا بها فى ظل حكم بنى عامر ، ومن زعماء هذا الحزب بنو زيرى الصنهاجيون فى غرناطة ، وهم فرع من بنى زيرى حكام افريقية على عهد الفاطميين ، وبنو حمود الأدارسة العلويون ، وهم من سلالة دولة الأدارسة التى حكمت المغرب (١٧٢-٣٤٣ / ٧٨٨-٩٥٤ م)[٢] .

ويمثل الحزب الثالث كبار الصقالبة[٣] ، الذين استقلوا بشرق الأندلس ، وتكونت منهم دويلات إسلامية صغيرة ، وجمعتهم رابطة تحالف الدولة العامرية الصقلبية لأن أصحابها كانوا من مماليك المنصور بن أبى عامر وأبنائه .

(١) العبادى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٢) رامباور : معجم الأنساب ، حـ ١ ، ص ١٠٣ .

(٣) كان هؤلاء الصقالبة فى الأصل رقيقاً من سبى الشعوب السلافية الذين بيعوا إلى عرب الأندلس ، وكلمة صقالبة هى تعريب لكلمة سلاف ، بمعنى عبد ، وهى slave بالانجليزية . وقد توسع الأندلسيون فى أطلاق هذا اللفظ على كل الموالى الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوربية بما فى ذلك شمال اسبانيا المسيحى . وكان وضع هؤلاء الصقالبة فى الأندلس هو نفس وضع المماليك فى مصر ، جاءوا أطفالاً من الجنسين إلى قرطبة ، وتربى الذكور منهم تربية عسكرية إسلامية واشتغلوا بالجندية ، وترقوا فى المناصب حتى صار منهم القواد والوزراء وكبار رجال الدولة .

ومن كبار زعماء الصقالبة الذين بروزا فى شرق الأندلس «مجاهد العامرى» الذى استقل بمدينة دانية ثم استولى على جزر البليار وغزا جزيرة سردينية وسواحل إيطاليا ، وسيطرت أساطيله على غربى حوض البحر المتوسط . ومن دول الحزب الأول :

دولة بنى جهور فى قرطبة :

ينتمى بنو جهور فى قرطبة إلى الوزير الأموى أبى الحزم جهور بن محمد ابن عبيد الله ، شيخ الجماعة ، وقد اختاره الشعب ، بعد الغاء الخلافة الأموية بالأندلس ، رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة ، التى عُرفت بحكومة الجماعة ، والتى استمرت تدبر الأمور فى قرطبة وأنحائها زهاء اثنتى عشرة عاماً ساد خلالها الأمن والأمان والعدل والعدالة فى البلاد . وحين توفى أبو الحزم فى المحرم سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م كانت قرطبة تعيش فى عهد السلام والرخاء . وخلفه فى الرياسة إبنه أبو الوليد محمد بن جهور ، الذى سار فى البداية ، سيرة أبيه الطيبة فى الرعية ، ولكنه ما لبث أن حاد عن ذلك ، حين تنازل بالحكم لإبنه عبد الملك الذى أساء السيرة ، ففسدت الأمور فى البلاد وخاصة حين وقع الخلاف بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن . وانتهى هذا الخلاف بتغلب عبد الملك على أخيه وسجنه فى منزله[1] .

غير أن نهاية دولة بنى جهور جاءت على يد بنى عباد حكام أشبيلية فى شهر شعبان سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وبذلك انتهت دولة بنى جهور فى قرطبة بعد حكم دام أربعين عاماً ، وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطوائف الرئيسية . وندب المعتمد بن عباد ولده الشاب عباداً (الظافر) لحكم قرطبة ، التى يتصل تاريخها منذ ذلك الحين بتاريخ مملكة أشبيلية .

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٣ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

دولة بنى عباد فى أشبيلية[1] :

كانت دولة بنى عباد فى أشبيلية بغرب الأندلس أقوى دول الطوائف وأعظمها شأناً ، وقد حكمت هذه الدولة الغرب الأندلسى مدة نصف قرن وتميزت بفخامة بلاطها وروعة رسومها . وتنتسب هذه الدولة إلى القاضى إسماعيل بن عباد قاضى أشبيلية أيام المنصور بن أبى عامر . وقد استمر ابن عباد فى خطة القضاء حين وقعت الفتنة وسادت الفوضى كل أنحاء الأندلس ، وأخذ فى نفس الوقت يعمل على حفظ النظام وضبط الأمور فى أشبيلية . وحين دخل على بن حمود قرطبة وتولى الحكم فيها سنة ٤٠٧ هـ ، تولى أخوه القاسم حكم أشبيلية ، وبقى ابن عباد على حاله فى منصب القضاء . ولما قتل على بن حمود وتولى أخوه القاسم مكانه فى قرطبة ، خلا الجو لابن عباد . وقد انفرد ابن عباد بحكم أشبيلية أواخر سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، معتمداً فى ذلك على تأييد زعماء البيوتات العربية ومعاونتهم وعلى زعامته الشعبية والتفاف الناس حوله .

وقد ولى حكم أشبيلية بعد القاضى إسماعيل بن عباد إبنه محمد[2] ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة بنى عباد ومنشئ ملكهم ورسوم مملكتهم . وولى الأمر بعده إبنه أبو عمرو عباد المعتضد بن محمد بن إسماعيل[3] ، ثم كان آخر حكامهم أبو القاسم محمد (الثانى) المعتمد بن عباد الشاعر[4] ، الذى استعان بالمرابطين لأنقاذ بلاطه من خطر مملكة قشتالة النصرانية .

---

(١) ينتسب بنو عباد إلى بنى لخم اليمنيين ، ويقال أنهم من ولد الملك النعمان به المنذر بن ماء السماء .

(٢) حكم أشبيلية فى الفترة ما بين سنوات ٤١٤-٤٣٤ هـ (زامباور : معجم الأنساب ، حـ ١ ، ص ٨٦).

(٣) حكم من سنة ٤٣٤ حتى سنة ٤٦١ هـ (مارس ١٠٦٩ م) .

(٤) حكم من سنة ٤٦١ حتى سنة ٤٨٤ هـ ، وهى السنة التى استولى فيها المرابطون على أشبيلية (زامباور : معجم الأسرات ، حـ ١ ، ص ٨٦) .

دولة بنى الأفطس فى بطليوس :

كانت مملكة بطليوس تجاور مملكة أشبيلية من الشمال وتفصلها عنها جبال سيرامورينا ، وتشمل أراضى البرتغال كلها تقريباً . حتى مدينة باجة فى الجنوب ، وكانت تتبع عاصمتها بطليوس مدن : ماردة ، ويابرة ، وأشبونة ، وشنترين ، وشنترة ، وقلمرية ، وبازو ، وغيرها . وقد حكم بنو الأفطس هذه المملكة سبعين عاماً . وينتمى بنو الأفطس إلى أبى محمد عبد الله بن مسلمة ، المعروف بابن الأفطس ، إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية البربرية.

وقد وقع الصراع بين مملكة بنى الأفطس ومملكة بنى عباد بأشبيلية ودخلا فى معارك تبادلا فيها النصر والهزيمة ، وقد توفى عبد الله بن مسلمة مؤسس الأسرة الحاكمة سنة ٤٣٧ هـ - ٤٦١ هـ ، وخلفه فى الحكم إبنه المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله (٤٣٧-٤٦١ هـ) ، ثم أخوه المتوكل أبو حفص عمر بن محمد (٤٦٠-٤٨٧ هـ) ، وهى السنة التى فتحها فيها المرابطون .

مملكة بنى ذى النون فى طليطلة :

عُرفت طليطلة وأعمالها ، منذ قيام الدولة الإسلامية بالأندلس بالثغر الأوسط ، وذلك لمتاخمة حدودها للمالك الأسبانية النصرانية واعتبارها حاجز الدولة الإسلامية وجناحها الشمالى الأوسط ضد عدوان النصارى[1] . ولم يتغير هذا الوضع بقيام دولة بنى ذى النون على أثر انهيار الخلافة الأموية ودخول بلاد الأندلس فى عصر ملوك الطوائف . وأصول بنى ذى النون أصول بربرية ، من قبائل هوارة .

وقد ظهر فى أيام المنصور بن أبى عامر عبد الرحمن بن ذى النون وولده إسماعيل ، وخدما المنصور . فلما انقرضت الدولة العامرية بزغ نجم

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٣ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

عبدالرحمن فى مدينة شنتبرية ، ولما اضطربت الأمور فى طليطلة بعث أهلها رسلهم إلى شنتبرية يستدعونه لتولى الرياسة فجاءها وولده إسماعيل سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م . وتولى إسماعيل بن ذى النون حكم طليطلة وأعمالها وتلقب بالظافر . ولم يطل حكم إسماعيل إذ توفى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل وتلقب بالمأمون[١] .

واستطال عهد حكم المأمون ثلاثة وثلاثين عاماً ، امتلأت بالحروب والمنازعات مع منافسيه الأقوياء ابن هود فى الثغر الأعلى وابن عباد صاحب أشبيلية[٢] . ولَمَّا توفى المأمون سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، خلفه حفيده يحيى الملقب بالقادر ، وكان شاباً قليل الخبرة غلب على أمره العبيد والموالى ، وقد تفككت مملكته فى عهده وتحكم الوزراء فى الأمر . وكان الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، يدبر خطته الكبرى للاستيلاء على طليطلة ، ونجح الفونسو فى تدبيره . وفى يوم الخامس والعشرين من شهر مايو (أول صفر سنة ٤٧٨ هـ) دخل الفونسو السادس مدينة طليطلة ظافراً ، واستتبع استيلائه عليها إستيلاؤه على سائر أراضى مملكة طليطلة . أما الملك يحيى القادر بن ذى النون فقد غادر طليطلة بأهله وأمواله قاصراً بلنسية . وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وخرجت من قبضة الإسلام إلى الأبد ، وارتدت إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة وسبعين عاماً . ومنذ ذلك الحين غدت طليطلة حاضرة لمملكة قشتالة المسيحية ، ومنزلاً للبلاط القشتالى بعد أن كانت منزلاً لولاة المسلمين[٣] .

(١) حكم بنو ذى النون بطليطلة فى الفترة ما بين سنوات ٤٠٠-٤٧٨ هـ ، وهم : يعيش بن محمد بن يعيش (٤٠٠-٤٢٧ هـ) ، إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذى النون (٤٢٧ - ٤٢٩ هـ)، أبو الحسن يحيى المأمون بن إسماعيل (٤٢٩-٤٦٧ هـ) ، القادر يحيى بن إسماعيل (٤٦٧-٤٧٨ هـ) ، وفى هذه السنة استولى الفونسو السادس على طليطلة .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٧٧ .

(٣) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٣ ، ص ١١٥ .

ولقد كان لتلك النكبة التى حلت بالإسلام فى أسبانيا أعظم وقع فى جنبات الأندلس وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وقد ارتاع لها ملوك الطوائف جميعاً وأدركوا ، بعد فوات الوقت ، أنها نذير بالقضاء عليهم جميعاً. وأدرك المعتمد بن عباد ، على وجه الخصوص ، أن النكبة حالةٌ ببلاده لا محالة ، فجنح وجنح معه ملوك الطوائف جميعاً على اجتماع الكلمة ونبذ الشقاق وضرورة الاستعانة باخوانهم البربر المرابطين لأنقاذ سفينة بلادهم من الغرق فى بحر النصرانية .

ومن دول الحزب الثانى (البربرى) :

دولة بنى مناد (بنى زيرى) البربرية فى غرناطة ومالقة :[1]

لَمَّا انهارت الخلافة الأموية فى الأندلس والدولة العامرية ، استطاع زعماء البربر أن يظفروا بنصيب وافر من حكم البلاد ، فقامت منهم دولة بنى حمود فى جنوب الأندلس ، وقامت دولة بنى ذى النون فى طليطلة ، ودولة بنى الأفطس فى بطليوس ، ثم دولة بنى مناد فى غرناطة ، التى كانت بعد دولة بنى حمود أقوى الدول البربرية فى الجنوب . ويرجع أصل بنى مناد إلى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة ، وهى بطن من بطون قبيلة البرانس الكبرى ، وكانت منازلهم بأواسط المغرب ، ارتحلوا إلى الأندلس أيام حكم الدولة العامرية للأندلس وأحرزوا المكانة هناك . وكان باديس بن حبوس ، الذى استقل يحكم غرناطة ومالقة سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وحكمها حتى وفاته سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م ، أعظم ملوك الطوائف البربر وأقواهم جانباً . ولَمَّا توفى باديس اتفق رجال الدولة وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بلقين

(١) وحكامها : زاوى بن زيرى (٤٠٣ - ٤١٠ هـ) ، حبوس المظفر بن ماكسن الصنهاجى (٤١٠ - ٤٣٠ هـ)، عبد الله سيف الدولة بُلكين بن حبوس (٤٦٦-٤٨٣ هـ) ، وتميم بن بلكين (٤٨٣ هـ) ، وهى السنة التى فتحها المرابطون (زامباور : معجم الأنساب ، حـ ١ ، ص ٨٦ ، ٨٧) .

مكانه ، وكان صبياً صغيراً ، واستأثر وزيره القوى «سماجه» ، أحد شيوخ صنهاجه بالسلطة .

وكان المعتمد بن عباد يرقب اضطراب الأمور فى غرناطة بعد وفاة باديس ، وأدرك سنوح الفرصة له للاستيلاء على غرناطة ، فسار إليها فى قوات كثيرة . ولما سقطت طليطلة فى يد الفونسو السادس ، ملك قشتالة (صفر ٤٧٨ هـ / مايو ١٠٨٥ م) ، اتفق عبد الله مع زملائه أمراء الطوائف فى الاستنجاد بالمرابطين ، فقام بإرسال رسله مع رسل ابن عباد إلى ابن تاشفين يطلبون نجدته من خطر النصارى القشتاليين . وتم الاتفاق فيما بين أمراء الأندلس ، وبين أمير المسلمين ، ابن تاشفين ، على أن يتحدوا جميعاً بمعونته على غزو قشتالة[1] .

وإلى جانب دولة بنى مناد (بنى زيرى) فى غرناطة ، كانت تقوم عدة إمارات بربرية أخرى فى جنوب الأندلس ، تمثل التكتل القبلى البربرى إلى جوار دولة بنى زيرى البربرية الكبرى لردع أى هجوم يقوم به أعداؤهم عليها وبخاصة من جانب بنى عباد . وكان عدد هذه الإمارات أربع إمارات كل واحدة منها تقوم فى بلدة من بلدان الجنوب الأندلسى ، وهى إمارة قرمونة ، وإمارة رندة ، وإمارة مورور ، وإمارة شذونة[2] .

ولقد سقطت هذه الإمارات البربرية الصغيرة الأربع ، آخر الأمر ، وضمت كلها تباعاً إلى مملكة أشبيلية القوية وذلك خلال أعوام قلائل فى الفترة ما بين سنوات ٤٥٧ هـ ، ٤٦١ هـ[3] .

ومن دول الحزب الثالث (الصقلبى) فى شرقى الأندلس :

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٢٣٥ .
(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٣ ، ص ١٤٨ .
(٣) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

مملكة المرية تحت حكم بنى صمادح التجيبيين[١] ، ومملكة مرسية (تدمير) تحت حكم العامريين[٢] ، ومملكة دانية والجزائر تحت حكم مجاهد العامرى[٣] ، ومملكة بلنسية ، وإمارة شنتمرية ، ومملكة سرقسطة تحت حكم بنى تجيب وبنى هود .

وبينما كانت الأندلس تعانى من هذا الضعف السياسى والاجتماعى تحت حكم ملوك الطوائف ، إذا بدول أسبانيا المسيحية فى الشمال تعمل على توحيد قواها بمساندة فرنسا والباباوية . ولقد أقامت الخلافة الأموية سداً منيعاً فى شمال الأندلس كان حائلاً دون أى تدخل أوربى يأتيها من الشمال ، فلما زالت الدولة الأموية زال هذا الحائل وأخذ النفوذ الغالى يتسرب رويداً رويداً إلى هذه البلاد باعثاً فيها روحاً صليبية ضد المسلمين فى الغرب مثل تلك الروح التى بعثوها ضد المسلمين فى الشرق وفى نفس التوقيت .

وكان من سوء طالع المسلمين الأندلسيين آنذاك ، أنه كان يحكم أسبانيا المسيحية رجل واسع الطموح والأطماع ، صليبى شديد التعصب لصليبيته ، وهو الملك الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، الذى نجح فى توحيد مملكتى قشتالة وليون المسيحيتين فى الشمال ، واستطاع بسط نفوذه على الممالك الأسبانية الشمالية ، ثم توج مجده الحربى باستيلائه على مدينة طليطلة ،

---

(١) حكم بنو صمادح المرية من سنة ٤٤٩ حتى سنة ٤٨٠ هـ .

(٢) حكم العامريون بلنسية من سنة ٤١٢ هـ حتى سنة ٤٩٥ هـ ، وهى السنة الى فتحها المرابطون ، ومن حكامهم : عبد العزيز المنصور بن عبد الرحمن الناصر بن أبى عامر (٤١٢-٤٥٣ هـ) ، عبد الملك المظفر بن عبد العزيز المنصور (٤٥٣-٤٦٨ هـ) ، أبو بكر بن عبد العزيز المنصور (٤٦٨-٤٧٨ هـ) ، القاضى عثمان بن أبى بكر (٤٧٨-٤٨٣ هـ) ، القاضى جعفر بن عبد الله (٤٨٣-٤٨٩ هـ) ، فتح القمبياطور لها (٤٨٩-٤٩٥ هـ) ، وفتح المرابطين لها سنة ٤٩٥ هـ (زامباور : معجم الأنساب ، حـ ١، ص ٨٩) .

(٣) حكم العامريون دانية والجزر الشرقية من سنة ٤٠٨ هـ إلى سنة ٤٨٠ هـ .
(زالمباور : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٩١) .

قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين ، سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، من يد أميرها يحيى القادر بن ذى النون[١] .

ومن الواضح أن احتلال الأسبان لمملكة طليطلة ، قلب الأندلس ، كان يعنى شطر بلاد المسلمين فى الأندلس إلى شطرين وتمزيق شملهم . وقد سارع الفونسو السادس السير نحو مدينة سرقسطة ، قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين ، وحاصرها بغية الاستيلاء عليها ، وفى نفس الوقت أخذ يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض ويغير على أراضيهم ويطالبهم بالأموال حتى يضعفهم حربياً واقتصادياً .

وتشاء إرادة الله فى ذلك الوقت العصيب أن ينعم الله على المغرب الإسلامى بقوة فتية توحد شمله وتنقذ الأندلس من سقوط محقق على يد الأسبان ، تلك هى قوة المرابطين الصنهاجيين . وبدخول بلاد الأندلس تحت حكم المرابطين ، ثم الموحدين[٢] ، تدخل فى عهد حكم جديد مرتبط بحكم هاتين الدولتين لبلاد المغرب ، وقد تكفلت كلتا الدولتين فى الدفاع عن ديار الإسلام ودفع العدوان عنها خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ثانياً : حكم دولة المرابطين للمغرب والأندلس فى القرن الخامس الهجرى ودفعهم للخطر الصليبى عن ديارهم :

ولقد تسبب ضغط الفونسو السادس ، ملك قشتاله المسيحى على ملوك الطوائف ببلاد الأندلس من الشمال فى طلب أهل الأندلس المعونة من إخوانهم المسلمين فى المغرب قبل أن تفرض عليهم فرضاً . وهذا ما قام به بالفعل ، «المعتمد بن عباد» ، ملك أشبيلية وأقوى ملوك الطوائف فى ذلك الوقت حين

(١) العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨١ .

(٢) تضمن الحديث عن بلاد الأندلس فى ظل حكم المرابطين والموحدين ، حكم هذه الدول لبلاد المغرب عند الحديث عن حكم هاتين الدولتين لبلاد المغرب والأندلس فى دولة موحدة (انظر ما سبق) .

استنجد بابن تاشفين[1] . ويدل هذا التصريح بوضوح على أن مُلك ابن عباد كان لا محالة ضائعاً على يد المرابطين فى الجنوب أو الأسبان المسيحيين فى الشمال . إلا أن ابن عباد فضَّل السيادة الإسلامية على بلاده بطبيعة الحال ، والتى تمت بالفعل عندما قدم ابن تاشفين بقواته إلى الأندلس واستولى على أشبيلية سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)[2] .

وكان ابن تاشفين قد أعد العدة لفتح الأندلس ، بعد أن تأكد من سوء الأوضاع فيها وضعف ملوك الطوائف وازدياد الخطر المسيحى وضغط ملك قشتالة على المسلمين من الشمال، فعبر فى منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بجيوشه من مدينة سبته مضيق جبل طارق ونزل الجزيرة الخضراء مقتدياً فى ذلك بما فعله طارق بن زياد ، فاتح الأندلس من قبل . وقام ابن تاشفين بتحصين الجزيرة الخضراء وجبل طارق وطريف واتخذها رأس جسر لهجومه وخط رجعه لإنسحابه . وهناك وافاه أكثر رؤساء الأندلس أمثال : المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس ، صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة بمن معهم من جنود وكل راغب فى الجهاد[3] .

موقعة الزلاقة :

وتجمعت قوات ابن تاشفين مع قوات ملوك الطوائف وانتظمت فى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد واحتلت المقدمة واحتلت جيوش المرابطين

(١) حين عزم ابن عباد الاستنجاد بالمرابطين قال جملته المشهورة التى عبرت عن الشعور العام للمسلمين فى ذلك الوقت : «إن رعى الجمال عندى خير من رعى الخنازير» (السلاوى : الاستقصاء ، حـ ٢ ، ص ٣٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، طبعة بيروت ١٩٩٥ ، حـ ٨ ، ص ٤٨٧ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ، طبعة دوزى ١٨٥١ ، حـ ٢ ، ص ٩٩ ، الحميرى : الروض المعطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٨٦ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، حـ ٢ ، ص ٥٢٦ .

المؤخرة ، وانتهت الجيوش الإسلامية فى سيرها إلى سهل يقع شمال بطليوس، على مقربة من حدود البرتغال الحالية يعرف بـ «الزلاقة» (جمادى الأولى ٤٧٩ هـ / أغسطس ١٠٨٦ م)[١] ، لملاقاة جيش الفونسو السادس ، ملك قشتاله ، وما حشده معه من قوات جيليقية وأشتوريش وناڤار والمتطوعة المسيحيين من جنوبى فرنسا وإيطاليا ، والذين احتشدوا فى مكان يبعد ثلاثة أميال من المعسكر الإسلامى . وتقدر الروايات العربية عدد جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل وهو يفوق فى ذلك عدد جيش المسلمين بكثير[٢] .

والتقى الجانبان ، المسلم والمسيحى، يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م فى موقعة هائلة انتصر فيها المسلمون انتصاراً هائلاً وهُزم فيها الصليبيون هزيمة ساحقة . ولقد كان لهذه المعركة وذلك النصر الإسلامى الكبير نتائج حاسمة ، كان من أهمها عودة روح الثقة والأمل إلى أسبانيا المسلمة وانتعاش قواها المتخاذلة ونهوضها من عثارها ، فضلاً عن عودة روح الحماسة الدينية للشعب الأندلسى ، التى كاد أمراء الطوائف أن يقضوا عليها بتصرفاتهم المشينة وتراميهم على أعتاب الملوك النصارى . وفى سهول الزلاقة إرتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة ، وغنم الإسلام حياة جديدة فى أسبانيا امتدت إلى أربعة قرون أخرى ، ومهدت السبيل لسيطرة المرابطين على أسبانيا المسلمة وبعدها لخلفائهم الموحدين وجعلت الأندلس ولاية مغربية لمدة قرن ونصف قرن من الزمان[٣] .

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٣ ، ص ٣٢١ ، حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧٣ .

(٢) قدَّر البعض عدد الجيش الإسلامى بثمانية وأربعين ألفاً ، والبعض الآخر بعشرين ألفاً (المقرى : نفح الطيب ، حـ ٢ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ص ٥٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٥٢) .

(٣) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٣ ، ص ٣٣٢ .

وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب عقب موقعة الزلاقة فى شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، وبقى فى عاصمته مراكش حتى أوائل العام التالى ، ووصلته وهو فى العاصمة وفود أهل الأندلس وكتبهم مستجيرين به من عدوان النصارى عليهم . وجاءه طلب النجدة هذه المرة من أهل بلنسيه ومرسيه ولورقه من بلاد شرق الأندلس بسبب عدوان القشتاليين عليهم من الحصن الذى أقاموه بين مرسيه ولورقة وعُرف بحصن ليبط (أليدو) وشحنوه بالسلاح والمقاتلين وبثوا به الرعب على أهل هذه البلاد . وقد اعتزم المعتمد بن عباد ، صاحب السيادة الشرعية على مرسيه ولورقة استدعاء ابن تاشفين لمعاونته فى قمع شر حامية أليدو النصرانية ، وعبر البحر إلى المغرب مع بعض رجاله والتقى بابن تاشفين عند وادى سبو وشرح له مقدار الخطر الذى يتعرض له المسلمون فى بلاده وطلب منه العون ، فوعده ابن تاشفين بالاستجابة لطلبه وطلب فقهاء الأندلس وأعيانها لقمع بغى القشتاليين والاستيلاء على حصن أليدو مركز شرهم ومنطلق عدوانهم . وعاد ابن عباد إلى أشبيلية بعد أن تأكد من صدق عزم ابن تاشفين فى نجدة المسلمين من أخطار النصارى القشتاليين[1] .

وأوفى ابن تاشفين بوعده وعبر البحر فى قواته إلى الأندلس فى ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ / يوليو ١٠٨٨ م ، فتلقاه ابن عباد فى الجزيرة الخضراء بالمؤن والرجال ، واستدعى ابن تاشفين ملوك الطوائف جميعهم للمشاركة فى الجهاد واسقاط حصن أليدو المنيع . وحوصر الحصن مدة أربعة أشهر ، وظل النصارى به صامدون ، ووقع خلاف بين ملوك الطوائف أثناء الحصار قرر بسببه ، ابن تاشفين الأنسحاب وخاصة حين علم بمقدم الفونسو ، ملك قشتاله لإنجاد الحصن . وحين قدم الفونسو إلى الحصن وجد أن ما تبقى به من المقاتلين والمدافعين عدد قليل فقرر إخلاءه وهدم أسواره وأبراجه ، وعاد إلى

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٩٨ .

بلاده سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م . وعاد ابن تاشفين إلى المغرب وقد تغيرت نفسه على ملوك الطوائف بالأندلس[١] .

وفى العام التالى (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م) عاد ابن تاشفين إلى الأندلس ، دون أن يستغيث به أحد كما حدث فى المرتين السابقتين ، وإنما عاد هذه المرة للاستيلاء على جميع الأندلس وضمها إلى دولته . وأياً كانت الأسباب التى دعته إلى ذلك ، فإنه قرر ذلك بعد أخذ موافقة فقهاء المغرب والأندلس وفقهاء المشرق بوجوب خلع ملوك الطوائف لصالح وحدة الجبهة الإسلامية فى مواجهة العدو ، ملك قشتالة القوى[٢] . وعبر ابن تاشفين متجهاً إلى طليطلة مجتاحاً فى طريقه أراضى قشتاله ، وقام بمحاصرتها دون أن يسقطها ، ثم توجه بعد ذلك إلى غرناطة لقتال صاحبها «عبد الله بن بلقين» ، الموالى والحليف لألفونسو السادس ملك قشتاله . وقد ثبت لابن تاشفين آنذاك أن ابن بلقين والمعتمد بن عباد وغيرهما من ملوك الطوائف قد عقدوا اتفاقات سرية مع ملك قشتالة يتعهدون له فيها بالأنضواء تحت لوائه والامتناع عن التعاون مع ابن تاشفين وعدم تزويده بالمال والمؤن[٣] .

ونجح ابن تاشفين ، بعد حصار غرناطة ، فى أسقاطها فى يده واستسلام صاحبها ابن بلقين بعد أخذه الأمان ونفيه وأسرته فى مدينة أغمات التى ظل بها حت وفاته بها سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م[٤] . واتجه ابن تاشفين ، بعد سقوط غرناطة فى يده ، إلى مهاجمة مملكة ابن عباد فى أشبيلية ، التى كانت واسطة

(١) مؤلف مجهول . الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشية . تطوان ١٩٦٠ ، ص ٤٧-٥٠ .

(٢) أشار إلى ذلك ابن خلدون فى تاريخه (العبر وديوان المبتدأ والخبر ، حـ ٦ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨) وذكر أن من فقهاء المشرق الذين تلقى منهم ابن تاشفين الموافقة الإمام الغزالى وأبى بكر الطرطوشى وغيرهما .

(٣) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٣ ، ص ٣٤١ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، طبعة بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٣٦ .

عقد الأندلس وكان أميرها عميداً لملوك الطوائف . وحاصر ابن تاشفين أشبيلية أربعة أشهر سقطت بعدها فى يده يوم الثانى والعشرين من شهر رجب سنة ٤٨٤ هـ / السابع من سبتمبر ١٠٩١ م ، وأُسِر المعتمد وقتل ابنه فخر الدولة ، وتم للمرابطين بعد ذلك الاستيلاء على سائر قواعد مملكة أشبيلية وسقطت مملكة بنى عباد فى أشهر قلائل فى يد المرابطين[1] .

وكانت ألمرية ، بعد غرناطة وأشبيلية ، ثالثة مملكة من ممالك الطوائف تسقط فى يد المرابطين فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م . ولقد تم للمرابطين فتح شرق الأندلس والثغر الأعلى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م والقضاء على إمارات الطوائف جميعها هناك .

أما فى غربى الأندلس ، فكان على المرابطين الاستيلاء على مملكة بطليوس التى كان عليها آنذاك المتوكل بن الأفطس ، الذى استنجد بألفونسو السادس ملك قشتاله ، مثلما فعل ابن عباد من قبل . وقد كان لهذا التصرف وقع سئ إذ انحرف أهل بطليوس عنه وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم . فسار جيش من جيوش المرابطين بقيادة الأمير «سبر بن أبى بكر» ، حاكم أشبيلية من قبل المرابطين ، وفتح بطليوس وأسر المتوكل وولديه وأعدموا وهم فى الطريق إلى أشبيلية . وبسقوط بطليوس فى يد المرابطين انتهت دولة بنى الأفطس ومملكتهم فى غربى الأندلس بعد أن حكموها خمسة وسبعين عاماً .

(١) أما عن نهاية ابن عباد فإنه سيق وآله أسرى إلى طنجة واعتقلوا فيها أياماً ، ثم سير بهم إلى أغمات ، جنوب شرقى مراكش ، فى أوائل سنة ٤٨٥ هـ ، وهنالك فى قلعة أغمات قضى المعتمد بضعة أعوام أسيراً ذليلاً . وتوفيت اعتماد الرميكية زوجة المعتمد وهى فى الأسر فحزن المعتمد لوفاتها أشد الحزن . وظل المعتمد سجيناً حتى سنة ٤٨٨ هـ حتى وفاته فى سجنه بقلعة أغمات يوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ / أواخر أكتوبر سنة ١٠٩٥ م بعد اعتقال دام حوالى أربعة أعوام ، وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة وبضعة أشهر ودفن بظاهر أغمات إلى جوار زوجته اعتماد الرميكية .
(ابن الأبار : الحلة السيراء ، حـ ٢ ، ص ٥٥) .

وعلى أثر استيلاء المرابطين على بطليوس ، سارت حملة مرابطية إلى ثغر أشبونه لتخليصه من يد الحامية القشتالية التى كانت تحتله ، ونجحت فى اقتحامه وقتل وأسر معظم حاميته النصرانية وإعادة هذا الثغر الهام إلى يد المسلمين[١] .

وعاد ابن تاشفين ، إلى الأندلس ، فى جوازه الرابع سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ، وكانت ممالك الطوائف جميعها قد سقطت فى يده ، ماعدا سرقسطة التى نجح المرابطون فى الاستيلاء عليها بعد ذلك بأعوام قليلة ، وآلت أسبانيا المسلمة كلها بذلك إلى المرابطين ، وغدت ولاية مغربية وأنهارت ممالك الطوائف إلى حين .

وسار ابن تاشفين بجيشه متجهاً إلى طليطلة لقتال الفونسو ملك قشتاله ، ونجح فى إيقاع هزيمة ساحقة به قرب «كونسويجرا» ، ثم قصد بعد ذلك ، قرطبة لأخذ البيعة لإبنه أبى الحسن على سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م[٢] . وفى أواخر سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، مرض ابن تاشفين بقصره بمراكش ، لمدة عام وشهرين إلى أن توفى فى مستهل المحرم سنة ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦ م ، وتم دفنه بالقصر ، كما أسلفنا من قبل .

---

(١) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ .

(٢) لم يكن على هو أكبر أبناء ابن تاشفين ، وكان أكبرهم إبنه تميم ، لكن ابن تاشفين آثر علياً على أخيه لورعه وحزمه ونباهته .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبعة بولاق ١٢٨٣ ، حـ ٢ ، ص ٤٤٨ .

ثالثا : حال بلاد المغرب الإسلامى والأندلس فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)

استمر حكم المرابطين للمغرب والأندلس طيلة النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى والنصف الأول من القرن السادس (٤٤٨-٥٤١ هـ / ١٠٥٩-١١٤٧ م) ، وقد كانت وفاة مؤسس الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين ، مع مطلع القرن السادس الهجرى ، بعد أن أدى واجبه على أكمل وجه فى دفع العدوان الصليبى على بلاد الأندلس وقيامه بالغزوات الناجحة على الممالك الأسبانية المسيحية فى الشمال والغرب .

وكان ابن تاشفين قد رأى ضرورة توحيد جبهة المسلمين فى الأندلس تحت قيادته لمواجهة خطر الصليبيين وعدوانهم على ديار الإسلام ، وقد تطلب ذلك منه الاستيلاء على كل بلاد الأندلس والقضاء على ممالك الطوائف جميعها هناك ، وقد تم لابن تاشفين ، قبل أن يرحل إلى العالم الآخر ، أكبر الانتصارات على المسيحيين الأسبان فى موقعة الزلاقة ، كما سبق أن أوردنا .

وخلف ابن تاشفين إبنه «أبو الحسن على» الذى بايعه شيوخ القبائل والأكابر والقادة وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم[1] ، وأُخذت له البيعة ، بعد ذلك فى سائر قواعد المغرب والأندلس ، وكان على آنذاك فى الثالثة والعشرين من عمره . وقد سار على على نهج أبيه فى الحكم وفى متابعة الجهاد وتحقيق طائفة من جليل الأعمال .

ولأول ولاية على حدث تمرد ضده من قبل ابن اخيه «يحيى بن أبى بكر»، فى مدينة فاس ، عاصمة المغرب القديمة ، وقد رفض يحيى أداء يمين البيعة

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ ٢ ، ص ٤٤٨ .

لعمه واظهر التمرد عليه ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة ، فبادر على مسرعاً على رأس بعض من قواته إلى فاس ، فخشى يحيى على نفسه ، بعد أن انفض عنه أنصاره ، وترك فاس هارباً ، فدخلها عمه فى الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) ، وأخمد هذا التمرد فى حينه[1] .

وبعد إخماد ذلك التمرد جاز على إلى الأندلس ، لتفقد أحوالها ، وهنالك وفى الجزيرة الخضراء بايعه زعماء الأندلس وسادتها وعلماؤها وفقهاؤها وامتدحه شعراؤها، وقام وقتها بإجراء بعض التغييرات الإدارية فى البلاد . ولما عاد على إلى المغرب أرسل لأخيه تميم، والى غرناطة، قاعدة حكم المرابطين فى الأندلس بعد قرطبة، يأمره باستئناف الجهاد وغزو أرض النصارى . والرد على عدوان الفونسو السادس ملك قشتالة على أشبيلية عقب وفاة يوسف بن تاشفين.

واستجاب تميم لأوامر أخيه فخرج بجيشه من غرناطة فى العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ٥٠١ هـ مجاهداً متجهاً صوب قلعة اقليش ، شمالى جبال طليطلة ، وكانت فى يد القشتاليين (منذ سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) ، وهاجمها وطوقها ، ولم يصمد المدافعون عنها من النصارى ، فسقطت فى يده يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) ، فدخلتها قوات المرابطين وأحرقت ودمرت. غير أن ملك قشتاله الفونسو السادس (العجوز) أرسل حملة كبيرة لنجدة القلعة بقيادة عدد من خيرة قواده (الكونتات) وجعل على رأسهم إبنه (سانشو) المتوقد شباباً وحماسة .

موقعة الكونتات السبعة :

ووقعت معركة كبيرة بين المرابطين والقشتاليين انتهت بهزيمة القشتاليين ومصرع الشاب سانشو فى مكان عُرف فيما بعد «بالكونتات السبعة» ، هزيمة

---

(١) عن نهاية يحيى هذا ، تقول المصادر أن عمه أمر بالقبض عليه ونفيه إلى الجزيرة الخضراء واعتقاله بها حتى وفاته هناك (روض القرطاس ، ص ١٠٣) .

ساحقة أشبه بهزيمتهم فى موقعة الزلاقة . وقد قُدرت خسائر القشتاليين فى هذه المعركة بين الأرواح ما يزيد على العشرين ألفاً[1] ، ومن الأسلاب والغنائم الكثير من الأسرى والخيل والبغال والسلاح والمال . ولم يتتبع المسلمون القشتاليين ويتوغلوا فى أرض النصارى ، فغادر الأمير تميم فى قواته ميدان المعركة عائداً إلى غرناطة وهو يحمل إكليل الغار ، وكتب إلى أخيه كتاباً يبشره فيه بالنصر والفتح . وقد ترك الأمير تميم مهمة محاصرة قلعة اقليش واسقاطها فى يد قوات مرسيه وبلنسيه تحت إمرة قائديها ، وقد نجحت هذه القوات فى مهمتها واستولت على القلعة وعلى ما جاورها من بلاد وحصون ، مثل : ويذة وقونقة وأقونية وكونسويجرا وغيرها[2] .

ولقد كان وقع الهزيمة أليماً على الملك القشتالى الذى لم يحتمل صدمة قتل إبنه فى المعركة ، فمات بسبب ذلك كمداً بعد المعركة بنحو عام واحد (فى ٣٠ يونيو ١١٠٩ م) .

وكانت حملة إقليش فاتحة لبرنامج منظم من الغزوات المرابطية الناجحة لأراضى النصارى فى أنحاء شبه الجزيرة ، وخاصة المتوجهة منها إلى طليطلة ، عاصمة قشتاله . وكان من أعظم الأعمال التى حققها على بن تاشفين استرداده للجزائر الشرقية واستنقاذها من أيدى الغزاة النصارى . كذلك غزوه لبلاد البرتغال ، ولقد ذكر صاحب «الحلل الموشية» أنه «دوَّخ بلاد الشرك بجيوش لا تُحصى»[3] .

وفى أوائل عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، عبر على بن يوسف إلى الأندلس فى جيش عظيم من صنهاجه وزناته ومصمودة وغيرها من قبائل البربر ، وقيل

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، جـ ٤ ، ص ٦٥ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٠٤ .
(٣) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٦٣ .

أن حشوده لم تبلغ فى أى عبور سابق ما بلغته هذه المرة من الضخامة والاستعداد ، وكان هذا الجواز الرابع له إلى الأندلس . وكان سبب هذا الجواز والاستعداد الذى تم له قيام الثورة ضد المرابطين فى قرطبة ، وكانت أول فورة علنية ضد الحكم المرابطى(1) . ذلك لأن أساليب المرابطين فى الحكم لم تكن تتسم بالرفق والكياسة وأنها كانت تتسم بالعنف والخشونة ، ولم ينجح المرابطون ، منذ نحو ربع قرن ، أن ينشئوا فى البلاد المفتوحة نظاماً مدنياً للحكم ، فبقيت بلاد الأندلس ، فى أيامهم ، تعانى ضغط الحكم العسكرى المرهق . وكان تزمت المرابطين الدينى وحجرهم على الأفكار المخالفة لاعتقادهم ، سبباً آخر من أسباب تذمر العقلاء والمفكرين فى البلاد . وكانت الحاميات البربرية المكونة من أخلاط البربر ، تعامل جموع شعب الأندلس بصلف وجفاء وكبرياء ، الأمر الذى جعل الأندلسيين يحقدون عليهم ويعتبرونهم أجانب محتلين جاءوا إلى بلادهم بزعم انقاذها ، ثم انتهوا بأن فرضوا عليهم الإزلال والاحتلال .

وبعد حصار على بن تاشفين لقرطبة ، صالح أهلها وعفى عنهم ، وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نُهب من المرابطين وارتضى ابن تاشفين هذا الاتفاق . وقام على بن تاشفين ، بعد عقده الصلح مع أهل قرطبة، باسناد أمر غرناطة إلى أخيه الأمير أبى الطاهر تميم ، الذى ظل والياً عليها مدة عامين ، ثم تحول عنها والياً على أشبيلية ، التى لبث والياً عليها حتى وفاته سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)(2) . ولم يطل مقام على بن تاشفين هذه المرة بالأندلس ، فعاد منها مسرعاً إلى عاصمته مراكش حين وصلته أنباء أزعجته تتصل باستفحال أمر محمد بن تومرت الموحدى ببلاد السوس الأقصى(3) .

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٤ ، ص ٨٣ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٠٦ .
(٣) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٤ .

ولقد بلغ الأمير على بن تاشفين تفاقم حركة ابن تومرت فى بلاد السوس، بعد إبعاده من مراكش ، وتحوله فى فترة وجيزة من فقيه متواضع يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى داعية سياسى خطير ، التف حوله الآلاف من الأتباع بعد أن ارتدى ثوب «الإمام المهدى» . فبعث لقتاله والى السوس «أبا بكر محمد اللمتونى» ، على رأس قوة من جيشه . ولقد انهزم هذا الجيش المرابطى ، ووقع هذا النصر الأول لجيوش الموحدين ، وذلك فى شهر شعبان سنة ٥١٦ هـ / أغسطس ١١٢٣ م . وأرسل الأمير ابن تاشفين ، بعد ذلك ، حملتين لقتال الموحدين حلت بهما الهزيمة أيضاً .

وبعد أن حقق المهدى انتصاراته على المرابطين ، توجه وصحبه إلى بلدة «تينملل» الحصينة ، الواقعة على سفح جبل درن ، من شعب جبال الأطلس، على بعد نحو مائة كيلو متر جنوب غربى مراكش ، واتخذها مقراً لرئاسته وقاعدة لجهاده ، وذلك سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) . وفى العامين التاليين لذلك التاريخ ، بعث الأمير على بن تاشفين جيشاً لقتال الموحدين واقتحام معقل المهدى فى تينملل، لكن هذا الجيش وقعت به الهزيمة وانتهت محاولته بالفشل. وفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، قام المهدى بالهجوم على قبائل لمتونة ، فأرسل ابن تاشفين جيشاً لوقف عدوانه ، لكن هذا الجيش لقى الهزيمة ، وقام الموحدون بمطاردة فلوله حتى أسوار مراكش .

وفى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ، وهى السنة التى توفى فيها المهدى[1] ، كان هجوم الموحدين على مراكش ، عاصمة المرابطين . وقد حقق الموحدون النصر على المرابطين فى ثلاث معارك وقعت بينهما على أبواب مراكش وفى ظاهرها . وقام الموحدون بمحاصرة مدينة مراكش أربعين يوماً . وفى تلك الأثناء ، قام على بن تاشفين باستنفار سائر أمراء لمتونة وولاتها وقادتها لموافاته

(١) توفى المهدى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ / أغسطس ١١٣٠ م .

بحشودهم ، فقدمت إليه الإمدادات من سائر النواحى ، ووافاه ، خصوصاً ، جيش ضخم من سجلماسة قام واليها بحشده وإعداده .

وخرج على بن تاشفين ، فى قواته ، من مراكش ، وانضمت إليه سائر الإمدادات ، ودخل عند موضع يُعرف باسم «البحيرة»[1] ، فى معركة تُعد من أحمى المعارك الى جرت بين المرابطين والموحدين ، انتهت بانتصار كبير للمرابطين على الموحدين ، لأول مرة منذ بداية الصدام بينهما . وقد قُدر عدد قتلى الموحدين فى هذه المعركة بأربعين ألفاً ، كان فى مقدمتهم «أبو محمد البشير الونشريشى» ، أعظم قوادهم . وكان تاريخ وقوع هذه المعركة ، التى أحيت الأمل فى أستمرار دولة المرابطين ، يوم السبت الثانى من شهر جمادى الأولى سنة ٥٢٤ هـ / ١١ أبريل ١١٣٠ م .

ولما توفى المهدى ، اتفق أصحابه على أن يخلفه من بعده فى قيادة الدعوة ورياسة الدولة تلميذه «عبد المؤمن بن على» ، وأحب أصحابه ، والذى تلقب عند ذلك بلقب أمير المؤمنين . وقد استدعى على بن تاشفين إبنه «تاشفين» من الأندلس ، وجعل معه جيشاً ، وصار يمشى فى الصحراء قبالة عبد المؤمن فى الجبال . وفى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) كان عبد المؤمن وقواته فى موقع بجبل عال يُعرف باسم «النواظر» ، فى الوقت الذى كان فيه تاشفين فى موقع منخفض عنه ، وترامى الطرفان بالسهام والنبال ، دون أن تقع بين الطرفين معركة حقيقية فى ذلك العام الذى عُرف بعام النواظر[2] .

وفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، وقعت معركة بين الجانبين المرابطى والموحدى فى موضع يعرف باسم «خندق الخمر» ، انتصر عبد المؤمن فيها ، ثم توجه ، بعد المعركة ، بجميع جيشه حيث موضع قبائل غمارة ، وهنالك تقدم له زعماؤها بالطاعة والولاء وبايعوه بالخلافة ، فأقام عندهم مدة ، ثم ما

(١) ابن الأثير : الكامل ، حـ ٩ ، ص ٢٠٠ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠١ .

برح يمشى فى الجبال وينشر قواته وتاشفين يحاذيه فى الصحراء ، ولم يزل كذلك حتى سنة ٥٣٥ هـ . فتوفى أمير المسلمين على بن تاشفين بمراكش ، وملك بعده إبنه «تاشفين» ، فقوى طمع عبد المؤمن فى البلاد إلا أنه لم ينزل إلى الصحراء .

وكان المرض فى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ، قد اشتد بالأمير على بن تاشفين ، فأخذ البيعة بولاية العهد من بعده ، لإبنه «تاشفين» ، وذلك بعد وفاة إبنه الأكبر وولى عهده «سيْر» ، وفقاً للقاعدة التى وضعها مؤسس الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين ، باختيار أمير المسلمين لولى عهده فى حياته من بين أبنائه وعقد البيعة له[1] .

ولقد أجرى على بن تاشفين ذلك حتى يواجه ما وقع فى تلك الأثناء ببلاد المغرب من تطورات وأحداث كبيرة ترتبت على ظهور المهدى محمد بن تومرت، ودعوته الدينية الجديدة وما تلاها من قيام دولة الموحدين فى تينملل واضطرام الصراع بينها وبين دولة الموحدين .

وقام تاشفين بمواجهة قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن ، الذى توجه سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) إلى تلمسان ، فنازلها وضرب خيامه بأعلاها ، ونزل تاشفين على الجانب الآخر ، وجرت بينهما مناوشات وبقوا كذلك إلى سنة ٥٣٩ هـ ، فارتحل عبد المؤمن منها إلى جبل تاجرة بوهران . ونزل تاشفين بظاهر وهران ، على البحر ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان من ذلك العام ، وسار فى نفر يسير من أصحابه ، متخفياً قاصداً ربوة مطلة على البحر يتجمع فيها المتعبدون قاصداً التبرك بحضور ذلك الموضع مع أولئك النفر

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٤ ، ص ١٤٦ .

(٢) هو المهدى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت العلوى الحسنى ، وقبيلته تعرف بقبيلة «هرغة» المصمودية ، وكانت تقيم بجبل السوس من بلاد المغرب وكانت قد نزلت به لما فتحه المسلمون بقيادة موسى بن نصير (ابن الأثير : الكامل ، حـ ٩ ، ص ١٩٥) .

الصالحين . فبلغ الخبر قائد الموحدين «عمر بن يحيى الهنتاتى» ، فسار لوقته بجميع عسكره إلى ذلك المكان ، وأحاطوا به وملكوا الربوة . فلما خاف تاشفين على نفسه أن يأسروه ، ركب فرسه وسار به إلى جهة البحر ، فسقط من فوق جرف عالٍ على الصخر وقُتل ، وقُتل كل من كانوا معه[1] .

ولما قتل تاشفين ، أرسل القائد عمر الهنتاتى إلى عبد المؤمن الموحدى بالخبر ، فجاء عبد المؤمن من «تاجرة» ، فى يومه بجميع عساكره ، وتفرق عسكر المرابطين ، واحتمى بعضهم بمدينة وهران . فلما وصل عبد المؤمن بقواته ، دخل وهران ، وأخذها عنوة ، وقتل عدداً كبيراً من أهلها ومن منهزمى المرابطين ، ثم توجه بعد ذلك ، إلى «تلمسان» ، واستولى عليها . وبعد تلمسان توجه سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) إلى مدينة فاس ، وحاصرها لمدة تسعة أشهر ، ثم طلب أهلها الأمان فأمنهم وفتح المدينة آخر سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، ثم سار ، بعد ذلك ، إلى مدينة «سلا» ، ففتحها فى العام التالى[2] .

ولما فرغ عبد المؤمن من أمر فاس وسلا ، توجه إلى مراكش العاصمة ، وكان صاحبها حينئذ آخر حكام المرابطين وهو أبو أسحاق إبراهيم بن تاشفين ، وكان صبيًا لم يتجاوز السادس عشرة من العمر . وقام عبد المؤمن بمحاصرة مراكش مدة أحد عشر شهراً ، ثم اقتحمها ، بعد ذلك ، واستولى عليها عنوة وقتل أعداداً كبيرة من سكانها . ووصلت قوات الموحدين إلى دار أبى اسحاق ابن تاشفين وأخرجوه منه وجميع من كان بالدار من أمراء المرابطين ونسائهم وقتلوهم جميعاً بما فيهم اسحاق وذلك سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) .

وبمقتل أبى اسحاق انتهى عهد حكم دولة المرابطين للمغرب والأندلس ، بعد أن دام ملكهم مدة سبعين عاماً[3] .

(١) ابن الأثير : نفس المصدر ، والجزء ، ص ٢٠٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حـ ٩ ، ص ٢٠٤ .
(٣) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٥ .

وهكذا نجد أن دولتى المرابطين والموحدين قد تلاقتا فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى واحداهما فى أوج قوتها والثانية فى عنفوان شبابها ، فكان لقاؤهما بلاءً على المسلمين ، ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان لتعاقبتا على الجهاد ، ولكان لتعاقبهما نعمة على الإسلام وأهله ، ولكن هكذا شاءت إرادة الله ، وخسر المسلمون فى هذا التعاصر شيئاً كثيراً . ولكن النتيجة على الجملة جاءت فى النهاية طيبة ، فقد خطا المغرب على أيدى الموحدين بعد المرابطين خطوات واسعة نحو الوعى بشخصيته ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية، وظهرت للمرة الأولى فكرة توحيد المغرب الإسلامى فى دولة واحدة على يد المرابطين أولاً ثم الموحدين بعدهم ، وهذه فى ذاتها تُعد معالم واضحة فى التاريخ القومى المغربى العام[1] .

رابعاً: بلاد المغرب والأندلس تحت حكم الموحدين[2] ودفاعهم عنها :

نشأت دولة الموحدين بالمغرب على يد المهدى ، محمد بن تومرت (٥١٥-٥٢٤ هـ) ، وخلفه من بعده على حكمها تلميذه «عبد المؤمن بن على»، الذى اتخذ لنفسه لقب «أمير المسلمين» سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ،

---

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٧٥ .

(٢) حكمت دولة الموحدين المغرب والأندلس من سنة ٥٢٤ هـ حتى سنة ٦٦٨ هـ (١١٣٠-١٢٦٩ م) . وكان أول حكامها «المهدى محمد بن تومرت» (٥١٥-٥٢٤ هـ) ، وخلفه من بعده تلميذه «عبد المؤمن ابن على» ، (٥٤١-٥٥٨ هـ) ، ثم خلفه أبو يعقوب يوسف (الاول) ٥٥٨-٥٨٠ هـ ، ثم خلفه «أبو يوسف يعقوب المنصور» ٥٨٠-٥٩٥ هـ ، ثم خلفه محمد الناصر (٥٩٥-٦١١ هـ) . ثم «أبو يعقوب يوسف (الثانى) ٦١١-٦٢٠ هـ ، ثم أبو محمد عبد الواحد (٦٢٠-٦٢١ هـ) ، ثم أبو محمد عبد الله العادل (٦٢١-٦٢٤ هـ) ، ثم يحيى المعتصم بالله (٦٢٤-٦٢٦ هـ) ثم أبو العلاء إدريس المأمون (٦٢٦-٦٢٩ هـ) ، ثم عبد الواحد الرشيد (٦٣٠-٦٤٠ هـ) ، ثم على السعيد (٦٤٠-٦٤٦ هـ) ، ثم عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥ هـ) ، ثم إدريس الواثق ، أبو دبوس (٦٦٥-٦٦٧ هـ) ، ثم انقسام الدولة واستيلاء بنى مرين على مراكش وسقوط دولة الموحدين سنة ٦٦٨ هـ .
(زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، حـ ١ ، ترجمة زكى حسن وحسن أحمد محمود ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١١٣ ، ١١٤) .

والذى استولى على مدينة مراكش ، عاصمة المرابطين السابقة ، سصنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) ، ثم خلفه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، الذى حكم بعد وفاة أبيه سنة ٥٥٨ هـ حتى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) . وعندما تولى أبو يعقوب يوسف حكم دولة الموحدين كان فى الخامسة والعشرين من عمره . ولما كملت ليوسف البيعة سار من بلدة سلا إلى مراكش ، ونزل قصر الخلافة وأقام بها ، وكتب إلى جميع عماله فى طلب البيعة له ، فجاءته البيعة من سائر النواحى . وقد اتفقت الأمة على بيعته فى اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) ، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين ، وبعد أن بايعه أخوه «السيد أبو سعيد» ، والى قرطبة ، وتسمى من ذلك الوقت بأمير المؤمنين بعد أن كان يتسمى بأمير المسلمين[1] .

وفى بداية عهد «أبى يعقوب» ، وقعت ثورة محلية فى منطقة «غمارة» ، بزعامة أحد رؤساء قبيلة «صنهاجة» ، وقد التف حول هذا الثائر عدد كبير من رجال قبيلته وقبيلتى غمارة و «أوربة» . ونجح هذا الثائر فى الاستحواذ على أراضى «تاودا» ، القريبة من مدينة فاس ، وقتل كثيراً من أهلها . فسيَّر الخليفة أبو يعقوب لقتاله جيشاً موحدياً بقيادة القائد «يوسف بن سليمان» الذى نجح فى هزيمته وقتله .

وفى أوائل سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) ، عادت الفتنة إلى جبل غمارة بين قبائل صنهاجة ، وبسط زعيمها نفوذه وسلطانه على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطئ البحر المتوسط حتى سبته ، وعاث فيها فساداً . فخرج الخليفة بنفسه على رأس جيش كبير لمقاتلة الثوار فى جبال غمارة ، ونجح فى هزيمتهم وقتل زعيمهم «سبع بن منغفاد» ، وإذعان سائر صنهاجة فى تلك المنطقة .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٣٧ .

ولم تمض على إخماد فتنة الصنهاجيين فى غمارة بضعة أشهر ، حتى حدثت فتنة جديدة قام بها بعض رجال البطون البربرية فى غمارة بجبل «تاسررت» ، فأرسل الخليفة إليهم أخاه «السيد أبا حفص» فى جيش موحدى كبير استطاع القضاء عليهم . وفى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) توفى أبو حفص ، ساعد الخليفة الأيمن وقائده المظفر ، وكانت وفاته تمثل خسارة كبرى للخليفة أبى يعقوب .

وفى نفس ذلك العام ، الذى توفى فيه أبو حفص وقعت فى مدينة «قفصة» التونسية ثورة كبرى ضد الموحدين بقيادة ثائر يدعى «على بن الرند» . وما كان من الخليفة إلا أن سار إليه بنفسه على رأس جيشه ، وقام بضرب المدينة بالمجانيق حتى اضطر ابن الرند إلى الاستسلام ، واحتل جيش الموحدين قفصة وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٧٦ هـ (١١٨١ م)[١] .

وفى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٤ م) ، كانت توسعة مدينة مراكش ، بعد أن ضاقت بسكانها ، فعهد الخليفة إلى ولده وولى عهده السيد أبى يوسف يعقوب بتلك المهمة . واتفق أبو يوسف الإبن مع شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين على انشاء مدينة جديدة تكون امتداداً للمدينة القديمة على الجهة القبلية منها[٢] .

ولقد توفى الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف يوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (١٣ يوليو ١١٨٤ م)[٣] ، وبويع من بعده لإبنه الأمير أبى يوسف يعقوب المنصور وولى عهده وأكبر أبنائه ، وهو فى الخامسة والعشرين من العمر . ولقد حكم هذا الخليفة دولة الموحدين مدة خمس عشرة عاماً (من ٥٨٠-٥٩٥ هـ / ١١٨٤-١١٩٨ م) ، وهو يُعد من أعظم خلفاء

(١) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ٢٤١ .

(٢) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى اختصار ملوك الأندلس والمغرب ، القسم الثالث ، تطوان ١٩٦٤ ، ص ١٢٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ٥٤٦ .

الدولة الموحدية . وقد بلغت الدولة فى عهده قمة قوتها وكامل عظمتها ، واكتملت فى عهده نواحيها الإدارية ومنشآتها العمرانية .

وقد تميز هذا الخليفة عن غيره من الخلفاء بالحزم والعزم وبتحرى الحق والعدل ومطاردة الظلم ومقاومة البغى ، وكان تقياً ورعاً ، عالماً متبحراً فى علوم الشرع . وقد اكتسب هذا الخليفة الدراية الإدارية والحنكة السياسية أثناء ولايته لأشبيلية وشئون الأندلس ، مدة ثمان سنين ، أيام خلافة والده . ولما ولى أبو يوسف المنصور الخلافة وعاد إلى الأندلس فى جوازه الأول وأقام بأشبيلية خمسة أعوام ، تجلت فى هذه الفترة مواهبه العلمية ، وجنح إلى دراسة الطب والفلسفة . واجتمع حوله آنذاك ثلاثة من أئمة الفكر الإسلامى، وهم : طبيبه الخاص الحاذق أبو بكر بن الطفيل ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد ، ابن رشد ، وطبيبه الماهر أبو بكر بن زهر . وكان ابن الطفيل ملازماً للخليفة ونديمه الذى لم يكن يصبر على فراقه[1] .

ولقد بدأ الخليفة المنصور يعقوب عهده ، بإخراج مائة ألف دينار ذهباً ، وقام بتوزيعها على أسر الفقراء والمحتاجين فى سائر أنحاء المغرب ، كذلك قام به طلاق سراح المساجين[2] ، وقام بإغلاق محال الخمور وفض مجالس المغنين والقيان ، وتعقب المفسدين ، وجلس للنظر فى المظالم ، يوماً كل أسبوع ، فى المسجد الجامع . وقام هذا الخليفة بإنشاء ضاحية «الصالحة» الملوكية ، جنوبى مراكش ، ما بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً ، فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨١ هـ / سبتمبر ١١٨٥ م . وقد أنشئت عدة قصور بهذه الضاحية ، كما أنشئ بها مسجد جامع ، واستمر العمل فى تشييدها نحو أربعة أعوام . كذلك أمر المنصور بضرب دينار جديد ، ضاعف وزنه عن وزن الدينار الموحدى القديم .

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، عصر الموحدين ، حـ ٥ ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٤٣ .

وبينما كان الخليفة المنصور يواصل الإصلاحات الداخلية فى بلاد المغرب ، وقع حدث شغل خلفاء الموحدين من بعده عن الإصلاح ، ووجههم إلى الحرب . وقد تمثل هذا الحدث فى هجوم «بنى غانية»[1] ، أصحاب جزيرة «ميورقة» ، على ثغر بجاية التونسى والاستيلاء عليه وعلى عدد آخر من ثغور الساحل الأفريقى الشمالى . وقد استمر هذا الصراع بين دولة الخلافة وبنى غانية أكثر من نصف قرن من الزمان ، وكان له أبلغ الأثر فى إنهاك دولة الموحدين وتبديد قواها ومواردها .

وكان بنو غانية ، الذين استقلوا بالجزائر الشرقية ، قد رفضوا الدخول فى طاعة الموحدين وظلوا على ولائهم للمرابطين وللخليفة العباسى ، وتجرأوا سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م بمهاجمة ثغر بجاية التابع لدولة الموحدين ، ثم واصلوا زحفهم على بلاد الجزائر حتى مدينة قسنطينة .

وعلم الخليفة يعقوب المنصور بتلك الحوادث المؤسفة ، وهو ما يزال فى بداية عهده بالحكم ولم يكد يبدأ حملته الإصلاحية فى البلاد ، فاهتز لها وأدرك خطورتها ، وبذل قصارى جهده لقمعها . فجهز جيشاً كبيراً قوامه عشرون ألف مقاتل مزوداً بوافر العدة والسلاح وجعل قيادته لابن عمه أبى زيد ابن أبى حفص . كما أرسل أسطولاً كبيراً من ميناء سبته لمساعدة القوات البرية. ونجحـــت قوات الخليفة فى استخلاص بجاية ١٩ صفر ٥٨١ هـ / ٢٢ مايو ١١٨٥ م بعد أن لبثت فى يد بنى غانية سبعة أشهر[2] . وهرب على بن

(١) ينتمى بنو غانية إلى زعيمهم يحيى بن غانية ، الذى توفى بغرناطة سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م فى غمار الثورة التى نشبت فى الأندلس ضد حكم المرابطين ، وكان أخوه محمد بن غانية والياً على جزائر البليار وميورقة حتى سقطت دولة المرابطين ودخل الموحدون مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م . واستمر محمد على ولائه للمرابطين وللخليفة العباسى وحكم بلاده مدة ثلاثين عاماً ، وقد اعتزم محمد بن غانية أن يجعل من هذه البلاد ملكاً وراثياً فى أسرته ، وقد رفض بنو غانية الدخول فى طاعة الموحدين .

(٢) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ١٩١ .

غانية وأخوه يحيى إلى بلاد الجريد ونجح فى الاستيلاء على بلدة توزر سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ثم استولى على بلدة قفصه وعلى معظم افريقية .

وعظم أمر على بن غانية بأنحاء افريقية الجنوبية والوسطى ، وخصوصاً بعد أن انضمت إليه طوائف العرب هناك من بنى هلال وبنى جشم وبنى رباح . ولم يبق للموحدين من سائر أنحاء افريقية سوى المهدية وتونس[١] . وتلقب ابن غانية بلقب أمير المسلمين جرياً على ما كان عليه أمراء دولة المرابطين ، ودعا للخليفة العباسى الناصر لدين الله بن المستضئ بنور الله[٢] ، فعقد له الخليفة على سائر ما يملكه . ولما وصلت الأخبار إلى المنصور يعقوب اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين ، وسار فى صفر سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، فوصل إلى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا إلى على بن اسحاق ليقاتلوه ولكنهم انهزموا وقُتل جماعة من مقدميهم، فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى منتصف رجب من السنة، ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب العدو . فالتقى بهم بالقرب من مدينة قابس ، واقتتلوا فانهزم ابن غانية ومن معه ، فأكثر الموحدون فيهم القتل حتى كادوا يفنونهم ، ولم ينج منهم إلا القليل . ورجع يعقوب ، من يومه ، إلى قابس ففتحها ، ثم توجه إلى قفصة فحاصرها ثلاثة أشهر ، ولما طلب أهلها التسليم بعد ذلك الحصار ، وافقهم على ذلك . وتسلم يعقوب قفصة وقتل من فيها من أتباع المرابطين ، وهدم أسوارها وتركها خراباً ينعق فيها البوم والغربان . ولما فرغ يعقوب من أمر قفصة واستقامت له افريقية ، عاد إلى مراكش ، وكان وصوله إليها سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م[٣] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حـ ١٠ ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٧ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حـ ١٠ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

وفى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) وردت للمنصور أنباء تفيد استئناف بنى غانية لنشاطهم وافسادهم فى أنحاء افريقية ، وعلى وجه الخصوص ، فى بلاد الجريد بقيادة يحيى بن غانية ، الذى ورث نشاط أخيه على بن غانية بعد موته. فما كان من المنصور إلا أن خرج من مراكش إلى رباط الفتح ليقوم هناك بإعداد حملة عسكرية لمواجهة تلك الاضطرابات الناشئة فى افريقية آنذاك .

وفى ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ / ٢٢ يناير ١١٩٩ م ، توفى الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور[1] ، وبوفاته يختم عهدٌ من ألمع عهود الدولة الموحدية . ولما توفى الخليفة يعقوب المنصور ، خلفه فى صباح اليوم التالى إبنه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر لدين الله ، وأُخذت له البيعة العامة ، ولم يعارضه أحد من إخوته وأعمامه ، ثم أُخذت له البيعة بعد ذلك ، فى سائر أقطار المغرب والأندلس . وكان حين جلوسه ، فى نحو السابعة عشرة من عمره .

وكانت الأحوال فى افريقية قد ساءت فى أواخر عهد المنصور لانشغاله بأمر الجهاد فى الأندلس ، ولما فرغ من أمر الأندلس وعاد إلى المغرب داهمه المرض الذى أنهى على حياته دون مجابهة ثورة بنى غانية فى افريقية . فكان على ولده الناصر أن يتدارك الأمر هناك . وكان يحيى بن غانية قد فرض سلطانه على بلاد الجريد ، واستبد ثائر جديد يدعى ابن عبد الكريم الرجراجى بحكم المهدية وتسمى «المتوكل على الله» واستفحل أمره هناك . وفى سنة ٥٩٧ هـ ، وقع التنافس بين ابن غانية وبين ابن عبد الكريم انتهى بانتصار ابن غانية الميورقى والقبض على ابن عبد الكريم وولده وقتلهما .

(١) يذكر ابن الأثير أنه توفى يوم الثامن عشر من شهر ربيع الآخر بمدينة سلا ، التى كان قد سار إليها من مراكش ، وأن ولايته كانت خمس عشرة سنة ، وأنه كان ذا جهاد للعدو ودين حسن وسيرة طيبة (الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٨) .

وبسط يحيى بن اسحاق بن غانية الميورقى حكمه على سائر افريقية ماعدا شاطئها الشمالى ، واستولى على سائر قواعدها : طرابلس وقابس وصفاقس والمهدية والقيروان وسائر بلاد الجريد ، ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة[1] . وما لبث يحيى أن استولى على بجاية عنوة وقتل حاكمها الموحدى . وقد قام والى افريقية الموحدى السيد أبو الحسن بقيادة قواته للقاء ابن غانية ، والتقى الطرفان بالقرب من قسنطينة فى معركة هُزم فيها الموحدون واستولى ابن غانية على معسكرهم وأسلابهم ، وارتد والى افريقية الموحدى إلى بجاية مهزوماً[2] .

وفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م اقتحم ابن غانية مدينة بسكرة عنوة واستولى عليها وقبض على عاملها الموحدى وزج به فى السجن . وفى نفس العام قضى على الداعى أبى قصبة فى أرجاء بلاد السوس[3] . وفى يوم ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ / ١٧ أكتوبر ١٢٠٥ م أتمت قوات الخليفة الناصر البحرية فتح جزيرة ميورقة والقضاء على حكم بنى غانية فيها وفى الجزائر بعد هزيمة الميورقى بجبل تاجرا، جنوب شرقى قابس[4] ، وفتح المهدية يوم السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى / ١١ يناير ١٢٠٦ م .

هذا ولقد نجح الموحدون فى تقويض سلطان بنى غانية ، مع مطلع القرن السابع الهجرى ، إلا أن زعيمهم يحيى الميورقى ، الذى فر عقب معركة تاجرا شريداً فى الصحراء الجنوبية ، لم ييأس ، ولم يعتبر هزيمته من الموحدين كلمة الفصل النهائية فى معركته معهم ، ولكنه يعود ثانية لمواصلة الصراع معهم مزوداً بقوى وآمال جديدة .

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٥ ، ص ٢٥٤ .
(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١٧٩ .
(٣) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ٢٥٠ .
(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٢٤ .

هذا ولقد شغل الخليفة محمد الناصر ، منذ ارتقائه العرش ، وطوال الاثنتى عشرة سنة الأولى من خلافته فى العمل على الخلاص من بنى غانية فى افريقية والعمل على فرض سيطرته على تلك البلاد ، وقد شغله ذلك عن سير الأحداث فى الأندلس ومواجهة أخطار الممالك الأسبانية النصرانية بها وفى مقدمتها مملكة قشتالة . وما أن انتهى الخليفة من أمر افريقية حتى تولى النظر فى أمر الأندلس وعودة الصراع مع مملكة قشتاله ، وذلك ما سوف يستغرق منه السنوات المتبقية من حكمه خلال مطلع القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى[1] .

دفع الموحدين العدوان الصليبى عن بلاد الأندلس :

هذا ما كان من جهود الموحدين فى بلاد المغرب ، أما عن جهودهم فى بلاد الأندلس وتصديهم لعدوان المسيحيين على شمال البلاد وغربها ، فنرى الخليفة أبو يعقوب ، يرسل أخاه «أبا حفص» إلى الأندلس لإقرار الأمور فيها بعد الثورة التى قامت فى شرق البلاد على يد الثائر «ابن مردنيش» ، وقد قامت قواته بسحق هذه الثورة وتحقيق نصر كبير على صاحبها فى موقعة عُرفت باسم ، معركة «فحص الجلاب» .

وفى عهد أبى يعقوب وقع تهديد صليبى كبير على ولاية الغرب الأندلسية، من قبل مملكة البرتغال الناشئة هناك على يد مليكها «الفونسو هنريكيز» ، وكان على الموحدين ضرورة مجابهة هذه الأخطار الصليبية التى وقعت على بلادهم التى يحكمونها فى الشرق والغرب . وكان أبو يعقوب قد انشغل آنذاك ، عن مواجهة تلك الأخطار ، ببعض المشاكل الداخلية ، فلما فرغ منها توجه بقواته

---

(١) سوف يتوقف بحثنا عند هذه النقطة التزاماً منا بالحيز الزمنى المحدد لبحثنا وهما القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين .

(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، عصر الموحدين ، حـ ٥ ، ص ١٨ ، ١٩ .

لمواصلة الجهاد ضد القشتاليين والبرتغاليين لما وصله من ازدياد خطورتهما على بلاد المسلمين والمسلمين فى الأندلس فى السنوات الأخيرة . وقرر أبو منصور أن يقود هذا الجهاد بنفسه ، وبالفعل ، تحرك على رأس جيشه متجهاً إلى الأندلس متحركاً فى موكبه من مدينة فاس يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ (٨ أبريل ١١٨٤ م) . ووصل إلى ثغر سبته ، فأقام به ، بقية شهر المحرم ، ثم عبر إلى جبل طارق ، ثم منها إلى الجزيرة الخضراء ، ثم إلى أشبيلية ، التى وصلها يوم الثالث عشر من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ (٢٥ مايو ١١٨٤ م) . وكان هدف حملة أبى منصور مدينة «شنترين» البرتغالية[١] ، التى كانت أهم قواعد العدوان البرتغالى الصليبى على بلاد المسلمين وعلى أحواز أشبيلية على وجه الخصوص .

ولقد رأى الخليفة الموحدى أن الاستيلاء على شنترين ، يقضى على أهم معاقل البرتغاليين ، ويقضى على خطرهم تماماً على بلاده[٢] . وكا كادت قوات الموحدين تصل إلى ظاهر شنترين وتتقدم لحصار المدينة ، التى كان الفونسو قد تحصن بها ، وتقوم هذه القوات بحصارها ومقاتلتها مدة خمسة أيام ، حتى فوجئ الجند المسلمين بأمر من الخليفة بوقف الحصار والقتال والانسحاب عن المدينة[٣] . وأوردت الروايات المتضاربة عن هذا الانسحاب الغامض المفاجئ ، إصابة الخليفة أبى يعقوب ، وهو محاصر للمدينة ، بسهم قضى عليه وتسبب فى موته يوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (١٣ يوليو ١١٨٤ م)[٤] .

(١) تقع مدينة شنترين فى شمال شرقى أشبونة ، على بعد ٥٠ كم منها ، فوق ربوة مرتفعة على الضفة اليمنى لنهر تاجه . وكان الفونسو هنريكيز ، ملك البرتغال ، قد استولى عليها هى ومدينة أشبونة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، على أثر الاضطراب الذى وقع فى ولاية الغـرب بسبب قيام ثورة ضد المرابطين آنذاك .

(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٥ ، ص ١١٧ .

(٣) وردت فى المصادر روايات متعددة عن سبب هذا الانسحاب ، لم تحسم أى رواية منها .

(٤) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ٥٤٦ .

ولما توفى الخليفة أبو يعقوب ، متأثراً بجراحه ، بعد عبوره نهر التاجه بقليل محمولاً على محفة ، كتم خبر وفاته حتى نزل الركب خلال طريقه إلى أشبيلية عند حصن «طرش» ، وهنالك بويع لإبنه الأمير «أبى يوسف يعقوب»، وهو أكبر أبنائه ، بالخلافة من بعده دون معارضة لأن أباه خصه بولاية عهده أثناء حياته .

وما كاد المنصور ، بعد توليه الخلافة ، يستقر بمراكش ، حتى أخذ ينظر فى أمر الأندلس ، وكانت الأحوال ، فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، تتطور بصورة تدعو إلى القلق لما كان يقع من جانب القشتاليين والبرتغاليين . ولذلك أخذ المنصور فى الاستعداد لتدارك الحال ووقف عدوان النصارى على الديار . فأذاع الدعوة للجهاد ، وجاءه المجاهدون المتطوعون من مختلف أنحاء المغرب ، وأمر الخليفة العمال بالاستعداد للقتال وإعداد العتاد والسلاح والأقوات له[1] .

وكان البرتغاليون ، فى عهد حكم مليكهم «سانشو» بن الفونسو هنريكيز، قد استولوا على مدينة «شلب» ، آخر معاقل الموحدين فى ولاية المغرب بعد سقوط باجه بعشرة أيام ، يوم الاثنين ٢٠ رجب سنة ٥٨٥ هـ (٣ سبتمبر ١١٨٩ م)[2] . وفى نفس الوقت ، خرج «الفونسو الثامن» ، ملك قشتاله ، فى قواته ، نحو منطقة قرطبة ، وقام باكتساح البلاد الواقعة شرقى أشبيلية ، وعاث فيها فساداً قتلاً وسلباً ونهباً .

وعلى إثر ذلك ، خرج المنصور بقواته من مراكش ، فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٨٥ هـ (٢٣ يناير ١١٩٠ م) لرد ذلك العدوان على بلاد المسلمين ولاستخلاص مدينة شلب من يد البرتغاليين[3] . ونجح المنصور ، بهذه

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حـ ١٠ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٣) لاشك فى أن أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٧ م ، واسترجاعه القدس قد زاد فى حماسه وأثار فى المسلمين موجة متدفقة من الحماس فتقاطر الناس على المعسكرات واشرأبت النفوس إلى النصر (حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص ١٩٧).

الحملة ، فى الاستيلاء على قلعة «طرش» الحصينة ، الواقعة شمالى شنترين وتخريبها ، ثم سار بقواته شمالاً وهاجم قلعة «طومار» المنيعة ، وحاصرها لعدة أيام ، ثم أمر المنصور بفك الحصار عنها دون أن يستولى عليها ، بل على العكس من ذلك ، أمر بوقف القتال واختتام أعمال الغزو ، دون أن يقدم الخليفة تبريراً لذلك ، وقرر العودة إلى أشبيلية ، دون أن تسفر حملته هذه عن نتائج إيجابية .

ولقد نمى للخليفة المنصور نبأ وصول قوات من أوربا الغربية أغارت على مياه أسبانيا الغربية فى سفنهم التى أخذت طريقها إلى البحر المتوسط فى أوائل سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، وقد كانت عدة هذه السفن خمسين سفينة تحمل عدداً وافراً من الجند الألمان والفلمنك ، وقد رسى هذا الأسطول فى مياه جيليقية قبالة مدينة «شنت ياقب» المقدسة ، ونزلت منه بعض طوائف من الجند لتزور قبر القديس ياقب (يعقوب) . ولكن أهل المدينة ، خشوا أن تمتد أيديهم إلى الذخائر التى يحفل بها مزار ذلك القديس ، فردوهم بعد معركة عنيفة قُتل فيها عدد من الجانبين[(١)] . ثم ارتد الجند الصليبيون إلى سفنهم التى توجهت بهم نحو الجنوب .

ووفد أيضاً فى ذلك الوقت ، على مياه الأندلس ، أسطول صليبى آخر قادم من انجلترا وبلاد الفلاندرز دفعته العواصف هو وسفن الأسطول الأسبق إلى مياه ميناء أشبونه . فتلقاهم «سانشو» ملك البرتغال ، بالترحاب للاستعانة بهم فى غزو القواعد الإسلامية الجنوبية ، واتفق مع قاعدتهم على التوجه إلى مدينة شلب لانتزاعها من يد المسلمين ، وهى أمنع قواعد ولاية الغرب الأندلسية الإسلامية وأكثرها عمرنا[(٢)] . وكان الاتفاق بين شانسو والصليبيين

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، عصر الموحدين ، حـ ٥ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) تقع شلب فى أقصى جنوب البرتغال ، على مقربة من المحيط فوق ربوة عالية وقد زارها الجغرافى المسلم الشهير الإدريسى ووصفها فى كتابه : فى وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

على مهاجمة المدينة براً وبحراً ، هو يقود قواته البرية والصليبيون يغزونها من ناحية البحر . وحاصرت القوات المهاجمة شلب مدة ثلاثة أشهر ، ولم تسقط فى أيديهم إلا بعد أن قطع سانشو عن المدينة مياه نهر التاجة التى تغذيها ، وبسبب العطش والجوع استسلم أهلها لسانشو والصليبيين . وتصالح أهل شلب على شرط ترك البلدة بجميع مافيها ، ودخل النصارى شلب يوم الاثنين ٢٠ رجب سنة ٥٨٥ هـ (٣ سبتمبر ١١٨٩ م)[١] .

وفى نفس ذلك العام ، قام القشتاليون من قرطبة بتهديد منطقة قشتالة ، فقد قام الفونسو الثامن ملك قشتاله ، بالاستيلاء على حصن المنار ، وأم غزالة وربينه وقلعة جابر وحصن شلير ، وكلها من معاقل قشتالة ، وعاد الفونسو ، بعد حملته المظفرة هذه إلى طليطلة . وكان لذلك العدوان الصليبى على بلاد المسلمين فى الأندلس أثره على الخليفة المنصور يعقوب ، الأمر الذى أوجب عليه مواجهته . وقد قام المنصور بتجميع قواته متجهاً إلى شلب لتخليصها من يد سانشو ، وكان مسيره إليها فى غرة جمادى الأولى سنة ٥٨٦ هـ (٦ يونيو ١١٩٠ م) ، وقد حاصر المنصور شلب مدة ثلاثة وأربعين يوماً ، ثم أمر بالارتداد عنها قبل فتحها ، دون سبب يذكر ، وعاد إلى أشبيلية فى الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة ٥٨٦ هـ (يوليو ١١٩٠ م)[٢] .

وفى هذا العام أحس المسلمون فى المشرق الإسلامى والمغرب بتضامن الصليبيين جميعاً فى اتفاق هدفهم فى القضاء على الإسلام فى المشرق والمغرب، وأن الحروب الصليبية استهدفت ، فى توقيت واحد ، بلاد المسلمين هنا وهناك . ففى الوقت الذى كان فيه الموحدون يواجهون خطر البرتغاليين والقشتاليين الصليبيين فى الأندلس كانت دولة صلاح الدين فى المشرق تواجه عدوان الحملة الصليبية الثالثة التى أعدتها البابوية وشارك فيها ملوك أوربا ،

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ١٨٠ .

بعد هزيمة الصليبيين فى حطين واسترداد المسلمين لبيت المقدس من أيديهم .

ولقد رأى صلاح الدين ، الذى تنبه إلى هذا الخطر المحدق بجميع العالم الإسلامى والمستهدف ، أصلاً ، هو الإسلام أينما كان ، ضرورة تضامن المسلمين فى المشرق والمغرب لدفع هذا الخطر والدفاع عن ديار الإسلام ودحر هذا العدوان . فأرسل صلاح الدين ، فى هذا العام (٥٨٦ هـ) سفارة هامة إلى الملك الموحدى ، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقذ ، يطلب منه العون والغوث بإمداد الشام ، مسرح القتال الصليبى ، بعدد من سفن أسطوله ، وإرسال جزء آخر من ذلك الأسطول إلى جزيرة صقلية لتعطيل حاكمها النورماندى وزملائه عن ملوك النصارى من مهاجمة مصر باساطيلهم[١] .

ولقد جاء طلب استغاثة صلاح الدين بالملك الموحدى فى غير موعدها ، فقد كان المنصور يعقوب فى أشد الحاجة لسفن أسطوله لمقاتلة البرتغاليين والقشتاليين آنذاك . ولو كانت هذه الاستغاثة جاءت فى وقت مختلف ، لاختلف الأمر ولما تردد المنصور فى عون إخوته المسلمين المشارقة لدفع خطر مشترك عنهم استهدف جميع المسلمين . ومن ثمَّ لم يك هنالك مجال ، أمام الظروف الصعبة التى كان يواجهها سلطان الموحدين ، إلى غوث إخوانه المشارقة بقوات وسفن كان هو فى أشد الحاجة لها ، وكان على كل فريق من الفريقين المشرقى والمغربى ، أن يعتمد على نفسه فى رد العدوان الصليبى الذى هو فى مواجهته[٢] .

على أننا نستطيع ، بالرغم من هذه الآثار السلبية ، التى انتهت إليها محاولات صلاح الدين للحصول على عون الخليفة الموحدى ، أن نقول إنها كانت تنطوى على نفس المغزى العظيم الذى أوحى ببذلها ، وهو رسوخ

(١) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، حـ ٢ ، ص ١٧١-١٧٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، حـ ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .
(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٥ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

التضامن الروحى ، وقوة المشاعر المشتركة ، بين شطرى الكتلة الإسلامية فى المشرق والمغرب ، فى تلك العصور التى تعرض فيها كليهما لمحنة العدوان الصليبى[١] .

ولقد خرج المنصور ، لاسترداد مدينة شلب ، فى شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ (يونيو ١١٩١ م) ، واستولى فى طريقه إلى شلب ، على حصون : قصر أبى دانس ، وحصن قلماله ، وحصن المعدن ، ووصلت قواته إلى شلب يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة (يوليو) ، وقام بحصارها وضربها بالمجانيق . ثم اقتحم الموحدون المدينة واسقطوها فى أيديهم، وطلب أهلها الأمان ، فمنحهم المنصور مهلة عشرة أيام لإخلاء المدينة، فخرجوا منها يوم الخميس ٢٥ جمادى الثانية (٢٣ يوليو) ، وعادت شلب إلى أيدى المسلمين بعد بقائها عامين فى يد النصارى[٢] .

وعاد المنصور إلى أشبيلية ، وأمضى فيها شهرين ، ثم غادرها عائداً إلى مراكش . ولقد عاد المنصور إلى بلاد الأندلس ثانية لجهاد النصارى فى أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، وذلك حين وصلته أخبار تفيد نقض الملك الفونسو الثامن للهدنة ومهاجمته لأرباض قشتالة وقيامه بالسلب والقتل والنهب هناك ولما وصل المنصور أشبيلية قضى فيها أسبوعين ، ثم غادرها إلى قرطبة . وقد وصلت أنباء تحرك المنصور لملك قشتالة الفونسو الثامن ، فأرسل يطلب العون من زميليه ملك نافار وملك ليون فوعداه بذلك . ولم ينتظر الفونسو مقدم قواتهما وتحرك بقواته إلى حصن الأرك[٣] ، الذى يقوم فوق ربوة عالية ، والذى كان يعتبر ، آنذاك ، نقطة الحدود بين مملكة قشتالة المسيحية وبين

(١) عنان : نفس المرجع ، ص ١٨٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ٢٤٥ .

(٣) وهو حصن أنشاه ، قبل قليل هذا الملك ، فى محلة الأرك ، من أعمال قلعة رباح التى تقع على بعد ١١ كم غربى مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية) الحديثة .

أراضى المسلمين . وعسكر الفونسو هنالك بقواته فى انتظار وصول قوات الموحدين .

معركة الأرك :

وفى ضحى يوم التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يوليو ١١٩٤ م) نشبت معركة الأرك[١] ، واستمرت حتى غروب الشمس ، وأسفرت عن قتل عدد كبير من النصارى ، ولما أحس الملك الفونسو بالهزيمة فر من ميدان القتال فى نحو عشرين فارساً من أصحابه تحت جنح الليل صوب طليطلة ، وقد احتمت فلول النصارى بحصن الأرك ، إلا أن قوات الموحدين أجبرتهم على النزول نحو السهل ، وحملوا عليهم وأفنوهم عن آخرهم ، ودخل المسلمون الحصن عنوةً وأضرموا النار فى أبوابه واستولوا على جميع ما فيه من الذخائر والأسلاب والسلاح والمتاع والدواب والنساء[٢] .

ولقد كانت موقعة الأرك ، أعظم المعارك التى حقق فيها الموحدون أعظم انتصار حققوه على الصليبيين خلال حكمهم الطويل لشبه الجزيرة الأندلسية ، وكانت من أيام الإسلام المشهورة ، وبها اعتز الإسلام وعلت كلمته[٣] ، وكان أثرها أشبه بأثر معركة الزلاقة .

وما كادت هذه الموقعة العظيمة تنتهى حتى بعث المنصور بسرايا من جيشه فى أراضى قلعة رباح ، فأستولت على عدة حصون هناك ، ثم هاجمت قوات

(١) ابن أبى زرع : روح القرطاس ، ص ١٥٠ .

(٢) مؤلف مجهول : روض القرطاس ، ص ١٥٠ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٩٦ .

(عن خسائر النصارى فى تلك المعركة يذكر ابن الأثير ما نصه : «وكان عدد من قُتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وأسر ثلاثة عشر ألفاً ، وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً ، فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة ألف» (ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧) .

الموحدين القلعة نفسها واقتحموها ، هو قتال عنيف واستولوا عليها ، من أيدى فرسانها المدافعين عنها ، بعد أن دامت فى أيدى النصارى زهاء نصف قرن . وبعد تلك الانتصارات عاد المنصور إلى أشبيلية يوم ٢٧ شعبان سنة ٥٩١ هـ (٦ أغسطس ١١٩٥ م) وقضى فيها فصل الشتاء .

ثم عاود المنصور غاراته على عدوه القشتالى لإبراز مظاهر قوته أمامه وتخريبه لأراضى طليطلة ، حصن الإسلام القديم على التاجه ، وحصارها وقطع أشجارها وهدم أسوارها دون الاستيلاء عليها[1] . ولو كان فعل ذلك فى تلك الظروف المواتية التى كان فيها فى قمة قوته العسكرية وكان عدوه فى منتهى الضعف والاستسلام ، لنجح فى ذلك ولإسترد هذا الثغر الهام من يد النصارى. لكنه للأسف فقد قنع المنصور بالمظاهرات العسكرية الجوفاء ، التى استطاع عدوه أن يصبر عليها وأن يستوعبها سريعاً ويمتصها ثم يعاود عدوانه من جديد .

وبعد أن انقضى فصل شتاء ذلك العام ، عاود المنصور غزواته فى أراضى قشتالة ، فخرج إليها يوم ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٥٩٣ هـ (١٤ أبريل ١١٩٦ م)، واتجه إلى قرطبة، ثم غادرها مخترقاً جبل الشارات (سييرامورينا)، متوجهاً إلى طلبيرة ، ومنها سار إلى مكاده ، ثم انعطف جنوباً نحو طليطلة وقام بمحاصرتها ، ثم اتجه إلى مجريط (مدريد) وحاصرها لعدة أيام . ودافع القشتاليون عن مجريط دفاعاً شديداً فغادرها المنصور إلى وادى الحجارة ، ثم عاد بعد ذلك إلى قرطبة فى أواخر رمضان ٥٩٣ هـ (١١٩٧ م) ، بعد انفاقه وقضائه أربعة أشهر فى غزوته الثانية هذه لأرض قشتالة[2] . وعاد المنصور من قرطبة إلى أشبيلية ، فأقام بها أربعين يوماً ، وقبل مغادرته لها وفدت عليه رسل

(١) (فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس)، ابن الأثير : الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٣٨ .
(٢) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ٢٤٥ .

ملك قشتالة فى طلب الهدنة والسلم فأجابهم المنصور بالموافقة مقابل شروط اشترطها عليهم .

وبعد ذلك غادر المنصور أشبيلية فى أواسط جمادى الأولى سنة ٥٩٤ هـ (أواخر مارس ١١٩٨ م) متوجهاً إلى مراكش ، عن طريق فاس ، فدخلها فى شهر شعبان من نفس العام . ولقد ألم المرض بالخليفة المنصور ، حتى أدركته الوفاة ، ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ يناير ١١٩٩ م)[١] . وبوفاة المنصور يختم عهد من ألمع عهود الدولة الموحدية .

ولقد خلف المنصور يعقوب ولده أبو محمد عبد الله ، الملقب بالناصر لدين الله ، يوم وفاة أبيه ، وكان عليه مواصلة جهاد أبيه ضد بنى غانية فى افريقية وضد الصليبيين فى الأندلس والدفاع عن ديار الإسلام فى المغرب والأندلس من خطر عدوانهم ، بعد أن أخذت له البيعة فى سائر أقطارهما ، وكان الناصر محمد ، حين تولى الحكم فى السابعة عشر من عمره .

ولقد شغل الخليفة الناصر محمد ، منذ ارتقائه العرش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩ م) ، بما وقع من أحداث فى أفريقية على يد بنى غانية ، ومحاولتهم الاستيلاء على قواعدها وثغورها ، والعمل على تحريرها واسترداد سيادة الموحدين عليها ، عن سير الأحداث فى الأندلس . ولقد استغرقت أحداث افريقية اثنتى عشرة عاماً كاملة ، صرفته تماماً عن شئون الأندلس الجوهرية . لكن تطورات الأحداث فى الأندلس ، مع نهاية القرن السادس الهجرى وبداية السابع ، ألزمت الخليفة الموحدى على ضرورة النظر فى أمر الأندلس ومجابهة ما يقع بها من أحداث وتطورات .

---

(١) توفى المنصور ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ يناير ١١٩٩ م) ، بقصره بالصالحة ، ودفن بالقصر مؤقتاً ، ثم نقل رفاته إلى تينملل ودفن بها (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ٤٢١) .

فلقد قام ملك قشتالة وملك ليون ، بنقض الهدنة مع الخليفة الموحدى ، لما رأوا إنشغاله بمشاكل افريقية واهماله أمر الأندلس منذ موقعة الأرك ، وأدرك كلٌ من الملكين أن الفرصة قد غدت سانحة لهما ، لاستئناف غزوهما للأراضى الإسلامية مرة أخرى .

وكان ملك قشتالة يتوق إلى الانتقام لهزيمة يوم الأرك من الموحدين ، ويرغب فى محو وصمة العار التى ألحقها المسلمون بجبينه فى هذه المعركة . وفى أوائـل سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، خرج الفونسو الثامن من قشتالة بقواته، وسار صوب جيَّان وبياسة ، وعاث فيهما فساداً ، واستولى هناك على عدة حصون لهما ، ووصل الفونسو فى عبثه إلى أراض ولاية مرسية ، وعاد إلى طليطلة محملاً بالغنائم .

وفى نفس الوقت قام بيدرو الثانى ، ملك أرجون ، ومعه أعداد من فرسان المعبد (الداوية) وسار جنوباً نحو أراضى ولاية بلنسية الشمالية ، واستولى هنالك على عدة حصون من حصون تلك المنطقة الإسلامية[1] . وقد أثارت هذه الهجمات الخليفة الناصر فخرج على رأس جيشه ، لجهاد النصارى، مثلما فعل والده من قبل ، يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٠٧ هـ (فبراير ١٢١١م) ، عابراً العدوة إلى أشبيلية ، التى وصلها منتصف ذى الحجة (آخر مايو) . ولما أكمل إعداد جيشه هناك ، سار إلى قرطبة ، ومنها إلى جيان وبياسة ، ثم قصد قلعة «شلبطرة»[2] ، جنوبى غربى قلعة رباح ، حيث تجمع هنالك المسيحيون .

وفى ذلك الوقت كان الفونسو الثامن ، ملك قشتالة ، على اتصال ومراسلة مع البابا انوسنت الثالث ، الذى اعتلى كرسى البابوية سنة ٥٩٥ هـ

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٣٤ .

(٢) هى بالأسبانية : سالفاتليرا (Salvat lerra) ومعناها بالعربية : الأرض البيضاء .

(١١٩٨ م) ، وكان هذا البابا يضطرم بروح صليبية عميقة . وقد طلب ملك قشتالة من البابا دعوة أمم أوربا النصرانية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين فى أسبانيا ، مماثلة للحملة التى دبر أمرها إلى المشرق الإسلامى، وعرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الثالثة . وفى نفس الوقت بعث رودريك مطران طليطلة ، إلى البابا يستثير حماسته لدعوة النصارى للعبور إلى الأندلس ومؤازرة الجيوش النصرانية فى الأندلس فى قتالها ضد المسلمين .

ولقد نزل البابا عند رغبة ملك قشتالة ومطران طليطلة ، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه سيمنح الغفران التام من الذنوب لكل من يلبى دعوته .

ولقد قام الخليفة الناصر وجنوده بتطويق قلعة شلبطرة ، بعد أن استولوا على أرباضها وأضرموا فيها النار ، وقد استمر حصار القلعة مدة إحدى وخمسين يوماً ، حتى استسلمت للموحدين ، ثم عاد الناصر إلى أشبيلية .

وفى الوقت الذى عاد فيه الناصر إلى أشبيلية ، كان ملك قشتالة يستكمل استعداده لقتال الموحدين . وقد أراد الفونسو ، فى هذه المرة ، أن يصبغ حربه مع المسلمين بالصبغة الصليبية ، بمكاتبته للبابا واستجابة البابا له بمكاتبته إلى اساقفة جنوب فرنسا بدعوة نصارى بلادهم وغيرها إلى التطوع فى هذه الحرب الصليبية ضد المسلمين . ولقد قام رودريك التطيلى بدور فعال فى أمر جمع المتطوعين للقتال . وقد جاءت وفود هؤلاء المتطوعين تباعاً إلى مركز التجمع فى طليطلة .

وقد تجمع الصليبيون من الخارج جميعاً فى قشتالة وكونوا جيشاً بلغ تعداده حوالى السبعين ألف مقاتل ، وتلقى الفونسو ، ملك قشتالة ، مقادير هائلة من المال والمؤن والسلاح جمعت له من سائر أنحاء فرنسا وإيطاليا . وما أن جاء شهر يونيو (١٢١٢ م) حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة إلى قشتالة مائة ألف

راجل وعشرة آلاف فارس . ودعا البابا أنوسنت الثالث فى الفاتيكان بصوم المسيحيين ثلاثة أيام التماساً لنصر جيوش النصرانية على المسلمين بعد أن ألقى فى جمع حاشد من المصلين النصارى بالتضرع إلى (المسيح) لنصرة الصليبيين[1]. وهكذا صبغ الفونسو حربه مع الموحدين بالصبغة الصليبية ، «ثم استغاث الأذفونش (الفونسو) بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم فاستجابوا له وانثالوا عليه من كل مكان»[2] ، «وجاءه عُباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق»[3] . على أن الموحدين كانوا يعلمون أن الفونسو قد لجأ ليقود إلى ميدان الحرب مع المسلمين أكبر قوة وحشد مسيحى يمكن حشده ، وأن يسبغ صفة القداسة على هذه الحرب ، مثلما كان المسلمون يسبغون صفة الجهاد على المعارك التى يخوضونها ضد الصليبيين وضد أعداء الإسلام .

وعلى الجانب الآخر ، فقد إستنفر الناصر محمد ، عقب عودته إلى أشبيلية ، المسلمين فى سائر الجهات وحثهم على الجهاد فى سبيل الله فى أكبر معركة بينه وبين النصارى . وفى شهر المحرم سنة ٦٠٩ هـ (٢٠ يونيو ١٢١٢ م) ، خرجت الجيوش الصليبية من طليطلة متجهة إلى الجنوب وبلغ عددها مائة ألف مقاتل ، غير ثلاثين ألف فارس ، وخرج الناصر فى جيوشه من أشبيلية متجهاً صوب جيان لقتال النصارى . وقد نجح الصليبيون فى الاستيلاء على قلعة رباح . وعلى أثر افتتاح هذه القلعة وقع شقاق فى المعسكر الصليبى فانسحب عن جيشه حوالى خمسون ألف مقاتل عادوا إلى بلادهم التى قدموا منها .

وفى ذلك الحين وصل الناصر بجيشه إلى جيان ، ثم تحرك نحو الشمال لملاقاة العدو ، وكان عدد جيشه حوالى مائتى ألف مقاتل . ولقد نجح

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، ١٩٥٨ ، ص ٣٦٠ .
(٢) الحميرى : الروض المعطار : صفة جزيرة الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٣٧ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٤١ .

الصليبيون فى احتلال حصن العقاب ، وهى قلعة كستروفيرال الإسلامية الواقعة فوق قمة أحد الجبال شمال غربى بلدة سانت إيلينا[١] .

ودارت «معركة العقاب» بين المسيحيين والمسلمين ، فى الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٦ يوليو ١٢١٢ م) ، واقتتل فيها الفريقان اقتتالاً هائلاً ، وظهرت شجاعة كلا الطرفين واستبساله فى القتال ، وانتهت بهزيمة الموحدين هزيمة شديدة ، وقتل عدد كبير من قواتهم وهروب الناصر محمد من المعركة بعد الهزيمة ، وقد استولى النصارى على مقادير وافرة من الغنائم من العتاد والسلاح والخيام والمؤن[٢] .

ولو حاولنا تلمس الأسباب المادية والمعنوية التى أدت بالجيش الموحدى إلى تلك الكارثة المروعة والهزيمة القاسية ، نجد إلى جانب الأسباب التقليدية المعروفة ، من اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد ، وعدم اتساق تنظيمها ، وتنافر العناصر المكونة لها ، وعدم توحيد قيادتها بأيدى قادة بارعين، واختلال نظام التموين بها نظراً لابتعادها عن قواعدها بمسافات شاسعة . إلى جانب ذلك توجد عدة أسباب أدبية عاونت على وقوع الكارثة منها تغير قلوب الجند الموحدين لتأخر أعطياتهم وخروجهم إلى الغزو وهم كارهون وقد خبت روحهم المعنوية ، كذلك فإن ما أبداه الناصر من العجب والاعتداد بكثرة جموع جيشه وتقليله من شأن العدو ونسيانه حقيقة أن النصر من عند الله وأن القوة بيد الله أوقع بالمسلمين هذا البلاء المبين .

ولقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة عن أفدح النتائج والآثار التى يمكن تصورها ، سواء بالنسبة للمغرب والأندلس عمومًا والدولة الموحدية على وجه

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، حـ ٥ ، ص ٣٠٢ .

(٢) وردت تفاصيل كثيرة عن وقائع هذه المعركة فى كتب المعجب (ص ١٨٣-١٨٥) ، والبيان المغرب (ص ٢٤٠-٢٤٢) ، وروض القرطاس (ص ١٥٦-١٦٠) ، والروض المعطار (ص ١٣٧-١٣٨) ، وابن خلدون : العبر (حـ ٦ ، ص ٢٤٩) ، ونفح الطيب (حـ ٢ ، ص ٥٢٨) .

الخصوص . فأما بالنسبة للأندلس ، فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً ، على سمعة الموحدين العسكرية وقدرتهم القتالية فى شبه الجزيرة ، وتحطم ذلك الدرع الذى كانت تحتمى وراءه الأندلس من قبل الجيوش الموحدية القادمة من وراء البحر . وتضعضع سلطان حكم الموحدين بالأندلس ، وأخذت تلك البلاد تنحدر إلى براثن الفوضى الطاحنة وتتمزق إلى شيع وأحزاب ، وقامت يحارب بعضها بعضاً ، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك والحروب الداخلية ، والتى تذكرنا بعهد ملوك الطوائف[1] . وقد ضمن ذلك النصر الباهر لأسبانيا المسيحية تفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد المسيحى المنظم الذى سينتزع القواعد الأندلسية الإسلامية قاعدة فقاعدة والذى سوف يقتطع الأندلس الكبرى إلى أشلاء وسوف يلتهمها قطعة وراء أخرى بصورة متتابعة وفى فترات قصيرة محدودة، حتى ينتهى ذلك التواجد الإسلامى العظيم ، الذى ظل ماثلاً فى أسبانيا مدة ثمان قرون ، والذى انجز خلال تلك القرون حضارة خالدة لا يزال يتغنى بها الزمان ويأسف لضياعها الأسبان .

وهكذا نرى أن الانتصارات الباهرة التى حققها المسلمون فى المشرق والمغرب خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين على العدوان الصليبى تتحول مع مطلع القرن السابع إلى هزائم ، بسبب حالة التراخى التى أصابت هذا العالم فى ذلك الوقت ، وحالة الاغترار بالنصر والاعتداد بالقوة المادية وافتقاد القوة الروحية والباعث الدينى . فى الوقت الذى استيقظ فيه الغرب المسيحى ونهض ليثأر لهزائمه من المسلمين ، منتهزاً فرصة انشغالهم بنشوة النصر وفقدانهم الهمة والحماس فحدث ما حدث لهم . وكان على المسلمين هنا وهناك أن يتحملوا الضربة وأن يستوعبوا الدرس ويفيقوا لأنفسهم ، ويعاودوا الجهاد ضد عدوهم ويدافعوا من جديد عن ديارهم واسترداد ما سبق أن أحرزوه من نصر وعز وكرامة وعلو ورفعة ، وإن تنصروا الله ينصركم وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، صدق الله العظيم .

(١) عنان : نفس المرجع السابق ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

خاتمة

وهكذا فإنا نرى أن القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، قد شهد بداية العدوان الصليبى على مشرق العالم الإسلامى ومغربه ، وأنّ القرن السادس شهد دحر هذا العدوان على يد الزنكيين والسلاجقة والأيوبيين فى المشرق وعلى يد المرابطين والموحدين فى المغرب ، وانتكست بذلك الراية الصليبية من على أرض بلاد المسلمين ورفرفت راية الإسلام خفاقة هناك . ولكن الصليبيين لم يرتضوا بهذه الخاتمة المزرية لهم ، ولم ينهوا عدوانهم على المسلمين فى المشرق والمغرب ، بل نجدهم فى مطلع القرن السابع يستهدفون مصر ، قلعة النضال الإسلامى ، ويحولون طريق حملاتهم إليها مستهدفين ضربها وإسقاطها فى أيديهم ، وبالتالى سقوط بقية القلاع الإسلامية فى المشرق والمغرب .

فما أن انقضى أمد الهدنة المعقودة بين الصليبيين والملك العادل سيف الدين الأيوبى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ، وأرسل العادل يطلب تجديدها من «حنابرين» ، ملك بيت المقدس ، لمدة خمس سنوات أخرى ، إلا أن برين ، رغم موافقته على المد ، أرسل إلى بابا روما يطلب منه إعداد حملة صليبية جديدة وإرسالها إلى الشام عند انتهاء أجل الهدنة ، إلا أن البابا إنوسنت الثالث أشار فى مجمع «اللاتران» الصليبى الذى عقده سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) بضرورة مهاجمة مصر ، بعد أن أوصى بذلك ريتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا ، قبل عودته إلى بلاده ، على اعتبار أن مصر هى قلعة النضال الإسلامى .

ولقد اتخذ الصليبيون فى هذا المجمع قرارهم بأن تكون مدينة دمياط هدف هجومهم فى حملتهم المقبلة التى عُرفت بالحملة الصليبية الخامسة ، والتى قادها حنا برين بنفسه ولقد فشلت هذه الحملة مثل فشل سابقتها من الحملات، وقاد النضال ضدهم الملك الكامل الأيوبى ، ابن الملك العادل .

كذلك قام الصليبيون بحملة جديدة سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، دعت لها البابا وية كالعادة ، وقادها ملك فرنسا القديس «لويس التاسع» ، ولقت هذه الحملة هزيمة ساحقة على يد المصريين فى موقعتى فارسكور والمنصورة ، ووقع الجيش الصليبى جميعه ، وعلى رأسه الملك لويس أسرى فى يد المسلمين ، وأفتدى لويس نفسه بمبلغ كبير من المال وبشروط مهينة له وللصليبيين عموماً .

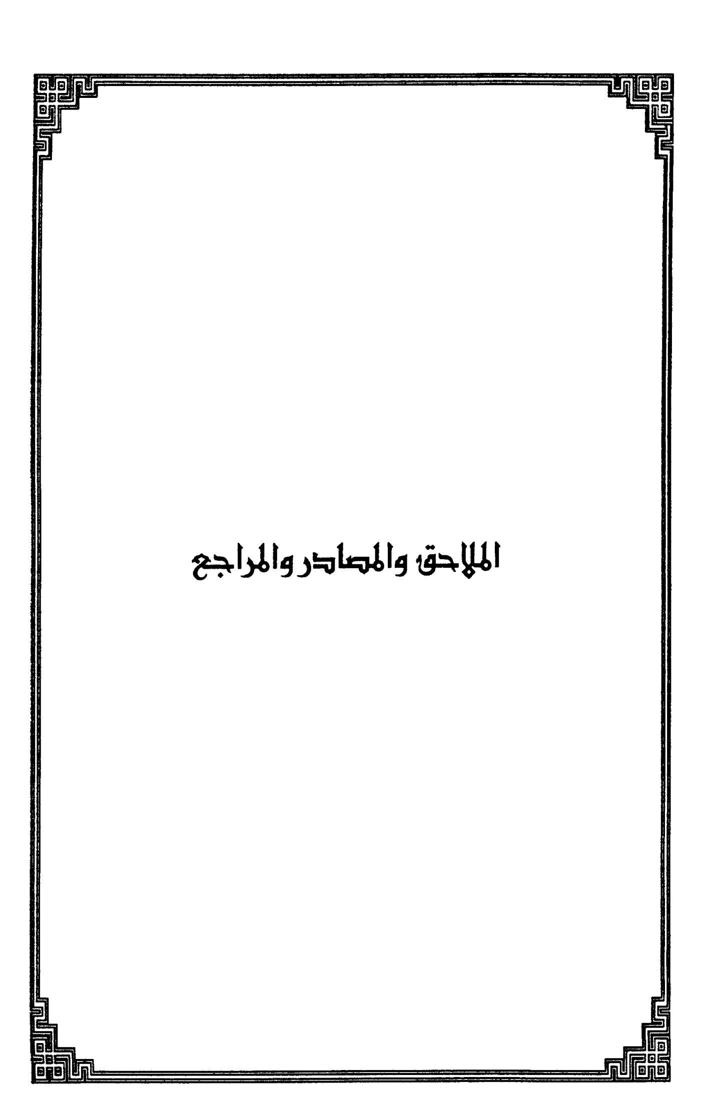
ولقد ورث مماليك الأتراك ، دولة الأيوبيين ، فى النضال ضد الصليبيين وقاموا بتصفية وجودهم من الساحل الشامى ، فى عهد الظاهر بيبرس ، والسلطان قلاوون ، واقتلعت آخر قلاعهم من بلاد الشام حين استولى السلطان خليل بن قلاوون على ميناء عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م ، ثم استولى بعد سقوطها ، على موانى صور وحيفا وصيدا ، وبذلك قطع دابرهم من أرض المسلمين ببلاد الشام ، ودالت دولتهم هناك وأزيل منها دنس احتلالهم .

كذلك ورث المماليك الأتراك القضاء على الخطر المغولى ودحره من فوق أراضى المسلمين بعد الهزيمة الكبرى التى حلت بهم فى موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، والهزيمة التالية لهم فى معركة «مرج الصفر» سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

وفى الوقت الذى أجتث فيه الخطر الصليبى عن المشرق الإسلامى مع مطلع القرن السابع الهجرى ، نرى ، ومع الأسف ، هذا الخطر يستشرى فى بلاد الأندلس ، وينجح الصليبيون ، بعد سقوط دولة الموحدين فى المغرب والأندلس ، وهزيمة الموحدين فى موقعة «العقاب» ، انفراط عقد الإسلام فى تلك البلاد ، ونهاية دولته على يد القشتاليين والبرتغاليين . ولم يستطع المشرق الإسلامى نجدة إخوانه فى المغرب ، بسبب انشغال حكام المشرق بمشاكلهم الداخلية ، وبسبب فرقة العالم الإسلامى آنذاك ، وانشغال مصر المملوكية ،

وهى القوة الإسلامية الوحيدة القادرة على التصدى والعون آنذاك ، بمقاومة الحرب الاقتصادية التى شنها الصليبيون عليها بتحويل طريق التجارة العالمية من سيطرة مصر إلى سيطرة البرتغاليين ، بعد كشفهم طريق رأس الرجاء الصالح ، وحرمان مصر من عائد الثروة التى كانت تجنيه من وراء هذه التجارة وفى تشكل المصدر الرئيسى لقوتها الاقتصادية وبالتالى لقوتها العسكرية . وفى خلال انشغال مصر بالحرب مع البرتغاليين فى المحيط الهندى ، داهمها خطر الأتراك العثمانيين ، الذين احتلوا المشرق الإسلامى وتركوا الأندلس صريعة فى يد الأسبان المسيحيين يعانى المسلمون فيها وحشية محاكم التفتيش وأبشع أنواع التنكيل الذى عرفته الأنسانية طوال التاريخ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .





الملاحق والمصادر والمراجع

ملحق رقم (١)

خلفاء العباسيين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين

٢٢ - المستكفى (بن المكتفى بن المعتضد)	٣٣٣-٣٣٤هـ / ٩٤٤ - ٩٤٦م
٢٣- المطيع (بن المقتدر)	٣٣٤-٣٦٣هـ / ٩٤٦ - ٩٧٤م
٢٤- الطائع (بن المطيع)	٣٦٣-٣٨١هـ / ٩٧٤ - ٩٩١م
٢٥- القادر (بن المقتدر)	٣٨١-٤٢٢هـ / ٩٩١ - ١٠٣١م
٢٦- القائم (بن القادر)	٤٢٢-٤٦٧هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥م
٢٧- المقتدى (بن القائم)	٤٦٧-٤٨٧هـ / ١٠٧٥ - ١٠٩٤م
٢٨- المستظهر (بن المقتدى)	٤٨٧-٥١٢هـ / ١٠٩٤- ١١١٨م
٢٩- المسترشد (بن المستظهر)	٥١٢-٥٢٩هـ / ١١١٨- ١١٣٥م
٣٠- الراشد (بن المسترشد)	٥٢٩-٥٣٠هـ / ١١٣٥- ١١٣٦م
٣١- المقتفى (بن المستظهر)	٥٣٠-٥٥٥هـ / ١١٣٦- ١١٦٠م
٣٢- المستنجد (بن المستظهر)	٥٥٥-٥٦٦هـ / ١١٦٠- ١١٧٠م
٣٣- المستضىء (بن المستنجد)	٥٦٦-٥٧٥هـ / ١١٧٠- ١١٨٠م
٣٤- الناصر (بن المستضىء)	٥٧٥-٦٢٢هـ / ١١٨٠- ١٢٢٥م
٣٥- الظاهر (بن الناصر)	٦٢٢-٦٢٣هـ / ١٢٢٥- ١٢٢٦م
٣٦- المستنصر (بن الظاهر)	٦٢٣-٦٤٠هـ / ١٢٢٦- ١٢٤٢م
٣٧- المستعصم (بن المستنصر)	٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢- ١٢٥٨م

ملحق رقم (٢)

خلفاء الفاطميين فى مصر والشام

(من القرنين الخامس والسادس الهجريين)

(١) عبيد الله المهدى	٢٩٧-٣٢٢هـ / ٩٠٩-٩٣٤م
(٢) القائم	٣٢٢-٣٣٤هـ / ٩٣٤-٩٤٥م
(٣) المنصور	٣٣٤-٣٤١هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢م
(٤) المعز لدين الله	٣٤١-٣٦٥هـ / ٩٥٢-٩٧٥م
(٥) العزيز بالله	٣٦٥-٣٨٦هـ / ٩٧٥-٩٩٦م
(٦) الحاكم بأمر الله	٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م
(٧) الظاهر لاعزاز دين الله	٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م
(٨) المستنصر بالله	٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م
(٩) المستعلى بالله	٤٨٧-٤٩٥هـ / ١٠٩٤-١١٠١م
(١٠) الآمر بأحكام الله	٤٩٥-٥٢٤هـ / ١١٠١-١١٣٠م
(١١) الحافظ لدين الله	٥٢٤-٥٤٤هـ / ١١٣٠-١١٤٩م
(١٢) الظافر بالله	٥٤٤ - ٥٤٩هـ / ١١٤٩-١١٥٤م
(١٣) الفائز بالله	٥٤٩-٥٥٥هـ / ١١٥٤ - ١١٦٠م
(١٤) العاضد بالله	٥٥٥-٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧١م

حكم سلاطين الأيوبيين لمصر والشام
(في القرن السادس الهجري)

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب	٥٦٧-٥٨٩هـ / ١١٧١-١١٩٢م
(٢) العزيز عماد الدين عثمان	٥٨٩-٥٩٥هـ / ١١٩٢-١١٩٨م
(٣) المنصور ناصر الدين محمد بن عثمان	٥٩٥-٥٩٦هـ / ١١٩٨ - ١١٩٩م
(٤) العادل سيف الدين أبو بكر	٥٩٦-٦١٥هـ / ١١٩٩-١٢١٨م
(٥) الملك الكامل محمود بن العادل	٦١٥-٦٣٥هـ / ١٢١٨-١٢٣٧م
(٦) العادل (الثانى) بن الكامل	٦٣٥-٦٣٦هـ / ١٢٣٠-١٢٣٨م
(٧) الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٦-٦٤٧هـ / ١٢٣٨-١٢٤٩م
(٨) شجرة الدر	٦٤٧-٦٤٨هـ / ١٢٤٩-١٢٥٠م
(٩) توران شاه	٦٤٨ - ١٢٥٠م

ملحق رقم (٣)

الدولة الحاكمة فى بلاد المغرب

(١) دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ١٧٢ - ٣٧٥هـ / ٧٨٨ - ٩٨٥م

(٢) دولة الأغالبة فى تونس (افريقية) ١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٨م

(٣) الدولة الرستمية فى تاهرت ١٦٠ - ٢٩٧ هـ / ٧٧٦ - ٩٠٩م

(٤) دولة بنى واسول فى سجلماسة ١٤٠ - ٢٩٧ هـ / ٧٥٧ - ٩٠٩م

(٥) الدولة الفاطمية فى الشمال الافريقى ٢٩٦ - ٣٥٨ هـ / ٩٠٨ - ٩٦٨م

(٦) دولة المرابطين ٤٤٨ - ٥٤٣هـ / ١٠٥٦ - ١١٤٩

(٧) دولة الموحدين ٥٢٤ - ٦٦٨هـ / ١١٣٠ - ١٢٦٩م

الدول الحاكمة فى الأندلس

(١) عصر الولاة ٩١ - ١٣٨هـ / ٧١١ - ٧٥٦م

(٢) عصر الإمارة الأموية ١٣٨ - ٣١٦ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩م

(٣) عصر الخلافة الأموية ٣١٦ - ٤٢٢هـ / ٩٢٩ - ١٠٣١م

(٤) عصر ملوك الطوائف (الأول) ٤٢٢ - ٤٧٩هـ / ١٠٣١ - ١٠٨٦م

(٥) عصر السيطرة المغربية (المرابطون والموحدون) ٤٧٩ - ٦١٢هـ / ١٠٨٦ - ١٢١٤م

(٦) عصر ملوك الطوائف (الثانى) ٦١٢ - ٦٣١هـ / ١٢١٤ - ١٢٣٣م

(٧) مملكة غرناطة (دولة بنى الأحمر) ٦٣١ - ٨٩٧هـ / ١٢٣٣ - ١٤٩٢م

ثبت المصادر والمراجع

أ - المصادر:

- إبن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبو بكر القضاعى) المتوفى سنة ٦٥٨هـ . ١٢٦٠م : «الحلة السيراء» ، طبعة دوزى ، ليدن ١٨٥١ .
- ابن أبى زرع الفاسى (أبو العباس أحمد) المتوفى بالمغرب فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى : «الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» ، نشر كارل تورنبرج ، أبسالة ١٨٤٣ .
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد) المتوفى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م :

«التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية» ، تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ .

«الكامل فى التاريخ» ، ١٣ جزء ، طبعة بيروت ١٩٩٥ .

- أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة المظفر الشيزرى) ، المتوفى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م :

«الاعتبار» ، طبعة برنستون ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٣٠ .

- ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفى) ، المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م .

«بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٩٨٢ .

- ابن أيبك الدوادار (أبو بكر عبد الله)، المتوفى سنة ٧٣٦٥هـ / ١٣٣٥م :

«كنز الدرر وجامع الغرر» ، الجزء السابع ، تحقيق ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

● ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف جمال الدين) المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م :

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» ، ١٣ جزء ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٢ .

● ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الكتامى) المتوفى سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م :

«تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ، القاهرة ١٩٦٨ .

● الحميرى (ابن عبد المنعم) توفى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى :

«الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ، نشر ليڤى بروڤنسال ، القاهرة، ١٩٣٧ .

● ابن الحنبلى (إبراهيم رضى الدين) ت ٩٧١هـ :

«شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب» ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٣١ .

● ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله) ت ٣٠٠ هـ :

«المسالك والممالك» نشر دى خويه ، ليدن ١٨٨٩ .

● ابن الخطيب (لسان الدين) ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م :

«اعمال الأعلام» ، نشر بيروت ١٩٥٦ .

● ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المتوفى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م :

«العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر»، ٧ أجزاء ، طبعة بولاق ١٢٨٤هـ .

• ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد) المتوفى سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م :

«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ، ٨ أجزاء ، طبعة بولاق ١٢٨٣هـ .

• ساويرس بن المقفع (أسقف الأشمونين) توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى:

«سير الآباء البطاركة» ، المعروف «بسير البيعة المقدسة» ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٦٤٣٤ح ، مصورة عن النسخة الأصلية المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .

• سبط ابن الجوزى (يوسف بن قيزؤغلى) المتوفى سنة ٦٥٤هـ :

«مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٢٧٦ح .

• السلاوى (شهاب الدين أبو العباس أحمد الناصرى) توفى فى القرن التاسع الهجرى :

«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٠٦هـ .

• السيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) المتوفى سنة ٩١١هـ /١٥٠٥م :

«تاريخ الخلفاء» ، طبعة بيروت ١٩٨٦ .

«حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة» ، جزءان ، القاهرة ١٩٩٨ .

• أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن) المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م :

«الروضتين فى أخبار الدولتين» ، القاهرة ١٩٥٦ .

- ابن شداد (القاضى بهاء الدين يوسف) المتوفى سنة ٦٣٢هـ :

«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ، تحقيق محمد محمود صبيح ، القاهرة ١٣٤٦هـ .

- ابن طباطبا (ابن الطقطقى) محمد بن على ، المتوفى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى :

«الفخرى فى الآداب السلطانية» ، طبعة بيروت (د.ت) .

- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧ هـ :

«فتوح مصر» ، نشر هنرى ماسيه ، ليدن ١٩٢٠ .

- ابن عبد الواحد المراكشى، توفى النصف الأول من القرن السابع الهجرى:

«المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» ، نشر دوزى ، القاهرة ١٣٣٢ هـ .

- ابن العديم الحلبى (كمال الدين عمر أحمد العقيلى) المتوفى سنة ٦٦٠هـ / ١٢١٦م .

«زبدة الحلب فى تاريخ حلب» ، ٣ أجزاء ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١ .

- ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد) توفى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى :

«البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب» ، نشر ليڤى بروڤنسال ، القاهرة ١٩٣٠ .

- العليمى (أبو اليمن عبد الرحمن) المتوفى سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢م

«الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .

- عماد الدين الكاتب (محمد الأصفهانى) ، المتوفى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م
«الفتح القسى فى الفتح القدسى» ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م :
«المختصر فى أخبار البشر» ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .

- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ت ٧٤٩ هـ :
«مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» ، جـ٢ ، ق ٣ ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، رقم ٥٥٩ معارف عامة .

- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة التميمى)، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م :
«ذيل تاريخ دمشق» ، بيروت ١٩٠٨ .

- القلقشندى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م :
«صبح الأعشى فى صناعة الانشا» ، جـ٣ ، طبعة القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ .

- المسبحى (عز الملك محمد بن عبيد الله) المتوفى سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩م:
«أخبار مصر» ، الجزء ٤٠ ، تحقيق أيمن فؤاد ، القاهرة ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار ، ١٩٧٨ .

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م :
«إغاثة الأمة بكشف الغمة» ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ .
«السلوك لمعرفة دول الملوك» ، الجزء الأول ، القسم الأول ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، جزءان، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ .

- المقرى (أحمد الجزائرى) ، المتوفى سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١م :
«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، ٤ أجزاء، طبعة بولاق ١٨٦٢ .

- مؤلف مجهول :
«الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية» ، تطوان ١٩٦٢ .

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) المتوفى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م:
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٧ .

- ياقوت الحموى (شهاب الدين بن عبد الله) المتوفى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م:
«معجم البلدان» ، ٥ أجزاء ، طبعة بيروت ١٩٨٦ .

- أبو يوسف القاضى (يعقوب بن إبراهيم)، المتوفى سنة ١٨٢هـ /٧٩٨م :
«كتاب الخراج» ، طبعة بيروت ١٩٧٩ .

بـ المراجع العربية:

- أحمد دراج : «عيذاب» ، مقال بمجلة نهضة افريقية ، القاهرة ١٩٥٨ .
  - «الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية» ، مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس - ابريل ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٠ .

- أحمد مختار العبادى : «فى تاريخ المغرب والأندلس» ، الإسكندرية (د.ت) .

- آدم متز : «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ .

- أشباخ : «تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين» ، الترجمة العربية ١٩٥٨ .

- أيمن فؤاد السيد : «الدولة الفاطمية فى مصر» ، القاهرة ١٩٩٢ .
- ترتون: «أهل الذمة فى الإسلام»، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٧ .
- جوستاف لوبون: «حضارة العرب»، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٤ .
- حسن إبراهيم حسن: «تاريخ الإسلام» ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٥ .
- حسن حبشى : «نور الدين والصليبيون» ، بغداد ١٩٤٨ .
- حسين مؤنس : «معالم تاريخ المغرب والأندلس» ، القاهرة ١٩٨٠٠ .
- ديهل ، شارل : «البندقية جمهورية ارستقراطية» ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- رأفت عبد الحميد: «قضايا من تاريخ الحروب الصليبية»، القاهرة ١٩٩٨ .
- رونسيمان ، ستيفن : «تاريخ الحروب الصليبية» ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧ .
- زامباور : «معجم الأنساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى» ، تعريب : زكى حسن وحسن أحمد محمود ، جـ١ ، القاهرة ١٩٥١ .
- سامى سعد : «أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية» ، رسالة ماجستير ، لم تنشر بعد ، القاهرة ١٩٥٨ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : «أوروبا العصور الوسطى» ، القاهرة ١٩٦٦ .
  «الحركة الصليبية» جزءان ، القاهرة ١٩٨٦ .
- صبحى الصالح: «النظم الإسلامية ، نشأتها وتطورها» ، بيروت ١٩٦٥ .
- العرينى، السيد الباز : «الاقطاع فى الشرق الأوسط والحروب الصليبية» ، القاهرة ١٩٥٧ :
  «الشرق الأوسط والحروب الصليبية» ، القاهرة ١٩٦١ .
  «مصر فى عهد الأيوبيين» ، القاهرة ١٩٦٠ .

- عطية القوصى : «تاريخ الدولة العباسية» ، القاهرة ١٩٩٥ :
  «تاريخ دولة الكنوز الإسلامية» ، القاهرة ١٩٨١ .
  «تاريخ مصر الإسلامية» ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
  «تجارة مصر فى البحر الأحمر» ، القاهرة ١٩٧٦ .
  «الحضارة الإسلامية» ، القاهرة ١٩٨٥ .
  «صلاح الدين واليهود»، مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية ، المجلد ٢٤ لسنة ١٩٧٧ .
  «اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية»، القاهرة ٢٠٠٠م .
- عمر كمال توفيق : «مقدمات العدوان الصليبى» ، الإسكندرية ١٩٦٦ .
- ليلى عبد الجواد : «تاريخ أوربا فى أواخر العصور الوسطى» ، القاهرة ١٩٩٨ .
- محمد جمال الدين سرور: «الدولة الفاطمية فى مصر»، القاهرة ١٩٦٦ .
  «سياسة الفاطميين الخارجية» ، القاهرة ١٩٦٧ .
- محمد رمزى : «القاموس الجغرافى» ، جـ٤ ، ق ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ .
- محمد عبد الله عنان : «دولة الإسلام فى الأندلس» ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٩٩٨ .
- مؤلف مجهول : «تتمة كتاب وليم الصورى» ، ترجمة أسامة زكى ، الإسكندرية ١٩٨٩ .
- الناصرى ، سيد : «الروم والمشرق الإسلامى» ، القاهرة ١٩٩٣ .
- هايد ، ف : «تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى» ، جـ٢ ، ترجمة أحمد رضا ، القاهرة ١٩٩٠ .

جـ المراجع الأجنبية :

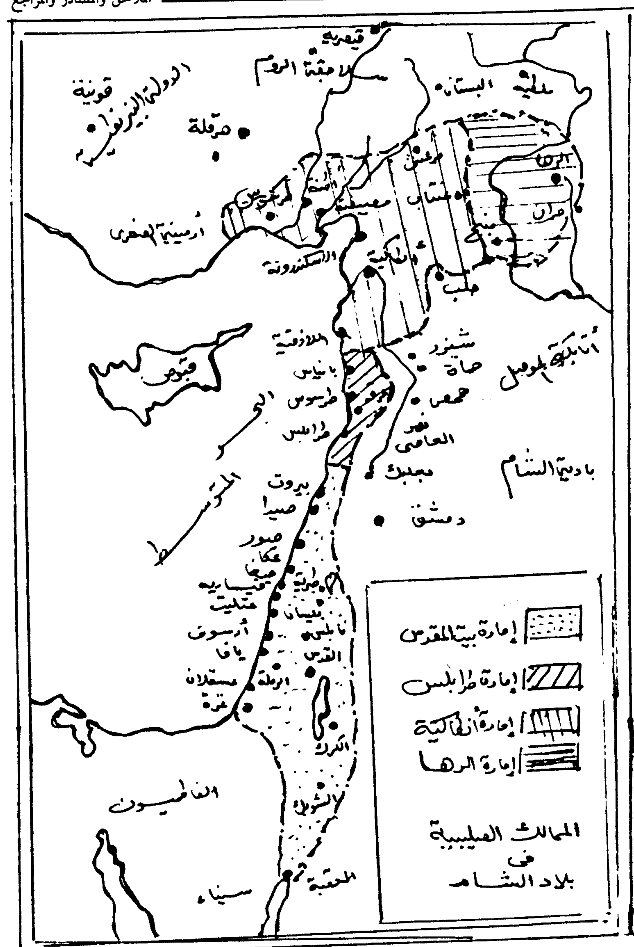
- André Julian : "Histoire de l'Afrique Nord, Paris 1952.
- Atiya, A. S : "Crusade, Commerce, and Culture, London 1962.
  "The Crusade in the Later Middle Ages", London 1938.
- Baynes, N. H : "The Byzantine Empire", New York, London 1926.
- Ben - Gurion, David : "The Jews in their Land", London 1966.
- Bernard le Trecorier : "Histoire des Croisades", t. II, Paris 1829.
- Bury, J. B : "A History of the Eastern Roman Empire", London 1912.
- Cahen, C : "La Syrie du Nord à l'épouque des Croisades", Paris 1940.
- Cambridge History of Islam, V. II, Cambridge 1970.
- De Gaury : "Rulers of Mecca", London 1951.
- Dubnov, Simon : "History of the Jews", v. IV, London 1968.
- Ehrenkreutz, Z : "Arabic Dinars struck by the Crusaders", JESHO, v. II, Part II, London 1964.

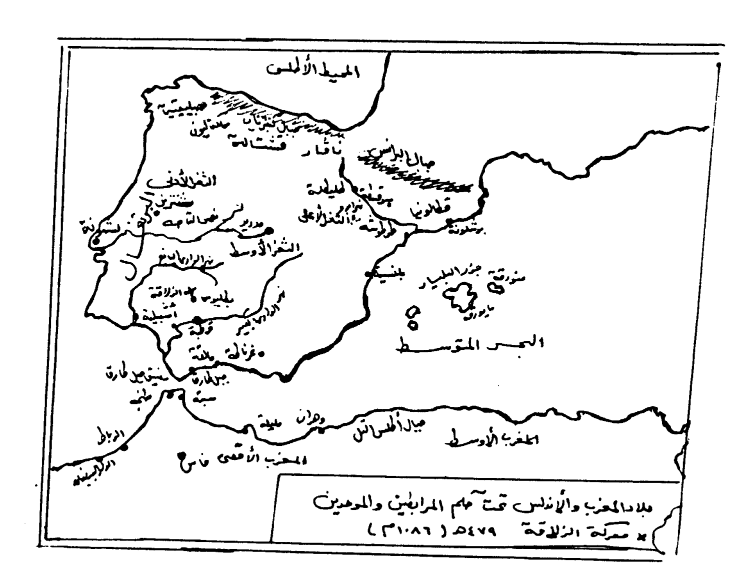
"Contributions to the knowledge of the Financial administration of Egypt in the Middle Ages", BSOAS, v. XVl, Part 3, London 1954.

- Gibbon, E : "The History of the Decline and fall of the Roman Empire", v. I, London 1870.
- Goitein, S : "Jews and Arabs, their contact through the Ages", New York 1955.
- Grousset, R. : "Histoire des croisades et du Royanme de Jerusalem"., 3 vols, Paris 1934-36.

- Hussey, J : "The Byzantine World", London 1955.
- Kammerer : "Là Mèr Rouge à travers les ages", t. I, Le Cairo 1929.
- La Monte, J. L : "The World of the Middle Ages", New York 1949.
- Lewis, A. R : "Naval Power and Trade in the Mediterranean, A. D. 500-1100", Princetion 1951.
- Newbold : "The crusaders in the Red Sea", SNR, xxv1, Part II, London 1945.
- Rushbrook : "Western Arabia and the Red Sea", Oxford 1946.
- Stanley, Lane - Pool : "Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem", Beirut 1964.
- Steven Runciman : "Byzantine Civilization" London 1960.
- Vasiliev, A : "History of the Byzantine Empire", Madison 1952.
- Wiet, G : "L'Egypte Arabe", t. IV, Paris 1937.
- William of Tyre : "A History of Deeds done beyond the Sea", 2 vols. New York 1946.

تم بحمد الله تعالى


قونية
الدولة البيزنطية
أرمينية الصغرى
الإسكندرونة
قبرص
اللاذقية
بانياس
طرطوس
طرابلس
البحر المتوسط
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
قيسارية
أرسوف
يافا
الرملة
عسقلان
غزة
الفاطميون
سيناء
العقبة
الشوبك
الكرك
القدس
نابلس
حلب
شيزر
حماة
حمص
العاصي
بعلبك
دمشق
بادية الشام
أتابكية الموصل
حران
الرها
إمارة بيت المقدس
إمارة طرابلس
إمارة أنطاكية
إمارة الرها
الممالك الصليبية
في
بلاد الشام



بلاد المغرب والأندلس تحت حكم المرابطين والموحدين
× معركة الزلاقة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)

بلاد الأندلس تحت حكم المرابطين والموحدين





موقعة الزلاقة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م

رقم الإيداع
٢٠٠٣/٥٩٦٤
الترقيم الدولي I. S. B. N.
٩٧٧- ٢٢٢- ٢٦٥- ٥